

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد علم الواقع ، لا علم الحصول .

إذن : فذكر كلمة ﴿وَلْيَعْلَمْ﴾ وكلمة ﴿لِنَنْظُرَ﴾ في القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهود ، وعلم حجة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق :

﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهي : رسل جاءوا بالبرهان والبيّنة ، وأنزل الحديد للفهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسول ، فقال : ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتي بالحديد "الذي يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذي لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعلم الله سبحانه هنا علم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خيراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفي هذا لون من الاحتياط الجميل .

وقوله : ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تنهضوا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوي وعزيز ، فهو القاتل :

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أي : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للفساد ، إذا وضع في يد من لا ضميره ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ إنما يعنى : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرَةَ منهجه بالْمُؤْمِنِينَ ، حتى ولو قُلَّتْ عِدَّتُهُمْ ، وقلَّ عَدَدُهُمْ .

إذن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ .. ﴾ (١١)

أى : نظر واقع ، لا نظر علم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِمَنْزُتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ قِلْقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥)

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسمىها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

(١) الآية : العبرة ، والآية : المعجزة أو الشئ العجيب . والجمع : آيات ، وآى . قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ آيَاتِنَا فِي الْأَنْفَاءِ .. ﴾ (٥٦) ﴿ فصلت ﴾ ، والآيات هنا : الألفه الواضحة على وحائانية الله وكمال قدرته وقبومته . [لسان العرب : مادة (آيا) .. بصرف] .

(٢) التَّلَاقُ : مصدر لقى . يقال : يلقى فلانك أى : تقاوك . ويستعمل ظرف مكان يعنى جهة اللقاء والمقابل .

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

٥٧٩٧

فى الذكاء أو الجمال أو الخلق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؟ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٢٧)

[فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. ﴾ (٢١)

[الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات من الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شئ له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؟ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلاً يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجَّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كالألماس كانهم الحق - عز وجل - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأمسعوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيهم^(١) ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩)

[الأنبياء]

(١) القى: الضلال . غرى غراً وغراًة: أسن فى الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا خَلَّ حَسْبُكُمْ وَمَا هُوَ ﴾ [النجم] وقاتلوا القوم : تهمعوا وتعاونوا على الشر . واستقوا بالامان الكاذبة : طلب غيه وأمنه . وقال تعالى : ﴿ لَا تُكْرَاهِ الْيَتِيمَ الَّذِي قَدْ قُبِّلَ الرَّحْمَةُ مِنْ قَبْلِ ﴾ [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غرى) .. بتصرف] .

وهكذا نتجلى أمامهم خيبتهم .

إذن : الآيات تُطْلَق على الآيات الكونية ، وتطلق على الآيات المعجزات ، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله ، وخلق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية ؟ لا ؛ لأن الذي خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء] وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [١٥٠] [يونس]

أى : آيات واضحة . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً ، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنة كلية الطب أو كلية الهندسة . ومقابل الرجاء شيء آخر محبوب ، لكن الإنسان يعلم استحالة ، وهو التمسُّ ، فالمحبوبات - إذن - قسمان : أمور مُتَمَنَّاة وهى نى الأمور المستحيلة ، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها ، والقسم الثانى أمور نحبها ، ومن الممكن أن تقع ، وتسمى رجاء .

﴿ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ هم مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ ، لَا يَالَهُ ، وَلَا يَبْعَثُ ؛ فقد قالوا :

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [٢٥]

[الباقية]

(١) الدهر : الزمان الطويل ، ومدة الحياة الدنيا . قال تعالى : ﴿ عَلِىَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْمُورًا ﴾ [الإنسان] . وقال ﷺ : « لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ وَمَعْنَاهُ : أَنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ ، فَالْلهُ فَاعِلُهُ وَلَيْسَ الدَّهْرُ ؛ إِذَا شِئْتَ الدَّهْرَ ، فَكَأَنَّكَ أَرَدْتَ بِهِ . اللَّهُ تَعَالَى سَبْحَانَهُ عَمَا يَقُولُونَ أَوْ يَصِفُونَ . [لسان العرب : مادة (دهر) - بتصرف] .

وقالوا:

﴿أَنذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا نَسْتَعْتُونَ .. (٨٧)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذي يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجأون بالإله الذي أنكره ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ^(١) بِفَيْعَةٍ ^(٢) يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . (٣٦)﴾ [النور]

السراب : هو أن يمشى الإنسان في خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد. وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ .. (٣٦)﴾ [النور]

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذي لم يكن في بآله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ؛ وهو ممن جاء فيهم القول :

(١) السَّرَابُ : ما يُرى في نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء في الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمّي السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أي : يجري جرياً ، أي : يتحرك حركة تتخذ الراى من بعيد ؛ فيظنه ماءً وهو ليس بماء . بل خداع عُرفى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده في صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماءً ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء .

(٢) الفَيْعَةُ : أرض واسعة مستوية لا تثبت الشجر . قال الفرّاء : الفَيْعَةُ بجمع القاع ، والقاع : ما تيسط من الأرض . قال تعالى : ﴿فَلْيَنْزِلْهَا قُلُوبًا مَّخْلُوفًا (٤٥)﴾ [طه] . [اللسان : مادة (قوع) ، بتصرف] .

﴿ وَقَالُوا اِذَا ضَلَلْنَا فِي الْاَرْضِ اَلَمْ يَخْلُقْ جَدِيدًا لِّىْ خَلَقَ جَدِيدًا بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
كَافِرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المسجدة]

رغم أن الكون الذى نراه يُحتمُّ قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شىء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً . وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخّر مع المياه التى تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتحلل بعد ذلك .

إذن : فللوردة دورة حياة . وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هى بعينها ؛ لم تزد ولم تنقص . وقد شرحنا ذلك من قبل . وكل شىء تتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً .

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بشواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه ^(١) ؛ لأن النظر فى الكون وتأمل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

(١) ضلنا فى الأرض : قال أبو مصور : الأصل فى كلام العرب أن يقال : أضللت الشىء إذا غيبت ، وأضللت البيت : دفت . فالضلال من معانيه : الضماد والمصيان ونقبض الهداية والرشاد . ومن معانيه : التغيب والظن . فكأنهم يقولون : إذا ضلنا رعيتنا ضلّت الأرض . فهل نجوا من جديد ؟ فىة عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴾ [الروم] . [السان العرب : مادة (ضلل) - بصرفه] .

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال : ﴿ وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف] ويقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مُّصَفًّوَةً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء] .

[الأنبياء]

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ^(١) نُعِيدُهُ .. (١٤) ﴾

وهؤلاء الذين لا يرجعون لفناء الله يأتى القرآن بما جاء على
ألسنتهم: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٥) ﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ ، ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن . ولنلاحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك
فلا تفهم أن القولين متساويان .

﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ مسا طلبان : الطلب الأول : أنهم يطلبون
قرآناً غير الذى نزل . والطلب الثانى : أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ،
وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى
تنوعدهم بسوء المصير ^(٢) .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب
الثانى ، ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ ولم يرد
الحق سبحانه على قولهم : ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾ .

وكان مقياس الجواب أن يقول : « ما يكون لى أن أتى بقرآن غير هذا
أو أبدله » ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ ؛ لأن الإتيان
بقرآن يتطلب تغييراً للكل . ولكن التبديل هو الأمر السهل . وقد نفى

(١) عن ابن عباس قال : قام فبنا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال : يا أيها الناس إنكم محشرون إلى الله خفاة
مرأة غمرلاً : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَظَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٤) ﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه
البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم .

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤ / ٣٢٤٥) لهذه الآية . قال : فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه :
أحدها : أنهم سألوه أن يسوئهم الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً . قاله ابن
جرير الطبرى .

الثانى : سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب ألهمهم وتلقوه بسلامهم . قاله ابن عبيد .

الثالث : أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور . قال الزجاج .

الأسهل ؛ ليسلموا أن طلب الأصعب منى بطبيعته .

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾
أى : أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ^(١) . بل
بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً .
إذن : فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق
سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ .. ﴾ (١٠١) [النحل]

وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾
و «تلقاء» من اللقاء ، فتقول : «القيت فلاناً» ، ويأتى المصدر من جنس
الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا : الجهة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ^(٢) .. ﴾ (٢٢) [القصص]

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَابِلِ (١) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٢) ثُمَّ قَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٣) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤) ﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، ولا يطمش الله به ولقطع نياط قلبه وأمانته .
(٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الحرج هو من مقاصد الشريعة ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا بَلَّغْنَاكُمْ آيَاتِهِمْ هُوَ سَخَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ .. ﴾ (٧٨) [الحج] ويقول تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. ﴾ (٢٨) [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع :

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة : كان فيما أنزل عشر رخصات معلومات فتسفن بخمس معلومات .

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً فى القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضى .

٣- وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية . انظر : الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٥٩ - ٧٧) .

(٣) مَدْيَن : اسم قرية شعيب - عليه السلام .

﴿تَلْقَاءَ مَدِينٍ﴾ أى: جهة مدين . و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجه إلى مكان معين فنحن نُوجِد فيه . ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول : لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. ﴾ (١٤١) [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال : «أخذ فلان شطر ماله» ، أى: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى: إلى جهة كذا . وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق .

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخَيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصك ، فإن كان بصرُك قوياً فأفقك يتسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق .

ويقال : «فلان ضيق الأفق» أى : أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من صَراء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئى ، وخلفك نصف الكون المرئى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة» .

(١) شَطْر الشيء : ناحيته ، وشَطْر كل شيء : نحوه وقصدّه . وقصدتُ شَطْرَهُ أى : ناحيته . «وشَطْر المسجد الحرام» : نحوه وتلقاه . قال تعالى : ﴿ وَخَبِثَ مَا كُنتُمْ قَوْلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ .. ﴾ (١٤١) [البقرة] . وشَطْر الشيء : نصفه ، والجمع : أَشْطُر ، وشَطَرَر : جعلته نصفين . وشاطره ماله : ناصفته . وفى الحديث : أن سعداً استأذن النبى ﷺ أن يصدق بماله كله ، قال : «لا» قال : فاشطر ، قال : «لا» ، قال : الثلث ، فقال : «الثلث» ، والثلث كثير . وفى الحديث : «الطهور شطر الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطهور يظهر بحاشية الظاهر . [لسان العرب : مادة «شَطَر» - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِهِ أَنَا أَتَّبِعُ
إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أى : أنه ﷺ لا يأتي بالقرآن من عند نفسه ﷻ ، بل يُوحَى إليه .

وإنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده ، ففى هذا معصية لله تعالى ،
ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ،
ولا كان خطيباً . وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن فى منتهى
البلاغة .

وقد نزل الوحي ورسول الله ﷺ فى الأربعين من عمره ولا توجد
عبقريّة يتأجل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون
النبي ﷺ قد أجّل عبقريته إلى هذه السن ؛ لأنه لم يكن بضمن أن يمتد به
العمر .

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يشع إلا
ما يُوحى إليه فيقول :

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالردّ من الحق سبحانه على الكافرين :

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ
فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

وهذا يبلغ محمد ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تعبير القرآن أو تبديله لقد عشت طوال عمري معكم ، ولم تكن لي قوة بلاعه أو قوة شعر ، أو قوة أدب . فمن له موهبة لا يكتسبها إلى أن يبلغ الأربعين ، ورأيت أنه ﷺ لم يجلس إلى معلّم ، بل عندما تهمسوه وقلتم :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١٤) [الضح]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل في القرآن قوله تعالى .

﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ﴾ وهذا لسان عربي مبين ﴿ (١٥) ﴾ [الضح]

ولم يخرج النبي ﷺ من شبه خريزة العريية ، ولم يقرأ مؤلفات أحد . فمن أين جاء القرآن إذن ؟

لقد جاء من الله سبحانه ، وعليكم أن تعقلوا ذلك ، ولا داعي للاتهام بأن القرآن من عند محمد ؛ لأنكم لم تجربوه خطيباً أو شاعراً ، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ ، بعد أن نزلت عليه الرسالة ، هو بلاغ من عند الله

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسب الكمال إلى إنسان فبنفسه ، فالعادة أن

(١) لَسَدَمِي الدِّينَ وَالْجَدَّ وَالْمُحَمَّدَ مَا لَ عِنْدَهُ ، وَسَكَدَ ، وَابْتَعَدَ وَالْإِلْحَادُ اخْتِدَالٌ وَارْتِدَاءٌ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَتَخِفُونَ عَلَيْنَا ﴾ (١٤) [معدلت] وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَرَبُّوْا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ (١٥) [الأعراف] وَالْإِلْحَادُ الظُّلْمُ وَالْجَوْرُ قَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يُؤَدِّ فِيهِ بِالْإِلْحَادِ يَظْلَمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (١٦) [الحج] وَالْإِلْحَادُ فِي الدِّعْوَى لِمِيلٍ عَنِ الْقَصْدِ وَقَوْلُهُ ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ﴾ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٧) [الضح] وَأَصْلُ الْإِلْحَادِ الْبَيْلُ وَالْعُدُولُ عَنِ الشَّيْءِ وَالْمُحَدُّ الْمُلْحَا ، لِأَنَّ اللَّاحِيَّ يَمِيلُ إِلَيْهِ [لِسَانُ الْعَرَبِ : مادة (لحدا) - جسر قف]

(٢) عَجَمُ الْعَجَمِ وَالْعَجَمُ حِلَافُ الْعَرَبِ وَالْعَرَبُ رَجُلٌ عَجَمِيٌّ وَأَعْجَمِيٌّ غَيْرُ عَرَبِيٍّ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الْأَعْمَشُ الَّذِي لَا يُفْصَحُ وَلَا يُبَيِّنُ كَلَامَهُ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا وَالْعَجَمِيُّ هُوَ الَّذِي مِنْ جَسَدِ الْعَجَمِ أَفْصَحُ لَوْ لَمْ يُفْصَحْ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ (١٨) فَتَرَاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩) [الضح]

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن يتتخلل^(١) كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلغكم أن كمال القرآن ليس من عنده ، بل هو مجرد مبلغ له . وكان يجب أن يتعقلوا تلك العضية بمقدماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأنكارهم العنان^(٢) ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً^(٣) .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ .

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

[يوسر]

ذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولا من أنفسهم^(٤) ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴾ (١٦٤)

[آل عمران]

أى . أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى : من أمة العرب ، لا من أمة العجم ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى : من قبيلتهم التي يكذب أصحابها رسولا الله ﷺ .

إذن فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يغب عنكم فترة ؛ لتقولوا

(١) يتخلل الشيء . ينسب إلى نفسه سببه الفوق منه إليه . وتخل الشعر قصيدة رداست إليه وهي من بل غيره [لسان العرب : مادة بحر] .

(٢) العنان : الحجام . السير الذي تمسك به الساية ، والجمع . أعتة والعنان . الحبل والمراد هنا . تشبه الأفكار بالعبر الذي به فقال أو عنان ؛ إذا أوحيت له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدئ . والعنان للثواب كالعمل للإنسان فبما سدد العنل ضل صاحبه ، وإذا لم يعمل الإنسان أنكره يضل . [لسان العرب : مادة جن] . بتصرف

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا تَحْتَ ثَلَاثِينَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا نُحْطُ بِهِنَّ إِلَّا لَأَنبَاءِ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ (١٥) [العنكبوت] .

(٤) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٦٤) [التوبة]

بُعْثُ بَعْثَةً ؛ لِيَتَعَلَّمَ عِلْمًا مِنْ مَكَانٍ آخَرَ ، وَلَمْ يَجْلِسْ إِلَى مَعْلَمٍ عِنْدَكُمْ وَلَا إِلَى مَعْلَمٍ خَارِجِكُمْ ، وَلَمْ يَتَلُ كِتَابًا ، فَإِذَا كَانَ لِأَمْرٍ كَذَلِكَ ، فَيَجِبُ أَنْ تَأْخُذُوا مِنْ هَذَا مَقْدُمَةً وَتَقْوِبُوا فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ لَهُ هَذِهِ الْحِكْمَةُ هِجَاةٌ ؟

أَسْمُ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَوَاهِبَ وَالْعِبْفَرِيَّاتِ لَا تَشَأُ فِي الْأَرْبَعِيَّاتِ ، وَبَكْنَ مَخَائِلَ الْعِبْفَرِيَّةِ إِمَّا تَشَأُ فِي نِهَآيَةِ الْعَقْدِ الثَّانِي وَآوَاتِلِ الْعَقْدِ الثَّالِثِ ، فَمِنْ الَّذِي أَحْرَ الْعِبْفَرِيَّةِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ الْبَلِغَ الَّذِي أَعْجَزَكُمْ ، وَأَنْتُمْ أُمَّةُ الْبِلَآغَةِ وَأُمَمُ الْفَصَاحَةِ الْمُرْتَاصُونَ ^(١) عَلَيْهِمْ مِنْ قَدِيمٍ ، وَعَجَزْتُمْ أَمَامَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟

كَانَ يَجِبُ أَنْ تَقُولُوا : لَمْ نَعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، فَإِذَا حَكَّ لَكُمْ اللَّغْزَ وَأَوْضَحَ لَكُمْ : أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عَدِيٍّ ؛ كَانَ يَجِبُ أَنْ تَصْدُقُوهُ ، لِأَنَّهُ ﷺ يَعْرِوهُ إِلَى خَالِقِهِ وَرَبِّهِ سَبْحَانَهُ وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنْكُمْ مُضْطَرِبُونَ فِي الْحُكْمِ أَنْكُمْ سَاعَةً يَقُولُ لَكُمْ : الْقُرْآنُ بِلَاغٌ عَنِ اللَّهِ ، تَكْذِبُونَهُ ، وَتَقُولُونَ لَا ، مَنْ هُوَ مِنْ عَيْنِكَ ، فَإِذَا فُتِرَ عَنْهُ الْوَحْيُ مَرَّةً قَلْنِمُ . قَلَاهُ ^(٢) رَبُّهُ .

لِمَاذَا اقْتَبَعْتُمْ بِأَنَّهُ رَبًّا يَصِلُهُ بِالْوَحْيِ وَيُهْجَرُ بِالْوَحْيِ ؟

أَنْتُمْ - إِذَنْ - أَنْكُرْتُمْ حَالَةَ الْوَصْلِ بِالْوَحْيِ ، وَاعْتَرَفْتُمْ بِالْإِلَهِ الْخَاسِ عِنْدَمَا غَدِبَ عَنْهُ الْوَحْيُ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ تَسْبَهُوْا وَتَعُوذُوا إِلَى عَقُولِكُمْ ؛ لَتَحْكُمُوا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ الْأَمْرَ فِي كَثَرٍ مِنْ آيَاتِهِ ، يَقُولُ سَبْحَانَهُ :

(١) الْمُرْتَاصُونَ الَّذِينَ لَهُمْ قُرْبَةٌ ، فَكَذَلِكَ أَسْتَهْمُ عَلَى الْفَصَاحَةِ وَالْبِلَآغَةِ
(٢) قَلَاهُ رَبُّهُ أَعْجَزْتُمْ أَمَامَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَلِلَّذَلِكَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ ﴿ مَا وَثَّقَكَ رَبُّكَ وَمَا ظَنَّنِي ﴾ [الْفَصْحَى]

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ ^(١٤) أَنَّهُمْ يَكْفُلُ ^(١٥) مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ ^(١٦) إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ^(١٧) ﴾ [التقصير]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا ^(١٨) فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. ^(١٩) ﴾ [التقصير]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْقَابِ الْمُضْطَلَّونَ ^(٢٠) ﴾ [الأنبياء]

فمن أين جاءت تلك السلاعة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقننات ؛ لتحكموا بأنه صادق في البلاغ عن الله ؛ لذلك يُهيئ الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها بقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وحين ينهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عصبك ، فهذا دليل على الثقة في أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القصبة المرادة . والله

(١) أفلاهم سبهمهم . وقيل أفلاهم التي كانوا يكتبون بها التوراة قال الزجاج الأعلام هنا القلح ومن تدح بملوا عليها علامات يرمزون بها من يكمل مريم ، على جهة التفرقة ، وإنما قيل بسبهم القلم ؛ لأنه يُقلم ، أي يبرئ وكل ما قطعت به شيئاً بعد شئ ، فقد عُلمته ، من ذلك القلم الذي يكتب به ، وإنما سُمي قلماً ؛ لأنه نُيم مرة بعد مرة ، ومن هذا قيل قُلِمَتْ أظفارِي قال تعالى ، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ يَدَيْهِ سُبْحًا يَبْحَثَ فِي فَمِ لِّكَلِمَاتِ اللَّهِ ^(٢١) ﴾ [القصص] .

لسان العرب مادة (قلم) - يتصرف [

(٢) يكمل يعوم ، ولكفل ، العادل . قال تعالى : ﴿ وَكَلَّمْنَا زَكَرِيَّا ^(٢٢) ﴾ [آل عمران] .

(٣) العرش الجبل المرعى الذي تكلم الله سبحانه به موسى عليه السلام عنده من الشجرة التي هي شجرة على شاطئ الوادي المقدس (طوى) [تفسير ابن كثير ٢/٣٩١ - يتصرف]

(٤) تأوياً مقبلاً والنوء الإقامة ، بويت بالمكان أقمت فيه قال تعالى : ﴿ وَمَا وَهُمْ لِنَارٍ رِئَاسَ مَفُوزٍ ^(٢٣) ﴾ [آل عمران] . لسان العرب : مادة (ثوا) - يتصرف [

سبحانه وتعالى مُتْرَكة عن خديعة عباده ، فمن يخضع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالعفنة ، لكن الذي يسهّ العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل .

وقول الحق سبحانه في آخر الآية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يدلنا على أن القضية التي كذبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم في استخدام المصداقات المحسنة التي يؤمنون بها ويسلمون ، لانتهزوا إلى القصيدة الإيمانية التي يقولها رسول الله ﷺ

ولو أنهم فكروا وقالوا محمد شأ بيسا ولم تعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا حلوساً إلى معلّم ، وهم يفتنّ عما فتره ليتعلّم ، وطل مدة طويّلة إلى من الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جاءته هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها : من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قل لهم إنها جاءت من عند الله ، فكان يجب أن يصدقوه

ومهمة العقل دائماً مأخوذة من اشتقاقه ، «فالعقل» ^(١) مأخوذ من «عقال» العير وعقال العير هو الحبل الذي تربط به ساقى الحمل ، حتى لا يهوى ويقوم ؛ لو قرّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون عرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك ، إلى أن نحتاجه في حركة .

إذن . فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم الملكات ؛ لأن كل ملكة لها نزوع إلى شيء ، فالتعين لها ملكة أن ترى كل شيء ، فيقول لها العقل . لا داعي أن

(١) العقل الهوى ، ضد الحزن ، وعقل يعقل فهو عاقل قال ابن الأثيري الرجل العاقل هو الجاهل لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت فرائضه ، وفيه العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردها عن هوائها . والعقل الثبوت في الأمور

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ،
فيقول لها العقل لا تسمى إلى ذلك ؛ حتى لا يضررك ^(١) .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة « الحكمة » ،
مأخوذة من « حَكَمَ » ^(٢) وهى فى « اللجام » الذى يوضع فى فم الفرس ؛
حتى لا يجمع ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى
يريد .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقم الموازين
للكائنات لنفس ؛ فخذوا المقدمات المحسنة التى تؤمنون بها وتشهدونها
وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستظفروا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

بِآيَاتِهِ إِنَّكَ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أكذب على الله ؟ إذا كنت
لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جريتموها ،
أفأكذب على الله ؟ ! إن الذى يكذب فى أول حياته من الحقول أن يكذب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّخَّ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْدَ سُبُورٍ ﴾ (٣٥) [الإسراء] .

(٢) حكمة اللجام : ما أحاط بهنكى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد . وقيل : الحكمة
حليقة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحسبها تمنعه من مخالعة رقبته [لسان العرب مادة
(حكيم)] .

وعن ابن عباس عى رسول الله ﷺ قال : ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة يدهمك ، فإذا تواضع قبل
للملك أرفع حكمته ، وإذا تكبر قبل للملك خضع حكمته ؛ أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير

(١١٩٢٣٩) وأورده البيهقى فى مجمع الروايد (٨ / ٨٢) وقال إسناده حسن

(٣) افتري : احتلق ، الفرية : الكذب ، والافتري : تفيد نبالغة فى الكذب .

فى الكِبَر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟

وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناصح التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب . وإذا كنتم أنتم تتهمونى بذلك ، فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم كذبتمونى فى أن القرآن مبعث عن الله ، وهو أنى قلت : إنه من عند نفسى لكأن من المنطق أن تكذبوا ذلك ؛ لأنه شرف يدعى . ولكن أرفعه إلى غيرى ؟ إلى من هو أعلى منى ومنكم .

وقوله الحق . ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ أى . لا أحد أظلم من افترى على الله سبحانه كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلس على من أمامه ، فهو يكذب أحد على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد يقادر على ذلك . ومن يكذب على الشر المساوين له بظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله سبحانه .

والافراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قصبة يعتقدها ، لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافراء فهو كذب متعمد .

ولذلك حينئذ قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ، قسموه إلى خبر وإشياء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ يبين لهم رسول الله ﷺ . إن قلتم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند الله فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من يكذب بآيات الله ؟

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْتُ وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ...﴾ (٢٥) [سا]

اى كل واحد سيُسأل عن عمله ، فحريمتك لن أسأل أنا عنها ، وحريمتي لا تُسأل أنت عنها . وبسبب الإحرام لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمتما ولا تُسأل عما تَجْرِمُونَ " . وشاء ذلك ليرتقى في الخذل ، واختار الأسلوب الذى يُهذب ، لا ليهيج الخصم ؛ ويعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسب توتره وعياده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فإذا كان الظلم من جهى ؛ فسوف يحاسبني الله عليه ، وإن كان من جهتك ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يحذركم من المجرم ؛ وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تعرضه في الحكم ، فلن يصل إلا إلى ما تريد ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُخَيِّبُونَ اللَّهَ
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٨)

(١١) قال جوهري الشرك الكفر وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفي الحديث «الشرك أخفى في أمتي من دس السمل» ، قل ابن الأثير يريد به الرياء في العمل بكله أشرك في عمله غير الله . وفي الحديث «من حلف بغير الله فقد أشرك» [اللسان مادة (شرك) بتصرفه]

وكلمة ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ تقتضى وجود عابد : ووجود معبود : ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة ولعبودية كنه طاعة للأمر والانصراف عن انتهى عنه

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يفرض العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه لتعاضداً

إذن : فهناك أمر ومأمور ، فإن تساوى : فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الأمر أعلى من المأمور : كالاستاذ بالسبب للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع بطبع المأمور الأمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن : لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ، فإذا اعتقدت هذا : فالإنسان يتفقد ما يأمر به الله : ليأخذ الرضاء والحب والثواب وإن لم يتفقد : فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأتيت إن فعلت أمره واجسب نهييه : نلت الثواب منه ، وإن جئت : تأخذ عقاباً ، لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنعاز الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شيء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشيء ، لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة : لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشيء ولم تنه عن شيء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهي ، وهو أمر لا يليق : لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهي .

إِذَنْ ، فَحَقَّ الْحَقُّ^(١) أَنْ يَعْبُدَ أَحَدُ الْأَصْنَامِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَصْرِ مِنْ خَالِفِهَا ، وَلَا تَنْفَعُ مِنْ عِبَادَتِهَا ، فَلَيْسَ لَهَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ

وَمَنْ أَرْقَصُوا أَنْفُسَهُمْ هَذَا الْمَوْقِفَ سِوَا أَنْ فِي قُدْرَةِ كُلِّ مِثْمٍ أَنْ يَنْفَعِ الصِّمُّ وَأَنْ يَضُرَّه ، فَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ الصِّمَّ ، وَأَنْ يَصْلَحَهُ إِذَا انْكَسَرَ ، أَوْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَكْسِرَهُ بِأَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى الْأَرْضِ . وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَكُونُ الْعَابِدُ أَقْدَرُ مِنَ الْمَعْبُودِ عَلَى الْمَصْرِ وَعَلَى النِّفْعِ ، وَهَذَا عَيْنُ التَّخَلُّفِ الْعَقْلِيِّ .

إِذَنْ . فَمِثْلُ هَذِهِ الْعِبَادَةِ لَوْنٍ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَوْ غُرِصَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ عَلَى الْعَقْلِ ؛ فَيُصَوِّفُ بِرُفْصِهَا الْعَقْلَ السَّلِيمَ

وَعِنْدَمَا تَجَادَلُهُمْ ، وَتَثْبِثَ لَهُمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَصْنَامَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، تَجِدُ مِنْ يَكَايِرِ قَائِلَاتٍ ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ يَحْتَرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ وَيَضُرُّ ، وَلَكِنْ أَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذُوا شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنْ يَكُونَ الشَّمْعُ مَنْتَمِعاً بِمَكَانِهِ وَمَحَبَّةٍ عِنْدَ مَنْ يَشْعَعُ عِنْدَهُ^(٢) ؟

ثُمَّ صَادَا يَقُولُونَ فِي أَنْ مَنْ يُقَدِّمُ لَهُ شِمَاعَةٌ هِيَ لِذِي سَهْوٍ عَنِ اتِّحَادِ الْأَصْنَامِ أَلِهَةً وَيَهْيُ عَنْ عِبَادَتِهَا ؟

وَهَلْ هُنَاكَ شِمَاعَةٌ دُونَ إِذَنْ مِنَ الشَّفُوعِ عِنْدَهُ ؟ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَبَّ الْأَمْرِ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ ؛

(١) الْحَقُّ وَصَحُّ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَالْحَقُّ هَذَا الْعَقْلُ أَوْ قُوَّةُ الْعَمَلِ وَسَمْعُهُ وَالْحَقِيقَةُ الْخَيْرُ لِأَنَّهَا تَعْقِبُ سَائِرَهَا الْحَقِّ وَالْأَحْمَقُ مَا خُودَ مِنْ سَعْيٍ فِي السُّوقِ إِذَا كَسَدَتْ ، فَكَأَنَّهُ يَصْدُقُهُ حَتَّى كَسَدَ قَالَتْ أَسْ الْأَعْرَابِيُّ الْحَقُّ أَصْلُهُ الْكَسَادُ ، وَيُقَالُ ، الْأَحْمَقُ الْكَاسِدُ الْعَقْلُ . وَالْحَقُّ أَبْصَاحُ الْمُرُورِ وَاسْتَمَقَ الرَّجُلُ : سَمِعَ مِنَ الْأَمْرِ [الْمَسْأَلَةِ سَادَةً (حَقٌّ)] .

(٢) يَمُونُ سُبْحَانَهُ ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [٢٥٥] ، [طه] ، [١٨] ، [١٩] ، [٢٠] ، [٢١] ، [٢٢] ، [٢٣] ، [٢٤] ، [٢٥] ، [٢٦] ، [٢٧] ، [٢٨] ، [٢٩] ، [٣٠] ، [٣١] ، [٣٢] ، [٣٣] ، [٣٤] ، [٣٥] ، [٣٦] ، [٣٧] ، [٣٨] ، [٣٩] ، [٤٠] ، [٤١] ، [٤٢] ، [٤٣] ، [٤٤] ، [٤٥] ، [٤٦] ، [٤٧] ، [٤٨] ، [٤٩] ، [٥٠] ، [٥١] ، [٥٢] ، [٥٣] ، [٥٤] ، [٥٥] ، [٥٦] ، [٥٧] ، [٥٨] ، [٥٩] ، [٦٠] ، [٦١] ، [٦٢] ، [٦٣] ، [٦٤] ، [٦٥] ، [٦٦] ، [٦٧] ، [٦٨] ، [٦٩] ، [٧٠] ، [٧١] ، [٧٢] ، [٧٣] ، [٧٤] ، [٧٥] ، [٧٦] ، [٧٧] ، [٧٨] ، [٧٩] ، [٨٠] ، [٨١] ، [٨٢] ، [٨٣] ، [٨٤] ، [٨٥] ، [٨٦] ، [٨٧] ، [٨٨] ، [٨٩] ، [٩٠] ، [٩١] ، [٩٢] ، [٩٣] ، [٩٤] ، [٩٥] ، [٩٦] ، [٩٧] ، [٩٨] ، [٩٩] ، [١٠٠] .

﴿قُلْ أَتَسُبُّونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١٨)

[يوس]

إذن . فمر أيس جتتم بهذه القضية : قضية شفاعة الأصنام لكم عد الله ؟ إنها قضية لا وجود لها ، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد واقتراء .

فهو سبحانه الذي خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما في الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست في علمه ، ولا وجود لها ، بل هي قضية مفتراة ، مدعاة .

وقوله الحق ها . ﴿اتَّبِعُوا اللَّهَ﴾ مثلها مثل قوله الحق

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ..﴾ (١٩)

[الحجرات]

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويعلمون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما قسد العصر طالبا يتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين بشرعون ، فكأنهم يرغبون في تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفي هذا اجترأ وجهل مقدرة وحكمة من خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق . ﴿قُلْ أَتَسُبُّونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شيء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شيء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هي قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهي ليست في علم الله ، والحق سبحانه منزه أن توجد في ملكه قصة لها مدلول يقيني ولا يعلمها ، ومنه جل وعلا عن أن يشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون إياعد من يشركه ، ونحن

يرى على سبيل المثال صاحب مال يديره في تجاره ما ، ولكن ماله لا يهضم
بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد في ملكية الكون
وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدعوون كدأ على الله ؟
إن الحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ دِي الْعَرْشِ

سَبِيلًا ۚ ﴾ (٢٦)

وهذا القول الحكيم يسه المشركين إلى أنه باعتراض حذلي أن هؤلاء
الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم من يفعلوا أي شيء ، إلا بابتغاء دى
العرش ، أى بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن بكل ملك
من الأفلاك سيطرة على محال فى الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على
الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد فى
النهاية من الاستدانة من مالك الملك والملوك

ومن حيلة من طموا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن
هناك أشياء فى الكون لا يمكن أن يخلقها إسان ، أو أن يدعى لنفسه
صناعتها ، لأن الجس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ
الإسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ، ولا بد إذن أن تكون هناك
قوة أعلى من الإنسان التى خلقت هذه الكائنات . كل هذه الكائنات
تحتاج إلى مُوجد ، ولم يجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض
أو وجدنا من ادعى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

(١) ابتغوا طلبوا ، قال تعالى ﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا نَفْسَهُ مِنْ قَبْلِ وَقَالُوا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ الْكَاذِبُ ﴾ [التوبة] [اللسان
ماده (بى)]

ولا إلى مهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له
وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التي وهبها للإنسان ،
فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل ما يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنت أشجاراً من
المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهربى جهد العلماء الذين درسوا
علم الطاقة ، واستبطوا من المعادلات إمكان تصير صناعة المصباح
الكهربى ، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجات التى يوضع فيها المصباح
الذى يضىء داخل المصباح . وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد
تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصابيح ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة
لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أتفه
الأمور يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ،
وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية
كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إخمائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من
البشر ، وإذا أردت أن تسبها فلن نحمد إلا الله سبحانه

وأنت بما تبتكره وتصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والدكى حقاً هو
من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس - صمن ما خلق - وإذا أشرقت
أطعم الكل مصابيحهم ، لأنها من لمصباح الذى يهذى الجميع ، وإذا كان
ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته .
وبور لشمس إنما يمثل الهداية الخسية التى نحمينا من أن نصطدم بالأمور
فلا تحطت ولا نحطمها ، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

(١) يمر الحق سبحانه - ﴿وَمَنْ سَأَلَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (١٥) ﴿القصص﴾ ويقول
سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (٢٢) ﴿الأنبياء﴾ ، ويقول سبحانه ﴿وَلَوْ
شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (١٥) ﴿المرقان﴾

وإياك أن تقول إن الفيلسوف العلاني جاء بنظرية كذا ، فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل وقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل في كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت لنظرية محال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر حديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لنقربنا إلى الله ، لا لنعدنا عنه ، والعياد بالله .

وإذا قال الحق سبحانه ﴿مُسْحِتُهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشراكة تقضي طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوي وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساو لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَلَمَّا تَخَلَّفُوا
وَكَلَّ كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُوصٍ بَيْنَهُمْ
فِيمَا فِئِدٌ يَخْتَفُونَ﴾ (١١)

وقد جاءت آية في سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه في سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ (٢١٧) والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

(١) الذين دعوا إلى أن ليس كانوا أمة واحدة على الكفر ، واعتصموا في عبادة مظهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية رائدة ؛ فاهتموا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء هم الميثاق الأول في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَتَّهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَقَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا مِنْ عِدَاكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢) ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإبراهيم ﴿فَفُطِّرَ اللَّهُ الْبَنِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٢٨) ، فاعتصموا بعبادة صير الله - فبعث الله الرسل ، والا كان يرسل الرسل عبثاً إن كان الناس أمة واحدة على الكفر واعتصموا بعبادتهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها في المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعاني فلا تصادف بين أية وأخرى

ولذلك يجد بين المفكرين المصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كماراً ، ثم ارتقى لعقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالي الصلب ، فعبدوه ، وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اعتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل في ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ويرد على أصحاب هذا القول . أنهم بذلك يريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذي خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المتبرل أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ، ولا يضمن لهذه المادية قيماً تحرسها من لخراسة وتحميها من افساد والافساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَنَذِيرِينَ وَأَنْزَلَ مِنْهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة]

لذلك فهم البعض أن لناس كانوا أمة واحدة في الكفر ، وحين جاء

السيون ، احتلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن لدين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها الآن إنما هو . ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختفوا ؛ فبعث الله السيي ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذي شهدوا فيه ربوبية الحق سبحانه وتعالى^(١) ؛ لأن الأصل في مسألة هو الإيمان لا الكفر^(٢) .

ومن أحد اية سورة البقرة كدليل على كسر الناس أولاً ، نقول له . اقرأ الآية تأكملها ؛ لتجد قوله الحق ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ ﴾ [٢١٣] .

وهكذا يرى أن الاختلاف الذي حدث بين الناس جاء في أية البقرة في المؤخرة ، بسما جاء الاختلاف في هذه الآية في المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان^(٣) ، فليس هلاك أمان أولي من

(١) رد ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ابْنِ آدَمَ مِنْ قُبُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَفْضَلْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَلِيلًا مِمَّا كَانُوا عَلَى شَهِيدًا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [٢١٣] . [الأعراف]

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وادم عشرة مردود كلهم على شريعة من الحق فاختلوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، [ورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٥٠)] .

(٣) في تفسير الاختلاف في اية سورة يوسف ونأخيره في سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومهجه . والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما سوقف سيدنا إبراهيم عليه السلام في آية الأيمان في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ عَلَيْهِ الْحُكْمُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (٢١) فلما رأى القمر بارعا قال هذا ربِّي فلما أَفَلَ قال لست بيهدي دمي لأَكُفِّرَنَّ مِنَ الْقُومِ الْفَاسِقِينَ (٢٢) فلما رأى الشمس بارعة قال هذا أكبرُ فلما أَفَلَ قال يا قوم إِنِّي بَرِئَةٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ (٢٣) إِنِّي وَجْهِي لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَقِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٢٤) [الأأنام] فسيدنا إبراهيم كان في مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين

نُاسٍ عِنْدَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَلَمْ يَكُنْ عَدَلَ اللَّهِ لِيَتْرَكَ أَنْسَاءً مُتَخَبِّطِينَ فِي أُمُورِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ ، وَيُرْسِلَ الرُّسُلَ لِلْأَنْسَاءِ الْآخَرِينَ بِالْهُدَايَةِ ؛ هَالنَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ سَوَاءٌ . وَمَا دَامَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ قَدْ أَوْجَدَ الْخَلْقَ مِنَ الْبَشَرِ فَلَا يَدَّ أَنْ يُنْزَلَ لَهُمْ مِنْهُنَّ ؛ وَلِذَلِكَ حِينَ تَقْرَأُ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ﴿ إِنَّهُ أَوَّلَ بَيْتٍ رُجِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَيَّكُةٌ ﴾ مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَامِينَ ﴿ ٩٦ ﴾ [آل عمران]

نَجِدُ فِيهِ الرَّدَّ عَلَى مَنْ يَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ بَنَى الْكَعْبَةَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَتْرِكْ الْخَلْقَ مِنْ آدَمَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ دُونَ بَيْتٍ يَحْجُونَ ﴿ ٣٧ ﴾ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَضَعَ الْبَيْتَ ، لِيَحْجَّ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَوَّلِ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَالَّذِي وَضَعَ الْبَيْتَ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ ؛ بَلْ شَاءَ وَضَعَ الْبَيْتَ خَالِقُ النَّاسِ ، وَمَنْ فَعَلَهُ سَيُنَا إِبْرَاهِيمَ - عِبَّ السَّلَامَ - هُوَ رَفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ .

أَي : أَنَّهُ أَقَامَ ارْتِفَاعَ الْبَيْتِ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ مَكَانَ الْبَيْتِ طَوْلًا وَعَرْضًا ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ

﴿ وَإِذْ يُوَافَا ۖ لَإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ ﴿ ٢٦ ﴾ [الحج]

(١) بَيَّكَةُ : مَوْضِعُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ . وَبَيَّكَةُ : الْحَرَمُ كُلُّهُ وَتَدْخُلُ فِيهِ الْبُيُوتُ . وَبَعْضُ حَمَمَاءِ التَّصْوِيرِ مِثْلُ مَيَّكَةٍ دَعَبَ إِلَى أَنْ كَلِمَتُهُمَا وَاحِدٌ ، وَأَنَّ الْمِيمَ مَبْدَأٌ مِنَ الْيَاءِ . ثُمَّ قَبْلَ بَيَّكَةٍ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْأَزْدَحَامُ أَيْ الْأَزْدَحَامُ فِي مَوْضِعِ طَوَافِهِمْ . وَالْبَيْكَةُ أَيْضًا : دَقُّ الْعُنُقِ ، وَاسْمُ بَيْتِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَلَى رِجَالِ الْحَبَابَةِ إِذَا أَحْدَثُوا فِيهَا بَظْمًا . بِتَصْرِفٍ مِنْ تَعْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (٢/١٤٨٦)

(٢) يَحْجُونَ إِلَيْهِ : يَقْعُدُونَ بِشِدِّ الرِّجَالِ إِلَيْهِ لِلْعِبَادَةِ وَالِتَّعْلِيمِ . قَالَ الْجَرِيدِيُّ فِي كِتَابِهِ « التَّصْرِيفَاتُ » (ص ٧٢) « الْحَجُّ : الْقَصْدُ إِلَى الشَّيْءِ الْعَظِيمِ ، وَبِالشَّرْعِ قَصْدُ بَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى بِصِفَةِ مَخْصُوصَةٍ فِي وَاقْتِ مَخْصُوجٍ بِشَرَاكِهِ مَخْصُوصَةٍ فِي أَمَاكِنَ مَخْصُوعَةٍ »

(٣) يُوَافَا : أَتْرَافًا بِمَكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَهَدْيًا إِلَيْهِ وَالْعَبُودُ . أَنْ يَعْلَمَ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ عَلَى مَكَانٍ لَيُتَزَلَّ بِهِ وَيُوَافَا : هَذَا الْمَكَانَ وَمَكَانَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ تَبَوُّؤًا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ . ﴾ [يوسف] . [النَّاسُ : حَادَّةٌ (يُؤَا) بِتَصْرِفٍ] .

وهكذا يصدق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا يعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو لدى طراً على البشر من بابين : باب العقلة ، وباب تقييد الآباء .
والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ميثاق الدر ، قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ^(١) وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ^(٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ^(٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالتعصبي عن الحكم الإيماني مدخله ثان . الأول باب العقلة ، أي : أن تكون قد علمت شيئاً ، ولم تجعله دائماً في بؤرة ^(١) شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُسْتَتِراً المَكْر في أكثر من أمر ، فإن كب صافي العكر ومتسهاً إلى المعلومة التي تَصْلُكْ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الدهن تحالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد عارفاً بين إنسان وإنسان آخر في حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه حال من أي معلومة غيرها ، فتشتت في بؤره

(١) ذرية الرجل ولد ، والجمع الذريات والذراري عال تعالى ﴿ ذرية بمعنىها من بعض - ذك - آل عمران ﴾ والذرية مأخوذة من ذرأ الله الخلق ، أي خلقهم فالذرية اسم يجمع سبل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصبح الهن ولكنهم جمعوه فلم يستعملوها إلا مع مهوره ، وقبل الذرية أصلها من الذر بمعنى التمزيق ؛ لأن الله تعالى تَزَمَّ في الأرض ، أي فرقهم [اللسان مادة (ذر)]
(٢) بأر الشجر حياء وأخبره ومنه قيل للحفرة البؤرة ومنها بؤرة الشعور أي حفرة ومركز الشعور الذي يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التي تواجهه . انظر لسان العرب (مادة بار)

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يحو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة في بؤرة الشعور ، وحين تأتي معلومة أخرى ، والمعلومة الأولى تنقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن استدعها مرة أخرى.

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال - أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى^(١) ؛ ليركز فيما يدرس ، لأنه إن جلس إلى المذكرة وباله مشغول بما سوف يأكل في العشاء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدي من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرس حزئية^(٢) حالبة من بؤرة الشعور ؛ لتستقر فيها

وقد نجد طالباً في صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد باتى في الجزء الثاني من المقرر ، فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر في بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليحد السؤال في الجزء الذي قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ، فيجيب عن السؤال بدقة.

(١) ولذلك ارشد العلماء طلاب تعلمهم : يفتتوا علان الاستعمال بالدنيا ، فإن العلق - كما يقول الإمام أبو حامد نيراني في إحياء كتاب تعلم - « شاذة وصارفة ، فما جعل الله لرحل من قلب في جوفه » [الأخراة] ومهما رعت الفكرة قصر عن ذك الحقائق ؛ ولذلك قبل العلم لا يعطيك معه حتى تعطيه كلفه و يحكمه التورعة على أمور متفرقة كجدول فرق ماؤة فشنت الأرض بمضيه واعتطت الهواء بمضيه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع ، قال الزبيدي في ثقات البدة التعيين (٥٠١) : « لقد كرهوا للمنه لا شتت في دوس في عشرين مستغلين لئلا تتورع الفكر ، والاشتغال من قى إلى قى آخر من استكمال الأول

(٢) وأمرته لية الدعى والفكر من اشواغل والخرطر شيء ، حيث سبه حديث رسول - ﷺ بالسجية بلعلاء ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصلاة بحصره طعام ، ولا وجه لجمه الآخر » أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٠) والأحسان هما البهون والبراز فكذلك درس له م يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله شيء »

ولذلك فالتلميذ الدكي هو من يقوم بما يسميه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أي : أن يقرأ الدرس ثم يعلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه :
فما الجديد من المعلومات في تلك الصفحة ١٩ ويحاول أن يتذكر ذلك ،
ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التي في تلك الصفحة ،
وما هي الأفكار الجديدة التي صححت له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت
موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل
التلاميذ ؛ ليشير انتباههم ؛ حتى لا تشعل أحدهم عما هو خارج الدرس ،
والأستاذ المتميز هو الذي يلقي درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم
القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يسمر الدهن بلا غفلة ، والعفلة تأتي إلى القضايا الدينية ؛ لأن
في الإنسال شهرات تصادم الأوامر والنواهي ؛ فيتناسى الإنسان بعض
الأوامر وبعض النواهي إلى أن يأتي إبران^(١) الذي قال عنه الحق سبحانه .
﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين]

ويبين النبي ﷺ ذلك باحدديث الشريف : « برئت الأمانة في حجر^(٢)
قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من لُغة^(٣) ثم
يحدثنا ﷺ عن رجح الأمانة فيقول : « بنام الرجل السومة فتقبض الأمانة

(١) الرى الطبع والذئس وهو كالمصدا يعنى القلب دل الحسن هو الذي على اليد حتى يسود
القلب يتصرف من لسان العرب (مادة رى) الرى الصدأ يعنى السيف فيذهب ببريقه ويستعار
للمتشاوه يعطى على القلب بسبب السوب ، وران الصدأ عليه غلب عليه وعطأ كله قال
تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين]

(٢) جذر كل شيء أصله ومنه هذا الحديث جذر قلوب الرجال ، أى من أصلها (اللسان مادة
جذر)

من قلبه ؛ فيظل أثرها مثل أثر الوُكْتِ^(١) أي مثل لسعة النمر
وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتي لرَأْنُ على القلب .

إذن ، فالعفة تنلصص على النفس الإنسانية ، وكلما عفل الإنسان في
نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا . ولكن من لا يعمل فهو من يذكر
الحكم ، ويطبقه ، ويذوق حلاوته^(٢) . ومثال هذا : المسم الذي يشرح الله
تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرهقاً وفي صيق .

ولذلك جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « تُعْرِضُ الفَتَى عَلَى
القلوب كالخصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ،
وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قبين : على أبيض
مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، ولا آخر أسود
مريداً كالكوز مُحَجَّحاً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من
هواه^(٣) »

إذن : فالنملة هي أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

(١) الركعة الأثر هي الشيء ، كاللغة من غير لونه ، واجمع . وكنت . وفي الحديث : « لا يعلب أحد ولو
حلى مثل جناح يهوية . إلا كانت ركعة في قلبه » . ومنه في حديث حذيفة^(٤) : « يظل أثرها كأثر
الوكْتِ » . [النسائي مادة (ركت)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (٢٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو
حديث طويل ، هاتان القطعتان منه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان ، أن يكون
الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله » . وأن يكره أن يمرء في الكفر بعد أن
أنقذه الله من كفره كما يكره أن يهدف في النار » . أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن
مالك .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٤) وأحمد في مسنده (٣٨٦ / ٥ ، ١٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان
عنه الصفا الصخرة اللساء العريضة .

مريداً أسود مشوباً بغيره .

كالكرور . كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كروب يعرّوه

صحباً : مثلاً ، أي : عن الاستفادة والاعتدال ، شبه القلب الذي لا يعي خيراً بالكرور المائل الذي
لا يثبت فيه شيء لأن الكور إذا مال انصب عافيه . [انظر لسان العرب مادة : جفى]

أحكم الله - وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلّدون الآباء ، فتأتيهم غملة دانية ، وهكذا يكون العاقب أسوأ لمن بعده .

وبذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون عفلة الآباء : ﴿ بَلْ تَّبِعُوا مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (١٧٠) [البقرة]

وإلى تقليد الآباء فضيه كاديه ، لأننا إن سلسلنا مسأله الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبق كل مطلوب لله ^(١) ، فإن قلت : ﴿ بَلْ تَّبِعُوا مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تتعرف عن الإيمان المطرى ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطرى من عفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تحييص

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة في القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين في القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (١٢) [الزمر]

ولم يقل : «مهتدون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتحد أباء قدوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن أباه على حق .

إذن : فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان . تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى

(١) أليف وجدنا يقال أليف الشيء إداء حننه وحاذقته ولفيته انظر النسان مادة (ألف)
(٢) إن آدم عليه السلام طس المطلوب ، أما أكله من الشجرة التي نهى عنها ، فكان سيئاً ، والنسبان وورد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى ﴿ هِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عِزًّا ﴾ (١٢٨) [طه] وهذا لا ينافي أنه طبق كل المطلوب .

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبي فقط ؟
فهناك مَنْ قال . إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول : وهل من
المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا^(١) فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢٤)
[فاطر]

والذي أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قلوا : إن أول رسول هو نوح
عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيراً سطحيّاً ، وفهموا أن الرسول يطراً على
المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم معوثاً
برسالة ، ولئن تكون تلك الرسالة ؟

ولم يفتن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة
بإبي آياته ، فالحق سبحانه قد قال له : ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٨) [البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام . ﴿ .. فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ
وَلَا يَشْقَى ﴾ (٢٩) [طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذي
طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء . وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله
الحق . ﴿ رَأَيْتُ عَلَيْهِمُ يَأْتِيهِمْ آدَمُ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ (٢٧) [المائدة]

(١) هناك فرق بين النبي والرسول ، فالنبي هو من نبأ وأوحى إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ
توراة رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نبي رسولاً
(٢) خلا مضي أي : مضي راسل وصال القرون الخالية الماضية ومنها قوله عز وجل : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ
خَلَتْ نَهَا مَا كَسَبَتْ وَفَعَلَتْ مَا كَسَبَتْ ﴾ (٣١) [البقرة] ، وقوله عز وجل : ﴿ تَكَرَّرُوا فِيهَا بِمَا اسْلَفْتُمْ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (٣٢) [الحاقة] .

(٣) القرين . ما قُرِبَ إلى الله - عز وجل - وتقرَّبَ به ، تقول : قُرِيتُ كذا قريباً . وتقرَّبَ إلى كذا شيء .
أي : طلب به القرينة عنده تعالى . قال الليث : القرين ما قرِيتُ إلى الله ، تبتغي بذلك قرينة
روسية . [اللسان : مادة (ترب) - يتصرف] .

وَأَبَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَدَّمَا الْقَرِيبَانِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . إِذَنْ : مَهْمَا مَدَّ عُرْفَا أَنْ هَاكَ إِلَهًا

وَحِينَ قَالَ قَابِيلُ لِأَخِيهِ ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ (٢٧)﴾ [المائدة]

بَعْدَ مَا تَقَبَّلَ اللَّهُ قَرِيبَانِ أَخِيهِ وَلَمْ يَتَفَنَّسْ مِنْهُ . قَالَ هَابِيلُ : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة]

ثُمَّ فِي قَوْلِ هَابِيلَ . ﴿لَنْ يَسْطُغَتْ إِلَيَّ يَدُكَ لِنَفْسِي مَا أَمَّا بِيَا سَطِرَ يَدَيَّ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة]

إِذَنْ : لَوْ لَمْ يَكُنْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولًا فَمَنْ بَلَغَ أَبْنَاءَهُ أَنَّ اللَّهَ شَيْءٌ وَيُعَاقِبُ ؟

وَالْحَقُّ سَحَابَانَهُ يَقُولُ فِي الْآيَةِ الَّتِي مَحْنُ بِصَدَدِ خِرَاطِرُنَا عَنْهَا . ﴿وَقَوْلَا كَلِمَةً (١) سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقَضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَحْتَلِفُونَ﴾ وَهِيَ هَذَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ - قَبْلَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانَ يُعَاقِبُ مَنْ يَكْذِبُ الْبَلَاغَ عَنْهُ وَمَا حَاجَ بِهِ أَنْسَابِقُونَ مِنَ الرِّسَالِ ، يَقُولُ سَحَابَانَهُ :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٢) وَمِنْهُمْ مَنْ أَحْدَقْنَا الصَّيْحَةَ (٣) وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (٤) وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥)﴾ [العنكبوت]

(١) وَعَدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ هَذَا أَجَلُ الْخَلْقِ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ لِقَضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا ائْتَمَعُوا فِيهِ فَاسْعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَاحَتِ الْكَافِرِينَ [ابن كثير ٤/ ٤١١] .

(٢) الْحَاصِبُ : رِيحٌ صَرْمَرٌ بَارِدَةٌ شَدِيدَةٌ الْبَرْدِ عَاتِيَةٌ شَدِيدَةُ الْهَوْبِ جَدًّا عَمَلٌ عَلَيْهِمْ حَصْبَاءُ الْأَرْضِ ، فَتَلْقِيهَا عَلَيْهِمْ وَتَقْتُلُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ . [ابن كثير ٣/ ٤١٣] .

(٣) عَذَّبَ بِهَا قَوْمَ ثَمُودَ ، جَاءَهُمْ صَيْحَةٌ أَصْبَحَتْ أَذَانَهُمْ وَأَخْمَدَتْ مِنْهُمْ الْأَصْوَابَ وَالْحَرَكَاتِ [ابن كثير ٣/ ٤١٣] .

(٤) الْخَسْفُ : إِتْهَابٌ لِأَنْبَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ وَخَسْفٌ بِالرَّجُلِ ، إِذَا أَخَذَهُ الْأَرْضُ وَعَلَتْ فِيهَا ، وَقَدْ عَذَّبَ بِهَا قَارُونَ [ابن كثير ٣/ ٤١٣] .

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ لِلَّهِ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَعِزُّونَ﴾ (٣٢) [الأنفال]

أى: أنه سبحانه قد أجل الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة. وهذه الكلمة التى سبقت ، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بدويهم فى الدنيا ، ولكنه يؤخر ذلك إلى يوم الجزاء. ويقضى سبحانه فى ذلك اليوم بين من اتبعوا رسول الله ﷺ ومن عاندوه ، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه فى جانب من أرسله ، لا من عاند رسوله ﷺ

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَقُلُوبٌ لَّوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٣٠)

والآية كما عرفنا هى الشىء العجيب ، وما أن تكون آية كونية ، أو آية إعجاز ، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام.

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن ، وهى معجزة بالنسبة إليهم ؟

نقول: إن استقبال القرآن فرع تصديق للرسول ﷺ ، وقد حدث اللبس عندهم ، لأنهم ظنوا أن الآية هى الآيات المحسنة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتحضيض ، مثل (علا) وتختص بالندحول على المضارع كقوله تعالى ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ (٣٥) [النمل] وتدخل على ما هو فى تأويل المضارع كقوله تعالى ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (٤١) [الأنعام] أى: لولا تؤخرنى ، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والتلذيم فتختص بالماضى كقوله تعالى ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ (٥٥) [النور] ، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها فى كتب اللغة [القاموس للزحوم ٢٠ / ٢٠٧ ، ٢٠٨]

رسالاتهم ، ولتاسب موافعهم من المرسل إليهم .

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ، ولذلك كانت الآيات التي اصطحبوها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبيح فيه القوم المبعوث إليهم .

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهي لعامة الزمان وعامة المكان^(١) فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لأمن بها من شاهدها ، وأصلرت خيراً مني لم يشاهدها .

وحس على سبيل المثال كمسلمين لم تصدق أن موسى - عليه السلام - قد صرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسي يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حدث به له أن يكذب ، وله أن يصدق ، ولكنا صدقنا ؛ لأن لقائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك في القرآن وثقتنا فيمن قال هي التي جعلنا تصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد ينسأل البعض عن السر في عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة ناقة إلى أن تقوم الساعة وهي معجزة القرآن وتحدث كتب لسيرة أن الماء سح من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدق صدق ، وإن فرأت ولم تصدق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

(١) وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمه ، وبذلك عليه حديث رسول الله ﷺ أعطيت خبأ لم يعطين أحد بلي - حضرت بالغرب سيرة شهر ، وحملت لي الأرض مسجداً وطهوراً فلما رجع من أمي أدركته الصلاة فلبس ، وأحت لي اللغيم ولم تحمل لأحد مني ، وأعطيت الشعاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه ساعة يبعث إلى الناس عام^٢ من حديث جابر بن عبد الله أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)

لها ، وقد جاءت لتربيب الإيمان في القوم المحاصرين ؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى شدِّ أزرهم الإيماني ، وحدثتنا كتب السيرة أيضاً عن حفة العلحام التي أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدق الرواية ؛ فليصدقها ، ومن لم يصدقها ، فهذه الآية لم تأت له ، لكنها جاءت للمحاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون لرسول ﷺ معجزات حسية كما في إخوانه من ارسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وإن دخلت «لولا»^(١) على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقول إنسان لآخر: لولا زيد عندك لأتيك ، وبذلك بنعدم دهايه إلى فلان لوجود زيد عنده . وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدت تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شيء ، لوجود شيء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض .

وهم هنا قد قالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر بالقرآن الكريم: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ (١٨) ﴿[القصر]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسول السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشيئاً بالكفر

(١) «لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويسل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية (مبداً وخبر) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كواباً عاماً وإذا ولها مضمم يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ . (٢) [سبأ] وجملة الجواب فعلية وتقرن باللام إذا كانت مثبتة في العائب وتتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى : ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ . (٣) [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [النور] الفاعل من القوم ج ٢٠٧/٢

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ في كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها من آمن به ، وزاد تمسكهم بالإيمان

والذين طلبوا أن يأتي لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نرا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل ،

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ، لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجددة العطاءات ، وتحمل المصالح المناسبة لكل زمان ومكان أما المعجزة الحسية فهي تنقضي بانقضاء زمانها ومكانها

أو هم طلبوا الآيات التي اقترحوها مثل قولهم : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ (٩٠) ^(١) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا (٩٢) أَوْ نَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيبَلًا (٩٣) أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ (٩٤) أَوْ تَرْقَىٰ (٩٥) إِلَى السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ .. (٩٦) ﴿[الأنعام]

إذن : فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضل المرسل .

(١) اليبوع : المين الجارية والجداول الكثير الماء ، والجمع يبايع [اللسان مادة بيع]
(٢) كسفاً : جمع كسف وهي البطة ، والمراد العذاب حال تعالى ﴿إِن نُّفَا نَحْشِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩٢)﴾ [سأ] [اللسان : مادة كسف]

(٣) القليل ، الجماعة من أي شيء .

(٤) زخرف : نقش ورنة وتقويه بالذهب والزخرف الذهب من غيره . قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا (١٥٨)﴾ [زبور]
[اللسان مادة زخرف]

(٥) مرقى : تصعد ، والرقى الصعود ومن الحديد . كنت رقاءة على الجبال أي صعدت أعليها ، وغسل للمياه قال تعالى ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْمُرَايَا (٢٦) وَقِيلَ مِن رَّاسٍ (٢٧)﴾ [القصيدة]

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يرسل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا ؟

فنقول : إن الحق سبحانه قد قال : ﴿ وَمَا مَعَآ أَنْ تُرْسَلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴾ (٤٩)

[الإسراء]

وعلى ذلك يكون قلوبهم بطلب الآيات مدحوضاً^(١) : لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذب بها الأولون ، أو هم طلبوا آيات اقترحوها ، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وفي هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ رباً ، وهو ﷻ يُبلغ عنه ، فكيف - إذن - يُكفرون أنه رسول ؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل : « إن رب محمد قد فلاه^(٢) » ، حين فتر^(٣) الوحي عنه ﷻ ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (٥٠)

[الضحى]

إذن : هم قد ناقضوا أنفسهم ، ففي الوصل معوا وأنكروا أن يكون له رب ، وفي الهجر سلّموا بأن له رباً ، وهذا تناقض في الشيء الواحد ، وهو لون من لتناقض يؤدي إلى اضطراب الحكم ، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى^(٤) .

(١) الدحض الدفع والطلاق ومنه قوله تعالى : ﴿ حُجِّجْتُمْ دَاخِعَةً .. ﴾ (٥٥) [السورى] أى باطلاً .
(٢) فلاه : أبغضه وتركه وتحسنت عنه ، عى جندب الجبلى قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فتنازل المشركون . فذودج محمد فانزل الله عز وجل ﴿ وَالضُّحَى ﴾ والفعل إذا مضى (٥٠) ما ودّعت ربك وما قلى (٥٠) [الضحى] أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩٧) والترمذى في سننه (٣٣٤٥) ومال حديث حسن صحيح . وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذى أخرجه مسلم والترمذى إلى جندب بلفظ : « فقال للمشركون - ردع محمد أربيه »

(٣) فتر الوحي انتقطع

(٤) أى أنه يُحكمُ هواه فى كل تصرفاته ومنازع تفكيره ، أى يتحد هواه إلهاً له بالمربأمره ، ويسمى بهوى ، لهذا يحدث التناقض . ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ أَمِيتُ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَحَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحْمٍ عَلَى سَمْعِهِ وَقَبْهَ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ إِلَّا تَذَكُّرُونَ ﴾ (٣٣) [الجمالية]

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لَدَيْهِ﴾ وهكذا يعلم الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً حثيائياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا يبرها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ، لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء حمل ما في الغيب مشهداً ، وإن شاء حمل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلم رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُوفٌ ۚ يَأْتِيَا قُلُوبَهُمْ أَمْرٌ مَّكْرُءٌ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا مَكْرُوءٌ﴾ (٣)

والرسول ﷺ حين صدق درعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسين الجذب كالسبيل إلى أصابيت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجذب وانقحط^(١) ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤموا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

(١) المقصود بالرسول هنا الملاحظة من الملائكة قال تعالى : ﴿مَلَأْنَا نَكَبَاتِهِم بِالْحَمِيمِ﴾ (٤) وإن عليكم لعاقبين

(٥) كرمنا كاتين (٦) يلقون ما نقضون (٧) الانتظار

(٢) جذب يقين الجذب أي الخصام وقطاع المطر وفي حديث الاستسقاء هلك الموشى وأجبت البلاد ، أي قحطت وغلب الأسعار [اللسان: مادة (جذب)]

القحط احتباس المطر ، والقحط الجذب ؛ لأنه من أثره وفي حديث الاستسقاء انقحط المطر واحمر الشجر هو من ذلك ، ود يشق القحط لكل ما قل حيره ، والأصل بمطر والقحط من كل شيء فلة حيرة [اللسان : مادة (قحط)]

مُسْتَهْمٌ مِنَ الْقَحْطِ وَمَنِ الْخُذْبُ كَانَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ^(١).

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة في المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ ، ولكنهم دخلوا يبحثون عن أسباب المطر ، فمنهم من قال: لقد جاء مطرنا بتيحة لنوء^(٢) كذا ، ولأن الرياح مبيت على مناطق كذا ، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاه دعوة رسول الله ﷺ ، مثلهم مثل من جلس يبحث في أسباب النصر في الحرب ، وجعلوا أسبابها مادية في العنة والعتاد^(٣) . ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه ، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار ؛ لأن المؤمنين بالله ان الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله ؛ لأن الحق سبحانه ينصر من ينصره .

أما الذين يحصرون أسباب النصر في الاستعداد القتالي فقط ، فليقاتلون ان الذين غاضوا الحرب بعد التدريب الجاد ، يعممون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل^(٤) روحه وغبته في القتال وتبيل الشهادة ودخول الجنة .

(١) من أي مزية أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : اللهم أشد وطأتك على مصر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف . الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦) وأحمد في مسنده (٤٧٠/٢ ، ٥٠٢ ، ٥٢١)

(٢) باء نوء بوا من باب نال يقول أي : بهض . ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء . المصباح (١٥١/٢) .
(٣) العتاد : العنة ، والجمع أعتدة وعتد . قال الليث : العتاد : الشيء الذي بعده لأمر ما ونهته له . وفي حديث صفته ﷺ : لكن حال حده عتاده أي : ما يصلح لكل ما يقع من الأمور . والمراد هنا بالعتاد الأسلحة والآلات لحرب . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٥] .
[اللسان : مادة (عتد)] .

(٤) الصقل : الجلاء والشحذ ، والمراد : الحمية الدينية والتمهجة النفسية والمعنوية للمقاتلين [اللسان : مادة (صقل)] - ينصرف .

إذن: فلمدد السماء مدخل ، ومن رأى من المقاتلين أية مخافة بنواميس الكون ، فليعلم علم أنيقين أن مد الله كانت فوق أسدى المؤمنين المقاتلين ومن يدعى أن أى نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هي مجرد تقدم مادة هشة^(١) لا يصع مصراً^(٢) ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادى ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة

ولذلك نجد من حاصرا حربنا المنتصرة في اعاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا لاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادى وحده يمكن أن يكفى للنصر ، إنه ضروره ، ولكن بالإيمان وحس استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من بكر دور الإيمان في الانتصار

وهكذا نجد أن من مجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ، لأن إنكار الإيمان بقتل من قيمة الرأى المادى . وهكذا ينصر لله دينه حتى يشته في قلوب حده ، ويقلل من قيمة ومكانة من يتكروون قيمة الإيمان

ومثال هذا في تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولا سوف يظهر ، وأنهم - أى - اليهود - سيتبعونه^(٣) ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قتل عاد وإرم .

(١) الهش والهشيش من كل شيء مذهب رخاوة ولىلى والمراد الضعف

(٢) يقول تعالى ﴿ رَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [ال عمران]

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا في قرآنه ، فقال عن اليهود ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ نَبَأٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كُفَرُوا بِهِ فَسَبَّحَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كما عد عيونناهم قهراً أدهرهم الإسلامية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يهود إن سيأ سيبحث الآن سبحانه فداً لمن وعده فمعتكم معه مثل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعه كفروا به ذكره ابن كثير في تفسيره (١٦٤/١) خلاص ابن إسحاق

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا : إنه النبي الذي تهددنا به يهود ، فأنسبنا إليه حتى لا يسبقونا .

هكذا كانت كلمة اليهود هي دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان .

يذن . فالله يصبر دبه بالفاجر (١) ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للمدين .

وكذلك حين جاءهم لهم الرحمة بعد الفحط أرجفوا (٢) وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذي فوق المادة

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿وَإِذَا أَدْبَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ ^(٣) فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَكَ يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ^(٤)﴾ [يونس]

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فمن أبي هريرة قال : شهدت مع رسول الله ﷺ حيناً فقال لرجل من بني يثرب بالإسلام هدا من أهل النار فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابت جراحه فقول : يا رسول الله الرجل الذي قلت له أننا إله من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات فقال النبي ﷺ : إلى النار تكاد بعض المسلمين أن يرتدب مبسماً مم على ذلك إذ قيل إنه لم يمض ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال : الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله ثم أمر بلالاً فنادى في الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا نساء مسلمة ، وإن الله يريد لهذا الدين بأرجل الفاجر حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٦٢) ومسلم (١١١)

(٢) أرجفوا : اضطربوا اضطراباً شديداً [اللسان مادة : رجف]

(٣) لمكر احتيال من خفية قال تعالى ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرُنا مَكْرًا وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ^(٥)﴾ [النمل] قال أهل العلم بالتأويل : المكر من الله تعالى جزاء سُمي باسم مكر الجازي كما قل تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ^(٦)﴾ [الشورى] والثانية ليست بسنة في الحقيقة ، ولكنها سنة ميث لادخول الكلام ، وكذلك قوله تعالى ﴿فَمَن أَضَلَّنَا عَلَىٰ مَنَّا ضَلُوعٌ عَلَيْهِ ^(٧)﴾ [البقرة] فالأول ظلم والثاني ليس بظلم ، ولكنه سُمي باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به . قال ابن الأثير : مكر الله يقاع بلائه بأهله من أوليائه [اللسان مادة : مكر] .

والمكر: هو الكلام الملتوى الذي لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب في سقوط المطر ، وبرح كذا هو السبب في سقوط المطر .

وقوله الحق ﴿مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وفوائده فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسو أى خبر إلا به سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ؛ لتحكم الكون بقوانين .

ونقول : لو خلق الحق سبحانه القوانين والنواميس وتركها لتحكم لما شذّ شئ ، من تلك القوانين ، فالمعجرات مع الرسل على سبيل المثال كانت خروجاً عن القوانين . وأبى الله فى يده التحكم فى القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيّوماً عليها ، فيعطل القانون متى شاء ويبرره متى شاء ويؤجّه كيفما شاء .

والمكر كما يعلم مأخوذ من التهام أعصاب الشجرة كالصغيرة ، فلا تتعرف على مست ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد احتلطت منذ الأوراق ؛ حتى صارت خمية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفى ، وأنت قد تكبد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكرأ ، والحق سبحانه يقول ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مُكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشاكلة أنتعير»^(١) .

(١) المشاكلة مصطلح بلاغى جاء فى القرآن كثيراً ، وهو يعنى ذكر الشئ بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته غميقاً أو تقديراً . وذلك مثل قوله تعالى ﴿وَمَكُرُوا وَكُرَّ اللَّهُ﴾ (٥٥) ﴿[ال عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما بعد (الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ٢٨١)

أى: عليك أن تتأخذ ذلك فى مقابلة فى ذات الفاعل والفعل ، ولكن لا تأخذ من هذا القول اسماً لله ، فإياك أن تقول : إن الله - سبحانه وتعالى - مكر ، لأن المكر كيد خفى^١ تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلِع على كيدك ، ولا تطلع أنت على ما يشاء لك .

وانظر إلى أى جماعة نكيد لأى أمر ، ومستجد من بينهم من يطلع عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مقصوحاً بمن يشئ منهم بالآخرين ، بل هناك من الشر غير الكائدين من يستطيع بنظره أن يستبطن ويستكشف من يكيدون له .

وهناك من الأجهزة المعصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتتصت^٢ عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعالى - ليبلغنا بكيدك ، ولا أحد يستطيع أن يتجسس عليه ؟

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر الشر قد يهدم من بعض الماكريين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيدك شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك : أن كلاهما يحاول الوصول إلى نفس العاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية .

ومكرهم المشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أرلى الوجود ،

(١) التتصت المراد به: التجسس. وأتصت الرجل إنصتاً. استمع باهتمام. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] [اللسان مادة (نصت) - بصيغة]

يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك مهر
الأسرع في الرد على مكركم ، إن مكرتم .

وهما يقول الحق سبحانه . ﴿وَإِذَا أَتَقَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ
مُسْتَهْمٍ إِذَا "بِهِمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا"﴾ وإذاه لأولى طرف ، أما إذا الثانية فهي
« إذا المعجائية » مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه ، فهم لا يهدأون ويستمتعون
ويذوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذي جاءهم من بعد الجفاف ، بل
دبروا المكر فجأة ، فيأتى قول الحق سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا
يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ .

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك
الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة
التحارب من الغير ، وإما أن يكون من رسل العلى القدير وهم الملائكة الذين
يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل : ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ①﴾
كراماً كاتبين ② يعلمون ما تفعون ③﴾ . [لأمطار]

واقراً أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَيًّا ④﴾ . [الإسراء]

(١) « إذا » تاني لمعين شرطية ، ومعجائية . إيراد الشرطية . اسم شرط بدرس المستعمل منحنى بالدمر
على الجملة المعجبة ، ومعرب . ويدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فعلاً لفعل
محبوب يفسره الفعل الذي بعده مثل قوله تعالى ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑤﴾ [التكوير] ، وقد تكون
« إذا » للمعجأة وتختص بالجمع الاسمية كقوله تعالى ﴿فَالْقَاهَا إِذَا هِيَ حِمَّةٌ تُنسَى ⑥﴾ [طه] ، وقد
جتمعت الشرطية والمعجائية في بوله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ كَهْفُكُمْ ⑦﴾
[الزمر] وكما في الآية ﴿وَإِذَا أَتَقَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مُسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ⑧﴾
[يوسف]

وجاء الحق سبحانه بكن ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع في عنادها للرسول ﷺ ، هذا لعناد الذي قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وحدوا عليه آباؤهم ، وهذا قول مغبوط ؛ لأن لأبائهم في الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الصلال كأمير طاريء ، والأصنام التي عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا في بلاد الروم هو «عمرو بن لحي» ، فإن رجعتهم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذي كان عليه أبؤكم بالمطردة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْتُمْ بِهِمْ رِيحَ طَبَقٍ وَقَرِحُوا يَسْأَلُونَ أَهَاجَةً تَهَاجُ رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التي بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجل لهم استجابة دعوتهم على أنفسهم بالشرك ، ولو أنه أجابهم إلى ما دعوا به على أنفسهم من الشر في قولهم : ﴿إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ..﴾ (٢٢) [الأنعام]

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١ ، ٧٧) أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض الأمور ، فلما قدم مأت من أرض البلقاء ، وبها يوطئ المصطفى ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام يعبدونها ، فاستمطروها فتمطروا ، ويستنصروها فتصنرون ، فقال لهم : ألا تمطوس بها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، يعبدونها ؟ فأعطوه صنماً يقال له عيكل ، فقدم به مكة ، فصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه

لقصى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِئهم إلى دهانهم .

وإذا كان الله سبحانه قد أجل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيحب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دليل على كذبهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسهم ضرر دعوا الله تعالى ^(١١) مصطلحين وقاعدين وقائمين .

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لطلبوا على ما هم فيه من السوء إلى أن يقصى الله تعالى فيهم أمراً .

ثم عرض سبحانه قصة أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسهم ضرر ؛ لعنتوا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقدهم من هذا الضرر فيالبتهم شكرو نعمته لله تعالى في الرحمة من بعد الضرر ، ولكنهم مروا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى شرب مسهم

وهي في الآية التي نحن بصدد خواطرن عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول : ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..﴾ (٢١) .

وكلمة ﴿يُسِيرُكُمْ﴾ تدل على أن الذي يسير هو الله ، ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُسبب إلى اليُسْر حين يقول : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٦١)

(١١) الاضطجاع ، الاستلقاء ووضع الحطب إلى الأرض قال ابن المظفر كانت هذه الطاء تاء في الأصل ، ولكنه فتح هاءهم أن يقولوا (اصبح) فلبدوا التاء طاءً قال تعالى ﴿تَجَالَى جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ..﴾ (٦١) [السجدة ٦١] ، [النحل ٦١] مادة (صجج) .

وحين يقول الحق سبحانه . ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ ۞ (٢٩) ﴾ . [الفصح]

وهو سبحانه يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأيَّامًا آمِينَ ۚ ۞ (٦٨) ﴾ . [سيا]
فكان هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى انفس الإنسانية ، ويقول لمن توهموا أن في ذلك تعارضاً :

لو أنكم فستم إلى تعريف الفاعل عند الحاجة ^(١) وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إى يعود إلى مشئة الله سبحانه ، فحين نقول . «لنجح فلان» فهل هو الذى ينجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن المنجح والمصحح هما من سمح له بالنجاح ؛ تقديرأ لإجاباته التى تدل على بطل المجهود فى الاستدكار .

وكذلك نقول . «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماضٍ ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول : إن الموت قد وقع عليه و اتصف به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتصف به .

وإذا أردنا أن نسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا : «سار الإنسان» .

وإذا أردنا أن نؤرخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحلنا به إلى الماضى ؛ لوحدنا أن الذى سيره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إن نظرتَ إليها مباشرة ؛ وحدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنت إذا تبعتها أسباباً ؛ وحدتها تنتسب إلى الله سبحانه .

(١) لأن تعريف الفاعل عند الحاجة هو : كل اسم مرفوع سببه فعل متعمد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٨٤٥

فمثلاً : إذا سُئِلت : مَنْ صَنَعَ الكرسي ؟ تجيب : النجار . وإن سَأَلت
النجار : مَنْ أَيْنَ أُنِيتَ بالخشب ؟ سيجيب : مَنْ التاجر . ومسئول لك
التاجر أَنَّهُ استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة في الوجود ، لا بد أن تنتهي إلى
الله تعالى^(١) .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ
بِأَهْلِهِ ۖ ﴾ (٢٩) [العنكب]

فهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سَيرَ بأهله ؛ لأن التسيير
في كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر نحن نقرأ في القرآن قوله الحق : ﴿ وَآلَهُ هَرَأُصْحَكَ
وَأَبْكَى ۖ ﴾ (٤٢) [الحجم]

فهو سبحانه الذي خلق الصبح ، وخلق البكاء .

فمجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الصبح والبكاء وهو
الذي يقول في القرآن : ﴿ فَليَضْحَكُوا قَلِيلاً وَليَكُونُوا كَثِيراً ۖ ۞ ﴾ (٨٦) [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذي
ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق عريضة الضحك في الإنسان ، تجده الله
سبحانه .

(١) يقول عز وجل ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ بِمَضَلِّ الْآيَاتِ تَطَكُّمٌ بِهَاءٍ وَتَكْمٌ تُوقُونَ ۖ ﴾ [الرعد] ويقول سبحانه

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۖ ﴾ [هود]

(٢) وذلك أن سعيياً قال لموسى ﴿ إني أريد أن أتكلمك إحدى اثنتي هاتين على أن تأخبرني ثمانى جميع فإن

أنت متفرد بمن عندك . ﴾ [القصص] . فقال له موسى ﴿ قال ذللتني وتيتك أيما الأهلين

قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما أقول وكيل ﴾ [القصص] . وقد ثبت في الحديث أن موسى عليه

السلام صلى الأهل الأثم والأكل وهو حشر سبعين (ابن كثير : ٢٣ / ٣٨٩ - ٣٨٧)

وغيرية الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك
البكاء فلا يوجد ضحك عربي ، وضحك انجيسى ، ولا يوجد بكاء
فرنسى ، أو بكاء روسى

إذن : فالحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء .

وقد صدق قوله الحق : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (١٣) ﴿النجم﴾
لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف . وكذلك قوله الحق : ﴿وَمَا
وُفِّتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ..﴾ (١٧) ﴿الأنفال﴾

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالشورى أن يرمى الحصى ،
ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له ، فتلك إرادة الله^(١)

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِى يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ .
لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علقت السير فى الأرض
أو فى البحر ، ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو
يحدد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه
أو بالسبابة أو بالركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ،
والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى . وأنت حين تحرك
ساقيك ، لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كم عضلة تحركت فى
جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن : فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه .

(١) هو ابن عباس وعنه الله عنهما رفع رسول الله ﷺ يديه يمين يوم بدر فقال : يا رب إن تهلك هذه
العصابة فليس تعد من الأرض أبداً فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب قارم بها من وجوههم ، فأخذ
قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من الشركيين أحد إلا أصاب حبه ومنتحريه ولحمه تراب من
تلك القبضة فلو كانوا يسيرون . أخرجه أبو نعيم (ص ١٠٤) والبيهقى (٧٩ / ٣) كلاهما فى دلائل البراءة ،
وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٢٩٤) .

وهنا ملحظ في السير في البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير في الأرض على الناحية ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ^(١) أحداً من المارة، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة؛ ليعاونه أما المرور في البحر ، فلا توجد به سابلة أو سالكة^(٢) كثيرة ، حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم.

إذن : فالمرور في البحر أدق من المرور في البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها يقول عن السير في البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَّجْنَاهُمْ بِهِمْ رِيحَ طَبَاقٍ وَفَرَّجْنَاهُمْ بِهِمْ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَمَّا أَجَبْنَا مِنْ هَدَاهُمْ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢٦) [يونس]

وهكذا لا نجد أن في الآية نفسها حديثاً عن السير في البر ، لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إرالة الخطر للمضطر في البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير في البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن يشعوى^(٣) فيه الدليل الأقوى .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَوَعَدْنَا الْإِنْسَانَ بِرَأْدِهِ [حَمَاتًا] ﴾ (٢٥) [الأحزاب]

وجاءت كل الخيشيات بعد ذلك للام ، وسم يأت بأي حيثية للأب ،

(١) يستصرخ يصرح طالباً العون والفرج والصيحة الشديدة عند الفرع أو المصيبة قال تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ السَّائِلُونَ بِالسَّابِلِ فَاصْبِرْ لَهُمْ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [النقص] وقال ﴿ وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدِّرُونَ ﴾ [س] والصريح للعبث [اللسان مادة (صرح) يصرع]

(٢) سبل سابلة طريق مسددة والسابلة أبناء السبل للحنف على الطرق في حوائجهم ، والجمع السرايل والسلوك مصدر سلك طريقاً ومن سلكوا طريقاً فهم سالكة قال تعالى ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ [طه] [اللسان مادة (سبل) ، (سلك)]

(٣) شوى إليه انقسم ولحقا وينصوي في الشيء . يذلل به ويخرج نحوه [اللسان مادة (شوى) يصرع]

فيقول . ﴿ حَمِئَتْ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَصِعَتْهُ كُرْهًا وَحِمْلُهُ وَفِصَالُهُ ^(١) فَلَا تُؤْنَسُ شَهْرًا ^(٢) ﴾ [الأحقاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيشة الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح في الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد ينزكه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو في نطفها ؛ لا يعيه ، وهي طموحة الأولى لا يبي أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعي من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكّل ومبس ، ويبقى دور الأم في نظر الطفل ماضياً خافتاً

إذن : فحيشة الأم هي المطلوبة ؛ لأن تعبا في الحمل والإرضاع لم يكن مُذكرًا من الطفل .

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خوارطنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيشة البر وأبان بالتفصيل حيشة البحر .

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ ^(٣) ﴾

[يونس]

﴿ ١٧ ﴾

(١) الفصال : العظام . والمعنى أن ملئ حمول المرأة إلى منتهى الوقت الذي يفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة وليد أي قطعت . وقال تعالى : ﴿ حَمْلُهُ أُمُّهُ وَحَمْلُ عَيْنٍ وَهِيَ وَالصَّالَةُ فِي حَامِلٍ . ﴾ [قصص] . وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْجَيْنَ لَوْلَاهُنَّ حُرُوفُ كَامِلِينَ لَعَلَّ لَرَادٍ أَنْ يَنْتَمِ الرُّضْعَاءُ . ﴾ [البقرة] [اللسان سادة (فصل) - بصرف] . وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمول هي ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة وقع أمرها إلى علي بن أبي طالب وأنها حملت ستة أشهر وانتهى زوجها بالزنا ، وبترأها على استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فهو السنة ٣/٣١٧]

(٢) الفلك : السمينة للمذكر والمؤنث والوحد والجمع ، قال تعالى ﴿ فَالْقَائِيَةُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَخْشُودِ ^(٤) ﴾ [الشعراء] جعله معروفاً ومذكوراً ، أي للركب ؛ وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرِفَهُ ^(٥) ﴾

[التين] . جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مواخير) أي : السفن . الفاموس القويم (٢/ ٨٩)

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٨٤٩

وكلمة (المثلث) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثل هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن يسجي نوحاً عليه السلام ، وأن يفرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿ وَاصْبِرْ لِفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ (٢٧) .

إذن : هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها بطائر في اللغة هي كلتا الحالتين ، فهي هي الأفراد تكون مثل : قُفْلٌ ، وقُرْطٌ وعند الجمع تكون مثل : أسدٌ .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح من بأنها طسه ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الأفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴿ (٢٥) .

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ۚ ﴾ (٢٦) .

[الحجر]

ويقول سبحانه أيضاً

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَحَ مَنَاجِبًا ثَقَلُوا عَلَىٰ سِقَاةٍ لَّيْلَةٍ مُّئْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ ﴾ (٥٧) .

[الأعراف]

(١) لواقح : حوامل ، لأنها تحمل الماء والسحاب وتحمّله وتصرّفه ، ثم تستلوه ، فهي تلقح السحاب بالماء فيخرج منه ماء ويرسل للطر وتلقح الشجر بمثلها [اللسان العرب مادة : (لقح)] وابن كثير (٥٨٤٩/٢)

والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع ، وعلة وجود ربح للشر " ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشعرها من النظر إلى الوجود كله ، هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهو الرنخاء هو الذي يمر خفيفاً ، مثل السيم الملبل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً : فيصير رياحاً قوية بعض الشيء ، ثم يتحول إلى أعاصير .

والهواء - كما نعلم - هو المقوم الأساس لكل كائن حي ، ولكل كائن ثابت غير حي ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساس للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة مثل ماطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تمريع للهواء نجاء جانب من جوانبها ، فالعمارة تنهار .

إذن: فالذي يحقق التوازن في لكون كله هو الهواء .

ولذلك نجد القرن الكريم قد فصل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وما يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ رَاجِينَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التي تسير بالهواء المتجمع في أشرعتها . وإذا كان التقدم في صناعة السفن قد تعدى الشراع ، وانتقل إلى البحار ، ثم انكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه : ﴿ رِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ تتوعد كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوة أياً كانت : من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة . وسبحانه

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويجمعه ربح غير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام ﴿ فَاصْبِرْ لَهُ الْوَيْحَ يَجْرِي بِالْفُجْرِ وَخَذْ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص] والريح الرخاء هي الريح اللينة السريعة التي لا تضرع شيئاً من مكانه . انظر [اللسان مادة (رعر)]

سُورَةُ يُوسُفَ

٥٨٥١

القاتل . ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَعِثْلُوا وَتَذِمُّوا رِيحَكُمْ ۚ ﴾ (١٦) . [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة ، وأيضاً كلعة «الريح» تسبح مع كل تسييران البحر .

وقوله الحق ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجِئْتُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ هذا القول الكريم يصم ثلاثة وفائع : الوجود في الفلِّ ، وجرى الفلِّ بريح طيبة ، ثم فرحهم بذلك ؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت في فعل الشرط ، ثم يأتي بحواب اشترط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً

أولها . ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ وثانيها ﴿ رَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وثالثها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحْبَطَ بِهِنَّ ﴾ .

أما الريح العاصف فهي المدمرة ، ويقال . فلان يعصف بكذا ، وفي القرآن . ﴿ كَعَصْفٍ ۖ مَأْكُولٍ ۚ ﴾ (٥٠) . [البل]

إذن . ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ هي الريح المدمرة المغرقة . وقوله الحق ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ .

فالموج يأتي من أسفل ، والريح تأتي من أعلى ، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب ، ويعلم أنهم يقبسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

(١) أي قوتكم ، فالريح هنا معافاة القوة ، دهاب الريح أي دهاب القوة والعفة ، والقوة هي التوازن في الحياة ، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام ، أب إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وفساداً في الأرض وفيما حكاه التاريخ وشاهدته في دنيا الواقع لأكثر جليل . وقد تطلق على الراحة ، مثل قوله تعالى ﴿ وَنَمَّا فَصَلَ الْجِبَالَ إِذَا خُلِيقَ لَهَا رِيحٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ (١١) [يوسف] ، وقد يخدم معنى القوة أيضاً ، فإن من دهب راحته من الوجود ، فقد دليل على دهب قوته

(٢) العصف المأكول التبر والعصف به معبان :

« أنه جعل أصحاب الفيل كورق أشد ما فيه من الحنّ وبنى هو لاحق فيه .

أو أراد أنه جعلهم كعصف يند أكله اليهائم [اللسان - مادة - عصف] »

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعداً ^(١) ،
وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صمحة المياه مجعدة ، بل
مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة
لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم .

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه
يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۖ﴾ . [البقرة ١٧٦]
أي : ليس هناك منفذ يفلتون منه .

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ،
بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريباً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله
الذي أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها ^(٢) .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله . أهناك دليل
على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك ؟ فيجيب
السائل : تاجر أبحر في البحر . فسأله سيدنا جعفر : أو لم يحدث لك فيه
حال ؟ قال الرجل . بئس حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال :
حملت بضائعي في سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وعرفت السفينة
وتعلقت بلوح من الخشب . قال سيدنا جعفر : ألم يخطر على بالك أن تفرغ
إلى شيء ؟ قال الرجل . نعم . قال سيدنا جعفر . هذا الصانع الأعلى .

وكذلك لجأ هؤلاء الذنبي كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم
الريح ، وعلا عليهم المرج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

(١) المراد بتجعّد سطح الماء التوجّعات التي يبدو على سطح المياه إذا هب عليها الهواء .
(٢) لأن فطرة المشاكك الأول استجيب للإنسان عند الحاجة وعند إضاح الحقيقة يقول الحق - ﴿وَمَنْ سَأَلَهُمْ مَنْ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ﴾ [التكوير ٢٢] ، فهذا القول نابع من الفطرة التي غابت عنهم من
رحمة الغفلة ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار .

وتعالى عنهم - وهم في مثل هذه الحالة : ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١)
وهذا يعني أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْهُ بِإِحْلَاصٍ وأَقْرَبُوا بِوَحْدَانِيَّتِهِ ،
وَالْأَشْرِيكَ لَهُ أَبَدًا ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا لشريك لي يَنْفَعَهُمْ أَبَدًا .
ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم . ﴿لَئِنْ آمَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ﴾ مهل وتَوَّأ بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك .

﴿فَلَمَّا أَنْجَمَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا
النَّاسُ لِنِعْمِ بَغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢)

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتي «إذا» الفجائية توضح لنا أنهم
لم يتطروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو نحو فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ،
وبحسب نتيجة لصراعة ، لا ، بل بغوا^(٣) - على الغرر - في الأرض ﴿فَلَمَّا
أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

والنبي : هو تجاوز الحد في الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج
أى شيء عن صلاحه ، يقال «بغى عليه» ، فإن حضرت طريقاً مُمهّداً ؛
فهذا إفساد ، وإن ألقيت بنمالة^(٤) في بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد
وبغى ، وأى شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته ونظراً عليه بما
يفسده ؛ فهذا بغى .

(١) النبي : الظلم والفساد والكبر والاستطالة على الناس والإيذاء والمجور وأصل البغي مجاوزة الحد قال
تعالى ﴿وَأَوْسَطَ اللَّهُ فَرْقًا بَيْنَهُمْ لِيُبَاحِيَ الْأَرْضَ﴾ . (التوبة) . وقال ﴿فَلَمَّا بَغَتْ لِحُلُمُهُمَا
عَلَى الْآخَرِى قَاتِلُوا الْبَاقِىَ﴾ . (٢٥) (الحجرات) [اللسان مادة (بغى) - بصرف] .

(٢) حاية النبي : بغيته وأرغاه . والنمالة : ما خرجت من الشيء لربكته . والمراد بالنعاية هنا : الفضلات وكل ما
من شأنه تلويث الشيء وإفساده [اللسان - مادة (بغى) - بصرف]

والبعض : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القاتل : ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ قَبْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ (٢٦) .
[التقصير]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى الممثلة في الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، يقول ﷺ : «أسرع الخير ثواباً : البر وصلة الرحم ، وأسرع اشر عقوبة : البغى وقطيعة الرحم»^(١)

والحق سبحانه لا يزخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما في الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا في رضا ورخاء ثم يموت بخير ، فكل من يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً في الدنيا ، سوف يستشري في الظلم .

ولذلك نجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم في الدنيا وأن يرى الناس نهيته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لحراء الآخرة ؛ لشقى المجتمع بمن لا يضمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم في الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار في الآخرة .

ويقول ﷺ محذراً : «لا تبغ ، ولا تكن باغياً»^(٢) .

فالباعى إنما يصنع خطئاً في توازن المجتمع والذي ينبغي إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بنتائج من غير كد وعمله ، ويتجهز إلى إنسان يحترف

(١) أخرجه ابن ماجه في مسنده (٤٦١٦) وابن عدي في الكامل (٧٠/٤) ط دار الفكر ، والذهبي في ميزان الاعتدال (٢٨٣١) من حديث عائشة ، كلامه في ترجمة صالح بن موسى الطلحي ، وهو كوفي ضعيف ، وقال ابن عدي لا يعتمد الكذب ، ومما ينعى الحديث يؤخذه .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين (٣٣٨/٢) عن أبي بكر ، وقال صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

مرص الإتاوات " على الناس ، ويكسل عن أى عمل خير ذلك . وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض من يفترون بقوتهم الحسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات) " يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بدل جهد فى عمل شريف .

والسنى - إذن - هو عمل من يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يبع عليهم ظلم السعى ، إنما يرهدون فى الكدّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس فى الكدّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح العالم معها تعطل ؛ ولذلك قل الحق سبحانه : ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ . [يوس]

ولقد ائبل أن يسأل : وهل هناك بعى بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن ابعى اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشىء الصالح ، فنسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، وتعدّد لك أسباباً لهذا السعى ، فهذا بعى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته .

ومثل السنى بحق ، أقول : ألم يستول السى ﷺ على أرض وبى فريضة ، وأحرق ررعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم ؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

(١) إتاوات : جمع إتاوة وهى قدر من المال يُلْفَعُ عصاً واحداً - بدون وجه حق - إلى ذرى السطوة والتسلط وهى شبه الكورس .

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان سحرى ليتعد من قوته بهديماً بلائى واسطو على ممتلكات الناس وتحويلها للناس . وهى لغة العرب : البغى : هو الشايت القوى والعتى : القبيح ويضمه على القلة شبه . وهى الكترة فتياك ، والأمة فتاة ، أجمعها تتياب . والفتوة عرفت عند العرب بأهل النجدة والمون والاعتبات ، ولكن هذه الكلمة أطلعت على كل سحرى ومجترى الإسند .

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أوسى من ذلك .

وهكذا يرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق . ولذلك يسمي الله
حزاء السيئة سيئة مثلها ^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ ﴾ (١٩٤) [البقرة]

، يسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء ، بل ردّ الاعتداء .
ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ،
فيقول ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢٣)

[يونس]

وهو بين الله سبحانه وتعالى وكأنه يحاطب الباغى : يا مَنْ تريد أن تأخذ
حق غيرك ، اعلم أن قصارى ^(٢) ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع
الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية ^(٣) .

وانت إن قارنت ومن المتعة المقتضية الناتجة عن البغي بزمان العقاب
عليها : وجدت أن المتعة وخيرصة هيبة بالنسبة إلى العقاب الذي سوف تتله
عليه ولا تأخذ عمرك في الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق
سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السواب ، لكن
عمرك فيها محدود .

(١) وذلك من نحو قوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (٤) [التنوير] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو
مصطلح بلاغي مؤداه ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صيحته ، فالجزاء هنا حق لا يوصف بأنه
سيئة ، ولكنه سمي هكذا لما تشابه معه . انظر «الإيمان في علوم القرآن ٣ / ٢٨١» .

(٢) قصارى الشيء آخره وعاقبته وهي من معنى الفصر ، أي الحبس ؛ لأنك إذا بلغت النهاية حَبَسْتَكَ
[اللسان مادة (فصر) - بتصرف] .

(٣) ومن أدلة المصعب والبيبي بحسب الحق من روى ابن مسعود قال : قال رسول الله ، أي الظلم أعظم ؟
قال : نوع من الأرض يتفحصها الرب المسمم من جن أخيه ، فليس حصاة في الأرض يأخذها أحد إلا
تؤذي . - قوله «تفحصها إلى قعر الأرض» ، ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها . أخرجه أحمد في مسنده
٣٩٦ / ١ ، والطبراني في معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦) قال الهيثمي في المجمع (٤ / ١٧٤) : الإسناد
أحمد حسن .

فاربأوا^(١) على أنفسهم واهتموا أن مناع الديب قليل ، إن كان هذا المناع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المنعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم في الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية في الدنيا ، ولكن ليقصر كل واحد منكم عمره في الدنيا وهو محدود .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى: ﴿ قُلْ هَاجِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ۖ ۞ (٧٧) ﴾

[النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه ﴿ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ۖ ۞ (٧٢) ﴾ [يونس]

وقد يتمثل جراء النعي في أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه في حير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائماً لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم من الخير ؛ لفس عليه بالظلم

وعلى غرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، محد الحق سبحانه يقول ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ۖ ۞ (٦٢) ﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لم يظلم أو بظلم فكل منكم سوف يلتقي ما ينشئه به الله سبحانه إن ثراباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق: ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ ۖ ۞ (٦٢) ﴾ [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبي الجراء من قس أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل

(١) رماؤا على أنفسهم - حاصلو عليها وأبعدوها من كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب في الآخرة وفي الحديث : « على وثلكم كرجل ذهب يرمي أهله أي بحصصهم من عدوهم [اللسان مادة (ربأ)] »

(٢) لانساء الاحبار الهامة قال الحق ﴿ تِلْكَ الْفَرَى تَقَعُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ۖ ۞ (١٣) ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ۖ ۞ (٦٧) ﴾ [الأنعام] أي . لكل خبر حتم وقت أو مكان يقع فيه في التنبؤ أو في التنبؤ وبأشياء مثل أنباء والتعصيف بعيد المبالغة والتكرار قال الحق ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۖ ۞ (١٤) ﴾ [المائدة] - القاموس القوج ج ٤ ص ٢٥٠ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن نبي ذكر البيا مقدماً تقريباً لمن يظلمون أنفسهم بالبغي

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ يَسَاباً كُلُّ النَّاسِ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَهَا أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتَنَاهَا أَتْرَفًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَعْبَ إِلَّا لَافِسٌ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

والماء الذي ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى والسقى ، لأن المياه لوجوده في الوجود ، هي محازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التي تحول الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عذناً مقطراً صالحاً للشرب والرى .

(١) الزخرفة الزينة ، قال ابن سيده الزخرف الذهب ، هذا الأصل ، ثم شئ كل عمرة مروره . وبيت مرعوف ورعوب البية ربه وأكسبه ومن الحديث أن النبي ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فشحى . وبوله تعالى ﴿ إِذْ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ (٢٦) [يوسف] المراد بالزخرف هنا زينة الحياة الدنيا وسماها إرغال الذي يخدع مريف أعين العاقلين عن الآخرة وما فيها من عظيم مقيم [اللسان مادة (زخرف) - بتصريف] وقال الفرطى زخرفها ، أي حُشِنَت زينتها والزخرف كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبي ٢ / ٢٢٥٤) ولأن ابن كثير زخرفها ، أي زينتها الغاية وزينت ، أي حُشِنَت يخرج في رباعها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير: ٢ / ٤١٣)

والحق سبحانه يقول هما . ﴿كَمَاءٍ اَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْاَرْضِ﴾ (٢٤)

[يرش]

والاختلاط : اجتماع شيتين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن
تعزل هذا عن ذلك ، فإن حاطت بعضاً من حبات الصول مع بعض من
حبات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أياً منهما عن الأخرى ، ولكن
هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما يعصر ليمونه على
ماء محلى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جريء من الليمون والسكر
فى جزئيات الماء .

وهما يقول الحق سبحانه : ﴿كَمَاءٍ اَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْاَرْضِ﴾ وقد يفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات -
كما نعلم - ككثير من مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق
سبحانه . ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٢١)

[لأنه]

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «ماء» الخلط ، و«ماء» السببية^(١)
هالبا هنا فى هذه الآية هى باء السببية ، وبذلك يكون المعنى : فاختلط بسببه
نبات الأرض . وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تعطى
الأرض ، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى
بالزروع ، وكلها مخلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا
دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية ، وهذا نتيجة
تفاعل الماء مع التربة .

(١) الباء حرف يجر الاسم الظاهر والمصدر ، ويقع أصلاً أو زائداً ، ويؤدى عدة معان : أشهرها خمسة
عشر ، هى الإلتصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدي ، والظرفية ، والعموم ، والمصاحبة ،
والتبعية ، والمجاورة ، والاستملاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بذل) ، وأن تكون بمعنى
كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك فى النحو الراى (٢/ ٩٠ - ٩٧)

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنبت نجد تبتة في منطقة من لأرض ،
وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف امصرى أثناء زراعة
الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلح» أى : أن كل عود من أعواد الذرة
يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض .

إذن فخصوبة الأرض لها أساس هام في الإنجاب والماء موجود لإذابة
عناصر الغذاء لنبات ، فتتشر بها جذور النبات .

وإن سمحت لك الظروف بريادة المراكز العنمية للزراعة في «طوكيو»
أو «كاليفورنيا» : فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ،
تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ، لأنهم وجدوا
أن أى نبت يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة في
المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين في المائة من وزنه .

إذن : فالنظر انازل من لسماء خلال الهواء هو الذى يلبي عناصر
الأرض ، ليمتصها النبات .

ولحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل : هو قول
شئ منضربه بمؤكله ، أى : شئ نريد أن نمثله بشئ ، ولا بد أن يكون
الشئ الممثل به معلوماً ، والشئ المأخوذ كمثال هو الذى يريد أن يوضح
صورته ، ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً
بمعلوم .

ونجد من يقول لك : ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول : لا أعرفه ، فيرد عليك
صاحبك : إنه مثل فلان في الشكل ، وهكذا عرقت المجهول بمعلوم .

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه
الناحية ، وقالوا : إذا كان الشئ مجهولاً ونريد أن نعرف به ، ألا نعرفه

معلوم ؟ فما بال الله سبحانه وتعالى يقول في شجرة الرقوم ^(١) : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا ^(٢) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [المائدة]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الرقوم ، وهي شجرة في النار لا تعرفها ، فيعرفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رؤوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثل مجهولاً بمجهول ، والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذي يتكلم هو الله تعالى وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثل لنا شجرة الرقوم شيء شع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان ،

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ، حتى لا ينقص التشبيه ؛ لأن الشيء قد يكون شعاً في نظرك ، وغير بشع في نظر غيرك ، ويريد الله سبحانه أن يشع طلع شجرة الرقوم ؛ فاحترار الشيء المتفق على بشاعته ، وهو رؤوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما يفكر منه وبقبحه ، وهكذا تتجلى عظمة الحق سبحانه في أن جعل شكل الشيطان مهماً ^(٣)

وأما المثل الذي نحن بصددده هنا وهو تشبيه الحياة لدنيا بأنها كالماء الذي أنزله الحق سبحانه من السماء فاحتلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكل ما يدرك فثرة منها ، ونسم يدرك أولها ، وقد لا يدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

(١) شجرة الرقوم هي الشجرة الملعونة في القرآن ، قال تعالى ﴿وَلَا جَعَلْنَا لَهَا فَيْئَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ (٦٦)﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنها تخرج في أصل جحيم . وتعرفها هو الرقوم وهو طعام أهل النار . [اللسان : مادة (رقيم) - بتصرف]

(٢) الطلع خلاف يشع الكور . ينفتح عن حب تنوره . هي مادة إحصاء النحلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)]

(٣) مهماً حقيقياً وامتهم الأمر إذا استعلق والمهم معنى كذلك لأنه أبهم من البيان فلم يجعل عليه دليل . ومنه قيل لا ينطق «بهيحة» [اللسان : مادة (بهم)]

الذي يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا في مثل معروف لنا جميعاً ، ونذكره جميعاً ؛ فنذكر ما سبق ، وما يلحق ، فكل شيء يأخذ حظه في الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهي ، كذلك الدنيا .
يقول الحق سبحانه :

﴿ كَمَاءٍ أُنزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّتْ وَرُتِنَ أَهْلِهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ۖ ﴾ [يونس]
والزخرف : هو الشيء الجميل المستعمل للنفس وتُسرى به حينما تراه ، وتزين الدنيا بالألوان المتوعة في تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً ^(١) وهذا ما نراه في حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وبعالي مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة امرئية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزيتها
واحق سبحانه هو المقاتل .

﴿ لَلْبَطْرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۚ ﴾ (٢٤) أَمَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَبْنَا وَقَصَبًا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَنَخْلًا (٢٩) وَجَدَاتٍ عُلا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا

(١) حصيداً : محصوده مقطوعة لا شيء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبي ٣٢٥٤ / ٤]

(٢) قال الحسن البصري : القصب ، العلف الذي يأكله الدواب [تفسير ابن كثير ٤ / ١٧٢] .
(٣) جداتٍ : أي : بساطين وقيل من نخل غلاظ كرام وقيل هي الشجر الذي يستظل به [تفسير ابن كثير ٤ / ١٧٢]

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الخشيش للبهائم وقيل الأب الكلال . [تفسير ابن كثير ٢ / ١٧٢ ، ١٧٣]

جاءت الصَّاحَّةُ^(١) (٢٢) يَرْمِيَنَّ الْمَرْءَ مِنْ أَحْيِهِ (٢٤) وَأَعْمَهُ وَأَبِيهِ (٢٥) وصاحبه
وبنيه (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْتِيهِ (٣٧) ﴿

إذن فالدينا كل جمالها الذي تراه إنما ندوى^(٢) ، وما يراه من يدعي
ألوانها إنما يدل ، ومهما ازدادت الدنيا فهي إلى زوال ، فإياك أن تسمى ؛
لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التي
ينزل عليها المطر ؛ فتبت لأرض الأزهار ، ثم يدوى كل ذلك .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ
(١٧) وَلَا يَسْتَشْعِرُونَ (١٨) فَطَالَ عَلَيْهِمْ طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ^(٣) (٢٠) ﴾ [الأنعام]

إذن : بالدينا بهذا الشكل وعلى هذا الحال

(١) الصَّاحَّةُ : قال ابن عباس : هي اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره . وقال البصري : الصَّاحَّةُ
هي صيحة يوم القيامة ، سُمِّيَتْ بذلك ؛ لأنها تصيح الأسماك ، أي : تطلع في إسماعها حتى تكاد
تصيح . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٣]

(٢) ندوى : ندس . فدى : استأ . أصابه : غمر . والعش : لثيل . يستعف : يدوى . عود النبات : هي
[اللسان مادة (دوى)] .

(٣) هذا مثل سريره الله تعالى لكفار مريض ميمما أمدى إليهم من الرحمة المضيئة وأعطاهم من النعمة
الجميلة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فهابوه بالكذب والرد والبخارية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا
بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي : اختبرناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهي البساتين المشتمل على أنواع الثمار والعذائق
﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : حلفوا فيما بينهم ليجعلن نمرده (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم صبر
ولا سائل ؛ ليعرثر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه شيء . ﴿ وَلَا يَسْتَشْعِرُونَ ﴾ أي : فيما حلفوا به ، ولهذا
حسبهم الله في أيامهم ، فقال تعالى : ﴿ طَالَ عَلَيْهِمْ طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي : أصابتها أمة
سماوية ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عباس : أي كالدين الأسود . وقال الثوري : والندى : أي
هشياً يساً ، [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٦] .

وهنا يقول الحق سبحانه ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارْتَبَتَ (٧٤) ﴾ [يوسف]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة . ألم يقل الحق سبحانه في قصة العمد الصالح ﴿ فَاسْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَا أُمَّةً قَرْيَةً اسْتَطَعْنَا أَمْنَهَا فَايُورُ أَنْ يُصَبِّغُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ (٧٧) ﴾ . [الكهف]

فهل يملك احدار إرادة أن ينقض ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ، نوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعالات تناسبه . وقد صرب الحق سبحانه لنا في ذلك صوراً شتى ، فنجد أن الشيء الذي يحزُّ على عقولك أن تفهمه يبرز لنا بيان من الله تعالى .

ومثال هذا . معرفة الهدهد في قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أحمر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية ملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكان الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ (٢٥) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . ﴾ [النحل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو حائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصص ما تكون ؟ لأن الحق سبحانه أواد أن يبين لنا أن هذا

(١) يريد أن يفتن الانقياض السوط بسرعة وإضافة إرادة لانقياض إلى الجذر مجاز عن قرب سموته ، وذلك على الشبيه بحال من يريد الفعل ، وفي كتاب الله قوله ﴿ وَلَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ (٢٥) ﴾ [الأعراف] وقوله . ﴿ إِذْ هَمَّ الْأَمْرُ (٢٦) ﴾ [محمد] تفسير سورة الكهف للشيخ محمد محمد المدي - بصرفه

(٢) الحب . ما غيبي . والخباء الذي في السموات هو المظن ، والخباء الذي في الأرض هو الباطن . وفيه الحب كل ما غيبي ، يكون المعنى يعلم الغيب في السموات والأرض [اللسان: مادة (خبا)]

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهو عما هي التي تفسد العقائد ، ومن أعطاه الله سبحانه الدلائل هو الذي يفسد الاختيار ما دم لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يحتار في ضوء منهج الله تعالى .

وحس نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا يجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتحمة^(١) ، ولا نجد حميراً يقصر فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه^(٢) ؛ ليفقر فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها^(٣)

إذن . فمحزن مأهولنا التي تسيطر على غرائزنا توقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم يحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى . ونجد في مثال الهدد صماء عقدياً في التوحيد كأصمى ما يكون المتصوفة ، ويأتى بما يهيم ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأن الخبء هو ورق الهدد ، فهو لا يأكل من الشيء . لظاهر على سطح الأرض ، بل يصرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه يد يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالتمية التي قالت . ﴿يَسْأَلُهَا النَّاسُ أَذِلَّةً وَلَهُمْ مَسَافِكُهُمْ لَا يَحْطُمُونَ سُلْجَمًا وَجُودُهُ وَهُمْ لَا يَسْهَرُونَ﴾ (١٨) .

[النمل]

(١) التحمة الذي يعيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه أي استغله . وقد تطلق التحمة على كثرة الطعام والزيادة في الأكل والشرب حتى يتثقل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالزحم والفتق وهضم القدرة على الحركة [اللسان مادة زحم]

(٢) الساعد بمعنى الزيد من عند المرفق إلى الرسغ والساعد ساعد الذراع ، وهو ما بين الزيد والمرفق ، سعى ساعداً لمعدن الكف وجمع الساعد ساعداً [اللسان مادة سعد]

(٣) وقد تصدى قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَلَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٦) [الأسراب] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أحياتها من النمل طمعاً بهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم .

إذن : كل كائن في الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الأفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن ، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان .

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، وحيوان له حياة تناسبه ، والجناد له حياة تناسبه ، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له .

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ..﴾ (٤٦) [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوي لموت . والحق سبحانه بصور الحالة يوم القيامة فيقول : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (٨٨) [الفصل]

إذن : فالجناد هالك ، ولكنه يتنعم بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والأفة أن الإنسان يريد أن يعرف الحياة التي في الجناد كالحياة في الإنسان .

و نظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَطَنَّتْ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَا هَٰذَا أَمْرًا قِيلَ أَوْ نَهَادًا﴾ (٧٤) [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم وينبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه . ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٩٧) أو أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى .. ﴿ (٩٨) . [الأعراف]

إذن ، فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء ، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل ،

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فجعلناها حصيداً ﴾ (٩٩) كأن لم تكن " بالأمس (٩٨) . [يونس]

أى : كأنها لم يكن لها وجود .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ كذلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ ﴾ (١٠٠) [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملة الزرع في الأرض الذي يسمو ويردهر ويردان ، ثم ينتهي ، ألا يجب أن تتجه إلى أن كل رحرف إلى روال ، وعلب ألا تفتت بريبة الدنيا ومبعضها في شيء ، وأن نحرص على ألا نبقى في الأرض ؛ لأن البقى متاع الحياة الدنيا ، وهي إلى روال (١٠١) .

ونجد القرآن يأتي بذكر التفصيل للآيات ، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم « يتذكرون » ، أو « يتذكرون » ، أو « يعقبون » ، أو « يتدبرون » .

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد في مراحل متعددة ، فالتعقل :

(١) الحصيد والحصد : زرع المحصول بعد ما يحصد ، والمراد بالحصيد هنا تشبيه وتصوير إهلاك الله للأرض في نهاية الدب بما يحدث عند حصد الساب من اتلاعه ونقطيعه [اللسان مادة (حصد) - تنصرف]

(٢) ﴿ كأن لم تكن بالأمس ﴾ أى : لم تكن هامة ، والعائى هي اللغة - المنازل التي يجرها السي . وقال قتادة : كأن لم يسم وقرأتده (يعنى) بالياء ، يذهب به إلى الزخرف ، يعنى : فكما يهلك الزرع فكما كذلك الدنيا [تفسير القرطبي ٤ / ٣٢٥٤]

(٣) بقول الله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا لَابٍ ﴾ (٧١) ويعنى رجاً رنك ذو الجلال والإكرام (٧٢) [الرحمن]

هو أن تأتي بالمقدمات ؛ لتستنبط ولتتري إلى أي نتائج تصل والتذكر
يعنى : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكر : هو أن تعمل الفكر
والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكير . والتدبر^(١) هو
ألا تنظر إلى ضواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية في أي أمر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ ﴾ (٨٦) . [انساء]

أى : اجعل بصيرتك تمحص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع
والمصير إلى الله تعالى والعاقل هو من يعد نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد
يرحق نفسه في الدنيا الفانية ؛ ليستريح في الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة
لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان في الدنيا مقنون ، ولا يعرف
فرد هل يحيا في الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالّت الدنيا مع كل الخلق فهي منتهية ، والنعيم فيها على قدر
إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهي بلا نهاية ،
وأمر الإنسان فيها متيقن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده
سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذلك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحت كفته
الآخرة

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ^(٢) لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) . [العنكبوت]

(١) التدبر في الأمر التفكير وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وخلال ما يمرى قبل الأمر من دياره ،
أى : أو كنه من آخره ويقال : إن فلاناً لم يستقبل من أمره ما استلزمه لهدى توجهه أمره ، أى : لم يعلم
في بدء أمره ما علمه في آخره . لاسترشاد الأمر . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انبَعَثَ أَهْبَاقُهَا
وَلِيَتَذَكَّرَ أُولَئِكَ الْأَنْبَاءُ ﴾ [ص] . [اللسان مادة (دبر) - بصرف]

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ (٦٤) [العنكبوت] أى : من الحياة الدائمة التي لا روال بها
ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الأبد [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢١]

وفي قوله سبحانه ﴿لَهِيَ الْخَيْرَانِ﴾ . مالة هي كونها حياة لا فناء فيها .
فاتبع مبع الله سبحانه ، يأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من
الآفات . واصمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأعيار ، وَصَحْ يَدُكَ فِي
يَدِ مَنْ يَدْعُوكَ إِلَى دَارِ السَّلَامِ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ودار السلام . هي الآخرة التي تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمناعب ،
هذه الدني التي ترهر وترخرف ، وننتهي إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله
نعالى إلى دار أخرى ، هي دار السلام ؛ لأن من المنعصات على أهل
الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ،
ولكن هي ظل أرق من أمرين : الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم
وهو حي ، والثاني أن يفوت هو النعيم

أما الآخرة فالإسناد بها في نعم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه
﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاعب فيها أحدٌ لآخر ، ولن نجد من يأكل عرق غيره

(١) دار السلام هي الجنة ؛ لأنها دار لآمان والسلامة من كل سوء يقول الحق ﴿وَلَمَّا جَاءَكَ الدِّينُ يَأْمُرُكَ
بِأَلَمَاتِكَ قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (٥١) [الأنعام] وسيم تأتي لعان منها ألقى السلام وتقاد وأذن ، وسلمه
الله بعه وسلمه الآمان أوصلها لصاحبها وأدها لله مَسْلُمة ، يقول الحق ﴿مُسْلِمَةٌ لِأَهْلِهَا فِيهَا
(٥٢)﴾ [البقرة] وأسم قلبه بضم و اسم - دهن في دين الإسلام ، يقول الحق ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ
اسْمُ قَالَ اسْمُتْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٣) [البقرة] القاموس الترميم ج ٢ ص ٣٢٥

مثلاً يحدث في الدنيا^(١) ، وإذا كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله ، فنحن في الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى ، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فلذا كانت الأسباب تتسوع في الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فربهم في الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ، لأن دار السلام هي دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام .

ولله المثل الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولي أمرك إلى داره ، فهو يعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فيما بالك حين يدعوك خالفك سبحانه وقد اتبعت منهجه إله سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاعْتُهُونَ ^(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ^(٥٦) هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ^(٥٧) سَلَامٌ هَؤُلَاءِ مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ^(٥٨) ﴾ . [س]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يَكُنْ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

(١) وفي هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ^(١) إِلَّا أَهْلًا سَلَامًا ^(٢) ﴾ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه قبح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أي تسليمهم على بعضهم ، وهي دار السلام .

(٢) ﴿ فِي شُغْلٍ فَاعْتُهُونَ ﴾ : سرفهون ما همون بشم الجنة . قال تعالى : ﴿ فَاعْتُهُونَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ^(١) ﴾ [الطور] ، [اللسان : مادة (فك) - بتصرف] .

(٣) ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴾ : قال المفسرون : الأرائك : السُرُرُ في الحجال ، وقيل : هي العُرُشُ وقيل : الأريكة سرير متجدد من في قبة أريكة وقيل : الأريكة : هو كل ما اتكى عليه من سرير أو فراش أو حصة قال تعالى : ﴿ مُتَكِفِينَ لَهَا عَلَى الْأَرَائِكِ سَمِ الْفَوَابِ ^(١) ﴾ [الكهف] [اللسان : مادة (أرك) - بتصرف]

من الأعيار^(١)؛ فيتعير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوز شيء ، ولا تلحقه أغير ، لذلك يقول سبحانه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ.. (٢٤)﴾ [الرعد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف^(٢) الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة في سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعي هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقص سلامه .

ودعوة الله سبحانه هي منهجه الذي أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وفق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذي يرهق الناس في الدنيا أن يعصر الناس يعطلون جرئية أو جرثبات من منهج^(٣) الله سبحانه

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء في أي جهة ؛ فاعلم أن جرماً من منهج الله تعالى قد عطل .

(١) فالسلام عند أهل الأعيار يتغير حسب المصالح ، أما سلام الله فلا يتحقق التغيير ولا التبديل ، لأن وعده الحق ، وهوله الصديق ؛ وهو السلام ، ومنه السلام .

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم ساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيقعون بين الجنة والنار يوم القيامة ، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك ، ينظرون عمود الله عنهم ، وعيهم قال سبحانه ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا سِمْطَهُمْ وَنَاهُوا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَئِنُّونَ (٤٦) وَإِذَا سُورَتْ أُنْصُرُهُمْ فُلْكَاهُ أَصْحَابُ النَّارِ فَلَوْ رَأَوْا لَا تَحْطَفُوا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [الأعراف]

(٣) منهج الله تعالى طريقه وشريعته ، قال تعالى ﴿لَنُكَلِّمَنَّكَ مِنْ شَرْعٍ وَنَهْجًا (٢٨)﴾ [المائدة] فقد وضع منهجاً لدروح سموا ، ولقلب حيا ، ولغسل سكة وللصل فكرآر مأملاً ولجسم حركة ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بمقيدة توحده ، وعادة تحبه وتعيشه بمعاملات بأخلاق مؤدا احلب طاقة من هذه الطاقات سبب سيانه أو علة تعطل السير في المنهج نحو الله جل علاه

ولو أن أناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالرجود عورة واحدة ؛ فالذي يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه .

وأنت إن رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلم أن هناك مَنْ عطل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمروا^(١) بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى في هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه .

أما إذا سيعر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الخنة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . ويعلم أن الهداية نوعان : هدية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل لعبده من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ۖ ﴾ . [يونس]

إذن : فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهي المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فخلق سبحانه يجعل له نوراً يسمى بين يديه : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ۖ ﴾ . [التحریم]

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢٥) [يونس]

لأن كل شيء في هذا الكون لا يخرج عن مشيئة سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذي يحكم كل شيء .

وإذا كان الله قد بين من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بين لنا من شاء إصلا له بقوله سبحانه . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٧) . [التوبة]

(١) استمروا استحسروا الشيء واعتادوه [اللسان : مادة (مرا) - يتصرف]

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) . [الترجمة]

إذن : فقد بين الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم ، فلا يقول أحد : وما دب الكافرين والفاسيقين ؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه ، فمن أخذ به : جعل له نوراً يسمى بين يديه ، ويدخله الجنة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

وكلمة ﴿الحسنى﴾ مثلها مثل قولنا : «امرأة فضلى» ويقول أيضاً امرأة كبرى ، وهى أفعلى تفضيل ، أى . مهالعة فى الفضل^(٢١) .

والمقصود بقوله سبحانه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى : بالحوارى أداء الحسنات ، والحسنة كما تعلم بعشرة أمثالها ، وهما يقول الحق سبحانه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة ؟

يقول هى عطاء رائد فى الحسنات ، فهناك «كادر» للجرا بالחסنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى مائة ضعف ، أما السيئة

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا وتحبيرة يوم القيامة أعنى (١٠٤) قال رب لم حسرتي أعنى وقد كتب بصيراً (١٢٤) قال كذلك أتتك آياتنا فسبها وكذلك اليوم نسى (١٣٥)﴾ [طه]

(٢) أفعلى التمهيل اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئاً اشتركا فى معنى ، ورد أحدهما به على الآخر مثل أحسن أفضل . أكبر فى مثل قول : يعيم الأجرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا وعند الثمانى تصابع الكلمة على وزن (فعل) مثل (حسى - فضلى - كبرى . انظر تمهيل ذلك فى (الحجج الأولى - ٣ / ٣٩٤ - ٤١٥) .

فبواحدة^(١) . وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء .

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه في أن الشيء يساوي الشيء ، وفضل الله تعالى في أن يحري على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما تتصور .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (٥٨) [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله : إن الزيادة المقصودة هي في العشرة لأمثال والسبعمئة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك .

وهكذا تعدد مراتب الجراء . فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمئة ضعف ، والحسن ، والزيادة عن الحسن ، وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك : «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم . فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من انظر إلى ربهم عز وجل»^(٢)

ثم يقول الحق سبحانه . ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قُفْرٌ وَلَا ذُلٌّ﴾ أي : لا يغطي وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٤٤) إلى ربها ناصرة (٤٣) .

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال قال الله عز وجل . «إذا هم بعيد يعمى ولم يعملها كتبها له حسنة ، فإن عملها كتبها عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف ، وإن هم بسية ولم يعملها لم أكتبها عليه ، من عملها كتبها سيئة واحدة» أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٨) والبخاري في صحيحه (١٤٩١) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد في مسنده (٣٣٩/٤) والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومي

وهو سبحانه القائل ﴿وَوُحُوهُ يَرْمِدُ عَلَيْهَا عِبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (٤١) .
[مهم]

وترهقها، أى تغطيها ، وفترة تعنى الغبار ، وهى مأخوذة من القُتَار وهو الهواء الذى يمتلئ بدخان الدُخَان المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أحادة ويسيل لها اللعاب ، ولكن من يوضح على وجهه هذا العتار يصنع له طبقة سوداء .

ويقول الحق سبحانه ﴿وَلَا يَرْمُقُ وُجُوهُهُمْ قَهْرٌ وَلَا دَلَّةٌ﴾ (٤٢) [يوس]
لأنهم اتقوا الله سبحانه وأجروا منهجه .

ويقول الحق سبحانه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ..﴾ (٤٣) .

[آل عمران]

ليس المصمود هو لون الوجه فى الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من النور وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من شرط معصية الله صار وجهه بلا نور

ويقول الحق سبحانه ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٤) .

[يوس]

أى أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أى . هُنَّ يملكونها .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك .

(١) التمر جمع التمرة وهى التمرة ونسب التمر إلى القبر . القبره خيرة . يعارجه سوداء كالدخان . والقُتَار ريح الصدر ، وقد يكون من الشَّوْء والعظم المحترق . يريح اللحم المشوى . وفى حديث جابر ، رضى الله عنه لا تؤذ حمارك بقُتَار مراك [السان : ماذا (تقر)]

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾



وما دم الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء لعمل الحسن ، فذكر مغايل الشيء يجعله ألصق بالذهن ، والحق سبحانه هو الفائز ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَثِيرًا ... ﴾ (٨٧) . [التربة] وايضاً من أمثلة المقابلة " في القرآن قوله الحق ﴿ إِنَّ لَأَهْرَارَ لِّفِي نَعِيمٍ ﴾ (٨٤) وَإِنَّ الْعَجَارَ لَفِي جَعِيمٍ ﴾ (٨٤) [لا تقدر]

إذن : فمجيء المقابيل للشيء إنما يرسّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ، فله الجنة حادداً فيها ، لا يرهق وجهه فتر ولا دلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يشع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسن الأمر عد من يقبلون الدعوة .

ولا بد إذن أن يفرح المؤمن ؛ لأنه من يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يحرج بعض من الدين ضلّوا عن الغفلة ، يهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان

وهت يقول الحق سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ... ﴾ (٢٧) [يوس]

(١) المقابلة نوع من أنواع تضاد أو الطباق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن يذكر لفظان فأكثر ثم استدعما على الترتيب ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَٰؤُلَاءِ وَلَا تَوَلَّوْاهُمْ وَلَا يَحْزَنْكُمْ أُولَٰئِكَ سَبِيلُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ هَٰؤُلَاءِ صُلُوًّا عَلَىٰ الْأَعْرَاقِ] انظر [الاتقيد في علوم القرآن] للسيوطي (٣ / ٢٨٢ - ٢٨٧) .

و نحن نعلم أن الكسب إنما يكون في الأمر الفطري وبسبب الطاعات ،
لأن الطاعة أمر مناسب وملاتم للمصرة ، فلا أحد يستحي أن
يصلّي ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الدس من يستحي
أن يُعرف أنه كاذب ، أو مُرَكَّب ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بمراحل متصارعة ؛ هلذى يسرق من
دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً
من أن يرتطم بشيء يفصح أمره ، كذلك الذى ينظر إلى محارم غيره

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشيء المخالف فيه أفعال ، أى . يحتاج
إلى اكتساب ، ولكن الكثرة أن يستمر الإنسان في ارتكاب المعاصي حتى
تصير ذرّة ، ويسهل اعتياده عليها ، فيمارس المعصية باحتراف ، فتتحول
من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الماسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛
فيروى ما يفعله من معاصي وآثام بفخر ، كأن يقول " لقد سهرنا بالأمس
سهرة تحلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا " ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب
تلك السهرة بما فيها من معاصي وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجارى مرتكب السيئة سيئة مثله ،
ويقول سبحانه ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه
وتعالى حين يعطى من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال
عنه الحق سبحانه ﴿ لَا يَرْهَقُ وَجُرْهُمُ نَارٌ وَلَا ذُلٌّ ﴾ لكن الذين لم يهتدوا
منهم من يقول الحق سبحانه عنهم ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى لن
يحجرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه لا تعذبهم

أَرَأَيْتَ إِنْ (لَا عَاصِمَ لَهُمْ) يَعْنِي 'أَنْ اللَّهُ تَعَالَى لَنْ يَأْمُرَ بِعَدِّ ذَلِكَ بِأَلَّا يُعْطَبُوا

وَلَا يُقْتَصَرَ أَمْرُهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَطْ ، بَلْ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ﴿كَأَنَّمَا
أَعْيَشْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعَةً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أَيْ . كَانَ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ قَدْ
غَطَّتْ وَجُوهَهُمْ ، وَيَكُونُ مَاوَاهِمُ النَّارِ ﴿أَوَلَيْسَ لَكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ .

هَذَا هُوَ حَالُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ ، رَتَّبُوا عَنْ
دَعْوَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى دَارِ اسْلَامٍ وَاتَّبَعُوا أَمْوَاهِمُ وَاتَّخَذُوا شُرَكَاءَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى

وَشَاءَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنْ يُجَلِّىَ لَنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي لَدُنْيَا ، حَتَّى يَكُونَ لِكُلِّ
كُلٍّ عَلَى نَصِيرَةٍ بِمَا يَحْدُثُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، لِأَنَّهُ نَتِيجَةُ حَنَمِيَّةٍ لَا حَدِّثَ مِنْ
هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا

يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ
مَّا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾

وَالْحَشْرُ . هُوَ اتَّخَذَ لِنَاسٍ مِنْ أَمَكَّةٍ مُتَعَدِّدَةً إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَاسْتَقْنَفَ
هَذِهِ الْأَمَكَّةَ الْمُتَعَدِّدَةَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْكُمَرَةِ ؛ لِيُصِيرُوا فِي الْمَكَانِ الَّتِي شَاءَهُ
اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ

وَكَلَّمَا اقْتَرَبَ النَّاسُ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ ؛ اَزْدَحَمُوا ، وَذَلِكَ شَأْنُ الدَّائِرَةِ

محيطها ، والمحيطات الداحلة فيها إلى أن يلتقى في المركز ، فانت إذا نظرت إلى محيط واسع في دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط التامع ، لتلقى بهم في المركز ؛ فلا شئ أنك كلما اقتربت من المركز ؛ والدوائر تصيق ، ويحدث الخشخشة .

فكانا سكون مردحمين اردحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون في شغل عنه يد هم فيه من أهول يوم القيامة

وقوله لخلق ﴿ وَيَوْمَ نَخْتَرُكُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع ، تؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أمداداً ، فيجمع الله سبحانه المُنَّحَذَ أمداداً ، والمُنَّحَذَ ذاك ، ويوجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعمامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبود لم يطلب من عابده أن يعبد ، أو معبود طلب من عابده أن يعبد .

لذلك يقول لخلق سبحانه ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ۖ ۝ (٣٨) ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وحمله لها ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جناً

١ عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يشتر الناس يوم القيامة حفلة عراء ، عداً لا قلب ، يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً يطرح بعضهم إلى بعض » قال ﷺ : « يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٩) والبيهقي (٦٥٢٧) فهو ل يوم القيامة هرب شديد ، حتى إن الناس يتسبون أن ينتهي يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار

(٣) اند اللئل والنظر ، والجمع أمداد قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ أَمَدًا ﴾ [إبراهيم] أي أمداداً وأتباعها وقال تعالى ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِمَّنْ خَلَقَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَمْثَلًا يُحْمَلُونَ كُتُبًا ﴾ [البقرة] [اللسان مادة (ندد)]

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن .

إذن فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم في ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

قياداً نظرننا إلى العابد الذي اتخذ لإلهها باطلاً سراء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا في الرسول وعدوه ، أو عدوا أشياء لا علم لها عن عبيدها . كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار

أما المعبود لذى له علم ، وله دعوة إلى أن يعبد غيره ، فهو يتركز في شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس

أم الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبيدهم ، فيسألهم : أنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم الهة ، فيقولون : سبحانه أنت ولينا ، وبتراؤن من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه . ﴿ وَإِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الدِّينِ أَتْبَعُوا ﴾ (١٦٦) [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم الهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قممهم الرسل عليهم السلام ، فيأتي سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِي إِلَهُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (١٦٥) [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه في القرآن الكريم ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة]

فكان هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يدع إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادعى الوهيتها ، ولكن الذي له علم ببلت الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه خاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقبِلَ الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يَبْ عَليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لأدم ، ومُتَكَبِّر ، وظن نفسه أعلى مكانة ^(١) . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٢)﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزاً أن الذين لا يقدرُونَ على أنفسهم في إخصاصها لمسهج الله تعالى ، ممن الخير لهم أن يتوبوا ، إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضع أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الأمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بيه عدم العودة إلى المحصنة .

إذن : فالمخاصمة والمُحاجة ^(٢) موجهة من إبليس للذرية آدم ، فقد أقسم

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السُّجْدَ، عَسَدٌ ؛ اعْتَرَلَ الشَّيْطَانُ يَمْكِي بِعَوَلٍ يَدَيْهِ ، أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ، وَأَمَرَتْ بِالسُّجُودِ قَائِلَتٌ عَلَى النَّارِ ، أَخْرَجَتْهُ مِنْهَا فِي صَبِيحَةٍ (٨١)»

(٢) الحاجة بمعناه واجتدال والحجة الدليل والبرهان وحجته وحاجته عليه على حجة قال تعالى ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَقُلْ اسْمُتْ وَجْهِي لِلَّهِ﴾ [آل عمران] قال الأرمزي : «إِنَّمَا سَمِيَتْ الْحُجَّةُ حُجَّةً ، لِأَنَّهَا تَخْرِجُ ، أَيْ تَقْضِي لَأَن الْقَصْدَ لَهَا وَإِلَيْهَا ، وَكَذَلِكَ مَحَجَّةٌ الطَّرِيقُ هِيَ الْقَصْدُ وَالسَّلَكُ [السان مادة (حجج)]»

إبليس بعزة الله سبحانه أن يغوى كل آباء آدم إلا الدين استخلصهم الله
لبيادته سبحانه وتعالى ، فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم^(١)

وهكذا تكون عرة الله سبحانه هي التي تمكّن إبليس - وذريته من
الشياطين - من عواية أو عدم عواية خلق الله سبحانه وتعالى

والشياطين هم الخس لعصاة ؛ لأننا نعلم أن الخس جنس يقابله جنس
الشعر ، ومن الخس من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاصي ، ويسمى
شيطانياً ، ويخدم إبليس في إغواء البشر ، يتسلط على الإنسان فيما يعلم
أنها نقطة ضعف فيه

ومن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الحما
يدخل له الشيطان من ناحية الحما ، ومن يحب الحاء يجد الشيطان وهو
يرين له الوصول إلى الحاء بآية وسيلة تنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج
الله عز وجل

وكل إنسان به نقطة ضعف في حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ،
وقد يُجنّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهيف إغراء الإنسان
لإفساده

فهذا - إذن - ثلاثة يطلبون أن يصرف الناس عن منهج الله تعالى
ودعوة الحق ؛ هؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى .
الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس في الإغواء ، وهم شياطين
الإنس الذين يعملون أعمالاً تنافى عن منهج الله تعالى

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿فَمَنْ مِمَّنْ مَعَكَ لَا مَعِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢٠) إلا عبادك منهم المخلصين (٢١) [ص] ،
وهؤلاء المخلصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم في سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، ومن
أبي سعيد الخدري في حديث أن إبليس قال : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أعزهم ما دامت
أرواحهم في أجسادهم فقال الله تعالى : وعزى وجلالك لا أزال أعزهم ما استعزوني ، أخرجه
أحمد في مسنده (٢٩/٣) وبه في مسنده (٢٩/٤) وصححه وأقره الذهبي

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومن عبدوهم من الشر؟
وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمهم؟ وهل يكون
الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبِدُوا وَنَحْنُ أَحَبُّ لِلَّهِ مِنْ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْحَارِ»
لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَلَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾
(٤٤) ﴿[الإسراء]

ويكمل العارف بالله

«اتَّخَذُوا صُمْتَنَا عَلِيًّا ذَلِيلًا»
والحق سبحانه هو لقائل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ﴾ (١٤) ﴿[البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّبُوا جَهْلًا كَمَا تَجَنَّبُوا عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِيِّ»
فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك؟ فنقول:

إِنَّ لِلْمُعَالِي حَزَاكُهُ ، وَالْمُعَالِي فِيهِ تُحْبِبُهُ رَحْمَةُ الْغَفَّارِ
وهكذا وَضَحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

(١) الأسحار - جمع السحر وهو آخر الليل قيل الصبح لسان العرب (مادة سحر) والقائمون بالأسحار هم المتعبون المهجولون بالليل

(٢) أي - اخواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالذيق الأبيض الذي يقى من اللهب (اللسان مادة حرر)

أى . جعل من المشركين مريقاً ، وجعل من الذين عُبدوا دون علمهم مريقاً آخر ، وأعلن مريق من عُبدوا دون علمهم : ﴿ مَا كُنتُمْ إِذَا تَعْبُدُونَ . (٢٨) ﴾ [يونس]

أى ما كنتم تعبدوننا بعلمنا

وانظروا إلى الموقف المخزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدري به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تصدق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضاً على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنطق الأحجار والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠) وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ غَيْبًا قَالُوا أَنْطَقَ اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (١١) ﴾ [صفت]

ويجد الصمم يوم القيامة وهو يلعن من عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجند من صاحبه إن عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلم الصمم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنتطق يوم القيامة ، فهل تعمّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرجل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخسر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقرائين الدنيا ؛ لأن كل

شيء يتبدل في الآخرة ، ألم يحرك السنة أنك ستأكل في الجنة ،
ولا تُخرج فضلات^(١) ؟

وهذا أمر غير مطلق - بقوانين الدنيا - ولكننا مؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث في الجنة ، لو فسبها بعقول على ما نعرف في الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والتقييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مطروف^(٢) بين السماء والأرض وللدنيا أرض وسماء ، والآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول ، ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ..﴾
(١٨) ﴿إبراهيم﴾

إذن فكل شيء يتبدل يوم القيامة ، فإذا حدثت أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عسدها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَافِلِينَ﴾ (٢١)

إذن ، فالكائنات التي عُبدت من دون الله تعالى تلعن رخصها لمسألة عبادتها ، وإذا كان الطير - مثلاً - في لهدد - قد أعلن من قبل بدهاشه

(١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتبولون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتغوطون ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : يشاء الله أن يرفع كرشه الملك ، يلهمون النسيج والنعماء أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٦٤)

(٢) أي أن الإنسان محل لطرف الزمان والمكان بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة في كل منهما

من أن بعضاً من ابشر قد عهد غير الله تعالى^(١) .

واستدل الهدد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصه هو من الرق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد علم الخفاء في السموات والأرض ، إذا كن الهدد قد عرف ذلك فالاستنكار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب .

ولذلك مجد الحق سبحانه يصرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ أَهَلُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ .. ﴾ (٤١) [سا]

فيجيب الملائكة بقولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْتَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ .. ﴾ (٤١) [سب]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سور القرآن الكريم عرضاً منشوراً^(٢) مكرراً بما لا يدع للغملة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ^(٣) مِنْ الْإِنْسِ .. ﴾ (١٧٨) [الأنعام]

ويقول على السنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغَ أَجَلُنَا الَّذِي أَجَلْتْ لَنَا .. ﴾ (١٧٨) [الأنعام]

(١) وذلك في قصة الهدد مع سليمان : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ أُسْرَةَ تِلْكَهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۚ وَجَدْتُهَا رَاقِمًا بِسُجُنٍ لِلشَّمْسِ مِنْ ذُرِّ آلِهَةٍ وَإِنَّ لَهُمْ لِلشَّيْطَانَ عِمَالَهُمْ مُصَدِّقِينَ عَنِ السَّبِيلِ لَهُمْ لَا يَهْدُونَ لَنَّا ﴾ [النمل]

(٢) اختار الشيء يلتقي بمرقاً متارحكاً كالحب وغيره [اللسان - سادة نثر]

(٣) أى أصلحهم منهم كثيراً وأكثرهم من إغوائهم وإضلالهم

وقولهم هذا ينصعن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن .

ولسائل أن يسأل وكيف يأخذ اجن كثيراً من الإنس ؟

ويقول . إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة سحترف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصاً تختص عن خواص الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه . ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ " مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ " (٢٧) ﴿

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والحديدان وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين . وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النذر والطين ، فمما يخرج من الطين قدر " ، أي لا يشع ، مما يخرج من النار له إشعاع وحرارة

بمعنى . أنك لو كنت تجلس في حجرة ، وحلف ظهرك في الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فلساتر أيا كان سوف يحمن لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة

أما لو كانت هناك تصاحبة - وهي مخلوقة من الطين - موجوده في الحجرة الأخرى ، فلن ينمد طعمها أو رائحتها إليك

إذن . فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه . وقانون المادة المخسوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نقلت الجرم " إلى المكان الذي توجد فيه

(١) القليل الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قهرم شئ ، كالعرب ، والروم ، والفرنج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القليل من أب واحد كالقبيلة وكل جيل من الجن والنس

قيل قال تعالى ﴿ يُؤْتَانِي بِهِ وَأَعْلَانِي لَهُ ﴾ (٣٣) ﴿ [الإسراء] [السادس] مادة (قيل) ﴿

(٢) قدر أي مستقر في مكانه لا يتنقل منه شيء . إلا إذا نقلت أنت يقال فلان قدر أي ساكن ثابت (النس مادة عور) ﴿

(٣) جرم الجسم والجسم (الأجزاء) ﴿

إذن فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنسان^(١١) ، ولم يأخذ الجني خراصة في الخفة والقدرة ومهارة الاختزال الزمن بنات تكويه ، ولكن برادة المكنون سبحانه ، ولذلك شاء الحق أن يذكر لجن أنهم قد أخذوا تلك المخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنسان وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنسان أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنسان

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على من يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً^(١٢) .

واقراء قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَتَقَرُّ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَسَكِنُ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسُ السَّحَرُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ۝ (١٧) ﴾

[القرة]

إذن : تعليم الجن السحر للإنسان دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنسان .

(١١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكويته الناري تفوق قوة الإنسان ، ثم يبيّن عليه أن الإنسان يجهج الله له قوة مدددة من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلى ذلك من أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ نَالِ عَصْرِيَّتَ نِّنَ الْجِنِّ إِنَّا أَتَيْنَكَ بِهَ قَبْلِ أَنْ نَقْرَأَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِيرٌ ۝ (١٧) ﴾ قال الذي عدّه علم من الكتاب : إِنَّا أَتَيْنَكَ بِهَ قَبْلَ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ عَلَماً أَنَّهُ مُسْتَغْرٌ عَنْهُ نَالُ هَذَا مِنْ لُحْظِ رَبِّي لِيُكْرِمَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ لِيَكْرُ إِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي خَبِيرٌ ۝ (١٨) ﴾ [النمل] إذن : الرصاص بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث المبدأ الإلهي . أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالأثر (١٢) وذلك من قبله تعالى . ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ دِجَالًا مِنَ الْإِنسِ يَهُدُّونَ بِهِ دُورَ الْبَحْرِ ذُرًى ذُرًى فَجَاءَهُمُ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ فَيَكُونُ لَكُمْ دَلِيلًا يُحْذَرُونَ ۚ ۝ (١٧) ﴾ [الجن] أي : ذلة وضعفاً قال السدي . كان الرجل يخرج بأهله فيأبى الأرض فيزلهما فيقول : أهدم يد هذا الرادي من الجن أن أفسد أنا يده أو مالي أو رلدي أو ماشيتي . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢٨)

ولكن الملكين هاروت وماروت^(١) حينما عَلَّمَ الإنسان السحر حذرناه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطعميه على بنى جنسه وبظلم به ، إنما لأمر كنه اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لثقى نفسك من الشر لا لتوقعه بخيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمل ، ولكن ماذا من وقت الأداء ؟

مثلم يأنى لك إسان لبودع عنك ألعاً من الخنثيات كأمانة ، ولكن أنطل على الأمانة ، أم أنك قد سكر المال أصلاً حين يطالك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الدكى هو من يقول لمودع هذا المال «احفظ عليك مالك ، لأنى من الأغيار» .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ، لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧١) [الأحراب]

والأمانة هى ما يكون فى دمة المؤمن ، ولا حجة للمؤمن عندئذ إلا دمه ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد يصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثق فيها إلا دمة المؤمن ، قد يعرفها ، وقد ينكرها .

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أتوا إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تمجيها أحكام بنى آدم من العباد ، فأهبطا بحكمايين إنسان ، وكانا يعلمان النفس السحر ، فأحد عليهما أن لا يعلم أحداً حتى يهولاً أى حتى فتنة فلا تكفر

(٢) احتلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول عليها أنها الطاعة ، لا اختبار ، لحال ابن عباس فى الطاعة عرضها عليهم حين أن عرضها على آدم فلم يطقها ، فإن لآدم (إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والإنسان فلم يقبلها فهل أنت أحد بما فيها؟ قال يارب وما فيها؟ قال بنى حيت حريب ، وإن أسأت عوقبت فأحدها آدم صحملها انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢)

وعلى ذلك محقٌّ لمؤمن عند المؤمن خاضعٌ لخيار المؤمن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والحبال قالت : يا رب لا نريد أن ندخل أنفسنا في هذه التجربة ، أقص يا ما شئت واجعلنا مقهورين ولا اختير لك ، ولا نريد نحمل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميّزه الله بالعقل ، وقدره الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قبل الإنسان حمل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أمياً على الأشياء مثلما ظنَّ في نفسه وقت التحمل

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضر عن نفسي ، ونقول له . أثبت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأعباء ، فقد يعضبك أو يشير أعضبك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرهق

إذن - حين قال الله سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ .. ﴾ (١٢٨) [الأنعام]

أى - أحلتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا . ﴿ اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .. ﴾ (١٢٨) [الأنعام]

واستمتع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقسم إبليس النعين - ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ (٨٤) [س]

(١١) الإعراب الإصطلاح قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ فَارِقُونَ ﴾ [الصافات] [الإنسان] ماد . (عوى)

مِنْهُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ

0893

ولكن هذا الاستمتاع في النهاية لا يعطى أمراً رائداً عن المقدور لكل
 حس ؟ وبذلك تجد أن كل من يعين بالسحر وتسخير الجن إنما يعاين ؟
 مصداقاً لقول الحق سبحانه ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ (١) [الحج]

وأنت تجد ررق الذي يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتي من يد من لا يعلم السحر ، ولو كان في تعلم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل ررقه من مصلحه آخر غير من لا يهتمون بالسحر أو تسخير الجن .

وَأَسَ حِينَ تَرَى الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ ، نَجِدُ عَلَى مَلامِحِهِ عَصْرَةً ، وَصِي ذَرِيَّتِهِ أَفْءَ أَوْ عَيْباً ، فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَعْوَرُ أَوْ أَكْتَعُ " أَوْ أَعْرَجٌ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ فُرْصَةً فِي الْحَيَاةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ ، بِوَسْطَةِ الْجَنِّ ، وَهَذِهِ الصَّرْفَةُ تَرْيِدُهُ رَهَقاً ، وَلِلذَلِكَ فَلْيَلْزِمِ كُلُّ إِنْسَانٍ أَدْنَاهُ وَقُدْرَتُهُ الَّذِي شَاءَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَهُ ؛ فَلَا يُمْكِرُ فِي أَحَدٍ فُرْصَةً تَزِيدُ مِنْ رَهَقِهِ

ويحذر يرى في البشر مَنْ يستُخدم صاحب الفوه الحسدية أو قدرة
تصوير السلاح ؛ ليرهب غيره ، وقد ينجح في ذلك مرة أو أكثر ، ثم
يقبض هذا (الفورة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره .

إذن ، فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدْرَ الله سبحانه وتعالى في نفسه ، وألا يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيد في دسائس شيئاً ، لكنها في الواقع ستزيده تبعاً وتزيده رهنقاً .

ولذلك يحذ الحق سبحانه وتعالى - يقول عنهم ﴿رَبَّنَا اسْتَمِعْ بِغُضَا
بِغُضَىٰ وَلَئِنَّا أَجَلْنَا لَمَّا قَالِ النَّارُ مَوَاقِعُ﴾ (١٦٨) [الأنعام]

(١) لا أكتع من رجعت أصابعه إلى كفة، وظهرت مماصل أصول أصابعه. و«أكتع» يجي من التردد اتباعاً، يقال: لا يجيش أجمع أكتع [المعجم الوسيط: مادة (كتع)].

(٢) الثرى ممكن الإغامة والاستعمار والجمع الثأرى كان معالي ﴿ وما أراهم إلّا رؤسهم فى الغابى ﴾

وهكذا يرى أن مصير الاستمتاع بقوة الحن هو لنا للإنس الذي استلهم الجن ، وللجن الذي أعوى الإنس

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى في هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ الْأَخْلَاءُ ﴾ ^(٦٦) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ [الزحرف]

والأخلاء : هم الجماعة التي يجمع أفرادها صفة ومودة ، ويتحلل كل منهم حياة الآخر . وأنت تجد لدى مسلمين

إناساً اتحدوا الخلَّة ^(٦٦) في الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن هم واحد منهم معصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتصرون ، وتدور حياتهم في إطار حديث المصطفى ﷺ . «رجالان تحباً في الله اجتماعاً عليه رتمراً عليه» ^(٦٧) وهذا لون من الخلَّة

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل امعاصي ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ ﴾ ^(٦٨) [البقرة]

فلا خلَّة إلا خلَّة انلقاء في الله تعالى ، فإذا التقي لأخلاء في الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

(١) . لأخلاء جمع (خيل) وهو الصديق قال تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلَّةً ﴾ ^(٦٦) [النساء]

وقال تعالى - حكايه عن الكافرين يوم القيامة ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَى لَمْ آتُكُمُ فَلَئِنْ عَلِمْنَا خَلَّةً ﴾ ^(٦٨) [الفرقان]

[السنن مادة (خ ل)]

(٢) الخلَّة : الصداقة والمحبة والخل الوُدُّ والصديق [اللسان مادة (خ ل)]

(٣) من أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله الإمام العدل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحاب في الله يجمعان عليهما وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أحب الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا يعلم بمنه ما تلقى ثمنه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) والبخاري في صحيحه (٦٦٠)

يجتمعون في الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلحق الآخر ، ويصدق حكم
 لله سبحانه وتعالى ﴿الْأَحْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧)
 [الرعرع]

ولذلك يجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ولقد الحق
 سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن . ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا قُمْنَا فَأَنْتُمْ مُخَبَّرُونَ عَدُوٌّ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 ٢٨﴾ (٢٨) [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا ٢٩﴾ أم صَبَرْنَا
 مَا لَنَا مِنْ مَحْصِرٍ ٣٠﴾ (٢٩) [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذي يقول عنه الحق سبحانه .

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
 فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ٣١﴾ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي
 فَلَا تَلُمُونِي وَتُؤْمِرُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ٣٢﴾
 (٣٢) [إبراهيم]

(١) أخرج نقض العبر قال تعالى عن الإنسان ﴿وَإِذَا مَسَّهُ فِتْنَةٌ جَرُّوعًا ٣٣﴾ [المعارج] [اللسان
 مادة (جرع)]

(٢) محصر مهزب قال تعالى ﴿وَأُولَئِكَ مَلَأْتُمْ بِهِمْ وَلَا يَجْعَلُونَ عِنَاءَ مَعْصِيَةٍ ٣٤﴾ [النساء]
 [اللسان مادة (حيض)]

(٣) السيطان سلطان القهر في قهرهم على قياحه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان
 يقول تعالى عن سليمان وهو بعد الهدد ﴿لَأَعْلَظَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا لَوْ لَأَصْبَحْتَ أَوْ لَيَأْتِيَنَّكَ سُلْطَانٌ مُبِينٌ
 ٣٥﴾ [النمل]

(٤) مصرخكم . مفيثكم والصريح المفيث . وثالث تعالى ﴿فَلَمَّا أَلَى اسْمَعِيرُ بِالْأَنْسِ بِمُصْرِخَةٍ .
 ٣٦﴾ [التقصير] وقال تعالى ﴿وَلَنْ نُنْشِئَهُمْ إِلَّا صُرُخًا لَهُمْ وَلَا هُمْ يَسْمَعُونَ ٣٧﴾ [يس]
 [اللسان : مادة (صرخ)]

وهذا الحوار هو الذي يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. ﴾ (١٦)

[الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت في جو طربا وبحر تناول قول الحق سبحانه ﴿ فَكُفِّنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنًا وَبَيْنَكُمْ إِنَّ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (٢٩)

[برس]

هكذا يعلن كل من عُبد من الملائكة أو لرسول أو لأصنام ، وبذلك تتم فصيحة الدين علومهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .

ولذلك مجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢)

[الصفحات]

ولسته هنا إلى أن الأزواج متقدمون في الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن لزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذي يهتدي بالانحراف إلى ما يريد .

ومجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَقْبِلُونَ ﴾ (٢١)

[الصفحات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ تفهم من ذلك أنهم كانوا معاً في الدنيا وهي دار الاختبار ، وهم الآن في دار جسية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

(١) احشرو جمعوا والحشر جمع الخلق يوم القيامة للمحساب [اللسان مادة حشر]

(٢) يقول سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمِنَ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عِدْرًا لَكُمْ فَاحْشَرُوهُمْ .. ﴾ (٥٠)

[الكثيرين]

﴿رَقَعُوهُمْ إِنْهُمْ مُسْتَعْرِضُونَ﴾ (٢٤) مَا تَكُنْ لَّا تَنصُرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّا كُنْكُمْ
تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿(٢٨)﴾ [الصافات]

أى: كنتم نستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا سبعمكم ؛ فلا يظن ظان أنهما قوة
الطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أى قوة ، حتى وإن كانت
قوة الإغواء .

إذن : فالمواقف مفصوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ، ليس
الله - سبحانه وتعالى - صلته فى قوله : ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الرعد]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى
الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزيى الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه
على الطاعة .

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة يقول سبحانه

﴿وَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَأَا الْذِينَ أَضَلُّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ (٢٩) نَجْعَلُهُمَا
تَحْتَ أَفْدَانَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِ ﴿(٣٠)﴾ [نصب]

هكذا يكون حال الذين ضلوا يوم القيامة ، يتراون ممن أوفهم هذا الموقف
بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

(١) من ابن مريز ، قال عبد رسول الله ﷺ : أُرَادَ رَجُلَيْنِ نَحَابَ فِي اللَّهِ ، أَحَدُهُمَا بِالْأَشْرَى ، وَالْآخَرُ
بِالْمَشْرِبِ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ : هَذَا الَّذِي أَحْبَبْتَهُ فَمَا ذَكَرَهُ بَيْنَ كَثِيرٍ فَيُفَسِّرُهُ
(١٣ ، /٤) وعنه المحفوظ ابن عسكرك

(٢) عن علي بن أبي طالب أن ﴿الَّذِينَ أَضَلُّوا﴾ (٢٩) [مضت] فى الآية المقصود بهما [بني آدم] من
عصى الله جسداً لا مه ، وابن آدم الذى قبل آباء فكان آدم من من ارتكب الكبائر والمعاصي من
الأرض ذكره ابن كثير فى تفسيره (٩٨/٤)

سبحانه في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٢٩) [يوسا]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عُيِّنَ ، وحتى الأصنام ، من الدين عتدَّهم في الدنيا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : (٣٠)

﴿هَٰلِكَ بَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَّا كَانَوْا يَفْتَرُوْنَ﴾ (٣٠)

وقول الحق سبحانه : ﴿هَٰلِكَ﴾ يعني : في هذا الوقت ، أو في هذا المكان . والزمان والمكان هما ظرفا الحدث ؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان ، فإن كان الزمان هو العالب ، فيأتي ظرف الزمان ، وإذا كان المكان هو العالب فيأتي ظرف المكان

وجاءت ﴿هَٰلِكَ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، إذ يقول الحق سبحانه : ﴿هَٰلِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ..﴾ (٣٨) [آل عمران]

أي في ذلك الوقت الذي خال فيه مريم - رضي الله عنها - قوله أدت بها قصة اعتقادية إيمانية لكفيلها ، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام ، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلمه هي . يقول

(١) إن قلنا أي ما كنا فإن هاتين ، تدخل على الجملة الاسمية بحر قوله تعالى : ﴿إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٣٠) [الملك] وتدخل على الجملة الفعلية بحر قوله تعالى : ﴿إِنْ أَرَادْنَا إِلَّا بُهْشِنَ﴾ . (١:٣٠) [التوبة]

(٢) ﴿بَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ (٣٩) [يوسا] - تلوق جرلة م عملت وقدمت رقيب تختبر ويبل - تبع ، أي تتبع كل امرء ما قدم في الدنيا وقوا حيرة الكسائي (تلوق أي تقرأ كل نفس كتابها الذي كتب عليها [تفسير الفرطبي ٤/ ٣٢٦١] وابن كثير ٢/ ٤١٦)

سبحانه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا .. ﴾ (٢٧) ﴿

[آل عمران]

والرّوق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء
تحتاجه ، لكنه فوجيء برجود رزق لم يأت هو به ؛ بدليل أنه قال :
﴿ أَنِنِي لَكَ هَذَا .. ﴾ (٢٧) ﴿ [آل عمران]

وهذه ملحظية ومقطعة الكميل حين يجد مكفوله يتمنع بما لم يأت به .
وهذه هي قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهي قضية الكفين العام للمجتمع
حين يرى واحداً يتمنع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يُكتشف
مختلس الانتفاع لا يحصى العير دون أن يعرف كافلّه ، ولو أن كافلّه أسوأ
على معرفة من أين تأتي مصادر دخله ؛ لَحَمَى المجتمع من انقساد

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي
ذكره رب العزة سبحانه ﴿ أَنِنِي لَكَ هَذَا ﴾ (٢٧) ﴿ [آل عمران]

قالت مريم ﴿ هُوَ مِنِّي عِنْدَ اللَّهِ .. ﴾ (٢٧) ﴿ [آل عمران]

ثم تعلّل الجواب : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢٧) ﴿

[آل عمران]

قالت ذلك ، لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من

(١) أَنِنِي لَكَ هَذَا ؟ كيف ومن أين لك هذا ؟

(٢) بل في عطائه رزق بحساب ، ورزق بعير حساب ، فزوق الحساب بقل ما تملكه من غير وعمل
صالح ، يُقاس السعيا بقياس العدل الإلهي . أم الرزق الذي بعير حساب فهو رزق الدين وهبوا
كياتهم إلى الكل ليعلموا ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٠٨) ﴿ [الأنعام]
إِنَّ فَكُونَ الرِّزْقَ مَا بِلَا حِسَابٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْغَنَاءُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَمَنْ يَشَاءُ يَصْطَفِ الْخَلْقَ ﴾ (٢٠٨) ﴿ [البقرة] لأن الإمام العارف
لأن من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب

السنة ، فعجب سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين :
 شيء لم يأت هو به ، وشيء محال للمترة التي هو فيها ، كأن وجد
 عندها عباً في زمن غير أوانه ، أو وجد يرتقلاً في غير أوانه " ، وسؤاله
 كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابها كانت قصة إيمانية عفيفة ﴿إِنَّ لِلَّهِ يَرْزُقُ
 مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) .

وما دام ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت
 للأشياء في صوء هذه القصة .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله
 تعالى يرزق مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؟

هقول لا ، لم يعمل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حينئذ ؛
 فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكر زكريا نفسه ،
 كرحل بلغ من الكبر عمياً ^(١) ، وامراته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من
 يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاماً أو تكون زوجته
 صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله

﴿ هَٰذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ ۞ ﴾ (٣٨) [آل عمران]

أى في هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً ومائاً ومكاناً ،
 ردت جاءت الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰذَا
 خَلَقَنَّاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۖ ۞ ﴾ (٣٩) [مريم]

(١) كلما دخل عليها (زكريا) المصروب وجد عندها روحاً (٣٧) [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة

والعشرون يبنى وجد عندها عاكهة الصيف من الشتاء ، وفاكهة الشتاء من الصيف وهذا فيه دلالة

على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير ٣/١٠١]

(٢) عند الشيخ ميت وحياً وحياً كبراً وأس (اللسان مادة عني)

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمع أي ظان من أن يسىء الظن
بعمه مريم عليها السلام ، لأنها في موقف اللجوء فأطلقها الحق بقوله
﴿يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧) [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفي غير وقته و غير مكانه وبلا سبب وبغير
علم كافئها ، فقد ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقول الحسن الذي دعته به
مرأة عمران ،

﴿وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ (٣٨) فقبلها ربها بقبول
حسن ، وأنتها يائنا حسناً وكفلها ذكراً ﴿﴾ (٣٧) [آل عمران]

ويطعمها زكراً عليه السلام على نفسه ، ثم تنصرف هي لها ، حين يشترها
الحق سبحانه بعلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام

وهي ستلد من غير أن يمسه ذكر ، وهي تعلم أن الأسباب حاربه هي
أنه لا يوجد نسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدر بها
أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه تلك المقدمة على لسانها ﴿إِنَّ اللَّهَ
يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧) [آل عمران]

وحين تساءلت ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّ يَشْرٌ﴾ (٣٨) [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه
﴿إِنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِكَلِمَةِ نَبِيِّهِ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (٣٩) [آل عمران]
مبعثاتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سيسبب إلى أمه ، فمرفت أن

(١) تميل الشيء وتقوم به دليل على أحد الشيء برضا ، فأتى قد بأحد بكراً أو على مضمرة ، أما أن تنقل
من ذلك إلى أحد بقول وروفاً ، أما القول بالحق فهو زيادة في الرضا

أياه ملغى ؟ وأدركت أن هذا الولد لن يأتي نتيجة زوج ولر فيما بعد ،
وبذلك كان عيها أن تعود إلى القصيدة الإيمانية التي ذكرتها . ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٤٧) [آل عمران]

وهما في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها يقول الحق سبحانه
﴿هَٰذَا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْأَلَتْ ..﴾ (٤٠) [يونس]

أى . في ذلك الوقت تُحتر كل نفس ، ويرى هل الخزاء طيب أم لا ؟ فإن
كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الخزاء شراً

إدله . فالإسود وقت التمتع يحتر نفسه بما كان منه

ثم يقول الحق سبحانه . ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ^(١) الْحَقَّ ..﴾ (٢٥) [يونس]
وكانهم كانوا في الدنيا عبد مولى آخر غير الإله الحق سبحانه ، والمولى
غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض أناس موالى لهم ،
وهن في اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضد ، وجاءوا له ،
بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضد ، ثم رُدُّوا إليه
ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام .

﴿وَرَدُّنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ..﴾ (١٣) [القصاص]

فدلت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدَّ إليها

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ^(٢) الْحَقَّ ..﴾ (٢٥) [يونس]

(١) المولى : النصير والمولى الذي يلي عليك أمرك ، ولا يملك إلا من هو قريب منك ، وهو النصير والمعين
الذي تفرغ إليه من شئائك

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ (٢٥) [يونس] ما ثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال
في آية أخرى : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ..﴾ (١٥٥) [محمد] فهو سبحانه ليس مولى لهم في الصورة
والعبودية ، بل هو مولى لهم في الرزق وإدارة النعم

أى أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم شركاء ، وفى هذا ليوم
الآخر يرجعون لربهم سبحانه

والإنسان يكون مع ربه أولاً باقصة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه
لى المحوسبة أو أى ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى " ، وهم فى طل
سك الديانات المشركة ، كانوا عند مولى رسيّد وأمر ومشرّع ، لكنه مولى
غير حق ، لأن الحق هو الثابت الذى لا تتركه الأعيان

﴿ هَذَلِكَ تَبْشِيرٌ لِّنَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۖ ﴾ (٢٠) [يوس]

أى عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفصيحته فى
جربيات داته ، وكذلك المصيبة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَصَلُّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢١) [يوس]

أى أن الآلهة التى عبدوها لا تعرف إلى أمكتهم ومواقعهم ، وأنهم
فى خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه
الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شيء من الحق ،
ووجدوهم فى مأرق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا
أماكنهم ﴿ وَصَلُّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢١) [يوس]

أى - ها كانوا يكذبون كذباً متعمداً .

رَبِّدْ أَنْ كُشِفَ - سَحَابَهُ - الْمَسْأَلَةُ وَمَا سَوَّفَ يَحْدُثُ فِي الْآخِرَةِ ،

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : أما من مولود لا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودونه أو ينصرّونه
أو يمجسانه ، كما تنبع البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسّون فيها من جدعاء؟ ثم قال : ﴿ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ
نَظَرَ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْفَئِىءُ الْقَتِيمُ ﴾ (٢٢) [الروم] . سبق عليه أخرجه البخارى فى
صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢١٥٨)

وَحَوْفُهُمْ وَشَجَّ لَهُمْ مَا سَوْفَ يَنْظُرُهُمْ مِنْ مُصِيرٍ إِنَّ صَلَواتِ الْكَفَرِ ،
لَعَلَّهُمْ يَرْتَدُّعُونَ " ، وَيَتَذَكَّرُونَ ضَرُورَةَ الْعُودَةِ إِلَى عِبَادَةِ إِلَهِ الْحَقِّ
مَسْحُودِهِ ، يَأْتِي الْحَقُّ مَسْحُودَهُ وَنَعَالِي مَا يَعْبُدُ إِلَيْهِمْ وَشَدَّ الْإِيمَانَ فِي
غُرُوسِهِمْ ، فَيَقُولُ :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣٦)

أَيَّ أَنْ الْحَقُّ مَسْحُودَهُ يَقُولُ لِرَسُولِهِ ﷺ اسْأَلُهُمْ هَذَا السُّؤَالَ ،
وَلَا يَسْأَلُ هَذَا السُّؤَالَ إِلَّا مَنْ يَثِقُ فِي أَنَّ الْمَسْئُولَ لَوْ أَدَارَ فِي ذَلِكَ كُلِّ
لَأَجُوبَهُ ، فَلَنْ يَجِدَ جَوَاباً غَيْرَ مَا عِنْدَ السَّائِلِ .

وَمِثَالُ ذَلِكَ مِنْ حَيَاتِنَا - وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - إِنْ جَاءَ لَكَ مَنْ يَقُولُ : أَيْ
يُهَمِّنِي ، فَتَمَسَّكَ بِهِ ، وَتَسَّالَهُ مَنْ جَاءَ لَكَ بِهَذِهِ الْمَلَابِسِ وَذَلِكَ الْقَلَمِ
وَيُطْعِمُكَ وَيُعَلِّمُكَ ؟ سَيَقُولُ لَكَ : أَيْ

وَأَنْتَ لَا تَسَّالُهُ هَذَا السُّؤَالَ إِلَّا وَأَنْتَ وَاثِقٌ أَنَّهُ لَوْ أَدَارَ كُلَّ الْأَجُوبَةِ فَلَنْ
يَجِدَ جَوَاباً إِلَّا الَّذِي تَتَوَقَّعُهُ مِنْهُ ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ إِجَابَةٌ أُخْرَى ؛ لِأَنَّكَ لَوْ كُنْتَ
تَعْرِفُ أَنَّهُ سَرَفٌ يَجِيبُكَ إِجَابَةً مُخْتَلِفَةً لَمَا سَأَلْتَهُ فَكَأَنَّكَ ارْتَضَيْتَ حُكْمَهُ هُوَ
نَبِيُّ الْمَسْأَلَةِ

(١) الارتفاع الكف من الشراء وارتفاع القرم رجع بعضهم بعضاً ، هرجوعهم وكفرهم عن المداوى
وبعداء الباس [واقظر لسباب الحرب - مادة رجع]

(٢) من الآية مطلق الفطرة بالبرخيد ، قال الكافريون : مثل من خلق الكون ، ومن تدبیر الأمر ، وعن عجائب
الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول مدافع الفطرة الخالق هو الله ، والتدبير هو الله

والسمع والبصر هم السيدان للثلاث الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات^(١) له وسائل متعددة ، إن أردت أن تدرك رائحة ، بمائك ، وإن أردت أن تدرك نعومة ، فيلمسك وببشرتك ، وإن أردت أن تدرك مذاق شيء فلباسك ، وإن أردت أن تتكلم فأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإن أردت أن تسمع بأذنك

وكذلك تتجلى لك المراتى^(٢) بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتكون أشياء تسميها الخميرة ، توحد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أعم النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تسمعه ، فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه احتسرها بحواسه فارتكزت لديه لقضية العقلية وهي أن هذه داء محرفة ، واستقر هذا لديه يميناً .

وهكذا تكرر الإدراكات الخمسة إدراكات متعددة تصعب خميرة في النفس تكون منها الإدراكات المعنوية

إذن ، فوسائل العلم للثلاث الحى هي الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنعزز فيه لتستقر من بعد ذلك في الوجدان ؛ فتصبح عقائد إذن . فمراحل الإدراك هي إدراك حسي ، وتفكير عقلي ، فانتهاء عقدي ؛ ولذلك سمي الدين عقيدة .

أى أنك عقدت الشيء في يقيك بصورة لا تحلها عدما من جديد لتحلله ، فهذا يسمى عقيدة .

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن هذين الفكر التأمل يكون ترسيده

(٢) رأى يرى فهو رأى ، وما يقع عليه الجهر فهو مرئى ، والجمع مرأتى

ولذلك حينما أراد الله سبحانه وتعالى أن يفصحاً علياً مراحل الإدراك في النفس الإنسانية : ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [احسن]

لذلك يقال « كما ولدته أمه » ، أي لم يُعطَ القدرة على استخدام حواسه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدتين ، وهما السمع والبصر ، لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسمع ، وهما أهم السبل في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل

وقد أفتى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه - إلى العجائب فقال « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من عرق »^(١)

فالصوت طرق عظمة الأذن ، ويرى على صلتها ، ويرى بشحمة^(٢) العين ، وينطق بلحمة اللسان

وأصناف العصب « وشحم بعصروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين »^(٣) الإنسان يولد وكأن معه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات من الكون وبحريتها فيه ، وهي التي ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك

(١) دترة الشريف الرضي في كتابه «نهج البلاغة» (٤/٤) طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت
(٢) شحمة العين مقلتها وفيل حذفتها أو ماتحت الحشفة أما شحمة الأذن فهو ما كان من أسفلها ، وهو معلق المفردة [اللسان - مادة (شحم)]

وجاء ثول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها
بوسيتين من رسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى
لظاهرة ، مع أن اسلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، حتاط
بالأمر وقرر أن هذه الحواس هي الحواس الخمس الصاهرة .

وهذا يعني أن هناك حواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهي
حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البين بين ، التي نفرق بها بين
أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذلك ، وهذه الحاسة
توجد بين المستين من إصبعين متقاربين ^(١) .

وكذلك حاسة العضل التي تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقل ما
مدى الإجهاد الذي يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حمل ثقل آخر

وحين نظر العلماء في معاني الألفاظ قالوا : «النظائر حين تخالف فلا بد
من علة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق
سبحانه في آلة الإدراك «السمع» ، وقال في الآلة البصرية «الإبصار» ؟ ، ولماذا
جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأت بالاثنين على
وتيرة ^(٢) وحنة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة
بميران ، وأنت حين تسمع ، تسمع أي صوت قادم من أي مكان ، لكك
باعتين ترى من جهة واحدة ، فإن أردت أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

(١) وهذا غير حاسة اللمس التي يدرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذلك ، فهذا يدرك بحاسة اللمس
وحدة يكون هذا بسرار كعب اليد على القماش ، أما إدراك (تملة) هذا القماش لو داك فيكون بإدراكه
بهذه الحاسة

(٢) وتيرة الطريقة مأخوذة من النواتر أي التابع ، وجرت الأشياء على وتيرة واحدة أي بعض
الصحة والطريقة [اللسان مادة (وتر)]

سُورَةُ الْكَافِرِينَ

٥٩.٩

بعيبيك إلى اليمين ، وإن أردت أن ترى ما خلقت ، فأنت تعيّر من
رغميتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات
معددة ؛ لترى ما تريد.

وأيضاً فالسمع لا احتيّر بك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن
سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ، لأن الأذن هي أول وسيلة
دراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من
عنده ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً.

وما يقول الحق سبحانه ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ...﴾ (٣٦) [يوس]

وإحق سبحانه يملكها ، لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو
القادر سبحانه على أن يُعْطِنَهَا ، وقد أعطانا الحق مثلاً لهذا في القرآن فقال
عن أصحاب الكهف ﴿فَصَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سَبْعَ عَشْرَ﴾ (١٦) [الكهف]

فَعَطَّ اللَّهُ سَمْعَهُمْ أَنْ صَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ ، فذهبوا في نوم
استمر ثلاثة قرون من الزمن وأردادوا تسمياً.

كيف حدث هذا ؟ إن أقصى ما يناله الإنسان العادي هو يوم ليلة ،
ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا
لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (١٦) [الكهف]

ولكن ميئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت حداً ،
بل إن لونها الأسود قد سدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق
سبحانه ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوُكِّيتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَبَدَلْتَ مِنْهُمْ دُغْبَاً﴾ (١٧) [الكهف]

ونلاحظ هنا ملحوظاً يجب الانتباه إليه ، ففي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ (١٢٥) [يوسا]

سبحا يقول في آية أخرى في سورة السجدة : ﴿وَجَنِّفْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ (٩) [السجدة]

ولا بد أن نسبه إلى الفارق بين «الخلق» و«الجميل» ، و«المُلك» ، فخالق قد عرفنا أمره ، وملكه كل شيء لله - تعالى - أمر مُلْكٌ في العقيدة ، ومعروف ، أما «الجميل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته

فأنت تجعل العطين إبريقاً ، والقماش جلابياً ، هذا على المستوى البشري ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ﴾ ، فمن خلق هو الله تعالى ، ومن جعل هو الله تعالى ، ومن ملك هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينسبها إلى ذلك ، فالأشياء النعمة لابن آدم يحلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يملكها له .

أما ذات الإنسان وأعضائه من سمع وبصر وغيرها وإن كانت قد خلقت من الإنسان ، وجُعِلَتْ له للائتماع بها ، ولكنها ستظل ملكاً لله ، يقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها ناقة ، أو يعطلها^(١) .

إذن : فهي خلقت لله ، وجُعِلَتْ من الله ، وتظل مملوكة لله ، وبُصِيرُها كيف يشاء ، فدقات القلب والكرهية والأمور اللاإرادية التي تعين لصالح الإنسان هي ملكة الله .

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكَلِّدُ الْبَرْقَ يَعْطَلُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَجَاءَهُمْ شَوْءٌ مِنْهُ وَإِنَّا أَنْظَمْ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَغَلَبَ بِنِعْمِهِمْ وَأَبْصَارَهُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٤) [البقرة] .

واحق سبحانه - على سبيل المثال - جمع لكل حيوان جلدًا ؛ تتمتع به
وبدفعه إلا حليدين اثنين جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام
جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدل
على حرمة ونعاسته .

وعديا أن نسه إني أن الحق سبحانه قد حَلَوَ وجَعَلَ مَلَكًا ،
ودليل ملكيه الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّمَ اجتهة على المُتَحَرِّق^(١) ؛
لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهب الحياة ، فأنت أيها الإنسان لست ملك
مست ولا عذر لأحد ما دام قد وصفه هذا البلاء ، وعليه أن يستوعبه
أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره

لذلك فإنه سبحانه هو الذي رزق ، وهو - سبحانه - الذي يملك

ثم يقول الحق سبحانه ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (٣١)﴾
[يونس]

ومحس معلوم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق
سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَ .. (٨٨)﴾ [قصص]

وما دام كل شيء سيأتي له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء
حياة ، إلا أن حياتنا نحن هي طاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ،
والإنسان يأكل الخضروات والخبز ولعائكه ، ومن هذه المأكولات وعبره
يكون لجسم الحيوانات المثوية في الرجل ، والبويضات في المرأة ، ومنهم
يأتي الإنسان ، وكذلك يحرق الكتكوت من البيضة بالخصبة ، لأن البيضة

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : من قتل نفسه بحديدة فحده يذنه في يده وتو جأ به في بطنه في
نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن شرب ساء قتل نفسه فهو يجره في نار جهنم خالدًا مخلدًا
فيها أبدًا ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا - أخرجه
اسنادر في صحيحه (١٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) والنفاذ لمسلم

غير المخصصة لا تُخرج كتكوّنًا ؛ فهي بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها
حيين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها .

وكذلك ثروة التصرة . إذ ما أُنْقِيتْ دون أن توضع في الأرض ، فلن
تكون نخلة أبدًا ، ولكن إذا ما زُرْعَتْ في الأرض ، ووجدت لها البيئة
المناسبة ؛ خرجت نخلة .

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَنْ يُدِيرِ الْأُمُورَ ۖ (٣١) ﴾ [يوس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأي شيء ؛ حتى يؤدي مهمته ، وبالله من
يدير ذلك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيك ،
ثم تخرج ما لا يفيك .

إياك أن تقول : نى أنا الذى أدير ذلك ؟ ونقول : كنت طفلاً فى مرحلة
الطمولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومن الذى يدير حركة
رئيتك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ، لذلك اطمئنا على حركة أجهزكم
لنى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيوم لا تأخذه سنة^(١)
ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك^(٢)

ويجيب من يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله
تعالى - الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿ لَسَيَقْرَأُونَ اللَّهَ ۖ (٣١) ﴾
[يوس]

إذن أما كان يحب أن نرهف الآذان ، ونُعمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله
سبحانه الذى وهب لك كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ،
وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

(١) السنة الشمس من غير نوم وقيل السنة خمس يبدأ فى الرأس . فإذا صار إلى القلب فهو نوم
[انسداد مادة ورس]

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض أى لا يحمره سبحانه ولا يثقل عليه يقال آده الأمر بلغه
[انسداد المادة أود]

أما كان يجب أن تقول: يا مَنْ حَلَقْتَ ماذا تنتظر مني؟ لنعمرك الكون الذي أوجدنا فيه؟ فكيف - إذن - يتجه العص بالعبادة بغير الله تعالى؛ لشمس أو قمر، أو ملائكة، أو سى، أو جسم؟ كيف ذلك والعبادة معناه إطاعة العبد للمعبود فيما يأمر به؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده، ومن عبد الشمس هل كلفت بشيء؟ لا

إذن. يتساوى عله من عله، ومن لم يعبد لها، وفي هذا نقص لألوهية كل معبود غير الله تعالى

ولذلك ينهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١) [يوس]

فما دام الله سبحانه هو الذي خلق كل ذلك، وأمرل منهجاً، فعليكم أن تجمعوا بسكم وببِهِ وقاية، تحميكم من صفات الجلال، وتقريكم من آثار صفات الحماد^(١) وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام، وإلى مطلوبته سبحانه.

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية، ويعترف أن الحق سبحانه والمالك هو الله تعالى، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار

والمعجب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلق، والحق سبحانه يقول: ﴿وَلَسْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٨٧) [الرحر] ويقول أيضاً: ﴿وَلَسْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (١٥٥) [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق، وورق، ودبر لأمر، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره؟

١١ صفات جمال هي صفات الرحمة والمغفرة والرفق، أم صفات الجلال فهي صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو المربر على العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليلتوق خلاوة نار صفات الجمال، ليدخل في عداد الله المظين

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾^(٣١)

أ قد جاء قول الحق سبحانه . ﴿فَذَلِكُمْ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قبلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحي من الميت ، وإخراج ميت من الحي ، وتدبير الأمر .

ذن فقوله سبحانه: ﴿فَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى أشياء واعم كثيرة ومتعددة اشأ إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾^(٣٢) [يونس]

ولا يوجد في الكون حقان^(٣٣) ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ..﴾^(٣٤) [يونس]

ذن انتم إن وجهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتكم الطريق ، فالضلال أن يكون لك عاية تريد أن تصل إليها ، تتجه إلى طريق لا يوصل إليها . فإن صرُفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ..﴾^(٣٥) [يونس]

(١) مأني تُصْرَفُونَ أي كيف تُصْرَفُونَ عقولكم إلى عبادة ما لا يروق ولا يُحيي ولا يميت [تفسير القرطبي ١/٣٢٦٧] .

(٢) الحق واحد لا يظفر المكر البشري ولكن بهيج الحق ذاته ؛ لأن صفات الأشياء ثابتة ، والملم بها متحقق بخلافاً للمسمطانية ؛ وخلاقاً لمن يحتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق خاصماً لتخريب العقول ، وتخريب المكر بغية الخالعه والمكاملة

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

٥١٥

يُ أَيُّكُمْ إِذَا انْصَرَفْتُمْ عَنِ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - إِلَى الضَّلَالِ ،
وَالْحَقُّ وَاحِدٌ ثَابِتٌ لَا يَتَغَيَّرُ

وَمَنْ عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْكُتُبِ أَوْ النُّحُومِ : أَوْ بِمَنْ رَسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
السَّلَامَ أَوْ صَمًا مِّنَ الْأَصْمَامِ ، فَقَدْ هَوَى إِلَى الضَّلَالِ
وَإِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ أَن نَّبَادِلَكُمْ عَقِيدًا ، فَلْتَقْرَأُوا مَعًا قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾

﴿ أَنْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٢)

قوله . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ررق الله تعالى للبشر
جميعاً ، وَمَنْ مَلَكَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ ، وَمَنْ تَدِيرُ الْأَمْرَ كُلَّهُ ، وَمَنْ إِخْرَاجَ
أَخِيٍّ مِّنَ الْمَيْتِ ، وَإِخْرَاجَ الْمَيْتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ،
وَقَدْ نَسَبْتَ ذَلِكَ سُبُؤَالَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا اسْتِثْنَاءٌ الَّذِي عَنِ مُقَدِّمًا إِلَّا إِجَابَةً
لَهُ إِلَّا بِالْاعْتِرَافِ بِهِ إِلَهًا حَقًّا ، ﴿ فَمَاذَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ (٢٢)

ومثل هذه القضية تَدْمِماً قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ . ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ
فَسَقُوا أَنْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٣)

لأنهم أساءوا الصَّهْمَ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَفِي الْعَقِيدَةِ ، وَاسْتَحَقُّوا أَنْ
يُعَذَّبُوا : لِأَنَّهُمْ صَرَّحُوا بِالْحَقِّ إِلَى غَيْرِ صَاحِبِهِ الْحَقِّ ،

وَقَدْ كَانَ هَذَا حِطَابًا لِلْمُجْرِمِينَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، لَكِنْ بَعْضُهُمْ أَمْسَ
بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَلِذَلِكَ فَالْعَذَابُ إِنَّمَا يَحُلُّ عَلَى مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ .

وهذا القول متحقق فيمن سبق في علم الله سبحانه أسهم لا يؤمنون ،

وكذلك حَقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا يهتمون عن مسقمهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لعبير الله الأعلى والرب الحق سبحانه وتعالى

والدليل على العلم الأزلي لله سبحانه ما يقرأ في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) [البقرة]

إذن معلوم لله تعالى مَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ ، وَمَنْ يَسْتَمِرُّ وَيُصِرُّ عَلَى كُفْرِهِ ، هو الذي يُلْقَى العذاب ، يعلم الله تعالى فيه أنه لن يُؤْمِنَ

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففي ذوات نفوس غير المؤمنين بالله توجد نوعية فطرية لفعل الخير ، وبوجبه غسره إله ، وهو موجود حتى في الأمم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجَّهُون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بالله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذي يرونه

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، وما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يتبعه عن الشار مثلاً أو الكهرياء ؛ لأنه ترمخت في ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالصرر

إذن يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات خير ، ألا نجد في الدول غير المؤمنة بالله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التي يمكن أن يسيروا فيها

(١) في الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع اتفاق يعيش بين مجتمعين - المجتمع الإيماني مصداقاً لقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عِنْدَ مَنْ هُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِسُونَ﴾ (٢٦) [البقرة] ، والمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُ أَنَّهَا طَائِفٌ مِمَّا جَاءَ لَمْ يَجِدْ فِيهَا شَيْئاً وَرَجَعَهَا اللَّهُ إِلَى هَؤُلَاءِ فَهِيَ فِي أَعْيُنِهِمْ كَغَيْبٍ سَحَابٍ مُمْسِكٍ﴾ (٢٦) [النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلني وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع

ساجدين ، والطرق التي عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟
 ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك
 يوجههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟
 نعم ، يوجد في البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن فالتمكيز في الخير لصالح الأمم أمر طبيعي غريزي موجود في كل
 المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للحسب يحدث من الإنسان المساري
 للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو
 سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ،
 ولله يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ
 اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْ تَوْفَكُونَ ﴾ (٢٤)

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ
 يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ .. ﴾ (٢٤)

ومعنى أن الله يسأل العوام هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما
 أردنا هو سبحانه وإن قال قائل : وكيف يأمرهم على مثل هذا
 خوب ، ألم يكن من الحائر أن يسروا هذا إلى غير الله ؟

١١ [لأن الكذب والإثم أنى توفكون كيف تكذبون ١٩] [اللسان معناه (أفك)] [والإفك أحقر من
 الكذب] ، حيث إن الإفك في إفراء مسخيل ومبالغة مائة لها التأثير المضر على المجتمعات والأفراد
 ونسب يقول الحق ﴿ وَإِنْ التَّمْرُ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرْاً لَكُمْ بَلْ هُوَ حَرَجٌ لَكُمْ لِلْحَمْدِ ﴾ [المراد
 منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم (١١)] [المراد] ، ولم يقل بالكذب مع أنه
 كذب ، ولكنه عبر بالإفك لأن فيه إثم له على كبريات الناس وقيم الجمع

مقول . إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ،
فلن يجد المستنول إجابة إلا أن يقول : إن الذي يفعل ذلك هو الله سبحانه
ولا يمكن أن يقولوا : إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين
صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة مسلفاً . إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على
ذلك . وهذا يوضح أن الباطل خلع والحق أبلج^(١) ، وللحق مَوَلَةٌ^(٢) ،
فانت ساعة تتعلق بكلمة الحق في أمر ما ، نجدها قد فعلت فعلها فيمن هو
على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته ، بل
يحدث له انهيار ودهاش ، وتتقطع حبيته^(٣) .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه عنا مثلاً قال من قبل : ﴿ فَسَيَقُولُونَ
اللَّهُ .. ﴾ (٣٨) ﴿

بل قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُلْهِمُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِلِّمُهُ .. ﴾ (٤٤) ﴿ [يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينئذ سئلوا هذا السؤال بهرهم
الحق وعلب ألسنتهم وخواطيرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شيء .

ومثال ذلك - وله المثل الأعلى - نجد وكيل النبوة يصيِّق الخفتاق على
المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينهر المتهم من فرط دقته وليس
له إلا إجابة واحدة تنأى صياحه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً

(١) اللجاجة استلاب الأصوات قال أبو زيد يقال : الحق أبلج ، والباطل ليجج ، والأبلج : بلص ،
استقيم أما اللجج فهو الخطط المتوج والمتردد غير المستقر [اللسان مادة (لجج) - بصرف]

(٢) المَوَلَةُ الوثبة والقوة على إرمات الباطل

(٣) وذلك مثل حدث من إبراهيم عليه السلام مع السرور ، وقد قصه لك عز وجل في قرآنه : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْضُرُوا نَارًا كَبِيرًا ﴾ (٢٢٥) ﴿ [البقرة] ، فينت ، أى
فوجيء بالخفة ومقلتها فتخبر في جوابه ولم يجد رداً

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، وإرادته هنا تدخل ، لكن أعضائه مؤمنه عابدة مسبحة ، فاللسان الذي قد يطلق الكفر ، هو في الحقيقة مؤمن مُسَبِّحٌ ، حامد ، شاكِر ، لكن إرادة الإنسان التي شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تحترق الكبر - والعياذ بالله - فيطلق الإنسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ، فتسرق لتسرق ، أو تسمى الأقدام - مثلاً - إلى محل احشاء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ؛ إنها غير راضية^(١) ، إنما هي خاضعة لإرادة الفاعل

رحمن يسأل السؤال من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان نظرية تكويده المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيسبب الخلق سبحانه لئلا يرى أن يجيب نيابة عن الأعضاض المؤمنة ، فيقول سبحانه ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (٢٤) وهو بذلك يؤكد الصيحة ، ويكفي أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبَلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول مُسرف العنسة .
﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٢٥) .

والإفك هو الكذب المتعمد ، وهو الافتراء ، وهلاك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسيماً فهم واعتقد ، وهو لول من ألوان الكذب لا يضادب الحق ؛ ويتراجع عنه صاحبه إن عرفه الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أي : أن يعلم الإنسان الحقيقة

(١) دليل أنها ستأتي يوم القيامة وتصبح من الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٤) [النور]

وبقلها ^(١٦) ، ولذلت عند العلماء قد ودفوا هنا وقمة ؛ فمنهم من قال :
هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا لا ، إن هناك
واسطة بين الصدق والكذب

ومثل ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس
أن هناك حريقاً في بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق في بيت
فلان ، فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ،
وإن لم يكن هناك حريق فالمخير كاذب ، ولكن نأفل الخير نقله حسبما سمع .
إذن فهناك فرق بين صدق المخبر وصدق المخبر ، فمرة يصدق المخبر
ويصدق المخبر ، ومرة يصدق الخبر ولا يصدق المخبر ، ومرة يصدق المخبر
ولا يصدق الخبر

فهنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب
هم من قالوا إن الصدق يقتضي مطابقة بين الواقع والخبر أما الكذب فهو
ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرق بين صدق الخبر في ذاته ، وصدق المخبر ؛ بأنه
يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع

وقول الحق سبحانه ﴿فَأَنى تَوَكُّونَ﴾ أى فكيف تقلبون الحقائق ؛
لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وكلما تعلم قول الحق سبحانه ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْرَىٰ﴾ (٥٣) [النجم]

(١٦) الْمُؤْتَفِكَةُ : البقلة التي انثنت بأهبط أى انقلاب ولا تملك الاذليل [اللسان مادة (أفك)]
وهنا ابن كثير : وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْرَىٰ (٥٣) [النجم] . يعنى مدائن قوم لوط قلبها الله تعالى عليهم ،
فجعل عاليها سافلها [تفسير ابن كثير ٢٥٩، ١ - بتصرف] .
١٦١ وهو الذي قصصه رسول الله ﷺ في قوله : «ياكم والكذب» فإن الكذب يهبط إلى الصجور ، وإن
الصجور يهبط إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً أخرجه
مسلم في صحيحه (٢٦١٧) والبخاري في صحيحه (٦٠٩٤) .

والمؤتمكة هي لقري التي كُفِتت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذاب
يطلب الحقيقة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي
لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي
إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ فَمَا لَكُمُ الْكُفْرُ بِآيَاتِهِ لَمَمُونَ ﴾

وهذا أمر للمرسول ﷺ بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له
إلا ما يرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق ؛ لأن كل
كائن محبوق لعاية ، فلا شيء يُخلق هباءً .

وبحسب مُدْرِنَا المحدودة مصنع (الميكرون) ر (التليمزيون) أو السلاجة
، السرير وغيرها ، كل منها له عاية ، وكل له قوانين صيانه الخاصة به ،
والدى يحدد العاية من هذا المصنوع أو ذاك هو صانعه ، ويضع لها قوانين
صيانها ، ليوّدي غايتها ، والغاية من أى شيء توجد قبل الشيء نفسه ،
ليوجد الشيء على مقتضى العاية منه .

وافقه العاصم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، وبكهم
يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا عباء
وعملة من الدين يصنعون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان
للقوانين التى وضعها خالق الإنسان سبحانه .

(١١) يقول تعالى في سورة المؤمنون ﴿ وَالْحَسْبُ لَنَا خَلْقُكُمْ مِنَّا وَلَكُمْ إِلَٰهًا لَا تُرْجَوْنَ (٢٠) ﴾ [المؤمنون]
، قال سبحانه في الدريات ﴿ وَمَا عَلَّمْتُ الْبَشَرَ وَالْإِنْسَ لَا يُعْبَدُونَ (٢٦) ﴾ [الدريات] قل لخلق عبادة
وحكمة وهي العبادة بمعناها بطلان أى الطاعة

والحق سبحانه وتعالى قد حدد اغاية من خلق الإنسان وحدد قوانين صيافته ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعنود عن المهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) .

أى . هل من هؤلاء اشركاء من يهذى الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - عايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتهم شيئاً غير مرد الله تعالى ؟ إنهم آلهة لا يعرفون العاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق لموصل إلى تلك الغاية

ولذلك يأتى القوم الفصل : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. ﴾ (٣٦) .

فأله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إمطة الأذى عن الطريق ' ، وهو منهج مستوعب مستوفٍ لكل حركات الإنسان

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ : لأنهم انبهروا بالسؤال وتدلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجرها قول الحق سبحانه . ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادِي ﴾ (٥٦) [السرائر]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط، بل هى عمارة الكون كسبب حتى

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة » فأصلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الإيمان » أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) ، مسلم فى صحيحه (٣٥)

للإسلام ، والذي حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذي يحدد طريق الوصول إليها .

ومع حين يرغب في الوصول إلى مكان في الصحراء مثلاً ، إنما يحدد أولاً المكان ، ويحدد طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذي يجتاز لعقباته .

ومثال ذلك ، السيول التي تنزل على هضاب أخيشة ، فاحتارت نفسها لمحرق السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل النيل واختار لنفسه الطريق السهل يسار فيه بين التعاريج والرمال والصحور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من عاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي يُهْدِينِي ۖ ﴾ (٢٨) [الشعراء]

فمن خلق هو الذي يحدد الغاية ؛ لأن هذه العاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتولى الدفة في قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل الذي خلقني يهديني ، بل قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي يُهْدِينِي ۖ ﴾ مما يدل على أن هذه القصيدة ستخالف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيعوم بعض الناس - حماه لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف العاية ، فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، والذي خلق هو

الذى يقنن ، ولذلك يذكر القرآن صلى لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيُسْقِينِي﴾ (٧٩) [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيد إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾ (٨١) [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عن يملك الإمامة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ (٨٢) [الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بن هو يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قرب سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي﴾ (٧٨) [الشعراء]

هو كلام منطقي ؛ لأن خالق الشيء هو الذى يهتدى إلى الغاية من الشيء ؛ والغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصلى إلى تلك الغاية ، فإذا خولف فى شيء من ذلك فلا صلاح لكون أبدأ .

وتجده فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٥٥) [عه]

(١) عن أبي ربيعة رضى الله عنه قال : أتلفت مع أبي نحوالى ، فإذا هو ذو غرة ، بها دج حناء وعليه رداء أخضر قال له أبى : أرى هذا الذى يظهر لك فإنى رجل طيب قال : الله الطيب ، بن أنت رجل رليق ، طيبها الذى خلقها .

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

٥٩٢٥

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدي إلى اسبيل الموصل إلى
العاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَجَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ
فَسْوَى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وهكذا يتأكد ل أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهديا
إليه من خَلَقْنَا

وهنا في الآية التي نحن بصدد شواطينها يقول الحق سبحانه :
﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ (٤٥) ﴾ لأنه سبحانه هو الذي خلق ؛ ولذلك فمن
المطّقى أن يأتي بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا
يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي (٤٦) ﴾ ؟

وسبب وجود اللام في قوله : ﴿ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ هو النظرة إلى العاية ،
وسبب وجود ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لمت الانتباه إلى أن الوصول إلى العاية
يقضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه في آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً

وحس نعلم أن هذه الآية قد نزلت في الدين اتخذوا لله شركاء ، فهم
يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فإله سبحانه وتعالى تفرد
بالألوهية برهوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَم ، ورزق من عَدَم ، وخلق
لنا وسائل العلم ودبر لنا الأمر ، وأخرج الحق من الميت ، وأخرج الميت من
الحى ، وهدي للحق .

بأبى - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى ؟ وهل
صنع واحد منهم و كلهم محتتمين شيئاً واحداً من تلك لأشياء (١) ؟

(١) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى (٣) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى] أى خلق الخليقة وسوى كل مخلوق من أحسن الهندس
وقربه تعالى ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى] قال مجاهد هدى الإنسان للثبابة

والصناعة وهدى الأنعام مراتعها [تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٠]

(٢) ويقول سبحانه في سورة الروم ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ لَمْ يَرْزُقْكُمْ ثُمَّ يُعَذِّبْكُمْ لَمْ يُعَذِّبْكُمْ ثُمَّ يُبْعَثْكُمْ مِنْ شَرِّ مَا كُنْتُمْ مِنْ
يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٥) ﴾ [الروم]

بذلك قال سبحانه . ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ (٣٥) .
[يونس]

إذن فالله يهدي هو الذي خلق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا
بالله خالقاً لشهاداتهم حين قال الحق سبحانه . ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . ﴾ (٨٧) .
[الرحمن]

إذن فالذين أشركوا قد ارتكبو الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن
يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فتن بهم بعض الناس ،
وهناك من اتخذ وسائل أخرى مثل الشمس والقمر والنجوم ، وهذه
أشياء علوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائل سفلية كالأشجار والأحجار ،
فهل أي شيء من كل ذلك يهدي إلى الحق ؟ وما منهج أي منهم إذن ؟
وكيف تلغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يهدي ، بل هو يهدي
من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم ؟ أو من أين جاء
الذين فتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يهدي إلا بعد أن يهدي من الله أولاً ، وإن كانت
الأشياء - المتحدة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ،
ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم في العلويات ، والأشجار والأحجار
في السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله
هو الذي يختار منهم الملوك الذي يُبَلِّغُ عن الله سبحانه ، وكذلك لرسول
عليهم السلام : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ
يَهْدَى . ﴾ (٣٥) .
[يونس]

﴿ لا يهتدى ﴾ تقرأ هكذا ، وللغة فيها عمسة تخفف جرّس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فبحر يعرف أن ﴿ يهتدى ﴾ يعنى • يهتدى أصلها يهتدى ريهتدى فيها هاء ساكنة وتاء وذاں وياء . . وفيها تقارب لمحارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال ودغم ، وتحلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامحت كما أمر لها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدب اللغة بكلام السماء • لتكون خالدة اللفظ والمعنى فإذا كنتم على طريق هديته ، فالأصل في الهداية هو الله تعالى .

ويُنبئ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . (٢٥) ﴾ [يونس]

أى ماذا أصاب عمولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليلعه لهم ؟ وساعة تسمع ﴿ كيف ﴾ هى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عرف العاقل - أن تحدث كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟ » ، وهذا كله من الأمور التى تأبأها القطرة وبأباء الطمع والدين

وقوله سبحانه ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير غاية وطريقاً والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصول إليها ، وهو سبحانه القائل ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ . (٢٥) ﴾ [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من أفة الأضيار (١) ؛

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون ثوباً ثم تضعف أو صحيحاً فبصيرتك
المرص ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح
الأذن سجعاً فتصير أصم بعد ذلك ^(١) .

إذن هي دينا أغيار ، وهب أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية
وأما وسلامة وعننى وكل شيء ؛ سنجده فى قلق من جهتين : الجهة
الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا
النعيم ، هذا ما نراه فى حياتنا

إذن فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لفهم أن كل عطاءات
المخلوق إنما هى هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من داتك
لاستصعبت الحفاظ عليها ، ولكنها هبات من الحق الأعلى سبحانه .
والأمر الموهوب قد يصح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢٦)

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ (٢٦) يفيد أن
بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن ^(٢) هو اليقين ، بالنسب التى تحدث

(١) ولأن الدنيا دينا أغيار أو صير رسول الله ﷺ رجلاً وهو يحفظه ، اغتصم خمساً قبل خمس ، شبابك قبل
هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وملكك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ، أخرجه
إحسانكم فى مستدرکه (٣٠٦/٤) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبي .

(٢) بعض كما أنه شك ، أى يقيناً إلا أنه ليس يقين عيان ، إنما هو يقين تدبير ، فأما يقين العيان فلا يقال
فيه إلا علم ، وهو يكون اسماً ومصدرًا ، وجمع الظن ظنون ، قال تعالى ﴿ وَتَقُولُونَ بِآلِهِ الظُّنُّ ﴾ .

(٣) [الأحزاب] [لسان العرب : مادة الظن]

بين الأشياء تربط بين الموضع والمحمول ، أو للمحكوم والمحكوم عليه ،
وهي سب ذكرها من قبل ، وسدكرها ، فهناك شيء أنت تحزم
به ، وشيء لا تجرم به . وما تجرم به وتُدلل عليه هو علم يقين ، أما
ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) [الإحسان]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقل شيء . ومن
يقوله جازم به ، وهو غير واقع ، لذلك هو الجهن .

والعلم هو القضية المجروم بها ، وهي واقعة وعليها دليل ، على عكس
الجهل الذي هو قضية معزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوي سببين في الإيجاب والسب ، بحيث لا تستطيع أن
تحزم بأى منهما ، لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية
المرجوحة هي شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح السب على
عضه . واشك هو تساوي الكنتين .

وقول الحق سبحانه ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ (٢) يبين لنا أن الذين
كنوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً رغم علمهم بصديق
ما يطلع عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق
سبحانه ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا بِعِلْمِهِ ﴾ (٣) [يوس]

وكن الواحد منهم إذا تمس في الدلاع عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن
الإيمان ، لكن منهم من تمس في الأدلة وطل على عناده ، والذين اتبعوا
الظن إنما اتبعوا ما لا يغنى عن الحق شيئاً .

لذلك يبين لهم الحق سبحانه أنه عليهم بحمايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكروهم للإيمان نابغاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛
لذلك يقول الحق سبحانه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۖ ﴾ (٣١) [يوسر]

إذن : فقد علم الله سبحانه أولاً أن بعضهم في خبايا نفوسهم يوقنون
بقيمة الإيمان ، لكنهم يجهلون ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُنَا الَّذِي يَتَوَلَّوْنَ فِتْنَهُمْ لَا يَكْتُمُونَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٣٢) [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يحفى عليه أنهم كذبوا عما لم
يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة
الإيمان حجبها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ..
﴾ (٣٣) [النمل]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٧)

وحيث نشع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإحبار بالمغيبات التي
لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا
القرآن لا يمكن أن يُفترى ، بل لا بد أن قائله ومُسرِّكه عليم حير ؛ لأن
القرآن جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أى أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو موجه لهم ، وهو كتاب مصدق .
للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل وانزبور^(١) . وهى الكتب
التي سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدقاً لها .

أى هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التي
شرّعت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء في القرآن عن تصديق عيسى عليه
السلام بمجيء محمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَمَشَرَا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنَ
بَعْدِي فَسَمِعَهُ أَهْمُلاً ۖ ۞ (٦٤) ﴾ [الصافات]

فما جاء أحمد (محمد ﷺ) ونزل عنه القرآن صدق الإنجيل في قوله
هذا ، وما جاء في القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب
السمائية ، فالحق سبحانه يقول

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَنُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَإِيُوبَ وَيُونُسَ
وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ ﴾ (١٧٤) [البقرة]

ويقول الحق سبحانه -

﴿ مَرَع لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وُصِيَ بِهِ نُوْحًا وَأُودِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۖ ۞ (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك
أخبار أحييت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن
وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك المقائد العجيبة .

(١) انزبور من كتاب داود عليه السلام وأسمه كل كتاب مرزور أى مكتوب قال تعالى ﴿ رَفَعْنَا
فَصْلًا بَيْنَهُمُ النَّبِيَّ عَلَى يَدَيْهِ دَاوُدَ زَبُورًا ۖ ﴾ (١٧٤) [الاسراء] .

وذلك الأحبار الموجودة في الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عِلِمَ منهم شيئاً^(١) ؟

هـ . فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأحبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معنم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتربيته وسرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعلم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب في قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً

وبعد ذلك فوجيء هو - كما فوجئتم أنتم - بمجيء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبه ، ويعلم أنه ﷺ مُلَخَّصٌ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١١)﴾ [النس]

ويخص العرب الكريم النبي ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبل - البلاغة والفصاحة أو الشعر ؟

ولننظر في «ماكُشَات»^(٢) القرآن الكريم ، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه . ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ مثل قوله سبحانه

(١) وفي هذه يقول الحق سبحانه ﴿وَمَا كُنْتُ ظُنَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كَذَّابٍ وَلَا تَحِطُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْأَرْثَابِ الْمُبْطَلُونَ (١١)﴾ [العنكبوت]

(٢) «ماكُشَات» القرآن هي الآيات التي وردت فيها لفظة ﴿مَا كُنْتُ﴾ ، وهذا في إحدى عشرة آية هي [آل عمران ١٤] ، [مائدة ١١٩] ، [يوسف ١٠٣] ، [المؤمن ٤٤] ، [٤٥] ، [٤٦] ، [٨٦] ، [العنكبوت ١٨] ، [النورى ٥٢]

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ ﴾^(١١)
 أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ . . . ﴿ (٤٤) ﴾

[آل عمران]

وهذا أمر ثابت في الأخبار ،

وقول الحق سبحانه ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤) ﴿

[القصص]

والوحى إلى موسى عليه السلام - والمكان الذي نزل فيه ذلك الوحى أمر ثابت في الأخبار ،

وقول الحق سبحانه ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٤٤) ﴿

[القصص]

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له ،
 كيف أحبرت بوقائع وأحبار لم تكن موحوداً في زمانها أو مكانها ؟

لا بد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذى أخبرنى بما وافق
 ما عندكم من أحبار

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصداقاً لما بين يديه ﴿ فَإِنَّهُ نَبَأٌ عَنِ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ . . . ﴾ (٩٧) ﴿

[الفرقة]

أى : أنه الكتاب الذى يضم صدق كل حدث قادم : لأن القرآن حرق
 حجباً وحجراً الماضى والمستقبل ،

و نحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين : الأول : أن يتكلم عن

(١١) لأنهم من المداح ومن مداح سجنوا عليها علامات يعرفون بها من يكمل مريم على جهة القرعة ،

وإن قيل بل مدح الغيب لأنهم أى خبرى [اللسان مائة - نظم]

(٢) ثانياً : مقيماً : ومدين : قرية نضيب عليه السلام

شيء سبق الرماى الذى نزل فيه ، فهو يتكلم فى الماضى الذى سم يكن رسول الله ﷺ من اهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ريعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاصر لذى عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذى قد يكون محجوباً بالمكان

واضرب هذا امش - وبله امثل الأعلى - فقد يحدث حادث فى الإسكندرية فى نفس الوقت الذى تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ، لأنه محجوب عنك بيمد المكان ، وحاجر المكان يتمثل - غالباً - فى الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهى محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يعبرنا القرآن الكريم يحدث ماضى لم يشهده رسول الله ﷺ ، وبم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن . فالقرآن إنما يحرق أمامنا حجاب الزمن الماضى . وإذا أحبر القرآن يحدث حاضر فى غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا حرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴾ (A) [المجادلة]

وحين سمع منافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قتلوا فى أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان فى أنفسهم هم .

إذن . فأحبار الغيب فى القرآن إما خرق لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعفاء ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، وينجيه الله ﷻ إلى الطائف

سُورَةُ التَّوْبَةِ

○ ٥٩٢ ○

لنعرض الإسلام على أهلها ، لعلَّه يتنصرون لهم مجيراً من أهل الطائفت ؛
ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض^(١) ، ويرضى بعضاً من صحابته أن
يهاجروا إلى الحبشة^(٢) .

وهي ظيل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَبِّهْهُمْ أَجْمَعُ
وَيُؤَلِّقُوا الذُّبُرَ ۖ ۝ (٤٥) ﴾ [النصر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتساءل : أى جمع هذا
الذى يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتي غزوة بدر
ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلى قريش ؛ فيرى رأى العين صدق ما جاء به
الوحي من قبل^(٣)

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُعْتَرَى ، فكيف يُثْبِتُهُ رسول
الله ﷺ أنه حَتَرَاهُ ؟

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبى طالب ، الذى كان مدافعاً عنه ، حاملاً له من أذى المشركين ، ولكن أهل
الطائفت قد داروا له ﷺ صعين على طريقه ، وجعلوا لا يرفعون رجليه ولا يضعهما إلا ضربوهما بالحجارة
حتى استرا رجليه [دلائل النبوة للبيهقى ٤١٥/٢] صدق ذلك ما لرسول الله ﷺ ، اللهم إني
أشكر أنيك ضعف همتي وفلة حيلتي ، سجد لله الأسراء فوق العمل البشرى ، ولعراج فوق الفوق ،
وذلك حمايته له ورعايته لدينه

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : لما صافى عليهما مكة ، ولودى أصحاب رسول الله ﷺ ، وفتنوا وراوا
ما يصيبهم من البلاء ، فالتفتة في دينهم ، وأبى رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول
الله ﷺ من سجد من قربه وبين حبه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله
ﷺ : إن بى من حيث منكم لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاؤه حتى يحسن الله لكم هرجاً ومخرجاً
مما أنتم فيه ، حديث طويل أخرجه البيهقى في دلائل النبوة (٢٠١/٢) وأورده ابن هشام في السيرة
بمخرجه (٢٢٦/١)

(٣) من معركة بدر ، ما روى : ﴿ سَبِّهْهُمْ أَجْمَعُ وَيُؤَلِّقُوا الذُّبُرَ ۖ ۝ (٤٥) ﴾ [النصر] كان عمر - أى مع يهزم ؟
أى : أى جمع يهزم ؟ قال عمر : لما كان يوم بدر ردت رسول الله ﷺ يشب في الموع وهو يقول
﴿ سَبِّهْهُمْ أَجْمَعُ وَيُؤَلِّقُوا الذُّبُرَ ۖ ۝ (٤٥) ﴾ [النصر] فعرفت نلوبها يومئذ . ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٦٦/٤)
وعنه لابن أبي حاتم

وإذا كان هذا لقرآن مفترى ، فلماذا لا تعترون مثله ؟ وفيكم الشعراء
والبلغاء والخطباء !؟ ولم يقل محمد ﷺ أنه يليغ أو خطيب أو شاعر ،
ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة به
بالبلاغة أو العصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم
أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سحر الغبيد
والصعاف ، وأدخلهم في الإسلام ، فلماذا لم يسحرك محمد ؟
إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء
به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ لَهُ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ۝ (٣٧) ﴾ [يوسف]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ،
أب الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ،
ولأمكنة نزولها

وهو كتاب ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ،
ويوضح ارتبابهم وكذبهم ، فهم قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا
﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ ۝ (٣٦) ﴾ [الزخرف]
إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من
الكافرين به

ويأتى الرد على قولهم بالافتراء ، في قول الحق سبحانه

﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ بِهِ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨)

وقد سبق هذا المجيء بالتحدي أسباب عجزهم عن اسجاح في التحدي ، لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصدق نزول القرآن الكريم ، وبها وبين القرآن تصديق متبادل .
فهم مهرومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. ﴾ (٢٨) [يونس]
وقد جاء التحدي مرة بالكتاب في قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَنْ أَجْتُمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨) [الإسراء]

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدي ، وطالبهم أن يأتوا . ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ
مِثْلَهُ مُقْتَرِبَاتٍ .. ﴾ (١٢) [هود]

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب -
ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فتم يستطيعوا ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. ﴾ (١٢) [الفرقان]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدعون أن محمداً ﷺ قد فترى
القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو المصاحبة ؟

لقد دعاكم أن تأتوا بكل المصحاء والبلغاء ليبتروا ، ولو سورة من
مثله ، روضح شرطاً فقال ﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢٨) [يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآنًا ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقرب الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة ^(١) ، سندعوا الله ؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَظَحَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾ (٢٨) . وهم بطبيعة الحال غير صادقين في هذا التحدي

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولا إلى قوم ؛ ليعلمهم منهجه في حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدي حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليقة في الأرض ؛ ولذلك يأتي الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة بهم ؛ لأن الرسول إن جاء ملكاً لما صمّت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً ^(٢)

والحق سبحانه لا يرسل أي رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلّغ عن الله تعالى .

والبينّة لا بد أن تكون من جنس نبوغ ^(٣) القوم ، فلا يأتي لهم بمعجزة في شيء لم يعرفوه ولم يألّفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمنّ ما جاء

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما سبّحوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وحطاة

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ في قوم فصحاء يعتقدون للشعر

(١) اللجاجة ، التعمادي في الجدل والبراء

(٢) لذلك قال رب المرء ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَنْشُرُونَ مَقَالِمَ بَرَكَاتِنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ لَكُنَّا وَرُءُولاً

(٣) [الإسراء] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَقَبَسْنَا عَلَيْهِمْ

مَا يَهْمُونَ (٢٦)﴾ [الأنعام]

(٤) النبرج : الإجابة والبراعة في علم أو في معنى [المعجم الوسيط]

أى سورة من مثل محمد - ﷺ - فى أنه لم يجلس إلى معلم ،
وسم يقرأ ، ولا عرف عنه أنه تكلم بالبلاغة فى أى فترة من مراحل
حياته قبل الرسالة .

وقال الحق سبحانه ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ
فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُومًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

[يونس]

إذن : ﴿ سورة من قبله .. ﴾ (٢٢)

[البقرة]

أى مثل محمد ﷺ الذى لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتى هذا
اللون من المحدث ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

﴿ أساطير^(١) الأولين اكتتبها^(٢) فهي تملى عليك بكرة وأصيلًا ﴾ (٥)

[الفرقان]

بل واتهموه فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بكرة ، فيلفتهم
القرآن إلى أن لرجل - الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً
غير عربى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ^(٣) إِلَيْهِ
أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٠٣)

[الحج]

(١) ومن تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبي من تفسيره (٢٧٧/١) فقال : ﴿ من قطعه . ﴾ (١٢٢)
[البقرة] أى من مثل التوراة والإنجيل فالتمتى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإيه تعلق ما به ، وكل
من هذه الأقوال صواب ومحمّل

(٢) الأساطير جمع أسطورة أى من سطره الأيون وكتبه والأساطير أيضاً الأباطيل ،
والمحدث ماطلة لا أصل لها عند سطرها وألفها الأولون [لسان العرب مادة سطر]

(٣) اكتتبها طلب من النسخ تصفها

(٤) يلحدون إليه يملون إليه واختلف المفسرون فى تسب هذا الرجل الذى قال بلشركون أن محمداً ﷺ
تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه بل المهم أنه أعجمى فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن
العربى

ويريد الحق سبحانه أن يصفهم ، فيقول بعد ذلك

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عِقَابُ الظَّالِمِينَ ﴾

وهذا النصف من النصف الذين ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ (٣٩) ،
وهم من أخذتهم المفاجأة حين حدثوا بشيء لا يعرفونه ، والبأس أعداء
ما جهلوا ، فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال
الأداء فيه ، وسق القيم العاليه ، وإذا ما سحت لهم فرصة يتبينون فيها
جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثل ذلك . عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان كافراً ثم علم
أن أخته وروحها قد أسلما ، فذهب إليها في منزلها وصر بها ، فأسبل
دمها ، وسبل الدم من تحت بصرية أخيها مشير لعاطفة الحنان ، وهذا
ما حدث مع عمر : فهدأت موجة عتده ، فاستقبل القرآن بروح لا صاء
فيها ، فذهب فأمم برسول الله ﷺ^(١) ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا
بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (٣٩) أي : لم يعرفوا مراديه ، وبمجرد
أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا
خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنَّىٰ ﴾ (٦٦) [محمد]

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦)

(٢) أنما من قبل ، وقد تربت هذه الآية في المناقشين كذبوا بسمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ أسهراً وإلهاماً أنهم لم يسمعوا إلى ما قال ﴿ ماذا قال

الله ﴾ (٦٦) [محمد] أي : ماذا قال سالماً ومايقاً ؟ [اللسان : مادة (أ ن ب) - بتصرف]

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ، وتأتي الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ^(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴾ (٤٤) [مفصلة]

إذن : فالقرآن هدى لمن تتفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة بالحصى لقائله وللإسلام ، فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أى منهم حكماً صحيحاً فليُخرج من قلبه ما يناقض ما يسمع ، ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ، وهو الإسلام .

إذن ، فمن امتلأ قلبه بمقيدة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدى

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا بَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٤٥) [يرنس]

والتأويل^(٢) هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، مستفسرها الأحداث ، وقد يقوى القرآن الكريم قضية عربية ، ثم يأتي الزمن لتؤكد هذه القضية ، هنا يعرف أن تأويلها قد جاء

وهؤلاء القوم قد كذبوا من قبل أن يأتى لهم التأويل ، وكان عدم مجيء التأويل هو السبب في تأخر بيان الحق في المسألة لتأخر زمه .

وعلى سبيل المثال ، ما هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ حين قامت لمعركة بين معاوية بن أبي سفيان والإمام على - رضى الله عنه - وقتل عمار في صف على ، وقتل . هنا تنه الصحابة إلى تأويل

(١) الوقر جمع السج وبل : الصمم [اللسان مادة (وقر)]

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد وأصله ما يؤول إليه الشيء ؛ ويقول تعالى ﴿ هَلْ يَحْكُمُونَ إِلَّا آيَاتِهِ ﴾ [الأنعام] أى أنهم يحكمون بحقق الكتاب ووقوعه

حديث من رسول الله ﷺ حيث قال « ويح عمار تقتله الفئة الباغية »^(١).

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق في الواقع ، وكان هذا سبباً في انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية
وها يقول الحق سبحانه - ﴿ وَمِمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٢٩) [يوسف]
أي : أن التأويل لم يظهر لهم بعد

ومن أدوات النفي « لم » مثل قولنا « لم ينجى فلان » ، ونقول أيضاً « لما ينجى فلان » ، والنفي في الأولى جزم غير متصل بالخاص ، كأنه لم يأت بالأمر .

أما النفي بـ « لما » فيجى أن المجيء منتف إلى ساعة الكلام ، أي الحاضر ، وقد يأتي من بعد ذلك ، لأن « لما » تفيد استن ، وتفيد توقع الإثبات
واحق سبحانه يقول ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَفُّوْا وَلَكِنْ قُولُوا أٰمَنَّا .. ﴾ (١١) [الحجرات]

وهؤلاء الفروم من الأعراب قالوا ﴿ آمَنَّا ﴾ رغم أنهم راموا المسلمين وقتلهم ريفاً وفاقاً^(٢) ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحس سمعوا قول الحق سبحانه ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (١١) [الحجرات]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤٧) ومسلم في صحيحه (٢٩١٥) بحره عن أبي سعيد الخدري ، رحمه الله عدياً للسجد البري ، قال أبو سعيد « كما جعل بيعة لينة ، وعمار لنتين لبتين مرأه إلى ﷺ ، فغص لترات عنه ويقول ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعهم إلى الجنة ويدعوه إلى النار »

(٢) ذهب البخاري إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وعدا استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا من دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن في قلوبهم بعد ، انظر تفسير ابن كثير (٤/٤١٨ ، ٢١٩)

قالوا الحمد لله ؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .
وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١١٤) [آل عمران]
فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتي علم الله سبحانه بنا
كمجاهدين وصابرين
وهكذا نمرف أن ﴿ لَمَّا ﴾ تعني أن لمنفى بها متوقع الحدوث . والتأويل
كما يعلم هو مرجع الشيء .

وقد جاء في القرآن الكثير من الأحبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن
متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وجدت ولا دخل لبشر في وجودها ،
فهذا يعنى أن قاتل هذا الكلام قد أحده عَمَّس يقتر على أن يوجد ،
مثما جاء في خبر انتصار الروم على الفرس وعم هزيمة الروم .
قال الحق سبحانه

﴿ عُلِبَتْ الرُّومُ (١) فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ (٢) فِي
بِضْعٍ (٣) سَمِعَ اللَّهُ الْأَمْرَ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ
اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم]

جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أحبر
القرآن .

أو أن التأويل سيأتي في الآخرة ، وما يؤول الأمر في التكذيب سيعلمونه
من بعد ذلك

(١) البضع م. دون العشر ، وأدى الأرض بين أذربايجان وبصرى في الشام ، وهي أقرب بلاد الشام إلى
بحريرة العرب [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧] .

والحق سبحانه يقول ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُزَكُّونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ .. (٥٣)﴾ [الأعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان في الدين قصر أهل القرآن ، وإن كان في الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُورَهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّ بِالْحَقِّ فَمَنْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ .. (٥٣)﴾ [الأعراف]

هذا هو التأويل الذي كذبه البعض من قبل

إذن فالتأويل إما أن يكون لمن بقي من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبي لا يملك أن يتحكم في مصائر الأشياء ، ويأمر على وفق ما خاله .

فكان محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فيصرف عنه الذين أمروا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

واما أن التأويل - أيضاً - يأتي في الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه . ﴿هَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩)﴾ [يونس]

والحق سبحانه هنا يلتمس رسول الله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه في نفس الآية ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَادَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾ [يونس]

أى . انظر لمواكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولا ونصر الكافرين به عليه . . لا ، لقد كانت الغلبة دائما للرسل الحق عبر وجل مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي ۖ ﴾ (٢٦) [المجادلة]

وعرفنا - حدث للظالمين ، فمهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به لارض ، ومنهم من أخذه بالصيحة^(١) .

إذن فالتأويل واضح في كل مواكب الرسل التي سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، سينال القوم الظالمين الكافرين بمرسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۖ ﴾ (٣١) لا يدعنا أن نعرف معنى الظلم ، به نقل الحق لعبير صاحبه ، والحق يختلف في مكانتها ، هناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى في أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) [لقمان]

لأن في هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، وبما يتغيره كان

(١) قال تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَامِيًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التكوير] ولخاصية في روح شديد البرد والهيب تحمل حمى الأرض متلفها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله به قوم عاد أما الصيحة فقد عوب بها قوم ثمود ، وعوب قارون بالخسف ، أما قرون وجنوده فقد حرقوا بالمرق

(٢) العظيمة للقيمة المحرقة لتعطاط ، وللقبة السوية رقعة

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المتقول له الألوهية
بصاحب دعوة ، بل تطوع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله
شريكاً له ، وفي هذا تطوع بالظلم بغير مدح .

وهب أن الله تعالى قال لا إله إلا أنا ، فإما أن القضية صحيحة ،
وإما أنها غير ذلك ، إما افترض أحد - معاد الله - عدم صحتها ، فإلا
الشيء كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن
عنه ، وإلا كان إلهاً أصمّ عافلاً ، ولكن أحد ألم يعلن ألوهيته غير الله
سبحانه ، لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى

وقد بين لك الحق سبحانه لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرزق . ولم
يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن فقد صحت
الدعوى في أنه لا إله إلا الله

والدرجة التالية في الظلم هي الظلم في الأحكام ، فإذا حكم أحد بغير
الربا فهذا ظلم في قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاصر على مدين بأن يرد
الدين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك الماضي الذي يظلم في أحكامه إنما ينقل
حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن فالظلم يأخذ درجات حسب الشيء الذي وقع فيه الظلم

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِإِسْرَائِيلَ مِّنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهِ

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٠﴾

والكلام هنا في الدين كذبوا ، فكيف بقسم الله المكذبين - وهم

تَكْذِيبِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ - إِلَى قَسَمَيْنِ ، قَسَمَ يُؤْمِنُ ، وَقَسَمَ لَا يُؤْمِنُ ؟

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْإِيمَانَ عَمَلُ قُلُوبٍ ، لَا عَمَلُ حَوَاسٍ ، فَنَحْنُ لَا نَطْلُعُ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَالْحَقُّ مَسْبُوحَانِ يَعْصِمُ مَنْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ وَيَحْفَى إِيْمَانَهُ فِي قَلْبِهِ .

إِذَنْ : فَمَنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ بِالتَّكْذِيبِ بِلِسَانِهِ وَيَحْفَى الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَافِقُ تَكْذِيبَهُ بِلِسَانِهِ فِرَاقُ قَلْبِهِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ الذِّهْنُ قَالُوا إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ افْتِرَاءٌ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِقَلْبِهِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَصَادِقٌ فِي السَّلَاحِ عَنْ اللَّهِ ، وَلَكِنْ لَعَنَهُدْ وَلِكَافَرَهُدْ وَالْحَقُّ يَدْفَعُونَهُ إِلَى أَنْ يَظُنَّ هَدْمَ الْإِيمَانِ .

وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ قَسَمٌ آخَرٌ لَا يُؤْمِنُ وَيَعْلَمُ ذَلِكَ .

إِذَنْ : فَالْمَقْسَمُ لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ الصَّادِرُ عَنِ الْقَلْبِ وَتُعْبَرُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ ، وَكَانَ الْمَقْسَمُ هُوَ إِيْمَانٌ بِالْقَلْبِ غَيْرُ مُعْبَرٍ عَنْهُ ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مَرْتَبَةِ الْإِقْرَارِ بِاللِّسَانِ .

وَإِنْدِي جَعَلَ إِيْمَانُ بَعْضُهُمْ مُحْضُورًا فِي الْقَلْبِ غَيْرُ مُعْبَرٍ عَنْهُ بِاللِّسَانِ هُوَ الْحَقُّدُ وَالْحَسَدُ وَالْكَرَاهِيَةُ وَعِلْمُ الْفُتْرَةِ عَلَى حُكْمِ النَّفْسِ عَلَى مَطْلُوبِ الْمُهْجِ

بَعْضُ الْعَرَبِ حِينَ أَعْلَنَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَيَصْمِنُ لَهُمُ الْبَيَّادَةُ عَلَى الدِّيبِ كُلِّهَا ، رَرَفَضُوا أَنْ يَقُولُوا الْكَلِمَةَ ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَلِمَةً تَقَالُ ، بَلْ فَهَمُوا مَضْمُونٌ وَمَطْلُوبٌ

(١) فَقَدْ قَالَ لَهُ جَعْلُهُ أَبُو حَالِبٍ يَا ابْنَ أَخِي مَا يَرِيدُ مِنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ إِيْ أَرِيدَتْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً نَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبَ ، وَتَوَدَّى إِلَيْهِمُ الْعَجْمُ الْحَرِيَّةُ قَالَ كَلِمَةً وَاحِدَةً ؟ قَالَ كَلِمَةً وَاحِدَةً قَالَ لَا يَأْخُذُ بِهَا يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ (٢٢٧/١) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي مَسْنَدِهِ (٣٢٢٢) وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى المساواة بين البشر، وهم يكرهون ألا تكون لهم السيادة والسيطرة فى أقوامهم

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام فى مكة، حيث الأمة التى تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك يجد أن الفارق لم ينشأ إلا فى «المدينة»، أم فى مكة، فهم قوم مسجمون مع أنفسهم، وهم حين أعلنوا الكفر لم يعانون من تشتت الملكات، لكن المتافقين فى المدينة وغيرهما هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، يقول بليغته ما ليس فى قلبه.

ولذلك يُعرى الحق رسوله الكريم ﷺ ويسرى^(١) عنه ريبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم ووثوقه، فيقول الحق سبحانه: ﴿فَدَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزَنُ الْوَدَى بِقَوْلُونِ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ...﴾ (٣٢) [الأنعام] أى: أنك يا محمد متزعزع عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ...﴾ (٣٣) [الأنعام]

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسوله ﷺ، لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه، وهم فى أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأمنه على أُمَيَّاتِهِ النَّهْيَةِ^(٢).

والذين آمنوا برسائته ﷺ ولم يعلموا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

(١) يسرى عنه يكشف عنه الهم والحزن [البليغ، مادة: يسرى] (سوى)

(٢) الجحود: نقيض الإقرار، من الجحري: الجحود الإنكار مع العلم ما لا تنفى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَعْيُنُهُمْ فُلُماً رُغُوا﴾ (٣٤) [السل] [البليغ، مادة: جحد]

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ١٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد منه شئ من يمشى عليه إلا وضعه عليه، لما يعلم من عبدة ربه ﷺ»

وأوثق أمرهم موكل إلى الله تعالى ؛ ليأثروا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛
لأنه سبحانه الأعلم عن كذب عتاداً، ومن كذب إنكاراً

واحق سبحانه هو الذي يُعَذِّبُ ويُعَاقِبُ، وكل إنسان منهم سوف يأخذ
عني قدر منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله ﴿ وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤٠) [يوسفا]

والمفسد كما نعلم هو الذي يأتي إلى الشيء الصالح فيصيبه بالعطب^(١) ؛
لأن العالم مخلوق قبل تدخل الإنسان على هيئة صالحة، وصحة الله
سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعه
الله تؤدي مفعنها كما ينبغي لها

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر في الوجود، فانظر
إلى الكون الأعلى الذي لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً
مصدقاً لقول الحق سبحانه

﴿ وَالسَّمَاءَ رَافِعاً وَرُحُوعَ الْمِيزَانِ (٧) أَلَّا تَعْلَمُوا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا
الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

أي : اتقوا أداء مسئولية ما في أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه
ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك
الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل في
دائرة المفسدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) العطب : الفساد والهلاك

(٢) تعطلوا : من العطب، أي تعطلوا في جميع أموركم ووروا الأمور والأشياء بميزان
العقل، ولا يظلم بعضكم بعضاً والفساد العدل [الإنسان مادة] (فسد) يتصرف

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيضُونَ مِمَّا آعَمَلُوا وَالْأَبْرَارُ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١١)

وهذه آية تصع الاطمئنان في قلب رسول الله ﷺ فدم يقل الله سبحانه وإدا كذَّبوك، بل قال : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ (١١) ﴿ وَشَاءَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالتَّكْذِيبِ فِي مَقَامٍ لَشَكٍّ، وَاتَّبِعْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ : ﴿ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ (١١) ﴿ أَيْ : أَلْفَعِهِمْ . أَنَا لَا أَرِيدُ أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا أَحْمِلُ أَنَا، إِغَا أَرِيدُ لَكُمْ الْخَيْرَ فِي أَنْ تَعْمَلُوا الْخَيْرَ، فَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا الْخَيْرَ ؛ فِهَذَا لَنْ يَوْثُرَ عَنِّي حَصِيلَتِي مِنْ عَمَلِي .

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجَارَى عَنِّي عِدَّةُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، بَلْ نَأْجَاهُ الْبَلَاغُ كَمَا شَاءَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ .

وقد شاء الحق سبحانه أن يتفل محمد ﷺ الخير، لِي أَمْنَهُ، فَإِنْ ظَلَلُوا عَلَى الشَّرِّ ؛ فِهَذَا الشَّرُّ لَنْ يَمَانَهُ لَأَنْ حَبَرَ الْبَلَاغُ بِالسَّهْجِ يَعْطِيهِ ﷺ حَيْرًا، لِأَنَّهُ يَطْبُقُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَشَرُّ لَدِينٍ لَا يَتَّبِعُونَهُ إِغَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّ الدِّينَ يَتَأَيُّونَ عَلَى الْاسْتِجَابَةِ لِأَيِّ دَاعٍ، إِغَا يَظُنُّونَ أَنْ اِنْدَاحَى سَوْفَ يَسْتَفِيدُ (١٢) .

وَالْبَلَاغُ عَنِ اللَّهِ ، إِنَّمَا يَطْلُقُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْجًا وَسُلُوكًا

(١) وَمَا يَدْرِي عَلَى هَذَا أَنْ مَرَحًا مَكَّتْ فِي قَوْمِهِ بِذَعْوَتِهِمْ أَلْفَ مَنَ إِلَّا حَمْسِينَ عَامًا ، وَوَعَمَ هَذَا قَالَ عَنْهُ رَبُّ الْعَرَّةِ ﴿ وَمَا أَمْرِي مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (١١) [هود] أَوْ اخْتَلَفُوا فِي عَدَدِهِ مِنْ أَسْ مَعَهُ بَيْنَ عَشْرَةِ أَفْسَ ، وَثَمَانِينَ نَحْوًا مِنْ بَيْنَهُمْ أَبَدًا . نَظَرُ تَفْسِيرِ أَبِي كَثِيرٍ (٢/ ٢٥٥) .

(٢) وَبِذَلِكَ كَانَ مَرَحٌ بِقَوْلِ نَحْوِهِ ﴿ وَمَا قَوْمٌ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِذْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (١٢) [هود] ، وَمَعُودُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ عَدَدٌ ﴿ وَمَا قَوْمٌ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ قَطْرِي أَفَلَا تَتَّقُلُونَ ﴾ (١٣) [هود] وَهَكَذَا قَالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ ثَمُودَ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٤) [الشعراء] ، وَلَوْ طُفِقَ قَوْمُهُ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٥) [الشعراء] ، وَشَعَبٌ لِقَوْمِهِ أَهْلَ مَدْيَنَ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) [الشعراء] .

وَيَحْذَرِي عَلَيْهِ ^(١)

فَلَا يَجُورُ الْخَلَطُ فِي تِلْكَ الْمَسَائِلِ ﴿لِيْ عَلِمِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ..﴾ (٢١) ﴿

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ مَبْحَاثَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ : ﴿أَنْتُمْ بَرِيْهُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..﴾ (٢٢) ﴿

رَكْمَةٌ ﴿بَرِيْءٌ﴾ تَفِيدُ أَنَّ هُنَاكَ ذَنْبًا ، وَهَذَا الْقَوْلُ الْحَقُّ فِيهِ مَجَارَاةٌ لِلْمُخْصَرِّمْ ، وَشَاءَ الْحَقُّ مَبْحَاثَهُ أَنْ يُعَلِّمَ رَسُولُهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ آدَبَ الْخَوَارِ وَالْمُنَاقَشَةِ ، فَيَقُولُ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ نَعْلَمُ هُدًى أَوْ لِي ضَلَالٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٣) ﴿

أَيُّ أَنَا - الرِّسُولُ وَمَعَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ إِمَّا عَلَى هُدًى ، أَوْ فِي ضَلَالٍ ، وَالرِّسُولُ ﷺ مُوقِنٌ أَنَّهُ عَلَى هُدًى وَأَنَّ الْكَافِرِينَ عَلَى ضَلَالٍ ، وَلَكِنَّهُ يَجَارِيهِمْ ، عَدَالَةً مِنْهُ ﷺ وَمَجَارَاةً لَهُمْ .

كَذَلِكَ يُعَلِّمُهُ رَبُّهُ مَبْحَاثَهُ أَنْ يَقُولَ : ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ..﴾ (٢٤) ﴿

أَيُّ : أَنَّهُ يَبَيِّنُ لَهُمْ . هَبُّوا أَنِّي أَجْرَمْتُ فَأَنْتُمْ لَنْ تُسْأَلُوا عَنْ إِجْرَامِيْ ، وَمِنْ آدَبِ الرِّسُولِ ﷺ شَاءَ بِهِ الْحَقُّ مَبْحَاثَهُ أَنْ يَقُولَ . ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) ﴿

وَلَمْ يَقُلْ : «لَا تُسْأَلُ عَمَّا تُجْرِمُونَ» . وَكَذَلِكَ شَاءَ الْحَقُّ مَبْحَاثَهُ أَنْ تَأْتِيَ هُنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصِلْدِ خَوَاطِرُنَا عَنْهَا : ﴿أَنْتُمْ بَرِيْهُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..﴾ (٢٦) ﴿

(١) وَالرِّسُولُ مَكْتَلَفٌ بِبَيَاضِ مَا أُرْسِلَ بِهِ ، لَا يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ رَبُّ الْعَمَلِ عَنْ لَبِّهِ ﷺ ﴿وَلَوْ تَطَوَّلَ عَلَى بَعْضِ الْأَقْلَاقِ (١) لَأَخْلَدْنَا نَفْسَهُ بِالْهَيْجَرِ (٢) ثُمَّ لَنَقَطَعَا مِنْهُ الْفَرْقَ (٣)﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤)﴾ [الْحَاقَّةُ]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ
وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٤)

وكلمة « من » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة ، وقد يراد بها المشي ، وقد يراد بها الجمع ، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ.. (٤٥)﴾ [الأنعام]

ومرة يقصد المعنى فيقول ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُونَ.. (٤٦)﴾ [يونس]
لأن « من » صالحة لموقعين .

والسمع كما نعني هو استقبال الأذن للصوت ، فإن كان صوتاً
مُتَّهِماً كأصوات الخيوانات أو أصوات الأصوات ، فهذه الأصوات
لا نعيده إلا ما نعده النعمة في الجسم من هزة أو ارتجاج

وإن أن يكون الصوت له معنى تواضعي ، كاللغات المختلفة التي
يتحاطب بها الناس في البلدان المختلفة ، فإن تكلمت بالإنجليزية في بلد
يتكلم أهلها بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم . هذا هو معنى التواضع في
اللغة ، أي : أن المتكلم والسامع على درجة واحدة من الاتفاق على اللغة

وانني ﷺ عربي يتحدث بلسان عربي مبين لقوم من العرب ، فما العائق
عن السمع إذن ؟

ن العائق عن السمع نقض الأذن ما يأتي من جهة الخصم ، والسمع -
كما نعلم - هو استئراف المحاطب إلى ما فهم من المتكلم ، فإن لم يوجد
عد المحاطب استئراف إلى أن يسمع ، فالكلام يُقال ولا يصل .

إذن : لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم .
وكما يقول المتن «أذن من طين وأخري من عجبن» . أو كما تقول المرحمة
أن و حداً مال على أدن صديق له وقال : «أريد أن أقول لك سرّاً» فاقترب
لصديق مستشرفاً سماع السر ، فقال الرجل : «أريد مائة جنية كقرض» ؛
فقال الصديق : «كأنى لم أسمع هذا السرا» .

إذن : بالكلام لسر محدد صوت يصل إلى الأذن ، لكن لا بد من
استشرف نفس للتلقي . وهم لا يملكون هذا الاستشراف ؛ لذلك قال الحق
سبحانه ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ .. ﴾ (٤٢) أي . كان سمعهم لا يسمع .

ومثال ذلك : أنا محمد المدرس الذي يشرح الدرس للتلاميذ ، ويسر
التلاميذ من يستشرف لسمع ، ولذلك يفهم الدرس ، أما الذي
لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس .

وهم قد كانوا أصمّ ، لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة
العين ، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا
لَا يَعْقِلُونَ .. ﴾ (٤٢)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ يَنْظُرْ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى
وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٤٣)

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف ، وأن يقبل المرء على ما يريد أن يراء ،
وأحياناً لا يكون الرائي مستشرفاً ، لأن قلبه غير متجه للرؤية .

وسئل واحد إلك تقول . من رأى فلاناً الصالح ^(١) يهنه الله فرداً عليه
اسماع متسائلاً : كيف تقول ذلك ؟! فرد القائل . لقد رى أبو جهل خيراً
من هذا ، ومع ذلك ظل كافراً فرد السامع : إن أبا جهل لم ير محمداً
رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يتيم أبي طالب ^(٢) .

وهكذا شرح ابرحل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول ؛
لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكة الإيمان وهيبه الخشوع
وجلال الورع

ونحن قد تلقى رجلاً صالحاً في بشرته أذمة ^(٣) أو سواد ، وصلاحه
يضيء حوله ، وله أسر ^(٤) من التقوى ، وجاذبية الورع .

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغير أمره .

وها هو «فضالة» ^(٥) يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ
وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ :
ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال . لا شيء ، كنت أذكر الله قال : فضحك
النبي ﷺ ، ثم قال : استعصر الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة .

وساعة سمع فضالة هذا ، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول ،
قال ما كان أبعد إلى من وجهه ، ولكي أقبلت عليه فما كان أحب

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيماني ؛ لأن الرائي يرى نور الإيمان يملأه ؛ فيلاحه ، ويلتقي به
أما رؤية أبي جهل فهو رؤية انقطاع إيماني ؛ لأن استعباله للإيمان معطوع ، فلم ير نوراً ، ولم يمس به .
وأما كانت رؤيته من خلال الحقد الذي جعله لا يرى في رسول الله ﷺ إلا ابتساً لابن أبي طالب ،
وذلك بخلاف نور فضالة الذي أحس بالنور فأجابه

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (١/٢٢٢٢) أن المشركين كانوا ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبو طالب .
(٣) الأذمة هي الدنس السعرة الشبيهة ، وقيل هي من أذمة الأرض ، وهو لونها ، وهو من د .
أبو البشر - عند السلام ، اللطيف مادة آدم .

(٤) الأسر : التمسك الذي يسولى على مشاعر المحيطين به

(٥) هو فضالة بن عمر بن الملوح النخعي

إِلَىٰ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مِنْ وَجْهِهِ ^(١١).

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم
لمتعلقات وأشرفها ، لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ،
والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه ، ﴿ أَفَأَبْصَارُ تَهْدِي الْعَمَىٰ
وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (١٣) هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ
أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١٤)

كلمة «الله» هي اسم عَلَّم على واجب الوجود لم تنصف بكن صفات
الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله
تعالى كمالات لا تنتهي ؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحميها التسعة
واتسعون اسماً لا تكفي كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه
لا تنتهي

ولذلك قال النبي ﷺ .

«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سُمِّيتَ بِهِ نَفْسِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ،
أَوْ اسْأَثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ» ^(١).

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٤/٤١٧) بلفظ : «والله ما رفعت يده من صلبي حتى ما من خلق الله
شيء أحب إلي منه»

(٢) أخرجه أحمد بن مسنن (١/٣٩١ ، ٤٥٢) والحاكم في مستدركه (١/٥٠٩) من حديث ابن مسعود
وصححه على شرط مسلم إن سُمي من الإرسال

وإن سأل سائل ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه في علم العيب ؟

أقول: حتى يجعل لنا الله سبحانه في الآخرة مريلاً من الكمالات التي لم تكن نعرفها ، ولذلك يجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ من محامده وحسن الشاء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبله^(١).

وهذا بعض من فصوص لا تعد من آفاق اسم علم على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التي تعلمها^(٢) هي اللازمة لحبائنا الدنيا ، ولكننا سجد في لآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة الله هي الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ، وما لم نعرفها

والإنسان ما حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاثف صفات متعددة ، يحتاج إلى قدره ، وعلم ، وحكمة ، ولطف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت: باسم القوى ، فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت باسم القادر ، فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت باسم الخليم ، فأنت تحتاج إلى الخليم ، وإن قلت باسم الحكيم ، فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت: باسم الله ، فهي تكفيك في كل هذا وغيره أيضاً ؛

(١) وذلك في يوم القيمة في مقام شجاعة رسول الله ﷺ بعد تأخير إخوانه من الأنساء عنها ، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: رسول الله ﷺ يأتى تحت العرش عبقع ضائجة ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الشاء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبله ، ثم يقول يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع شعاع ، مبرقع الرسول ﷺ رأسه ويقول يا رب أمي ، أمي ، من حبيب طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢) ، ومسلم في صحيحه (٦٩٤)

(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٩٦) ومسلم (٢١٧٧) وقد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل في رواية أخرى عن أبي هريرة أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذي أصح

ولذلك يكون بدء الأعمال ^(١) بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدها ، وإن احتجت إلى عنيّ وجدته ، وإن احتجت إلى بسط ^(٢) وجدته .

وكل صفات الكمال أرخصها الحق سبحانه لنا هي أن نقول «بسم الله» ، وحين تبدأ عمرك باسم الله ؛ هانت ثقلُ بأن كل حول ^(٣) لك موهوب من الله ، والأشياء التي تفعل لك ، إنما تفعل باسم الله ، وكل شيء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلًا آيِدِيهَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٦١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس]

ولو لم يدلّل الله لنا الإعام والأشياء لنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يدلّلها لنا حتى نتعلّم أننا لا نستطيع ذلك ، لا علمنا ، ولا بقدرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذي يدلّل .

هأنت ترى الطفل في الرضف وهو يسحب الحبل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم . أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجري ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له ذرّة على قتله والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتي يلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يدله لك

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «كل كلام - أو أمر - ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أيتن - أو قال - أنفع»

(٢) أي أن يسطى رزقك ، فهو سبحانه الباسط يقول سبحانه وتعالى ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد]

(٣) أحول القوا ، والحيلة والمدة على تسير أمورك في حياة

مستساعة ، أما إن قطفنها بعد بصجها فانت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها الدرة لتعيد رراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بن إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادي من يأكلها

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى يصبح قادراً على أن يجب غيره ، فيكلفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلفه قبل ذلك^(١) ثم طرأت عليه مشاكل المراهقة ، فقد لا يستطيع أن يتحمل لتكليف

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد أفة أو جهون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يكلف لفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشيد ساعة التكليف ، أما المحنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن الكفرة ، لأن التكليف في مضمونه هو اختبار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة في التشريع

وأنت حين تستفسر التكليف عليك ألا تطر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل نحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرم على جميع الخلق أن يسرقوا منك^(٢) .

(١) لا استطاع القيام بكلف به لأنه ليس بالما ، ولذلك كان التكليف مصححاً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن مربي يروض النفس إلى عادات الله ، ولتوافق النفس بالتكاليف لله نواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم في صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ الصلاة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن . فالتكليف قد جاء لمصالحك .

وَهَبْ أُنْتُ أَطَقْتُ يَدَكَ فِي النَّاسِ ، فَمَاذَا تَصْنَعُ لَوْ أَطَقُوا هَمَّ أَيْدِيهِمْ
فِيمَا تَمْلِكُ ؟

وَحِينَ حَرَّمَ عَلَيْكَ التَّكْيِيفَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مُحَارَمٍ غَيْرِكَ ، فَهُوَ قَدْ حَرَّمَ
عَلَيْ النِّيرِ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى مُحَارَمِكَ .

وَحِينَ أَمَرَكَ أَنْ تَرْكَبَ ، فَهُوَ قَدْ أَخَذَ مِنْكَ ، لِيُعْطِيَ الْفَقِيرَ مِنْ
الْمَالِ الَّذِي اسْتَحْلَفَكَ اللَّهُ فِيهِ .

فَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَا أَخَذَ مِنْكَ ، بَلْ انْظُرْ إِلَى مَا قَدْ يَعُودُ عَلَيْكَ إِنْ أَصَابَتْ
الْعَذْرَاءُ الْعَفْوَ ، وَالشَّيْءَ الَّذِي نَسْتَشْعِرُ أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ فَإِنَّهُ سَيَحْتَاجُ بِعَطْفِكَ
الْشَّرَابَ أَضْعَافاً كَثِيرَةً^(١) .

وَبَعْدَ ذَلِكَ نَظَرٌ إِلَى حَرَكَةِ الْحَيَاةِ ، وَانْظُرْ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ
مِنْ أَشْيَاءَ ، وَمَا حَلَّلَ لَكَ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَتَسْتَجِدُ الْمُبَاحَ لَكَ أَكْثَرَ مِمَّا مَنَعَكَ عَنْهُ

إذن . فالتكليف لمصالحك

ثُمَّ سَعِدَ كُلُّ ذَلِكَ . أَيْعُودُ شَيْءٌ مِمَّا تَصْنَعُ مِنْ تَكَالُيفٍ عَلَى الْحَقِّ
سَبْحَانَهُ ؟ لَا .

أَيُعْطِيهِ صَمَةٌ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ ؟

لَا ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَنَا بِكُلِّ صِفَةٍ كَمَالُهُ ، وَلَيْسَ فِي عَمَلِنَا
مَا يَزِيدُهُ شَيْئاً .

(١) يَمُوتُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ إِنَّ ذَلِكَ حَسْبُهُ بِضَاعَتِهِ وَيُؤْتِي مَنْ يَشَاءُ
مِمَّا يَشَاءُ ﴿الْأَمْوَالُ﴾ وَتَقْدِيرُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَفْسٌ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَفْسٌ﴾ ﴿الْأَمْوَالُ﴾ - وَجَدَ
مِنْ أَمْرِهِمْ صَدَقَهُ نَظَرُهُمْ وَفَرَّكَهُمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِذْ صَلَّاتُكَ مَكْرَهُهُمْ ﴿الْأَمْوَالُ﴾ - وَجَدَ لَدَيْهِ فِي
أَمْرِهِمْ سَلْمٌ مَعْلُومٌ ﴿لَسَأَلِ وَالْمُحْرَمُونَ﴾ ﴿الْمَعَارِجُ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤) [يوس]

أى : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جحد الحق ، وهذا هو الظلم الأعنى ، ومن انظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليدوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من التعميم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهم طان قصير ، وما دام الشيء له نهاية فهو قصير

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية ، وبعد ذلك خص كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً به «افعل» و«لا تفعل» ، وبين فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن تمتنع عنه ، وترك لك بنية الأمور مباحة .

والمثال الذى أضربه دائماً . هو التلميذ الذى يرهب أحر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة .

(١) قد جعل الله فى الكون آيات يخاطب بها الله كل انسان ليحسبوا فيها وليهتدوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى ﴿إِنَّ فى ظُلُمِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّاتِ الَّتِي تَجْرى فى الْبَحْرِ مَا يَشْعُرُ النَّاسُ مَا أُتِرَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فَلَاحِظٌ بِهِ الْأَرْضَ بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ (البقرة)

(٢) ودبت فى محو قوله تعالى ﴿قُلْ لِمَالِكُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُخْبِرُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِنْهَابٍ يُسَيِّرُ بُرْقَانَكُمْ وَأَبَائَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِنْهَابٍ يُسَيِّرُ بُرْقَانَكُمْ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَمَسْأَلُهُمْ تَلَكُمُ تَقُولُونَ﴾ (الأنعام)

ومن لظلم أيضاً أن يستكثر الظالم بحجة عدم المظلوم ، غيريد أن يأخذها
 مه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعم عباده ؛
 لأنه مُنْرٌ عن ذلك - فضلاً عن أن حُلفه ليس عندهم نعم يريدونها هو ،
 فهو الذي أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتي منه سبحانه أي ظلم ، وإن جاء
 العلم فهو من الإنسان لنفسه

ويقوله الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّزِبَتْهُمْ أَلَآ سَاعَةٌ مِّنَ النَّهَارِ
 يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿٥٩﴾

فهذه الدنيا التي ينلهم عليها الإنسان ، وأخذ حظه فيها ، وقد يسي
 الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث في السب
 إلا ساعة ، والساعة هي الساعة الجامعة التي تقوم فيها القيامة ، ولكن
 الساعة هي الدب هي جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسم لأربع
 وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التي تُعلق على
 الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهي تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام
 وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ،
 فتشير الساعة في القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، ونكون في نيويورك
 السابعة صباحاً ، وتشير في بلد آخر إلى الساعة بعد منتصف الليل ،
 ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل لخلق إلا يوم لقيامه .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُحْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۖ ﴾ (٥٥) [الروم]

وهم - إذن - يُماجأون أن ديارهم الطويلة والعريضة كلها مرّت وكأنها مجرد ساعة^(١) ، وهكذا يكتشفون قصر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم يتمتعوا بها أيضاً فهي مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَانْتَهُم يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ فَبُهْلٍ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢٥) [الاحقاف]

أي : أن الدنيا تمر عليهم في لهو ولعب ومشاعل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها^(٢) ، فضاقت منهم وكأنها ساعة

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ۖ ﴾ (٤٥) [يونس]

ويوم احشروا ينقسم الناس قسمين قسم من كانوا يتعارفون على البر ، وقسم من كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا على الحياة الدنيا على

(١) الساعة أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ به القلة ، قال تعالى ﴿ يُقْسِمُ الْمُحْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم] أي مدة قليلة ، ومثله ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ لَّادٍ ﴾ جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (٢) [الأعراف] أي لا يتأخرون لحظة ، والساعة يوم القيامة قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ [الروم] أي القيامة

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ دَسَّخِهَا رَغْوًى فُتًى فَاُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾ [الأنعام] ، فالسعي للآخرة لا يدافع يكون بالسعي إلى عظم هذا اليوم الأخير .

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا في الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، ولحق سبحانه هو القائل : ﴿الْأَحْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الرعرع]

وكذلك قال في الذين تعارفوا على الإثم

﴿إِذْ بَرَّأَ الَّذِينَ أَبْعَدُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ..﴾ (١٦٦) [الققرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كَانَ سَبِيًّا مِى أَنْ يَزُولَ إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعيفه ويقول الحق سبحانه :

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ..﴾ (٤٥) [يوس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» عاصر أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة^(١) تعنى أن يفقد الإنسان المتاجر بما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة - كم تعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجر فيه ، وإما ألا يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمر عمله ووقته في هذه التجارة قد صاع ، وكل ذلك يحدث في الصفعات .

(١) خسر أى حصر الرجل في مجارته حراً وحراً وحجارة وحمراناً ، حصر فيها ولم يربح وأصابه النقص وحصر الرجل حبل فهو خسر ، وهو خسير ، قال تعالى : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ (٤٥) [الأنعام] وخسر نفسه أهلكتها بالهزل ، وقوله تعالى : ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (٢٧) [الحج]

ومر العمل لللام قبله تعالى : ﴿لَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا بُيُوتًا﴾ [الباء] ، وقد بئى منعديا ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَطَاعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٤٤) [الرمز] [التاموس الموم]

ونحمد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية في الدنيا بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢)﴾

[الصعب]

ويقول سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً^(١) لَنْ تُورَ (٢٩)﴾

[هاسلر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تثقل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتي لك بأكثر مما دفعت فيها.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة:

﴿أَوْ لَشَيْءٍ أَلَيْسَ الَّذِي اشْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَسْبِ فَمَا رَبَحْتَ بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦)﴾

[البقرة]

ويقول أيضاً:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١)﴾

[الجمعة]

(١) تاجر من باب نصر - غمراً وجماعة - باع واشترى طيباً للربح ، وتطلق التجارة على المال الذي يتجر فيه التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذي يترتب عليه ربح ، كأنه الثواب ربح ، وكان أحرمان منه حسارة ، قال تعالى ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ (٢٨٧)﴾ [البقرة] ، التجارة هي التجر فيه ، وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تُورَ (٢٩)﴾ [هاسلر] هي الأرباح الصاعدة ، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢)﴾ [الصعب] ، هي التجارة بالمسعى للجهنم أي العمل الصالح [القاموس الفوج]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك في ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل في ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره .

وبهذا يتحقق مع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جدد الإتقان .

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المسج والمسهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذن الجمعة قال

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٩) [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، واتجارة هي الجامعة لكل حركات الحياة .

والتاجر ومبسط بين منتج ومستهلك وتلغضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما في البيع فهو يأخذ الثمن ، والعانة من كل شيء أن يثمر الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشتري شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكث عند بيع لمضاعة تشمر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أحد ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك في لحظتها .

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعِدُّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويه ، وتُشَدِّبُ النبات ، وتُنْتَظَرُ إلى أن يصبح الررع ، وكذلك تقصى الكثير من الوقت في إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع في التجارة يأتي بك بالكسب سريعاً ، فكأن صَرَبَ المثل في التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إن لا بد أن نعتبر أن دحولك في صفقة الإيمان تجارة ، نأخذ منها أكثر من رأس مالك ، ونربح ، أما إن تركت بعضاً من الدين ، فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت .

وأنت في أية صفقة قد تعوَّض م خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيصعب عليك نفعك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ، وخسارتها محتملة ، أما الخسارة في الزمن غير الموقوت - الزمن اندائم - فهي حسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة لبس فيها أغيار كالدنيا ، وأنت في الآخرة إما في جنة ذات نعم مقيم ، وفي هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هي الخسارة الحقيقية .

والخسران الحقيقي أن يكذب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن منقاء الله أيضاً

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَاءِ اللَّهِ ۖ ﴾ (٤٥)

[يوس]

أي : أن الله سبحانه لم يكن في بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ۖ يَحْسِبُهُ اسْتِطْمَانًا مَاءً ۖ﴾ (٢٩)

[النور]

واسرب كما تعلم يراه السائر في الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ، فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه لإنسان لم يجد ماء ، وهكذا تشبه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير في صحراء شامعة ، ويرى السراب ، فيظنه ماء ، نكهة سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ۖ﴾ (٣٠)

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه من عمل له ، ولا يُحسب له ذلك في الآخرة ، وتجد لناس يُكرمونه ، ويقيمون له السمائل أو يمحرونه الخواثر وينطبق عليه قول الرسول ﷺ

«فعلت ليقبل ، وقد قيل»^(١)

(١) السراب ما يُرى في نصف النهار من اشتداد الحر كلما في الصحراء ينمى بالأرض وهو من خداع البصر وقد سمي السراب سراباً لأنه يسرب سروب ، أى يجري جرباً ، أى يمحرك حرك محذع الراى من بعيد ، فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى ونصرى ناتج من إحالة النعجة لنعج حص عند شدة عطشه ووجوده في صحراء شامعة ، فأى حركة من بعد يظنها ماء ، ويجرى إليها ، ليندجاً بعدم وجود شيء [اللسان مادة (س ر ب) تنصرف]

والعبد أرس وسمة مستوية لانت الشجر قال المراء الفضة جمع الدخ ، والقاع ، ما انسط من الأرض قال تعالى ﴿فليدعها عاصفا﴾ (١٠) [طه] [اللسان مادة (ق و ع) تنصرف]

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة خلق رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرها قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك ماتت لأن يمال جري مقد قبل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وبرا القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرها قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت القرآن وعلمته وقرأت القرآن قال كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالماً ، وقرأت القرآن ليقال هو نارى ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٠٥ وألفاسنى في سننه (٦/٢٣) طبعة دار الكتب المعصه بيروت

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كذبوا بآلاء الله تعالى .

[يرى]

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٥)

أى لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه ،
هذا المنهج الذى يمثل قانون الصيانة لصحة الله تعالى ، وقد خلق الله
سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصور الإنسان بالمنهج من أجل أن
يؤدى هذه المهمة .

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق
المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة على الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى
الخسران المبين ، أى : الخسران المحيط .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا
مُرجِعُهُمْ لَإِلَهِهِمْ أَشْهَدُ عَلَى مَا يُفْعَلُونَ﴾ (١٦)

وقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا﴾ مكونة من «إنا» و«ما» مدعومتين ، وهنا
يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان
والعقاب والعصية .

أى يا محمد ، إما أن ترى ما فناءهم من حلال وهوان ، وإما أن
تتوَقَّعُكَ قبل أن ترى هذا فى الدنيا ، ولكنك ستراه فى الآخرة حين
تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر .

وبى هذا نرية لرسول الله ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا نُورُكَ . (٤٦)﴾ أى أن نريث ما وعدتهم من الخلدان والهبوط
فى هذه الحياة ، وإن لم تره فى الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم فى
الآخرة ، حيث المرحع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم فى أنفسهم
بأشياء فوق الهوان الذى يرى فى الناس ؛ كحسرة فى النفس ، وكبت
للأسى حين يرون نصر المزمين .

أما الذى يرى فهو الأمر الظاهر ، أى الخلدان ، والهريمه ، والأسى ،
والقتل ، وأخذ الأموال ، وسبى النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف
تراه فيهم بعد أن تمص روحك إلى حلقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك
الله به .

وأنت لست تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه ﴿شَهِيدٌ
على ما يفعلون (٤٧)﴾ .

وكذلك الله سبحانه شهيداً : ﴿وَكفى بالله شهيداً (٤٨)﴾ [الأنعام]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ
بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٩)﴾

(١) قسط يقسط - كصرب - حصلاً وقسوطاً ، وقسط يقسط قسطاً كنصر - ظلم أو عدل ، من الأعداد ،
وبهم بالقرائن ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم فى قوله تعالى ﴿ وَأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً (٢٠) ﴾
[الحج] وأقسط - عدل وأزال الظلم ، واستعمله القرآن بمعنى العدل فى قوله تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى
بِالْقِسْطِ (٢٩) ﴾ [الأعراف] ، والقسط : الميزان والعدل ، ٢ القادموس القويم .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعدب قوماً إلا بعد أن يكفروا
بالرسول الذي أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا^(١) فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢٤)

[فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (٢٣)

[الأنعام]

فلا تحريم ولا عقوبة إلا بتقص وبيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، برسالة
الرسول ؛ حتى لا يحتاج أحد بأنه لم يصل إليه شيء بحامض بمقتضاها .
والحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولا يتعهد بها بأمور المسج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحددين منذ خلية آدم - عليه
السلام - ثم افترقت الأحداث أن يتباعلوا ، وانتشروا في الأرض ، وصارت
الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فم يحدث
في الشرق تراه في لحظتها وأنت في الغرب ، فهذا يعني توحد الآفات
أو تكاد تكون واحدة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما في
الأرمة القديمة ، فقد كانت أزمة اعزالية ، تحب كل جماعة بعيدة عن
الأخرى ، ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات
البيئة ، أما وقد التفت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات^(٢) .

(١) خلا مصر وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿ كَلَّا وَاشْرَوْا بِهَا أَنْفُسَكُمْ فِي الْآيَاتِ الْعَالِيَةِ ﴾ [الحاقة]
أي الماصية

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام هي جماع القيم بكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ
مَا وَصَّى بِهِ نُرْحَاهُ وَالَّذِي أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَحْمَةً وَمَا رَحِبَتْ بِهِ الْأَرْحَامُ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَنْبِئُوا النَّاسَ وَلَا تَفْرُقُوا فِيهِ شَيْئاً
عَلَى الْفِرْعَوْنِ مَا تَدْعُهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَحْيَى إِلَهُ مَنْ يَمْنَأُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنْجِبُ ﴾ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧) ﴿[يونس]

وقد حكى التاريخ ذلك ، فكل رسول جاء أمس به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والدين آمنوا به انتصروا ، ومن كفروا به هُزِمُوا

أو أن الآية عامة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أي سادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ .

والحق سبحانه يقول :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (٤٨) ﴿يَوْمَئِذٍ يَرُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ (٤٩) ﴿[النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولا جاءها بالبيان عن الله ، وقد أسس به من آمن ، وكفر به من كفر ، وما دام الإيمان قد حدث وكذلك الكفر فلا بد من انقضاء بين المؤمنين والكافرين

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال لي رسول الله ﷺ «أمر أعلی» فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل قال نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري «فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (٤٨) فقال ﷺ أحسبك الآن ؟ فإذا عيناه تذرفان أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٥٠) وأحمد في مسنده (٣٨٠ / ١)

والدعة نقول الشهيد صيغة مبالغة في الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ (٣٣) ﴿[النساء-] وقوله ﴿وَلَا يُضَارُّ كِتَابَ وَلَا شَهِيدَ﴾ (٣٨٧) ﴿[البقرة] أي شاهد والشهيد من قتل في سبيل الله ، والشهادة حبر دافع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود [العاموس القويم]

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَبِأَدَاءِ حَآءِ رَسُوْنِهِمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يوس]

وما دام في الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يعتبر الكافر مازعاً له ، وأن الكافر يعتبر المؤمن منزعجاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يوس]

أى يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقضى الحق سبحانه حسناتهم ويريدونها لهم ، أم الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى يوم يُسألون فيه عن كل شيء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا :

﴿ أَأَنبَأُكُمْ بِمَا كُنَّا تِرَآءُ وَعَظَامًا أَنَا لَمُبْعُوثُونَ ﴾ (٤٨) أَوْ أَنبَأُكُمْ بِمَا كُنَّا تِرَآءُ وَالْأَوَّلُونَ (٤٧)

[المافات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً.

ويشاء الحق سبحانه أن يدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول : ﴿ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ ﴾ (٤٩) [ق]

فأنتم إذ كنتم وتحملتم في التراب ، أبعجز الله سبحانه أن يحييكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل :

﴿ فَذَرْنَاهُ مَا تَقْصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعَبَدْنَا كِتَابَ حَفِيطٍ ﴾ (٥٠) [ن]

أى : أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذى خلقهم أولاً

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٥٩٧٥

وهم قد كذبوا واستكثروا واستهزأوا بحجى - يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا " هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يقر من هول ذلك اليوم .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨)

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدّين^(١) فى كل زمان ومكان ، وفى العصر القريب فانه الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، ودمروا الطبقة العلى فى المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كسوا قد امنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ من الظالم يحكم على ظالم ، ستكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث : هاين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتصوا إلى أن لهذا الكون حاسلاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتصوا : لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، هاين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملكتكم فى لعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم بشرتم لعنل بيهم ، فمصادا عن الدين مسقوا ، والدين لحقوا ؟

(١) وقد قال رب العزة عنهم ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (٤٧) [الحج] ، ويقول سبحانه من ية أخرى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ (٥٢) [التكوير] .
(٢) الملحدون جميع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، بلائل منه قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ لِي آيَاتِنَا لَا يَحْكُمُونَنَا ﴾ (٤٩) [فصلت] ، [المعجم الوسيط : مادة (لحـد)] .

هم - إذن - لم يلقوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت طامم إلا بعد أن ينتقم الله منه^(١)

وهم سم يثمتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والسيء بإساءته.

وكان المطلق يقتضى أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولا بد أن يحيى اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخرُوا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم فى قول الله سبحانه على ألسنتهم . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٨) [يوسف] وبكى وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً

وبذلك يقول القرآن بعد ذلك

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ
لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١٩)

والرسول ﷺ يرى نفسه من كل حَوْلٍ وَطَوَّلٍ^(٢) ، ويعلم ما أمره خلق

(١) ، يقول الحق : ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ اللَّهُ عَمَلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٢٠) مذهبى ، نفى رؤسهم لا يبرئ إليهم طرفهم وأصابعهم هراء (٢١) [يبراهيم] ، ويقول الرسول ﷺ : إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أحده لم يملكه .

(٢) الحَوْلُ : الجلى وجرد النظر والقدرة على دقة التصرف فى الأمور .
والطَوَّلُ : الفصل واليسر قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْخَرْكُمْ مِنْكُمْ فَلَا أَنْ يَكُفَّ الْقَبْضَاتِ تَكْرِمَاتٍ فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (٢٢) [النساء] . [المعجم الوسيط] .

سبحانه أن يعبد ، فهو ﷻ لا يمك لنفسه معاً ولا صراً ؛ لأن انفع
أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو
مشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت ردّاً على سؤالهم لدى أورده انخلق سبحانه في الآية
السابقة ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

لقد تعاملوا بخيرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكانهم استطأوا نزول
العذاب نهكماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رُسُلٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧) [يونس]

هذه الآية لم تنزل لرم القمامة ، بل برلت لتوضح موقف مَنْ كفروا
برسول الله ﷻ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

وهذا يعنى أنهم قالوا هذا الفرل قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي
توضح أن لكل أمة رسولا تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى يَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٥٠) [الاسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١) [الاسم]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا ۖ ﴾ (١٧١) [طه]

وكل ذلك يزيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذي جاء بمنهج الله تعالى ، فامس به قوم ، وكذب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين

وإن استسبحوا الكافرون الفذلان فليسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .. ﴾ (٤٩) [يوس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضراً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمه أحل^(١) ينزل بالدين كهروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ ﴾ (٤٩) [يوس]

يفيد أن مشيئة الله هي الفاصلة ، ويدل على أن الشئ والامر لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خلق على هيئة القَسْرِ^(٢) فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور أخرى ، والاختيار هو فى الأمور التكليمية

(١) الآخر - مدة الشئ ، رعاية الموت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو موت العمل والأجل نفس الوقت الذى أجل له الأمر ﴿ قُلْ قَسِي قَوَسِي الْأَجَلِ ﴾ (٤٩) [القصص] أى المدة المحددة له ، وأجل الشئ - حدده أجله مستقبلاً ﴿ لَأَمْلَأَنَّ يَوْمَ الْجَزَاءِ ﴾ [المرسلات] أى ، حد الموت أو الهرم وقوله ، ﴿ ثُمَّ قَسِي أَجَلًا وَأَحْلَ مُسْفَى عَذَابٍ ﴾ (٤٩) [الأنعام] لآل هو مدة البقاء فى الدنيا ، والثانى هو مدة البقاء فى القبر إلى يوم المصيبة ، أو مدة حياة الأجرة ، ومعه ، ﴿ فَيَقْدِرُ الْيَوْمَ أَجَلُهُمْ ﴾ (٥٢) [البقرة] أى نهاية مدة العدة والأجل عند العاجل والأجلة عند المأجلة

[القاموس القويم]

(٢) القسر ، القهر والإجبار ،

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

○ ٩٧٩ ○

مصدافاً لقوله سبحانه ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِي وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِّرْ﴾ (٧٩) [الكهف]

وأنت حُرٌّ في أن تطيع أو أن تعصى ، وكل ذلك داخل في نطاق اختيارك ، وإن صغ الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صغ معصية ، صنع لنفسه ضرراً .

إذن : فهناك في الأمور الاختيارية خير ونفع .

ومثال ذلك : من يشجر بأن يشتق نفسه ، فهو يأتي لنفسه بالضرر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بحسبنة الله سبحانه .

إذن : هي الأمور الاختيارية بملك الإنسان بحسبنة الله - الضرر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحدوا أنتم آجال الأمم ، لأن آجالهم - استصلاً ، أو عذاباً - هي من عند الله سبحانه وتعالى والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبطل الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُرَّةً أن يكون موطئاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى

وهو سبحانه القاتل

﴿سَأَرْبِكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ (٣٧) [الأنبياء]

وهو سبحانه القاتل

﴿وَيَذِخُّ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (١١) [الأنبياء]

[الأنبياء]

(١) عَجُولاً صيغة مبالغة تعيد العجل في الأمور واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لَكُمْ الشَّرَّ أَسْعَىٰ إِلَيْهِمْ بِالْخَيْرِ لَغَضِي إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (١٢) [يونس] والعاجل السريع عند الأجل ، والعاجلة الدنيا ، والآجلة الآخرة ، يقول الحق ﴿كُلُّ نَفْسٍ عَاجِلَةٌ﴾ (١٣) [القيامة] أي الدنيا ، وعجل الأمر عليه قبل أوانه بدافع الشهوة ، لا عجل الأمر عليه . قال ابن مسعود : ﴿وإذا رجع موسى إلى لونه غصياناً أمداً قال يسمعا خفتهم مني من بعدى أعجلتم أمرىكم﴾ (١٤) [الأعراف]

إذن ، فالحق سبحانه يؤخر مراداته رحمه بالخلق ، وإذا جاء الأهل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده

لذلك يقول الحق سبحانه

﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١٩) [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذي جاء بعد ﴿ إِذَا ﴾ " جاء أجلهم " . (١٩) [يونس]

لأن جواب هو : ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴾ .

بهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَاذَا

يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢٠)

وهذا ردٌ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فلتسألوا ماذا سيكون موقفكم ؟

وهم باستعجالهم العذاب يرهنون على غنائهم في لسؤال عن وقوع العذاب .

وقول الحق سبحانه . ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ . أي أخبروني عما سوف يحدث لكم .

(١) إذا ، تأتي لمعين شرعية وفجائية إذا الشرطية اسم شرط للزم المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة المفعلة ، وتعرب إذا ظرف ما يستقبل من الزمان حافض لشرطه متصرف بجوابه ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢١) [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، ليكون المرفوع معلوماً معلولاً لعمل محذوف يحسنه العمل الذي بعده مثل ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (٢٢) [الانشقاق] أي إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمعجزة ، وتختص بعملية الإسمية ، قال تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِذَا مَسَّ حَبِطَتُنْ ﴾ (٢٣) [مله] « القاموس القويم »

وشاء الحق سبحانه أن يأتي أمر العذاب هـا مبهماً من جهة الزمان
فقال سبحانه :

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ بَيَاتٍ أَوْ نَهَارًا ۖ﴾ [يوس]

والبيات مقصود به الليل ؛ لأن الليل محل لبيتوتة ، والنهار محل الظهور .
والزمن اليومى مقسوم لقسمين : ليل ، ونهار .

وشاء الحق سبحانه إيهام اليوم والوقت ، فإن جاء ليلاً ، فالإنسان في
ذلك الوقت يكون عاجلاً نائماً في العالب ، وإن جاء نهاراً ، فالإنسان في
لهـاز مشغول بحركة الحياة .

والحق سبحانه يقول في موضع آخر :

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ۖ﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه :

﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ۖ﴾ [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتي في الليل وفي النهار
معاً ؛ لأن هـاك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً ، وفي ذات الوقت يكون
الزمن نهاراً في بلاد أخرى

وإذا جاء العذاب محنة ، وحاولوا إعلان الإيمان ، فلن يصعب هذا

(١) بـأسنا عذاب وأنـأس لمرة ، فإن تعالى ﴿وَأَمَّا الْفُلُوكُ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد] ، أي
قوة وصلابة ، وقوله تعالى ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الْفُلُوكُ كُفْرًا﴾ [النساء] شدتهم رجوتهم
بصددهم عنكم ، ومن الحق ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة] ، أي وقت الحرب الشديدة ، وقول
الحق ﴿وَمُرَايِلُ تَقْبِكُمْ بِأَسْكُمْ﴾ [الحمل] ، أي شدتكم وقوتكم في الحرب فصحتكم
المروع من انتظار الحرب والبأساء ، الفرو والسدة ، ويقول الحق ﴿وَالْعَصَائِرُ فِي الْبَاسِ وَالضَّرَاءِ﴾
[البقرة] أي وقت الفقر والحاجة .

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف

﴿الآن وقد عصيت قبلَ وكنت من المفسدين﴾ (٩) [يوس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما سئلكم فيه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب في الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يصعف لكم العذاب مرتين ، في الدنيا ، ثم العذاب الممتد في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِمْ أَلَمْ تُكُنْ لَهُمْ قَدْ كُفِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّزْجِجُونَ﴾

قَسَّعَاجِلُونَ (٥١)

أى : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون ؟

إن إعلان إيمانكم في هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابيل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أى وصح ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع لعذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون^(١) حين جاءه الفرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

(١) وذلك أن فرعون خرج من جبين كبير يقدر بمائة ألف رجل من بني إسرائيل عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه ﴿ فَلَوْحًا فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَنْصَبَ عَلَى الْبَحْرِ فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالْعُورَةِ الْعُظِيمَةِ ﴾ (الشعراء) ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَفْرَقَهُ الْفَرَقُ قَالَ لَمَسْتُ الْقَهْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يَدْرُ إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يوس)

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : لما أغرق الله فرعون قال : آمس آمه لا إله إلا الذي آمس به يور إسرائيل قال حبريل : يا محمد فلو رأيته وأنا أخذ من حال البحر (أى طين البحر) فأدبته في فيه (أى لجمه) محاقه أن تتركه الرحمة ، أخرجه الترمذي في مسنده وقال حديث حسن وانظر تفسير ابن كثير (٢ / ٤٢٠) والقرطبي (١ / ٤٣٠ - ٤)

[يوس]

آتت به بنو إسرائيل . . (٩) ﴿

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ

تُحْزَنُونَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

وهذا إخبار عن لعذاب القادم لمن كفروا ويلقوه في اليوم الآخر ، فهم يكفروهم فقد ظلموا أنفسهم في الدنيا ، وسيلقون بعذاب في الآخرة ، وهو ﴿عذاب الخلد﴾ أي : عذاب لا ينتهي .

وبهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿هَلْ تُحْزَنُونَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

أي أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذي معجزة ، ومعه مسيح مصل مؤيد ، وأمهاتهم مدة طويلة ، ولم يستعبدوا بها : لأنهم لم يؤمنوا .

ومن سيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بحبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه حري وهوان ، لكن محدوديته في حياته حمله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المأبود .

وحاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب ريادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنيهات ، قد يكسب خمسة جنيهات

وهما سؤال . هل اندي يرتكب معصية يكسب ريادة عن الأصل ؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرم عليه أمراً ، وحله هو لنفسه ، فهو يأخذ

(١) الخلد : اللوام ، والمراد أنه عذاب دائم . [السان : مادة (حل د)]

ريادة في التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب^(١) بمجهومه الوهمي الذي زين له مراد النفس الأماراة ، وهذا يعني أنه يظن إلى واقع اللذة في ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات^(٢) تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر في حقيقة الأمر.

وبعد ذلك يقرون الحق سبحانه .

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِي وَرَقِي إِنَّهُ لَحَقٌّ
وَمَا أَشْرِبُ مَعْجِزِينَ﴾^(٣)

وهم قد قالو من قبل : ﴿مَنْ هَذَا الْوَعْدُ...﴾^(٤) [يوس]

وهم هنا قد عادوا للتأول . ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾ أى : يطلبون منك لنبا . والسأ هو الخبر المتعلق بشيء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هو﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ وببوة ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، وإنشوة لمحمد ﷺ حق ، ولقيامه بالبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم وبصره المؤمنين عليهم حق .

(١) قال الله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَ﴾^(٥) [البقرة] فالذى يحمل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يحمل تبعات الخربة على هذا ، فله يعتمد المصالح الكسب ، وعليه بعمله السيء جزم ما اكتسب .

(٢) بمع الشيء . نتيجته وفاقبه وما يترتب عليه من أثر [المعجم الوسيط مادة (ت ب ع)]

(٣) أى نعم حرف جواب

(٤) أى أنكم لن تصحروا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكفرون

إذن فقولهم: ﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ﴾ "أحقُّ هو" .. ﴿٥٣﴾ لها أكثر من مرجح ،
كأنهم سألوا: هل القرآن الذي جئت به حق ؟

وهل النور التي تدعيها حق ؟

وهل الشرائع - التي تقوى - إن الله أنزلها كمشيخ يحكم حركة
الإنسان - حق ؟

وهل القيامة والبعث حق ؟

وهل التعذيب على الدين حق ؟

إياها كلمة شاملة يمكن أن تقول إلى أكثر من معنى .

ويأتى الجواب من الله تعالى ،

﴿ قُلْ إِيَّاي رَبِّى إِنَّهُ لَحَقُّ ۖ ۝٥٣﴾

[يوسف]

وأنت حين يستمعهم منك أحد قائلًا: هل ريد موجد؟ فأنت تقول: نعم
موجود ولا تقول له: والله إن ريداً موجود ؛ لأنك لن تؤكد الكلام من
يسألك ؛ لأنه لا يتكرر وجود ريد.

إذن فأنت لن تؤكد إحداً ما إلا إذا كان هناك فى السؤال شبهة إنكار .

إذن: فأنت تستدل من قوله الحق سبحانه:

(١) لـ الحمر أو الخرد والذئ ، قال تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ٥١﴾ عن النبا العظيم ﴿٥٣﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ وهذا الذى
هو البعث ، وأنبأه بدشئ ومبأ به : أخبر به ، وأنبأ يعنى يعصون به واحد : هل قوله تعالى :
﴿ إِنبِئْهُمْ بِأَسْمَانِهِمْ ٥٢﴾ [البقرة] ، ويتعدى يعصون مثل : ﴿قَالَ مِمَّنْ أَتَىٰكَ هَٰذَا ٥١﴾ [٥١]
[التحرير] ، وقد يعنى بحرف بحر (عن) كقول : ﴿وَجِئْتُهُمْ مِنْ حَيْفِ بُرْءِيمَ ٥١﴾ [الحجر] أى
حدثهم برأيتهم : طبعاً أن يبله كقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ أَهْلَ الْكِتَابِ ۖ هُوَ قَوْلُ الْيَهُودِ ۖ إِنَّهُ لَحَقُّ ٥٣﴾
[يوسف]

﴿وَيَسْتَبِشُّونَكَ أَهْلَ الْبُيُوتِ﴾ .. (٥٣) ﴿ على أن سألهم يحمل معاني الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إي» وهو حرف جر بمعنى : نعم ، وتأتي «إي» دائماً مع القسم

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهي تأتي في جواب سؤال معنى ، في مثل قوله تعالى :

﴿أَلَمْ نَسْأَلْكَ بِرَبِّكَمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ﴾ .. (٧٣) [الأعراف]

وهو الحق سبحانه هذا ﴿إي وربّي﴾ .. (٥٣) [يونس]

تعني : نعم وأقسم بربي إنه حق وأنت لا تُقسم على شيء إلا إذا كان السؤال عن شبهة إنكار ، وتأتي بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد

ومثال ذلك في قوله سبحانه

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ (١) ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ (٣) [يس]
ومما كان رد من بُعث إليهم الثلاثة؟

﴿قَالُوا مَا أَنُظَمُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (١٥) [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً . فقال لهم الرسل :

(١) إي : حرف جر ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى ﴿وَيَسْتَبِشُّونَكَ أَهْلَ الْبُيُوتِ﴾ .. (٥٣) [يونس]

(٢) قيل : هي أمطاكبة ، بين سروريا ونزكيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان منكها بعد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم حين تفسير ابن كثير (٥٦٨/٣) بتصرف

(٣) عزَّزْنَا أَيَّدْنَا وَتَوَيَّا

﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١٦) [يس]

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديدين.

إدب فالتأكد في أسلوب المستول إنما يأتي على مقدار الإنكار ، فإن لم يكن هناك إنكار ، فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد.

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتي مرة واحدة

وإن صادف الكلام الحاجة إلى الإنكار جاء التأكيد مرتين

أما إذا ما صادف الكلام تبعاً إلى الإنكار فالتأكيد يأتي ثلاث مرات

وقد علم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استناباتهم بأن يقول لهم ﴿إِنِّي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (٥٣) [يوس]

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب ؛ لأن الرب هو من كلمته ، ثم يؤكد ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن مؤلفهم تضمن الإنكار والاستهراء

وما دام قد قال ﴿إِنِّي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فهم إن لم يؤمنوا سوب يلحقون العذاب ؛ لأنه ليس هناك منجى من الله تعالى ، ولن تُعجزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شعاعة من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه حيلة تتقدم لتشع لكم

ثم يأتي قوله سبحانه في نهاية الآية ،

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣) [يوس]

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر حجة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وبعالى من الممكن أن يفيل شعاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل

العداء^(١) ؛ ولذلك جاء الإيضاح في الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظِلْمَةٌ مَّا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ .
وَأَسْرَارُ النَّدَامَةِ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتُصْحٍ بِقَهَرِ
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ٥٤

وساعة يأتي العذاب فالإنسان يرغب في الفرار منه ، ولو بالافتداء

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ،
حتى ولو كان يملك كل ما في السموات وما في الأرض^(٢)

ولكن هل يثنى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات
والأرض ؟

طعاً لا

إذن فالشر لا يثنى رغب أنه تأنى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما في
السموات وما في لأرض ؛ لأن الإنسان الظالم في الدنيا قد أخذ حق
الغير ، وهذا الغير قد كب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم
إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحَّ ذلك لتحوَّل بعض إلى مغيصين
حقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

(١) العداء : ما يقوم من مال ونحوه لتخليص الخدي قال تعالى ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ عَظِيمٌ ﴾ [الصافات] .
[المعجم الوسيط : مادة (د د ي)]

(٢) بدم علي ما فعل يتلم بدماً وندامه ، من باب فرح أسف وتحسر وتنى أنه لم يفعله ، قال تعالى
﴿ وَأَسْرَارُ النَّدَامَةِ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ (٥٤) [يونس] وندام اسم فاعل قال الحق ﴿ فَأَصْحَابُ الْمُنَادِينَ
(٥٣) ﴾ [المائدة]

(٣) يقول سبحانه ﴿ يَوْمَ الْمُنْظَرِ أَوْ يُفْعَدِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُ (٥١) وَمَصَاحِبُهُ وَآخِيهِ (٥٢) وَهَؤُلَاءِ الَّتِي تُؤْرَبُ
(٥٣) رَمَنَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعٌ ثُمَّ نَحْمِيهِ (٥٤) ﴾ [المعارج]

وبذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم في الدنيا قبل لأخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم في مجتمع ، فالظلمة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يحتل ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها .

وهب أن لظالم أحد مُلك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدي به نفسه ساعة يأتي العذاب ، ويعاجأ بأن كسبه من حرام لا يُشْتَل هداً ، أليس هذا هو الخسران الكبير ؟ وهذه ظاهرة موجودة في حياة الناس .

وهب أن واحداً ارشى أو احلّس أو سرق ، وبما جئته القوانين ليحكمه من تلاميذه ' فيقول حدوا ما عدي واتركوني ولن يقبل القانمون على القانون ذلك وإن كان مثل هذا التنازل يحدث في (الحسارك) هنرى من يتنازل عن البصائع المهرنة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث في الدنيا ، لكنه لن يحدث في الآخرة

وفي سورة النقرة يقول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقِيلُ مِنْهَا شِفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (١٨) ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة]

وقال الحق سبحانه في آية أخرى :

(١) التلايت مجامع ثياب الرجل والتلب هو جمع الثوب الذي يلبسه عند صدره وظهره ، وجاء [السان مائة سم]

(٢) العدل العدة المائلة ، قال تعالى ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة] أى لا يجها من العذاب دفع عيب مماثله ولا يقبل منها ، وعدل الشيء وعذله أقامه وسواه ، قال الحق ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (١٠٦) [الأنعام] وعدن اشرك بربه جعل به مساوياً ، قال تعالى ﴿ثُمَّ الْفُلَيْنِ كَفَرُوا بِهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٠٦) [الأنعام] وما كان يعنى أن يعدلوا غيره ، فليس كشيء شيء ، ومثلها قوله ﴿أَلَمْ يَلْعَنُ اللَّهُ لِقَوْمٍ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل] أى : يجعلون له شريكاً مساوياً وأما قوله ﴿وَمَنْ حَلَلْنَا أَمْوَالَهُ يَمْشِي بِالْحَقِّ وَهُوَ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف] أى يحكمون بالعدل [القوم من القوم]

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ (١٢٣) [البقرة]

وقد بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى في التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة ، واللغة الحقة تتجلى في الآيتين ، لأن الفأريء لصدر كل ية منهما ، والفاهم للملكة اللعوبة العربية يعرف أن عجز كل آية ينسب صدرها ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (١٢٣) [البقرة]

يرى أنه أمام تفسير النفس "الأولى" هي التي تقدم الشفاعة ، والنفس الثانية هي المشعوع لها ، والشفاعة ها لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل

وهي الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشعوع لها ، فهي تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا يفيها تأتي بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير في الآيتين مناسباً للموقف في كل منهما وهذا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ (٥٤) [يوسف]

وهي هذا القول تعذر ملك النفس الواحدة لكل ما في الأرض ، ولو افترهت أن هذه النفس ملكته هل تستطيع الافتداء به ، وتكون النتيجة هي ما يقوله الحق سبحانه :

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشعوع لها ، هذا ما يفهم من مرادفات الشيخ رضي الله عنه

﴿وَسِرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ﴾ (٥١) [يوس]

أى أحصوا الخسرة التى نأتى إلى انفس ، ويس لها ظاهر من ارجاح
لعطى أو حرثى .

إن كلاً منهم يكتنم همّه فى قلبه ، لأنه ساعة يرى العذاب ينهر ويصمت
ويُهت " من هول العذاب ، فتحمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرح ،
وهو بذلك إنما يكتنم ألمه فى نفسه ؛ لأن هول المرهب يجمّد كل دم فى
عروقهم ، ويحرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن يطق ، لأنه يعجز عن
التعبير الحركى من لصراخ أو الألم .

وحيث نعلم أن التعبير الحركى نون من التنفيس لدى ، وحيث
لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر .

هم - إذن يُسرون الندامة حين يرون العذاب المفرع المفجع ، والكلام
م عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول :
﴿وَقَصَىٰ بَيْنَهُم بِالْقَنَاطِ ۖ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥١) [يوس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فهنا
أن كافراً بالله عماى عن الدين ظلم كافر آخر ، أبقف الله سبحانه من هذه
لمسألة مرقماً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خلق الله سبحانه - الكافر المظلوم يقتضى أن يقتضى الله
سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً
لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقتضى الله ييهم بالحق ، أى يحقّق عن المظلوم بعضاً من

(١) يهت: أى ؟ يملكه هول ما يحدث ؛ فيستطع من الكلام أو غيره

(٢) القنسط : المراد به بين العدن

العذاب بقدر ما يشق على الطالم

هذا هو معنى ﴿وَفَعَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى ، عدم تخير ،
وتتطلب الفصل بين حصومتين .

ويترتب على هذا القضاء حكم : لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم
وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق
رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما
أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ،
وكل وسائل الرق والقوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكفرهم - فإذا ما
حدث ظلم بين متدينين يدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى
فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿الْأَيُّ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الْاَيُّ وَعَدَ اللّٰهُ
حَقًّا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

و«ألا» هي اللفظة يقان عنها «أداة تنبيه» وهي تنبه السامع أن المتكلم يقول
بعدها كلاماً في غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ،
محكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون في وضع المباحث .

وقد يتكلم متكلم بما دار في ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن
المخاطب بباحاً ، وإلى أن يتنه قد تموته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

(١) وعده شيئاً يعمده وعداً وعدة . أخرجه أنه سبحانه له أو سيظهره إياه ، يعنى لمعوليه . وقد يعدهد أحد
التقوير لعدم به ، قال الحق ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللّٰهُ الْعَمٰى﴾ (٥٢) ﴿[الباء] كلا معول به أو مقدم ،
واحسن معول به ثاب . أى ، أخبرهم الله أنه سبحانه يحبس الدرجات ، والوعده بالخير كثير ،
ولذلك حيناً كما في قوله ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ (٥١) ﴿[البقرة] أى يدرككم ويحرقكم بالشر ،
والعمل متعللاً للمعولين . كم معول أول ويتر معول ثان [الدموس التقويم - تصدق]

و الله سبحانه وتعالى يريد ألا يعوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه منه إلى الخير القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿إِنْ لَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ (٥٥) [يوس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقصة الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شىء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تحضغ لمسيبات عمل العمل ، فكل من يجهد ويأتى بالأسباب ، فهو تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً

وإد خدمت الأسباب الإنسان ، وكان هذا الإنسان عاقلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويطر أن الأسباب قد دانت له بهوته ، ويعنى بتلك الأسباب ، ويقول مشيما قال قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ﴾ (٧٨) [قصص]

فالذى سقى مسبب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو مال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا وفى الآخرة ؛ فكان الحق سبحانه ينهمم تسهيروا أيها الجاهلون ، واهتموا هذه القصص الكسرى : ﴿إِنْ لَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ (٥٥) [يوس]

فإيك أيها الإنسان أن تعتر بالأسباب ، أو أنك بأسيابك أخذت غير ما يريد الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدر لك ، وكل الأسباب

١١) وقد قال سبحانه : ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَيَجْزِيهِمْ وَرِيسًا﴾ من التكرار ما إن معاتمة أمرة بالصبة أولي القوة إذ كان له قوة لا تفرج إن الله لا يحب الفرجين (١٧١) [قصص] ر قارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعضه الله من الأموال مردعه فى الخزان حتى أن معاتجها لا تستطيع الجماعة من الناس حميتها كثرته ، فعلى ، فأملكه الله بعبه ورحه بماله وتعصمه على الناس ، وهو : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (٧٨) [قصص] فكان جبراً : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ لَمَّا كَانَ لَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ﴾ من دون الله وما كان من المتكبرين (٨٨) [قصص]

تتفاعل لك معطاء وتقدير من الله عز وجل .

وهي أعيار الكون الدليل على ذلك ، فهكرك الذي تحطط به قد نصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أيُّ منها بمرض ، فلا تعرف كيف تتصرف .

وكل ما تأتي فيه الأغيار ، فهو ليس من دانك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبب الأسباب

هناك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبب ، لأن لله منك لأشياء التي تحورها والأنوات التي تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتسه أيها العادل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هي الصاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يحلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتي بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن مثلاً ويحرق الأرض ، ويرويها في مواعيدها ، ثم تأتي دوده القطن لتأكل المحصول

إذن فمرّد كل مملوك إلى الله تعالى

واعلم أن هناك ملكاً ، وأن هناك مُلْكاً ، والملِكُ^(١) هو ما تملكه ؛

(١) الملك في الأعيان والحيوانات حقيقة ، وفي المعاني مجاز ، فمن الملك الحقيقي قال تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ (١٢) [النمل] ومن الجبار موله ﴿ أَمِنْ بِحُكْمِ السَّمْعِ وَالْأَنْصَارِ ﴾ (٤٣) [يونس]

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق ﴿ فَبِهِدْيِهَا مَالِكُونَ ﴾ (٢٢) [يس] ومملوك ميم معيون كقولك تعالى ﴿ وَحَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ [الحج] والملك مصدر ، قال تعالى ﴿ قَالُوا مَا أَهْلَكْنَا مُوْعِدَكُمْ بِمُفْلِكَا ﴾ (٨٧) [م] أي بؤاقت واختيار ، والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى ﴿ عَلَىٰ مَلِكٍ مُّسْمًى ﴾ (٢٦) [البقرة] أي على عهد ملك سليمان ، والملك أهلككم ، قال تعالى ﴿ وَفَالِ الْمَلِكِ أَشْرَىٰ مِنْهُ مُنْقَلَبُهُ لِنَفْسِي ﴾ (٤) [يوسف] هو فرعون ، ومرى ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين والملِك والمالِك والمَلِك من أسماء الله الحسنى ، والمملوك المملوك الملك العظيم وهو له خاصة ، قال الحق ﴿ فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يس] والملك واحد المملوكه ، القاموس القويم - بتصرف

حلياً ؛ أو بيتاً ، أو حميراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك
من له ملك ، وتسيطر عليه ، فالقمة إذن هي المُلْك
ونظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ
تَشَاءُ .. ﴾ (٢٦) ﴿

[آل عمران]

إذن : فالملك هي الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت في أول الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها -
لنفسه العاقل عن الحق ؛ لأن لأسباب استجابت له وأعطته التمتع ، فاعتز
بها ، فبجعل الله سبحانه الأسباب تختلف هي بعض لأشياء ؛ ليحل
الإنسان مربوطاً بالمسبب .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ إِلَّا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا .. ﴾ (٥٥) ﴿

[يونس]

و لوعد إن كان في حير فهو إشارة بخير يقع ، وإن كان شر فهو إندار
بشر يقع ؛ ويخلص عليه كلمة «الوعد» .

إذن ففي غالب الأمر تأتي كلمة «وعد» للأشياء الخيرة وأشر ،
أما كلمة «وعيد» فلا تأتي إلا في الشر .

والوعد هو حذر شيء سيحدث من الذي يملك أن يحدث الشيء
وبفاد الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها
الزمان ، ورابعها المكان ؛ ثم السبب .

والحدث يحسح إلى قدره ، فإن قلت : «إنك عدأ في المكان الفلاني
لأكلمك في مرسع كذا» فهذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى العدم ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذي تحدث فيه اللقاء قد نصسه ما يدمره ، والموضوع الذي يريد أن يتحدث فيه ، قد يأتي لك خطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء

وهب أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شيء أبداً

ولذلك يعلم الله سبحانه خلقه الأدب في إعطاء الوعود ، التي لا يملكوها ، فيقول سبحانه .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ (٢٤) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ ﴾

[الكهف]

وحين تقدم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إيفاد الوعد فلن تكون كذاباً وهكذا يعلمنا ربنا حبيانه أنخبرنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم في نطاق قدراتنا ، وقدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، وواعد ، فلا راد لما وعده سبحانه ، لأنه مزمع عن أن يخلف الميعاد ؟ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تنأى عليه ، ووعده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التي يجربها الحق سبحانه عليك

(١) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا رجلاً منهم إلى أخبار اليهود يسألونه عن صحة الرسول ﷺ ماثلين لهم إتهم أهل الكتاب لأول ، وخدمهم ما ليس عدواً من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود بتمديد قريش سؤال محمد ﷺ عن ثلاثة سور ، منها : فصلوه عن نية في الشهر الأول ما كان من أمرهم بيهيم قد كان يهيم حديث عجيب ، فسألوه فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم عدداً عما سألتكم عنه » ولم يشر أي لم يقل إن شاء الله ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه في ذلك شيء ، مرت هذه الآية ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧١)

(٢) الثاني هو لا متاع وعلم الانهياح والآباء أشد لامتاع [اللسان مادة أين]

وهبُ أنت أردت أن تبي بيتاً ، رقلت للمهندس مواصفات خاصة التي تريدها في هذا البيت ، لكن المهندس لم يستطع أن ينشئ من الأسواق بعضاً من المواد التي حددتها أنت ، فأنت - إذر - قد أردت ما لا يملك المهندس تصرفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للحائز الأعلى سبحانه ؛ فهو الذي يحدث كل شيء ، وهو حين نعد بصير وعده محتم الفاد ، ولكن الكافرين يسكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

[يونس]

أى أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا .

﴿مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَعَدَ ..﴾ (١٨)

[يونس]

أو أن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تسمى أن الإنسان يجب ألا يصبح منه في موعد دون أن يقدم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أى وعد إلا ما يشاء الله تعالى

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هَرِيقِيْ وَيَمِيْتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦)

وبحسب علم أن حركة الحياة ، والملك والمُلك ، هي فرج من الأحياء ، وهو سبحانه حتى ؛ لأنه مالك الأصل ، وهو القادر على أن يعيت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه " الله سبحانه بالموت ، فهو

(١) منه السبب وسلبه من باب بصير مناً فرقة منه قهراً أو احسنه ، بقول عر ﴿إِنْ يَلْبِثُ الْغَائِبُ حَتَّى لَا يَسْأَلَهُ عَنْهُ﴾ (١٧) ، [الحج] أى يرجع منهم شيئاً ، وهو من جمعى لمعنيين «العالموس العرب»

مالك الأشياء ، ولأسباب التي تُشج لأشياء ، ولا يفوته شيء من وعد ولا وعيد ، ويحيى بحيا بحسبته سبحانه ، ويموت بحسبته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بحرف الرجعة ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٥٧

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ۖ ﴾ ١٤٤ [البقرة]

فهنا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافة بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۖ ﴾ ١١ [النساء]

أما المؤمنون سبحانه يكلّفهم بخطاهم إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ۖ ﴾ ١٨٣ [البقرة]

ومثل قول الحق :

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ۚ فِي الْقَتْلَى ۖ﴾ (١٧٨) ﴿

[القرة]

أى أن خطاه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى لأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول اعتقائد والإيمان الأعلى بالواحد الموجد ، فهذا يكون مخطئاً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول ها

﴿يَأْيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَوْعِظَةٌ ۖ﴾ (١٧٩) ﴿

[يوس]

والآية ها تصور الموعظة وكأب قد تجسدت وصار لها مجيء ، رغم أن الموعظة هى كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التى تؤثر وتحض على الإيمان

و لموعظة "هى الوصية بالحس والمعاد عن الشر بلقطة مؤثر ، ويقال فلان واعظ متميز ، أى : أن كلامه متميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الوعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة بيسر إلا من يحميد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء "٣

(١) القصاص هو توقيع لعقاب على من قتل أو حرق غيره يمثل ما قتل أو حرق ، وهى شريعة جاءت بالبراه بها وأقر بها شريعة الإسلام ، قال تعالى ﴿وَكَيْدٌ عَلَيْهِمْ فَمَا لَ الْفَسْ بِالنَّفْسِ وَالنَّهْ بِالْعَيْنِ وَالْإِنْف بِالْأَيْفِ وَالْأُفْ بِالْأُفْ وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ وَالْمَرْحُفْ فَصَافٍ ۖ﴾ (١٨٠) ﴿ [المائدة]

٢) وعظه يعظه وعظاً وعظفة تصحح بالطاعة والعمل الصالح ، ورشده إلى الخير قال تعالى مصراً أعناد الكافرين ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَيْنَا أَرْعَفْتَ لَمْ نَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٨١) ﴿ [الشعراء] فهم لعبادهم تنبؤى عدهم الأمران وأمو عظة م يوعظه من قول أو فعل تنبؤى تعالى ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٢) ﴿ [المرء]

و قال ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (١٨٣) ﴿ [النحل] ، والموعظة بها مقدمات ملاعبة من متعلق إلهانى مادة وعظ تصرف من قاموس المعجم

(٣) وقد كان رسول الله ﷺ لأسوء أخيه رائل الأعلى فى لموعظة بالحكمة ، عن العرياض من سريه قد قام فبارسول الله ﷺ ، ذات يوم ، موعظاً لموعظة نبويه ، وحلت بها العيوب ودوب بها العيوب الحديث أخرجه ابن ماجة فى ٤٢٢) وأبو عبدى (٢٦٧٦) وأحمد فى مسنده (١٢٧/٤)

لأن الموعوظ قد يقوّم في نفسه لقد رأيتني في محلّ دويك وتريد أن ترفعني ، وأنت أعلى مني . فإذا فُتّر الراجع هذا الطرف في الموعوظ فهو يستميل نفسه .

ولتذكر الحكمة التي تقول : «النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدلاً ، ولا ترسوه جَبَلًا ، واستمعوا له خَفَّةَ البَيَان» ؛ وذلك لتسميل أذن السامع إليك فتأتي له بالأسلوب الجميل لنفع المتع الذي يحجبه ، وتلمس في نفسه صميم ما ترعب أن يصل إليه

والموعظة تختلف عن الوصية ، لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا في خلاصة حكمة الأشياء ، وهب أن نسمي مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وصيته ، ويوصيهم بعون "السائل" .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ . (٥٧) ﴾

[يوس]

والموعظة إما أن سمعها أو ترفضها ، ولأنها موعظة قادمة «من ربكم» فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد احتضن الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عبداً ، لكن الرب هو المربي والكميل ، وإن كثرت به

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أي : أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تنوزع ما بين قسمين : القسم الأول هو مقومات الحياة التي يعطيها الحق سبحانه من قوت وورق - وهذه المقومات للمؤمن ، وللکافر - والقسم الآخر هو مقومات انقيم التي ترسم مهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط

(١) صوب سائل أي أصولها ، وبهم مهاد ، وعين كل شيء حياره [اللسان منه (هـ)]

إذن فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ، لأنه هو الذي خلق من عدم وأمدّ من عدم ، ولم يحتص سمعة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت سمعته كل الخلق ،

إذن فالموعظة هي من يُعطى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنَزَّه عن العرص ، لأنه لن يبال شيئاً منك " فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظة القادمة بالمنهج تخص لعقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقده أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهي عبر مرثية ولا مسقة ، ولا تمر على عقده ، لأن عقله محتل الإدراك وفاقده للقدرة على الاختيار بين البدائل .

ولكن لماذا يُفسد العاقل الاختيار بين البدائل ؟^(١٦)

إن الذي يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما يشأ بما في النفس والقلب ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد شرحها :
 ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَرْعُظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَثِقَاءُ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [توبة]

(١٦) وقد أعطاك القرآن مثلاً لهذا من يهدى الذي يفسده جميع ، يقول سبحانه ﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُرْمَتِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِأَلَّا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ لَكُمْ لِكُتُبِهِ وَاللَّهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشَرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢١) [الحج]

(٢١) بدل الشيء بغيره ، وبدل الكلام بغيره وحرفه ، قال معاني ﴿ فَيُنْزِلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَمْرٍ أَلْهَاءٍ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٠١) [البقرة] أي غيره بكلام آخر ، وقول آخر ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابَهُ بَعْدَ مَوْعِدٍ لَمْ يَكُنْ فِي عَقْوٍ رَحِيمٍ ﴾ (١٠٦) [النمل] أي عمل الخير والحسنة بعد عمل السيئة ، وأبدله الشيء من الشيء ، وبدل الشيء بالشيء جعله بدلاً منه ، وبدل الشيء بالشيء ومن الشيء جعله بدلاً منه ، كقولنا نحالي ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْمَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا إِذْ قَبِلْتَهُ مِنْ أَرْوَاحٍ وَوَعَيْتَ حِمْلَهُ إِلَّا مَا طَلَّكَ يَمِينٌ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ (٢٦) [الأعراف]

أى أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلٍ يؤثر في أحكامكم ، وحسد ، وحسد ، ومكر ، ويُتقى باطن الإنسان ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها نبع وجدائى ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدائى ؛ ليصح ؛ حتى تخرج الحركات من الحوارج وهى نابعة من وجدان طاهر مُصفى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة^(١)

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) [يوس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً ، لتبين أن الهداية الحقّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخرج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم .

وإن سأل سائل عن الفرق بين الشفاء والرحمة ؟ يجيب : إن الشفاء هو إخراج لما يُمرض الصدور ، أما الرحمة فهى اتباع الهداية بما لا يأتى بمرض مرة أخرى ، واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ وَرُسُلٌ مِّنْ لِّقُرْآنٍ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٢) [الإسراء]

وهكذا يتبين لنا أثر الموعظة : شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن : شفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك يجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض .

(١) عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن على أحد بضعة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب « أخرجه البيهقى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) »

ومثال ذلك . طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى شوراً ؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويريلها مؤقتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرب الصالح فهو يعالج لأسباب التي تُنتج البثور ، ويريلها بالعلاج الفعال ؛ فنمضي على أسباب ظهورها

وهي الفروا الكرم بخد قصه ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه

﴿ اَرْكُضْ ۚ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝١٦ ﴾ [مر]

أي اصرب برجلك ذلك المكان يحرق لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ ويريل الأعراض الطاهرة ، وتشرب منه لعلاج أصل الداء

إذن . فالموعظة وكأنها تجسدت ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم شفاءً حتى تعالج المواحيد^(١) التي تصدر عنها الأفعال ، وتصيح مواحيد سببية مستقيمة ، لا تحلُّ فيها ، وهدى إلى الطريق الموصل إلى العاية الحقة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصاب بأيّ داء ، وهذه الموعظة تؤدي إلى العمل المقبول بحمد الله سبحانه ،

ولكن إن صحَّتْ لك الأربعة السابعة من الموعظة الشفاء ، والهدى ،

(١) ابتلى الله سبحانه عبده وبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض من جسده وفقد ماله وأرلاه - واستمر هذا لثلاث مئة ثمانين سنة عاشها عبداً أعفى فضاء الله ، ولم يبقَ منه إلا زوجته التي اضطرت للعمل في خدمة الناس حتى توفر نفسها وبروحها الطعام ، ولما دعا أيوب ربه ﴿ وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسِي الضُّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء] استجابه الله له وأزال عنه الضرر إذ قال له ﴿ اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝١١٦ ﴾ [مر] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله فعلى ، فذهب لله في الأرض صيباً وأمره أن يغتسل منها ، فذهب جميع ما كان في يده من الأذى ، ثم أمره أن يشرب لأرض من مكان آخر فعلى ما بع الله له عيلاً آخرى وأمره أن يشرب منها ، فذهب جميع ما كان في باطنه من السوء ، وترك قلبه العافية ظاهراً وباطناً [ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٩ ، ٤٠] وقل عنه سبحانه ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ غَافِلًا قَدِمْنَا بِالْحَبْلِ الْيَدْنِ فَنَنزَّلْنَاهُ سُلٰلٰمًا ۝١١٧ ﴾ [ص]

(٢) المزاجية : المقصود بها أعمال القلب التي من استقامت استقامت الخواارج

والرحمة ، والعمل الصالح ، فيأتاك أن تفرح بذلك ؛ فموق كل ذلك يصل
الله عليك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ

مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨)

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا في تطبيق منهج الله ، فكلنا عباداتنا لن
يؤدي حق النعم الموجودة عندنا قبل أن نكلف ، وعلينا أن نتذكر قول رسول
الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول
الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني » الله برحمته ^(١) .

إذن فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، بهذه لطاعة تعود على العبد في
دنياه ، وهو لن يؤدي بطاعة حق كل النعم التي أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يكلف إلا عند الملوغ ، أي . في سر
الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التي أسبغها الله تعالى عليه حتى
وصل إلى هذه السن ، فهو لن يحصيها ^(٢) ، فما بالنا بالنعم التي تنمينا في
كل العمر ، وحين يجاريها الحق في الأحرار ، فهو لا يجاريها بالعدل ،
بل يعاملنا بالفصل .

إذن . إياك أن تقول : أنا تصدقتُ بكذا ، أو صليتُ كذا ؛ حتى لا
تورثك استجابك لمهج الله غروراً بعملك التعبدى ، وقد كُثر انقول

(١) تعبد الله برحمته أدخله فيها وفخره بها . قال أبو عبيد : بونه « يتعبدى » . يلبس رتبعثان
ويصترى [لسان العرب : مادة (ع م د)]

(٢) معنى عليه أخرجه البيهقي في صحيحه (٦٤٦٣) . ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ ﴾ [الحل] وقد أورد سبحانه النعمة

هنا ؛ لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرها وحده في نظرك فهي مسجلة على نعم لا تحصى

ولا تُعد ، مما منك بالنعم مستحقة

المأثور : « رَبِّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثْتَ دُلًّا وَاسْكَارًا ، حَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثْتَ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ ﴾

إن تمتع الإنسان في الحياة بالملك والمالك ، فكل ذلك يفتح إني استبقاء الحياة بالرق الذي يهنا الحق سبحانه إياه ، وكذلك استبقاء النوع بالتراوح بين الذكر والأنثى .

ولكن الرق الذي يسقى الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدَّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرَّمات فلا تعربها ، وأنت عليك بالانترام في حدِّه الله ، فلا تدخل أنت على ما حَلَّلَ الله لتحرِّمه ، لأن الحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، معاملاً بصنك كما يعمل الآلة التي تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدي مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التي تنفعك وتستفيد منها وتؤدي حركات الحياة بالطاقة التي يملك بها ما حلَّله الله لك

وكذلك حرم الله عليك ما يَصُرُّكَ ،

وإياك أن تقول ما دامت هذه الأشياء تضرني فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

(١) يقول رب لعمري سبحانه مؤامراً حرم عليكم المصيبة والدم ولعمري الخنزير وما أهل به الله به (٢٥)

ما في الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستعيد منه فوراً ،
وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُضج لك الصعاع .

إذن فهناك شيء مخلوق لمهمة تساعد في إنتاج ما يفيدك

والحق سبحانه قد حلل لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ،
والإبل والفر وغيرها ، وحرم عليك لحم الخنزير^(١) ، فلا تسأل : لماذا خلق
الله الخنزير ، لأنه خلقه لمهمة أخرى ، فهو يعلم قادورات الوجود
ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فاتركه للمهمة التي أراد الله لها .

ومعص الناس قد حرم على نفسه أشياء خلقها الله تعالى^(٢) ، وهم بذلك
نُصِّقُونَ على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلل ما حرم الله أنه يوسع
على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه وسرله ﷻ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ۖ ۝ (٥٩) ﴾ [يونس]

أي : أخبروني ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تستفدون به ، إما
مباشرة ، وإما ما يوسد سط ، فكيف تتدخلون بالتحليل والتحريم ، رغم
أن الذي أنزل الرزق قد بين لكم الحلال والحرام !^(٣)

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ تصيد أن الرزق كله صادر من أعلى^(٤) ، وكل ما تروده

(١) يقول الحق سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّوا عَنْ طَيِّبَاتِ مَا أَحْرَمَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ (١٧) وَكُلُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٥٥) ﴾ [المائدة]

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى
نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ الْتُورَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتُّورَةِ فَأْتِلُوا بِهَا مَا فِيهَا مِنْ حَرَّمَ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ [آل عمران]

(٣) يقول الحق سبحانه ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٦٦) ﴾ [الدَّهْرِيَّاتِ] فيقول المطر من السماء هو رزق
يسرله الله سبحانه ، فتجيا به الأرض الميتة ينتبج الرزق فيأكل منه كل كائن حي على الأرض من إنسان
أو حيوان ، ﴿ وَإِذَا مَثَلَ الدُّنْيَا كَمَا أَنَّ الْوَرْدَ مِنَ الشَّجَرِ فَاحْطَظْ بِهِ يَبَابُ الْأَرْضِ مَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ۖ ۝ (٦٧) ﴾ [يونس]

حولكم هو ورق ، تشعرون به مباشرة ، أو شكل غير مباشر ، فالمال الذي
تُشترى به أغلب الأرواح لا يأكله الإنسان ، بل يشترى به ما يأكله

وكلمة ﴿أُنزِلَ﴾ تعني : أُوْحِدَ ، وحلق من أعلى ، وما دام كل شيء
قد وُحِدَ بمشيئته من هر أعلى من كل الوجود ، فكل شيء نصالحك
مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿أُنزِلَ﴾ من جهة العلو الحسية ، بل حُدها من جهة
لعلو المعنوية ، فالصر - مثلاً - يرل من أعلى حسياً ، ويحتلظ بالأرض
بأخذ اسات عدااه مه ، والورق بالمطر ومن الأرض مُقدَّرٌ من حلق ،
وهو الأعلى سبحانه

وقد قال الحق سبحانه .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا يَا بَنِي آدَمَ وَآدَمُ مَا يَكُونُ لَكُمْ لِيُفْهِمَ النَّاسُ
بِالْقِسْطِ رَأَيْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۚ﴾ [الحديد : ٢٥]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه مهجه على الرسل عليهم السلام تصلح
حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذي يستخرجه من الحصار ومن
لأرض .

إذن فالمراد هنا بالإنزال ، أي لإيجاد من هو أعلى منك نصالحك
أيها الإنسان

وما دام الحق سبحانه هو الذي أنزل الورق ، وبين الحلال والحرام ،
فلماذا تُدخلون أنوفكم في الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

(١) ﴿بَنِي آدَمَ﴾ الآباء الواضحة : «الطهارة العقلية والبأس» القوة : «الإنسان العرفي»

وبعض الحرام أو كل الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركوا الحمل لمن خلق وهو سبحانه أدرى بمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ ۖ ۝٥٩ ﴾ [يوس]

أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جعل الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أم على الله تفترون ۝٥٩ ﴾ أى عصى الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبين لنا مدى قبح السلوك فى تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم الله

ويشر الحق سبحانه فى إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى قصلت الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرنا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَفَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٠ ﴾ [المائدة]

والبَحِيرَةُ - كما ذكرنا - هى الناقة التى أُعجبت خمس يطون أحرها ذكر ، وكانوا يشقون أدها ، ويعلمون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة "غير مملوكة" ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أى حمل ، ولا يجسها أحد ، ولا يحجز صوفها أحد ، ثم يبيعها حذام الآلهة التى كانوا يعبدونها ، وسموها «بحيرة» " ، لأنهم كانوا يشقون أدها علامة على أنها أدت مهمتها.

(١) السائمة العتم والماتية ترعى حيث شاءت والسائم الداه على وجهه حيث يشاء [اللسان مادة سوم]

(٢) وبسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أدها يكون شقاً واسماً يشبه البحر فى صمته (بصرفه عن أحكام القرآن للجصاص ٢ ، ٦٠٨) وهى تمهيد المقصود بالبحيرة - هل هى الناقة التى ولدت حسة أبطن أم بطنها التى ولدت فى آخر بطن ؟ - اختلاف انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧ ، ١٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص . وكذلك قيل فى معنى «لا تقول أن السائمة هى أم البحيرة

أما السائنة فهي غير المروطة ، لأن الرِبط يفقد المنكحة ، وكان لواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً ، وحب أن يحمل ناقةً لخدمهم الأصنام ، واسمها سائنة ، وهي أيضاً لا تُركب ، ولا تُحبس ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرض لها .

والوصيلة هي الأنتى تلبها المأقة فى بطر وحدة مع ذكر ، فيقولون «وَصَلَّتْ أَحَاد» : فلا يدحويه للأصنام من أحل أخته .

﴿ولا حام﴾ والحام هو القحط الذي يحمى طهر نفسه بإحجاب عشرة أنظر ، فلا يركه أحد بعد ذلك ، ولا يُحْمَلُ عنه ، وترك خذام لأصنام .

هذه هي الأنعام المحلّة التي حرّموها على أنفسهم ، فيما يأكلها حذّام
لأصنام ، وفي ذكر عدم تحرّم تلك الأنعام رافقة بهم .
وهناك أيضاً قول الحق سبحانه .

﴿ تَصَدِّقُ أَزْوَاجَ مَنْ الصَّانِ أَتَيْتَ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْتَ قُلْ لَذِكْرُنِ حَرَمٌ أَمْ
الْأَتَيْتَ أَمْ أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَتَيْتِ يَتَوَبَّى بَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١١٣)
وَمِنَ الْإِبِلِ أَتَيْتَ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتَيْتَ قُلْ لَذِكْرُنِ حَرَمٌ أَمْ الْأَتَيْتِ أَمْ أَشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَتَيْتِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا هَمِّنْ أَظْلَمُ مِنْهُ فَتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بَعِيرٌ عَلِمَ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١١٤)

إِذْ : فقد حرّموا عصاً على أهل الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

(١) كذا في الأصل في إحداهما: "أو برى" من هلة، أو هلة دابة من مشقة أو حربة قال
بني سبئية أي: "تصميم فلا يسمع بظهورها، ولا تحلأ عن ماء، ولا يسبح من كلال، ولا تركب [ذكره
ابن منظور وغيره] بالساق عادة (منسب إلى)

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ^(١) مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ^(٢) وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصُلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ^(٣) ﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك في قوله الحق

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَى لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ^(٤) ﴾ [يوسف]

وهكذا مدخلوا في تحريم بعض الحلال وحلّلوا بعضاً من الحرام ، وفي هذا نعدّ ما كان يجب أن يقتضوه^(٥) ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفي هذا كذب متعمّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ يَكُ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ^(٦) ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيوجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن العملة ، ولر ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

(١) ذرأً خلق والحَرْث هو زرع والثمار

(٢) برعهم ، أى بقولهم الكذب [لسان العرب] .

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه المحرمات من الطعام في قوله ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ مَرْفَأَةٍ أَوْ نَسَاءً أَوْ سُفْهًا أَوْ لَحْمِ نَاسٍ بَشَرًا مِمَّنْ دَمِيَ عَنْهُ عَنِ اللَّهِ بِهِ عَصْرٌ عُزُبٌ يَوْمَ لَا عَمَلٌ فإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١٠٠) ﴾ [الأنعام]

ولو استحصروا ما أعدّه الله لهم من العذاب والشكال يرم القيامه لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظان بأن الله - سبحانه وتعالى - عاقل عن أفعالهم ، وكأنهم أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابه بها ، ولا رقيب يحسها

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَدُوْهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٦٠) [يوس]
إن الله سبحانه متفضل على كل خلقه - رأتهم " مهم - بأشياء كثيرة ، فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزد من عطائكم ، لكنكم تسون الشكر ،

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

(١) الشكال : يرفع المعصية والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا المعصية غيره لغيره - وهذا يحرم قوله تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْلَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَ بِكَلَامِ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٨) [المائدة]
(٢) لمقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَقَرًّا وَمُعْطَفًا لِّلنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا يُخْلِفُونَ عَهْدَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (١٧) [التكوير] ، وقال أيضاً ﴿ أَوْ لَمْ يُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا مَّا يَجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ دَرَجَاتٍ لِّئَلَّا يُكُنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥) [النجم]
(٣) يفسون فيه أي يفسدون فيه وتبسطون في ذكره ، وما يعزب : لا يحلله ولا يغيب عن علمه سبحانه [لسان العرب]

وخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أى . ما تكون يا محمد فى شأن .
والشأن : هو الحال العظيم المتميز الذى يطرأ على الأمر

ويصن فى حيات اليومية نقول ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وما يحيب
السامع بشيء الهام الذى حدث له أو فعله ، ويتناسى التافه من الأمور .

وبذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢٩)

[الرحمن]

أى لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق الدواميس والقوانين ،
وقال لها : اعملى أنت ، لا يهر سبحانه كل يوم فى شأن

وبذلك حين سئل أحد العلماء^١ : ما شأن ربك الآن ، وقد منح أن
القلم قد جف؟ فقال : «أمور بيديها ولا يبيديها» .

أى أنه سبحانه قد رسم كل شيء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو
سبحانه قيوم ، أى : مُبَالِغٌ فى القيم على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئت
سبحانه - وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سنة
ولا نوم ، وهو يراعينا .

فالحديث فى الآية التى نحن بصدها موجه برسول الله ﷺ

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ .. ﴾ (٦١)

[يوس]

وشأن رسول الله ﷺ لدى يهتم به يس اأكل ولا المشرب ، إنما المهم
النسبة له هو بلاغ الرسالة بالمتبع «افعل ولا تفعل» .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ (٦١)

[يوس]

١) هو الحسين بن الفضل ، وحدث أن عبد الله بن طاهر دهاه بعصر له ثلاث آيات لشكبه عليه ، منها هذه
الآية ، فقال : إنها شئت بيديها لا شئت يديها . ذكره القرطبي فى تفسيره (٤/٦٥٦٧)

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

٦٠١٣

ومنه ما يعنى اللام ، أى : ما نتسوله ^(١) ، ونعنى تأييداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ ^(٢) أَنْعَرُوا .. (٢٥)﴾ [نوح]

أى : انزعجوا لأجل خطبتناهم

وهنا فى الآية التى نحن بصدد حواطرها عنها نعلم ما تكون فى شأن وم تلتو لأحد هذا الشأن من قرآن ، فالجى ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأييداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمهيج

ويدخل فى هذا الشأن ما قرئ من رسول لله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه

﴿وَمَا آتَاكُمْ ^(٣) الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كمية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصاب ^(٤) الركاء ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكمل البلاغ بمهيج الله ، بتصوير القرآن ، وتصويره الله تعالى له أن يشرع .

(١) ما نتسوله أى نبدأ لشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره القرآن والرجوع أن انتهاء فى منه ما يعود على شأن ، أى تحدث شيئاً . فيتلو من أحده القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبي فى تفسيره (٣٢٨٣/٤)

(٢) هم قوم نوح عليه السلام

(٣) ماكم : أهلكم

(٤) نصاب الركاء هو المقدار الذى يدا بقلعه من المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الركاء ، بالمقادير التى حددتها لسة

إذن فكل شأن رسول الله ﷺ إم بلاع من الله بالنص لقرآني ، وإم تطبيق فعلي للنص القرآني بالحديث السوي ، وبالأسوة التي تركها لنا ﷺ في سنته

والحجة على الحكم - أي حكم - يأتي بها القرآن ، فإن كنت الأحكام عبر صادرة من الله مباشرة ، فيمكن فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتصويص من الله تعالى ليشرع .

وبذلك نرد على المنافقين الذين إذا حدثوا بشيء من حديث رسول الله ﷺ قالوا : أين ويبيّن كتاب الله ، ، وهدفهم أن يردوا حديث رسول الله ﷺ - فعلاً ، أو قولاً ، أو إقراراً

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جلّ شأنه : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ۖ ﴾ [يونس]

وهي هذا انتقل للسامعين للقرآن ، لمبلغ إليهم هذا المنهج ، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه .

والعمل هو مجمرع الأحداث لنى تصدر عن الإنسان ، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بيه القلب - يسمى عملاً ؛ لأن عمل القلوب هو الية . ولكن إذا صدر الحدث من اللسان كان قولاً ، وإذا صدر الحدث من بقة الخوارج كان فعلاً .

وهكذا يتقم العمل إلى قسمين : قول ، وفعل .

(١) من المقدم من محمد يكرت اب رسول الله ﷺ قال ، « يوشك أن يحل بيني وبينكم على أريكتي يحدث بحديثي فيقول بيني وبينكم كتاب الله ، لم وحدا فيه خلا لا امتحلتناه ، وما كان فيه حراماً حراماً ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » أخرجه أحمد في مسنده (١٣٩/٤) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٩) والدارقطني (٢٨٦/٤) في مسندهم ، واللفظ للدارقطني

وقد اختصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قرينة

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى تسرعون إلى العمل بشط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة لمنهج هور أن سلعة لرسول ﷺ

والإقبال على العمل اتكلى بهذا الشوق ، وتلك اللهفة ، وحسن لاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعاني يؤول إليها قول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإباء إذا متلاً ليرل أى : أن نقلوا على أعمال التكليف بسروعة وانصاف وانسكاب

وقد قال الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا أَفْتُمُ " جَمْعُ غُرَفَاتٍ .. (١٢٨) ﴾ [البقرة] أى : شرعتم " فى الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدبتم سُكَّاءً أحدثم مه طاقة ، وتقسون بها على نُسُكٍ ثاب .

إذن فالحق سبحانه يشهد كل عمل مكتم ، لكن ماداً عن النيات وما يبيت فيها من خواطر ؟

ها هو الحق سبحانه يحبرنا أن كل شيء مهما صغر واحتفى فهو معلوم ومحسوب

يقول الحق سبحانه :

(١) يسر الإيحاء من معرفته بعد غروب الشمس ، ولكن بالسكينة وبها بالناس ؛ لأن هذا اليوم يراحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ وحدث سميت الطائفة انظر فقه اسمه (٥١٨/١) وقد بب عنه ﷺ أنه كان يقسم إليه روم داه وحى إذ راسها لمصيب مورك وحله ، ويقول بينه اليمى أيها الناس المكينة الشكينة أخرجه حسيم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله

(٢) شرعت فى الأمر بقاته ودخلت فيه

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

أى أن كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة في كتاب مبین واضح ، ولا أحد يقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يحتلس حركة ضمير ، وكلمة يعرب تعنى . يغيب ويحتس

ولحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده حزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلة .

وبم يوجد عند العرب ما يصوب به مثل على ثورن الليل إلا الذرة ، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً ، ثم أطلقت الذرة على الهباء الشائع فى الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهباء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من ثقب وكانه سهم ، وترى مكونات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو ، تلك الدرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى لظلام فقط ، ولكن التناقص بين الضوء والظلام يبرزها

وأنت لا تدرك الشيء ولا تحسه لأمرين : إما لتناهيه فى لصغر ، وإما لتناهيه فى الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المجاهر التى تكثر الأشياء المتناهية فى الصغر آلاف ، أو ملايين المرات .

وأنت لو وضعت جليلك تحت عدسة المجهر فسترى فجرات وكأها أبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصغر بحيث

سُورَةُ النُّورِ

٦٠١٧

لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمحهر كُشِبَ فتري
مجبوبات و معارضح و غُلُوتاً و احصافاً - مهما كان الحد الذي تراه
تحت بسجهر كاعماً .

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الصخم ، وقد فصل ست وس
الشيء الكثير مصافة : فتراه أصغر من خججه ، وكلما اتعد صغر ، فأت
إذا رأيت - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأب براه وكأنه طفل
صغير ، وكلما اقربت منه زاد طولهُ في عينك .

إذن لا الصحامة ولا النع ، ولا القلة تمنع من علم الحق سبحانه لآى
شيء .

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى
البملة الصغيرة .

وأنت إذا وطأت بملة فى أرض رملية فهي لا تموت ، بل تدخل فى
فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى
قد بين الحق سبحانه هذه المسألة حين يحدث عن سليمان عليه
السلام - فى وادى النمل ، فقال تعالى :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَكُمْ سُلَيْمَانُ
وَجُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨)

[النمل]

لأنهم لا يروهم : فتحطمهم المشاهى فى الصغر .

وهكذا يعطيا الحق سبحانه بياناً عن كل أمه فى الحياة ، وأن من يهيم
جنوداً يحرسون ببقطة ، فالملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجوده .

لأنهم بن يروا النمل الصغير^(١)

إدر: الذرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّاب الهبائية
وأراد الله سبحانه أن يصرب له مثلاً بإحاطة علمه في أنه لا يعزب عن
مثقال ذرة

ويعزب ، أي: يعيب ، ويقال «هذا البئر مأؤه عازب» ، أي: قادم من
عمق بعيد ، ويحتج استخراجه إلى ذلك وحال طويلة
وسمى الرجل الذي يبعد عن أهله «عزب»

وقول الحق سبحانه: ﴿وما يعزبُ﴾ أي: لا يبعد ولا يعيب عنه أصغر
شيء رلاً أكبر شيء

يقول سبحانه ذلك: يعلمثنا ان كل خاطرة من خواطر الإنسان
إنما يشهدا الله ، ويعلمها ، وهو المجاري عليها.

وان استطاع إنسان أن يمتي على قعاء الأرض ، فلن يستطيع أن يمتي
على قعاء السماء^(٢).

ومسألة الذرة والنمل يقول عنها الحق سبحانه.

(١) قال تعالى: ﴿وحشر سليمان خزنة من النمل والإنس ونظرهم يردعون﴾ (١) [النمل] وسار سليمان

بوكيه العظيم هذا ﴿عن أبيه عن واد النمل﴾ (٢) [النمل] أي: مريراً على وادى النمل فعالت

تملة لإحيم إليها: ﴿ادخلوا صوامعكم لا يطمعكم سليمان وخزونه﴾ (٣) [النمل] فهي

تخافت عن النفس أن تطمعها الخيول سجودهم فأسرهم بالدخول إلى صوامعهم ففهم ذلك سليمان

﴿فبسط صوامعكم من دولها وقال رب اورغنى ان أدكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأنه أعمل صوامع

مواضع وأدخلني برحمتك في عبادك فصالحين﴾ (٤) [النمل] أي: أنعمت لي أشكر نعمتك التي أنعمت

بها علي من تدبير من خلق العنبر والخزير أو وعدني والذي بالإسلام لك (غير كثير) ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩

(٢) عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تحتصمون إلي»، وإنما أنا بشر، ويعلم بعضكم أن يكون

الحسن يحتاج من بعض، فأقضى به على نحو ما أسمع منه، فمن طمعت به من حق أخيه شيئاً

ملا يأمده، فإنما أنفع به به نفسه من النار: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (٧١٣)

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴿

[المائدة]

هذا للمتساوي في الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الدرة ، فقد ذكره الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها فقال

﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ (١٦) ﴿

[يونس]

وعنى من نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الدرة ، وكما جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الدرة ، وكان العلماء يعتمدون أن الدرة هي الخرز الذي لا يتجرأ ، لأنها أصغر ما يقع عليه لبصر ، فصرت الله مثلاً بالأقل من زمن نزول القرآن ،

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلة لحطيم لدرة قبل عملها إسما لها تحطيم الجوهر لمرء ، أي الشيء الذي لا يقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتي عَصْبَةِ القصب ، والمسانة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرَى ، وحين حَطَّمَت ألمانيا ما قبل عنه «الجوهر العرء» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتمتَّت الدرة

وقد جعل الحق سبحانه المقياس في الصغر هو الدرة ،

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توَحَّسَ المتصلون بالدين وحاموا أن يقل إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الدرة ، ولكنهم التمسوا إلى الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه ،

﴿وَمَا يَتْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١) ﴿

[يونس]

﴿مَا يُعْرَبْ﴾ أى . لا يبعد أو يعيب ﴿عَنْ رُبِّكَ﴾ أى . عن علمه
﴿مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أى . وزن ذرة

وقديماً قلنا . إن البعض يقول : إن «من» قد تكون حرفاً رائداً فى
اللسنة ، كقولنا : «ما جاءنى من رجل» وتعرب كلمة «من» حرف جر
زائد ، و«رجل» فاعل مرفوع بالصفة الظاهرة التى مع من ظهورها
اشتغال المحل وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد .

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف رائد (١) ، و«من» فى قوله .
﴿مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ . أى . من بداية ما يقال له «مثقال» .

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿وَعَالِ الدِّينِ كَفَرُوا لَا تَأْتِيْنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّ لَأُتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ
لَا يَغُوبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٢) [سبأ]

وكلمة «وربى» مُقْسَمٌ به ، وحرف «الواو» هو حرف الجر ، ولم يأت
ها بالشهادة ، وجاء بالغيب ، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية لئلا نحزن
بصدد خواطرنا عنها .

وعالم الشهادة ، نعنى أنه عالم بكل ما يشهد ، ويطش البشر أياها عبر
مُحَاطٍ بها لعظمتها ؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب ، لكن الحق
سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة

(١) حرف الجر الزائد «مصطبح» نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام . والحق أن حرف الجر
«الرائدة» قد تيسر برائدة لأن لها وظيفة بلاغية . فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تعيد
تأكيد معنى النفى . وهناك مكان آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته ، يصرب هذه الأمثلة ؛
لأن الحرف ما دام موطئاً فلا يكون رائداً . فيقول «ما معنى مال» و«ما معنى من مال» فكلمة «من»
فى جملة الأخير ، تعيد تأكيد معنى وجود أى مال مع المتكلم ، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما
معنى مال»

لقد قال الحق كلمة «مَثْقَالُ ذَرَّةٍ» ثلاث مرات

مرة حين قال سبحانه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) [الرَّادَّة]

ومرة حين قال هما

﴿مَنْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٦١) [بُورَة]

وحاء بـ «من» هما ليس أنه لا يعيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مَثْقَالُ».

وقال الحق سبحانه في موضع آخر ،

﴿لَا يَغُزَّبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٣٠) [سَاء]

وحله بالسماوات أولاً ، وجاء في الآية - التي نحن بصدد حواطرها عنها - بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب " ، فيأتي بمِثْقَالِ الذرة ويقدم السماء ويأتي بها مفردة ، ثم يأتي بما هو أقل من الذرة ويقدم الأرض .

وهذا كله من عجائب أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكَةِ الأداء السانئ .

وإن عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قدّم الأرض في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

(١) غاب الشيء بعيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعوى والعمية اسم مرة من علمه ، أي ذكره من قبله بالنور كاختابه ، فإن الحق ﴿وَلَا يَخِيبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ (٢٦) [الحجرات] والعمية اسم هيئة من العيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (٢) [البقرة] كالحق والسرا والملائكة والجن ، وجمعه غيوب يقول الحق ﴿إِنَّكَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ﴾ (٢٧) [البقرة]

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْعَلُونَ فِيهِ ۖ ﴾ [يوسا]

وجاء أبصاً بالسماء ، وهى السماء الدني التى يراها أهل الأرض .

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۚ

لَا يَحْزَبُ عَنْهُ مِقْدَلٌ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾ [سبا]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم ترسل من السموات إلى السماء الدنيا حتى يقول للمكلفين فى الأرض قوموا ها هى الساعة

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ، لأن علم الساعة عند ربى ، ولن يرسل إلا بمشيئته سبحانه

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإحمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم فى الآية التى نحن بصدد حواطرنها عنها ، وأية سبأ عن لعلم والذرة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكمات فيها بتقديم أو تأخير يتناسب مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسا]

ولما أن انتهت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخرج ما قبله ، بل كل شيء

(١) أى الشيء بين بياناً ظهر واتضح ، فهو بين وهى بينة أى ظاهر وظاهرة ، ويستعمل بين والبيئة بمعنى الظاهر والظاهرة والمرجح والموضح .

يقول الحق سبحانه ﴿ كَمْ أَنبَأْنَاهُمْ مِنْ آيَةِ بَيِّنَةٍ ﴾ [البقرة] والبيئة مستعمل بمعنى الحجة والبرهان . وقوله ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة] أى موضح للحق اسم قاع من أباه

للمعنى ، وقوله ﴿ وَهُوَ فِي الْفَصْلِ عَزِيزٌ مُبِينٌ ﴾ [الزحرف] أى غير مظهر [حرف ب من مظهر] [الفتح]

مكتوب في الكتاب المس ، ونحن في الدنيا نجد للإنسان إن كان له ذنب عند
آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التي تُسجّل ما له وما عليه . ولكن ،
أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا وبيّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أولاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجّل لنا ما وقع تلك
الأعمال والبيات ؛ لنعلم نحن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتقطع حجة من أمنا إذا
وقع به العذاب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿الْآيَاتِ أَوَّلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه أنه عالم
العب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلمنا أنه قد
يبيض على بعض خلقه فيوصات الإمداد على قَدَرِ رياضات المراضين ،
فهو أن الله قد امتن عليك بنصحة ، هيّاك أن تقول إنها من عندك ، بل هي
من عند عالم العيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في
السماء

وعلى ذلك فلا يقارن ولا يماثل قد علم عيباً لأنه وليُّ له ، بل لقل «إن
فلاً معلّم عيب» ؛ لأن العيب هو ما عاب عن الناس ، وما يعيب عنك
ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك الرجل الذي سُرِق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد
الشيء الذي سُرِق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص
وأخفاه رآحمي له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الحق الدين
كانوا في نفس مكن السرقة يعلمون ، وهذا ليس عيباً مطلقاً

سُورَةُ نُونٍ

٦٠٢٥

أن البحار يمكن أن يتحول إلى طاقة تُجرّ العرصات التي تسير على عجل ،
وهكذا جاء عصر البحار .

إذن ، فميلاد بعض من أسرار الكون كان تسيهاً من الله تعالى لأحد عباده
لكي يتأمن ؛ ليكتشف سرّاً من تلك الأسرار^(١) .

واعب أسرار الكون ثم اكتشفها صدقة ، لهم أن عطاء الله بملادها
دور مقدمات من الخلق أكثر مما وُصِّل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك نجد التفسير الأداني في القرآن عن لوتى العيب ،
تعبيراً دقيقاً لفهم أن هناك غيباً عن الخلق حميماً وليست له
مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا
يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
شَاءَ ۚ ۝ (٦٥٥) ﴾ [المرا]

هذا هو الغيب الذي يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ،
أو بصدقة ، وقد نسب الشيئ له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا
هو غيب الابتكارات .

أما العيب الآخر الذي لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيهِ
إلا الرسول ﷺ ، فنقول الحق عنه :

(١) من العيب ما نصر مشاهد عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات وبغير مقدمات ورحمة
بشرية ، مصداقاً لقوله تعالى : « تَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَهُنَّ أُنثَى ۚ سَمِعْنَ مِنْ رَّبِّهِنَّ أَنْذَاراً مُخْتَفِياً لَهُنَّ ۚ وَهَذَا صَبْرٌ
لَا يَلْعَنُ لَهُ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ »

واُنظر إلى دمه انقرا ان حين يقول:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۖ﴾ (٥٩) [الأنعام]

أى: أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد ، والوحي من أولياء الله إنما يأخذ الهمة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندها سامل قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّا إِنَّا أَرْبَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٠) [يونس]

بعد أن كلمة «ولّى» من وليّه ، يدية ، أى: قريب منه ، وهو أول مفرّع يفرع إليه إن حاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو يصير ، وحيره يفيض على سن والاء .

ومن يقرب عالماً بأحد بعضاً من العلم ، ومن يقرب قوياً بأحد بعضاً من لقوة ، ومن يقرب عيياً ، إن احتاج ، فالغنى يعطيه ولو قرضاً

إذن: فالوكلّى هو القريب الناصر المحين الموالى .

وتطلق «الوكلّى» مرةً لله سبحانه ، وقد قال انقرا ان

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ۖ﴾ (٦١) [الشورى]

١) قال الزجاج جاء في التفسير انه على قوله: ﴿إِنَّا اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ رِيعًا مِثْلَ الْقُرْآنِ﴾ وما تدعى نفس ماداً نكسب عناداً وما تدعى نفساً أى أرضاً صوّت (٦٠) [الأنعام] قال فسر ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس عند كسر بالمراد ، لأنه قد حاله [لسان العرب مادة (ف د ح)]

٢) يقول للغة لوى هو اقرب بالنسب أو بالمحبة أو بالاطاعة ، أو الولى الصديق ، وهو ضد العدو ، والولى اعطى بعد الخطر والولى من ملى امر إنسان ، ويقوم على سنته ، كالوكيل ، ويجمع على أولياء . وأولياء الله هم المؤمنون الصالحون ، يقول الحق: ﴿إِنَّا إِنَّا أَرْبَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٠) [يونس] وكانوا يشقون (٦١) [يونس] ، الولى من قولاء الله بالرعاية ، وولى هو منج الله بالسلوك لتهيئة ، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لَهُمْ أَشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفرق العظيم (٦٢) [يونس] (حرف الراو - انقاموس القويم)

لأنه سبحانه القريب من كل خلقه ، عكس الخلق الذين يقتربون من بعضهم أو يساعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولي المطلق ، فقربه من خلق لا يبعده عن خلق ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الولي الحق ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۖ (٤١) ﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى اولاية الحق فليدجأ إلى الله ، وهو سبحانه يفيض على الأواباء لمهجه من الولاية .

وتجد التعبير القرآني الدقيق

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ۖ (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، واؤمنون بقرب من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. (٦٠) ﴾ [يونس]

إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإن قيدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين له ، ومرة تكون من الله للمؤمنين

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فطلاقاً قدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خصته من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك

وتسمع من يقول إن فلاناً قد خطف من المعصية أي . أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خصلة خيرة فيه ، فهداه

ومثال ذلك . الرجل الذي مفي كلباً ، بل احتال ليسبه بأحد ملا حقه

سُورَةُ التَّوْنِيسِ

٥٦٠٢٩

بالدء من الشّر ليروى طمأ الكلب ، فغفر الله سبحانه وتعالى له
سببته ،

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب بفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر
بالعظمه عنى كائن دى كد رطة

إذن . هيبس المئش عبد الله تعالى آليه أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته
سبحانه تقدر كل موقف كما قُدرت اختلاف الخلق ، ولذلك قال سبحانه

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافُ أَسْمِكُمْ ﴾
وَأَلْوَانِكُمْ . (٢٣) ﴿

فليس عبد الله تعالى قانب يصع فيه الخلق ، بل سبحانه يحلق الطويل
والقصير والسمين والرميع ولاشقر والرنجى ، وهذا بعض من طلاقة
قدرته سبحانه ، ورحمته سبحانه قرب من خَلَقَهُ الَّذِينَ آمَنُوا أولاً ،
وقربه سبحانه مهم ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِّنْ لُّظُمَاتٍ إِلَى النُّورِ . ﴾ (٢٥٧) ﴿ [البقرة]

فمن يتبع النهج بأحد النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو
سبحانه يُقرّبه قُرباً أكثر فيعطيه مهة اصطفاية براها لدين حوله وقد
يقتدرون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خلق الله ، فإذا علم سببته عن
إسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السّتر ويحب من يستتر .

١٠ وحدث أن أب هريره روى أن رسول الله ﷺ قال : « يمد رجل يمشى بطريق آمنه عبد العيش ، فوجد
شراً فترى فيها فتور ، ثم خرج فإذا كلب يدهب ، يأكل الثرى من العيش ، فقال لرجل : لقد سمع هذا
الكب من العيش مثل الذى كان يبع بى ، قرب الشّر فملاً جمع ، ثم أمسكه بفيه (بعضه) فسقى
الكب ، فشكر الله له ، فعصرته . فقالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم حراً ؟ فقال : « فى كل
دابة كبد وحمية أجزء » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤)

(٢١) اختلاف ألالة اختلاف دعاء .

وأنت قد نكره إنساناً تعيم عنه سيئة ما ، وقد نكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألا يحرمك من حسنات من له سيئة فمسترها عليك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألا تحتقر هذا المسمى ، لأنه قد يتميع بخصنة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌ فبحقّي عليك كن لي مُحِبّاً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عبد ظنّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم » .

وفي هذا القول بضع مسئولية القرب من الله في يد الخلق ، ويصف الحق سبحانه :

« وإن تقرب إلي شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »^(١)

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً

إذن : فالإيمان بالله يسلم المؤمن ففتاح القرب من الله

ومن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يُقرّبه الله منه أكثر وأكثر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥ ٧٤) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة . واندرج من الإسناد من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى والسرّاع من المغيبيس ، ومن أشهر أنواع الدرّج لهشتميه وهي ٣٢ شيئاً أو ٦٤ شيئاً [المعجم الوسيط : درج] ودرّج : صافه ما بين الكمين إذا أبسطت الذراعين عبيداً وشمالاً ، والمراد المائلة في لاسع [المعجم الوسيط : بارع] والهدوء الإسراع

إذن ، فمن أساس من يصل بطاعة لله إلى كرامته الله ، ويدق على باب الحق ، فسفتح له اسباب ، ومن الناس من يصل بكرامته الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً .

والله المثل الأعلى أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسان يحاح إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه ، فما بالنا نعطاء الحق لعباده ؟

ذن فمنهم من يصل بكرامة الله إلى طاعته الله ، ومنهم من يصل بطاعته الله إلى كرامته الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، ها يكون العبد في معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً وقد قال أبو العلاء انعمري^(١) لمحبوبته .

أنت أخيب ولكني أعز به من أن أكون حياً غير محبوب
أي أنه يستعد بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحب الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمّي ذلك « المصافاة » ، فإذا أحاط الله سبحانه على بعض خلقه هيات من الكرامات فعلى العباد الذين احتصمهم الحق سبحانه بذلك أن يحسبوا الأدب مع الله ، وألا يتسحّج واحد منهم متفاحراً بعطاء الله سبحانه له .

فالمساهة بالكرامات نصيبها ، ويسلها الحق سبحانه من الذي سمّج بها

(١) هـ ١٠٠٠ ، شاعر فخراف ، ولد ٣٦٣ هـ ومات في معركة العماد (٤٤٩ هـ) من

١٠٠٠ هـ في الفرافعة في مصر . هـ ٣٦٣ هـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ولما مات وقف على

هـ ١٠٠٠ هـ شاعر يرقوه : [الأعلام لبركات] (١/١٥٧)

ويتصاخر ويتباهى ، فعلى نفاهه بالكرامة ليس له كرامة

إذن: فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيّه ، وهو سبحانه الذي بدأ ويؤمن بالآية الواضحة أنه سبحانه وليّ المؤمنين ، ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور^(١) . فقال

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (٢٥٧) ﴿البقرة﴾

وحيث نعلم أنه سبحانه يأتي بالمحسّنات ليسّ المحسّيات ؛ لأنّ إنفّ الإنسان أولاً بالمحسّنات ، وهي أقرب إلى تفريد المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف لكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بفهومك

وإذا كنا نتجنّب معاطب الظلمات الخسيسة ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنّب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الخسيسة ستر الأشياء فلا يرى الأشياء ، وقد يرتطم بأصعب شيء فنحطمه أو نصطدم بأقوى شيء فنحطمها

إذن فحجب امرأى بسبب الكوارث ، أما حين يأتي النور ، فهو يبين ملامح الأشياء فتسير على هدى وأنت مطمئن .

وهنا أدت في مكان مظلم ويوجد شيء آخر في مكان مبر ، فأنت في انظلمة ترى من يوحّد في النور ، وهذه مسألة لم يفتن لتفسيرها علماء

(١) يقول الحق : ﴿وَسَابِقُ الَّذِينَ آمَنُوا أَكْثَرُ﴾ (٢٥٧) ﴿البقرة﴾ وسبقوه بكثرة وإصيلة (ي) هو الذي يعلّي عليك وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمرتبين وحيداً (٢٥٧) ﴿البقرة﴾ (الأحراب) فقد غير القرآن بالعبادات والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هي بلاغة الإعجاز في كتاب الله

ما قل الإسلام ، حيث كانوا يطون أد الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائي إلى المرئي ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامي واكتشف قوانين انعكاس ، وكشف خطأ ما سلفه من نظريات ، وحدد أن المرئي هو الذي يصدر منه شعاع إلى الرائي ، وإذا ما كان المرئي في ظلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائي ؛ لرى الإنسان في لظلام

إذن أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجه من الظلمات إلى نور ، واطلمة المعتوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعوى أقوى من النور الحسى ، فعالم القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الحس في عالم الحس يمكن أن يحدث ، أما في عالم القيم فهو أمر شاق ، ولذلك قال الشاعر :

جراحات الساب لها التام ولا يلتام ما حرق اللسان

ويقول الحق سبحانه في الآية ثنى بحس يصدد حواطرنا عنها .

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) [يوس]

و«ألا» كم أوضحنا من قل أداة تيه من المتكلم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يحى في الخطاب .

وقوله سبحانه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ (٦٢) أى لا خوف عليهم من غيرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) أى أن الحزن لن يأتى منهم ، والخوف يكون من توقع شيء صار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

١١١ الساب السهام والرمح وجراحاتها أثار الخروج منه لإصابته بالأسام هو الممان منه جروح . [انظر لساب العرب]

يحدث في المستقل

وفي حياتنا اليومية يجد الأب يمسك بيد ابنه في الرحام خوفاً عليه ، وقد يرى ولياً من أولياء الله وقد أصيب ابنه في حادث أو مات الابن ، تجد لولي في ثبات لأنه يعلم حكمة الله في قصصه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه .

إذن ' والخوف يأتي من المستقل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شيء فأت

والحق سبحانه يقول .

﴿لَكُمْ لَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ (٢٣) [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ، لأن ما فات لا يعود .

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ، لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمه الله ، ومن لا يعرف حكمة الله تعالى في الأشياء قد يقول «إن فلاناً هذا مسكين» ، لأنك لا تعرف ماذا جرى له .

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ، ولكم حزن الورع الذي يتحلى في قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا يقول إلا ما يرضى رباً»^(١)

(١) الأسس الحزن شديد وعام الآية «ولا تقرخو بها انكم» (٢٣) [الحديد] بن عيينه قد يكون متولداً ، فلا يحزن على شيء فاته ، ولا يعرج بشيء جاءه قد يذهب بعد حين

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك

وَسَبَّ اللَّهُ سَخَاةَ لَنَا شُرُوطَ الْوَلَاةِ بِقَوْلٍ:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣)

والإيمان هو الأمر الاعتقادي الأول الذي يُسَيِّعُ عليه كل عمل ، ويتقضى تنفيذ منهج الله ، الأمر هو الأمر ، ولهي هي الهي ، ولإباحة هي الإباحة والتقوى - كما علمنا - هي انقاء صفات الجلال في الله تعالى ، ويصاً انقاء السار ، وراد رسول الله ﷺ في صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين :

«هم قوم تحبوا روح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، هو الله إن وجوههم لنور» وإيهم لعل نور» .

وقد مثل عمر رضي الله عنه عن المتقين فقال : «الواحد منهم يريدك النظر إليه قريباً من الله» وكأنه - رضي الله عنه - بشرح لـ قول الحق سبحانه : ﴿سِيمَاهُمْ﴾ في وجوههم من أثر السجود . (٦٦) [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله كسر وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك : إنه ملزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تدرك بالخشوع^(١) ، والخضوع^(٢) ، والسكينة ، ورقة

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب ، ونحوه : «إن من عباد الله لأتباعهم بابياً ولا شهداء ، يعظمهم الأنساء والشهداء يوم القيامة فكانهم من الله تعالى» قالوا : يا رسول الله ، سررت من هم ؟ قال : «هم قوم يحبوا روح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، هو الله إن وجوههم لنور» وإيهم لعل نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ عبد الآيه : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٠) . يورس

(٢) سيماهم : علامات الصلوة والإيمان ، وهو ذلك النور في وجوههم

(٣) خشع (خشوعاً) إذا خضع ، وخشع في جلالة ووعده ، وقيل : يقلع على ذلك ، وهو مأخوذ من (خشعت) لأرض إذا سكنت وأطمأنت [المصباح المير]

(٤) وخضع بحرية (يخضع) خضوعاً فذل واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقير الله والخضوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع أكثر . يستعمل في الخضوع لله . وخشعت لأصوات للرحمن (٤) . (٥) [طه] والخضوع هي الاعتقاد منه من العزدي خضع الرقاب بواكس الأبصار [المصباح المير]

السَّمْت ، وانبساط الأسارير

والواحد من هؤلاء ينظر إلى لكون ولا يجد في هذا الكون أى خلل ، بل يرى كل شيء في موضعه تماماً ، ولا يرى أى نُقص في الوجود ، وحتى حين يصادف القبح ، فهو يقول ، إن هذا القبح يسر لنا الحسن ، ولولا وجود الباطل ومتاعه ما عشنا الناسُ الحق ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق

إن وجود الشر يدفع الناس إلى الخير ، ولذلك يقال كُنْ حميلاً في دينك ترَ الوحود جميلاً ؛ لأنك حين ترى لأشياء وتقبل قدر الله فيها ، ها يفحص الله عليك بهات من اليبصر الأعلى ، وكلما تقررت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويعيى عليك من الحكمة وأسرار الخلق

ومثل ذلك العبد الصالح الذي اتاه الله من عبده رحمة وعلمه من لدنه عملاً ، هذا العبد يعلم موسى عليه السلام ، فحين قارن بين خرق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هاك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غصباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وسأله كيف تحرق سفينة سليمة ؟ وهنا بين أنه العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة محروقة من يأخذها ، وهي سفينة يملكها مسكين

وحين قتل العبد الصالح علماً ، كان هذا الفعل في نظر مبيد موسى

(١) ويعود رسول الله ﷺ ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إليّ مما وترغته عليه ، وما أكره من يقرب إلى ما أفقر حتى أحب ، فإذا أحببه كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيده ، أخرجه البخارى في صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد في مسنده (٢٥٦ / ٦) عن أبي هريرة

(٢) من سمع به عن موسى وفاء في لقاءهم بالحضر عنه السلام ، فوجدوا عنه من عبادته آية رحمة من عبداً وعلماء من لدن علماً (٢٠) قال له موسى هل يهلك على أن يطمس ممحاً علمت رشده (٢١) قال [بك لي تستطيع من غير (٢١) وكيف يصير على ما لم يطمس خبراً (٢٢) قال مستعجلى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً (٢٣) قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً (٢٤) [الكهف]

(٣) وذلك أن موسى استكر عليه بعنه هذا فقال : أخرتها لفرق أهلها لقد حببني إياهم (٢٥) [الكهف] فكان رده عليه فيما بعد : أما السفينة لكانت لمساكين يعملون في البحر فإردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً (٢٦) [الكهف]

جريمة ، ولم يعلم سيده موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسمى إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يقتل أهله ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاة يهتدون إلى الحق .

ويقال إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ، فهو كالطفل الصغير الذي يدخل قصرًا ، ولا يطبق البناء في مكان واحد ، بل يلعب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيده محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عبد أي صحابي حبيب .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية و استطعما أهلها برقصوا أن يطعموهما - وطلب الطعام هو أصدق ألوان السؤال فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسة والنميمة ، فأقام العبد الصالح الحداد الأبل للقرط في تلك القرية

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبد الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً غثت هذا الحداد ، وساء سيرة موقوتة برمس بلوع الأساء لسر الرشيد ، فقع الحداد ليجد الأبناء ما ترك لهم وأندمهم من كسر ، ولا تحرق أهل القرية اللثام على السطو عليه

١١ قال موسى ﷺ : كُتِبَ لَكَ بِهَرِ عَسْرَ قَدِ جَفَّ شَيْتَ تَكْرًا (٣٦) [الكهف] : مَا الْخَصْرُ سَأَرِيلٌ مَا لَمْ يَسْمَعْ فِيهِ سَيْفٌ مِمَّنْ قَدْ قُتِلَ . وَأَمَّا الْغَلَامُ فَكَانَ ابْنَهُ مُؤَمِّلٌ لِحَسْبَتِهِ أَيْ يَرْجُوهُ طِفْلاً وَكَثَرًا (٣٧) فَأَرَادَ أَنْ يَدْنِيَهُمَا وَهَبَا حَبْرًا مِنْ زَكَاةٍ وَالرَّبُّ رَحِيمًا (٣٨) [الكهف]

٢١ : دَعَا يَحْيَىٰ هَمَّ صَغِيرًا لِأَطْفَالٍ ، فَسَرَّ لِلدُّوْبِيَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي مَسْجِدِ الْمَاءِ ، هَذَا وَالْأَخْصَرُ هُوَ الدَّخَالُ فِي الْأُمُورِ أَيْ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ فِي الْخِصَّةِ دَعَا يَحْيَىٰ فِي مَنَازِلِهِمْ ، لَا يُصْعَقُونَ مِنْ مَرَضٍ ، كَمَا أَنَّ الْعَصْبِيَّانِ فِي الدِّبِ لَا يُصْعَقُونَ مِنَ الدَّخُولِ عَلَى الْغُرْمِ ، وَلَا يَحْتَاجُ بِهِمْ لَسَدُ الْبَابِ الْعَرَبِ بِمَادَّةِ (دَعَا يَحْيَىٰ)

(٣٦) وهذا أمر ذكره رب العزة في كتابه فقال عن موسى والخصر ﷺ : فَاطْلُقْ هَاتِي إِنْ أَنْتِ أَمْلُ قَرْبَةٍ اسْتَطَعْنَا لَهَا طَائِرًا أَنْ يَصْبُرَ فِيهَا فَرَجَدَ فِيهَا حَتَّى يُرِيدَ أَنْ يَقْبَضَ فَأَقَامَهُ لَالٌ لَوْ كُنْتَ لَا تَمْنَعُ عَلَيْهِ أَنْفَرًا (٣٧) [الكهف] : يقال له : الْخَصْرُ حَبْطٌ يَحْدُ ﷺ وَهِيَ الْجِدَارُ فَكَانَ لِلْغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَهَذَا طِفْلٌ عَنِ امْرِئٍ (٣٨) [الكهف]

إِنَّ هَذِهِ هَبَاتٌ مِنْ فَيْضِ الْحَقِّ مَسْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ، وَهُوَ
مَسْحَانُهُ وَتَعَالَى يَجْعَلُ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْعِبَادِ كَالصَّرَارِيِّ الْمَصْرُوبَةِ الَّتِي نَهْدِي
النَّاسَ ، أَوْ كَالْعَنَارِ الَّذِي يَهْدِي السَّعَى فِي الظُّلْمَةِ

وَيَقُولُ الْحَقُّ مَسْحَانَهُ :

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ



وَالْبُشْرَى (١) . مِنَ الشَّرِّ وَالنَّارِ وَالنَّشْرِ ، وَكُلُّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ اِنْشِرَافٍ ،
وَهِيَ الْحَيَاةُ ، لِأَنَّ أَيْ أَفْعَالاً فِي بَاطِنِ لَيْسَ الْإِنْسَانِيَّةِ إِنَّمَا يَنْضَحُ عَلَى
الْبُشْرَةِ ، فَإِذَا حُتَّتْ لِلْإِنْسَانِ بِأَمْرِ سَارٍّ تَجِدُ أَثَرَ هَذَا السَّرُورِ عَلَى أَسَارِيرِهِ ،
وَإِنْ حُتَّتْ لِلْإِنْسَانِ بِحَبِيرٍ مَسِيٍّ تَجِدُ الْكَدْرَ وَقَدْ ظَهَرَ عَلَى بُشْرَتِهِ ،
فَالْبُشْرَةُ هِيَ أَوَّلُ مَنْفَعِلٍ بِالْأَحْدَاثِ الْبَارَةِ أَوْ الْمَوْلَةِ .

وَحِينَ يُقَالُ : «بُشْرَى» فَهَذَا بِمَعْنَى كَلَاماً إِذَا سَمِعَهُ السَّامِعُ يَظْهَرُ عَلَى
بُشْرَتِهِ إِشْرَاقٌ وَسُرُورٌ ، لِأَنَّهُ كَلَامٌ مَبْشُرٌ بِخَيْرٍ .

وَحِينَ سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْبُشْرَى ، قَالَ : «إِنَّهَا الرُّؤْيَا
الصَّالِحَةُ تُرَى لِلْمُؤْمِنِ أَوْ يَرَاهَا» ، وَقَالَ ﷺ : «إِنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ
وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوَّةِ» (٢) .

(١) مَبْشُرٌ ، وَبُشْرٌ ، مِثْلُ مَرَجٍ ، وَرَبَا وَمَعْنَى ، وَمَوَالٍ وَنَشَارٍ ، وَالْمَصْدَرُ اِبْتِشَارٌ وَاسْمُ الْفَاعِلِ مِنَ
«الْمَصْدَرِ» بُشِّرَ ، وَهُوَ الْبُشْرَى الْخَيْرُ أَكْثَرُ مِنَ الشَّرِّ ، وَبُشْرٌ وَبُشْرَى فَعْلٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَابْتِشَارٌ
وَمَا أَطْلَقَتْ اخْتَصَبَ بِالْخَيْرِ وَالْبُشْرُ حِلَاقَةُ الْوَجْهِ ، وَالْبُشْرَةُ ظَهْرُ الْجِلْدِ ، وَبُشْرَى بِمَعْنَى
السَّرُورِ ، وَابْتِشَارٌ ظَاهِرُ الْخُلُقِ تَفَاعُلٌ يَظْهَرُ مَرِيئاً فِي السَّرُورِ وَغَيْرِهِ [المعجم الكبير - تصريف]

(٢) مَقْفُودٌ عَنْهُ أَخْرَجَهُ الْخَطَّابِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٦٩٨٣) وَمُسْلِمٌ (٢٣٦٤) عَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ
«الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوَّةِ»

وساعة تراه مكتوباً له القول ، فإكل يجمعون عسى أن هي رؤيتهم لهد
المحسوب من السماء متمناً طيباً ، وهذه هي الشرى .

أو أن الشرى تأتي لحظة أن تأتي ملك الموت ، فيُلقي عبه السلام ،
ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً بقول الحق سبحانه -

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٣)

أو ساعة ينصُّ الروح حين يأخذ لإنسان من هؤلاء كتابه يمينه ، وهذه
شرى في الدين وفي الآخرة

ولحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا تَزُولُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٤) نحن أولياؤكم في الحياة
الدنيا . . . (٣٥)

إذن . فهؤلاء الأولياء " يتلقون من ميوصات " الله عليهم بواسطة
الملائكة ويشعرون عن غيرهم ، لأن الواحد منهم قد يفرح على نفسه
توافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هي أقل القليل في الكالف

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلصوا عن المعاصي وتخلوا بالطاعات فتجلى سبحانه عليهم بالميوصات ومن هد
المعص القبول والروا المصانة

(٢) من عطاءات القيول يأتي الأيات في قوه تعالى . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها
ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما يدعون (٣٦) فلا من تطور رحيم (٣٧) [وصلت] ربهلك عطاءات وإمدادات
لا تعدنها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ فليس نجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الحق مقهورون كلهم يوم القيامة ، ومن كان يبيع له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكاً لشيء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه :

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [احمر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد بشرى الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تدليل لما حكم به الله ، فلا شيء يتأبى على حكم الله تعالى ، والوعد بالثريات في الدنيا وفي الآخرة نور عظيم مؤكد

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

ثمجيء هذه الآية بعد أن بين لب الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإبداءهم لرسول الله ﷺ وتكديبهم له وقوبهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحمره ﷺ ؛ بذلك طمس منه الحق سبحانه ألا يفعل لما قالوه انفعال الخزيين ، فقد قالوا : ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَرٍ ، ومجنون ، وقد نعى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلمدا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن : كَذَّبَ قَوْلُهُمْ فِي أَنَّهُ ﷺ سحر عبيدهم وأولادهم.

وقالوا : مجنون ، ولم يكن في سبوكه ﷺ أدنى أثر من جنون ، وقد أقوالهم هذه بقوله سبحانه

وَأَقُولُ لَهُمْ لَنْ تَقِفَ فِي سَبِيلِ دَعْوَتِكَ ، وَسُبُّهُمُ اللَّهُ بُورَهُ ، وَلَا يُوحِدُ أَحَدٌ
مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَلَنْ يُجِيرَ أَحَدٌ عَلَى اللَّهِ أَحَدًا ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُجِيرُ
وَلَا يُحَازِرُهُ عَلَيْهِ

وإذا كانت العرة هي القهر والغلبة ، وقد تكون عرة حجة ، وقد تكون
عرة حلف ، وقد تكون عرة حكمه ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد
يوجد له عرة محال ما أو محيط ما ، لكن العرة لله سبحانه شاملة مطلقة
في كل محيط وهي كل محال ، شاملة لكل شيء وأي شيء
ولمّا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب لقصر في هذه الآية ؟

أي أن تأتي الصفة للموصوف وتنسبها عما عداها ؛ كأن نقول «لريد
مائل ليس لعبيره» وإذا قدما اجار والمحروور وهو المعلق فنقول
«لعلان كذا» وهذا يعني أن غير فلان ليس له كذا
وإن قسنا «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولعلان كذا ، ولعلان كذا ،
ولعلان كذا»

أما إذا قلت «لعلان كذا» فمعناها امتناع أن يكون لغير فلان شيء من
مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه . ﴿ إِنَّا نَعْرِفُ لَكَ جَمِيعًا ۖ ﴾ (٢٥) وجاء بالتأكد
ولم يأت لها بأسلوب القصر انتهى يعني اعرة لله سبحانه وينتهيها عن
غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام الله تعالى يحترق الله
سبحانه هراً كونياً بأن العرة لله جميعاً .

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) هو تخصيص أمر بأخر بطريق مخصوص ، وهو نبات الحكم للمذكور
وعنه عدا عدا . ويقسم إلى قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ، وكل منهما
إما حصي وإما ضارئي . [الاتقان في علوم العرب ، خليل الدين السيوطي - ١٠٤٩/٣] .

وما دام الحق سبحانه هو الذي يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن
أنى قصة كونه تناقضها ، ولو وجدت - معاد الله - قصيه كونه
تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق
سبحانه ، لأنه هو خالق الكون ، وهو مُزِل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث
تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى

وقد حدث أن ادعى بعضهم^(١) العزة لنفسه وقالوا:

﴿...هِيَ رُجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا لِأُعَرِّفَ فِيهَا الْأَذَلَّ﴾ (٨) [المناقرة]

وكان معنى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الدلة للمؤمنين
إذن - فالعزة قد ادُعيت ، وما دامت قد ادُعيت فلماذا لم تأت بأسلوب
القصر^٢

نقول لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول:

﴿...وَاللَّهُ الْعَزَّةَ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (٨) [المناقرة]

والعزة لله لا تتعداه ، وبكته سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة
المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿...إِنَّ عِزَّهُ لَهْ جَمِيعًا...﴾ أى - فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ،
إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإن كانت عزة القبض على الأمور فهو

(١) هو عبد الله بن أبي راس الهذلي في المدينة ، وكان ذلك في غزوة بني المصطلق في شهر شعبان من السنة
السادسة من الهجرة ، وحدث أنه وصف محمداً وصحبه فقال : « قد بافرونا وكافرونا من بلادنا ، والله
ما أهدى رجلا يربى قريش إلا كما مال الأول - شئ كليلك يا كليلك ، أما والله لن رجعنا إلى المدينة
بىخرجي الأعراب منها الأذل - ثم أقبل على من حصره من يومه فقال لهم : هذا ما نعلمت بآفستكم ،
أحسستمهم بلادكم ، وقاسستمهم أمرالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لحوّلوا إلى غير
ذاكم » أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١)

العريز ، وإن كانت عرة الحلم فهو الحليم ، وإن كانت عرة العصب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، وكل ألوان العرة لله تعالى

﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٥) [يوسف]

وما دامت لغره هي العلة والفهر ، قاله سبحانه يسمع من يستحق أن يفهر منه ، وما دام الأمر به قول فهو يجيء بالسمع ، وإن كان فيه فعل ، فهو يأتي بصفة العليم ، فهو اسميع لما يقال والعليم بما يفعل

ونحن نعلم أن المنهى عنه ما هو ﴿ وَلَا يَغْزُوكَ قَوْلُهُمْ ﴾ (٦٥) [يوسف]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ . أولاً

ويريد الحق سبحانه أن يدلل على هذه القضية دلالة كويبة في آيات الله تعالى في الكون ، وليس في الوجود أو انكون من نهب أمامه سبحانه ، لذلك لا بد أن ملحظ أن قارن العزة لله جميعاً ، محكوم بأن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض .

بذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ الْإِنِّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ

وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

شُرَكَاءَ إِن يَسْتَعِثُّوْنَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ

إِلَّا بِخُرُصُونَ ﴾ (٦٦)

فالحق سبحانه - إذن - لن يخرج كائن من كان عن ملكه .

وساعة نجد الحق سبحانه يبين الشيء وصدده ، وهو يأتي بالقانون والإطار

﴿لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ ۚ﴾ (٦٠٤٨) [الأنعام]

ومثال ذلك : حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال أصحاب موسى : ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (٦٠٤٩) [الشعراء]

قالوا ذلك : لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبين لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم تفعلت ابهر من قوة الله تعالى ؛ لأن الله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها ؛ بذلك انقلب البحر ، فكان كل فرق كالطود العظيم^(١)

فلا شيء يخرج عن ملكه سبحانه تعالى ، ولذلك باتى الحق سبحانه بالتقيض ، بعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر ، وكل فرق كالطود العظيم ، ويقتل البحر مخلوقاً قبل أن يمدح قوم فرعون فيه

والحق سبحانه يقول موسى عليه السلام ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ كَانُوا مُفْرَقُونَ﴾ (٦٠٥٠) [الدخان]

يأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى باشيء لواحد ؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبين الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام غيره سبحانه أبداً

(١) يقول رب العرش سبحانه ﴿فَلَمَّا بَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (٦٠٤٩) قال كلا: إن معنى ربي سيهدين (٦٠٥٠) فأوحى إلى موسى أن احرب فصالح البحر فاصطاد فكان كل فرق كالطود العظيم (٦٠٤٩) واللفظ ثم الآخرين (٦٠٥٠) وأنجيت موسى ومن معه أجمعين (٦٠٥١) ثم أفرقنا الآخرين (٦٠٥٢) إن في ذلك لآية وما كنا أكثرهم مؤمنين (٦٠٥٣) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٦٠٥٤) ﴿[١٠٤ - ١٠٦]﴾

والغرق الغرق أو غرغرة منه والطود جبل الكبير [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٣٣٦)]، واللسان العرب: مد، (بارق)

وهناك مثال آخر - حين يقول روح - عليه السلام - لأنه .
﴿يَا بَنِي آدَمَ ارْكَبُوا هَٰؤُلَاءِ﴾ (١٦) [هود]

فيرد الابن قائلاً .

﴿سَأَوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْصِلُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (١٧) [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعو مستواه عن مستوى الماء ،
ولكن ابن روح يسي أن لله تعالى حديقاً آخر هو الموج ؛ فكان من المغرقين .
صحيح أن ابن روح فطر على أن انسيبنة سوف تستوي على
«الخودي»^(١) ، وأن من يركبها لن يعرق ، وكذلك من يأوي إلى الجبل
العالي ، لكنه لم يفطر إلى الموج الذي حال بينه وبين الجبل ؛ فكان من
المغرقين .

إذن فكل كائن هو مؤثر بأمر من الله تعالى ، وما دامت العرة لله
جميعاً بمصداقها أن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض ، وليس
هناك كائن في الوجود يتأثر على أن يكون حديقاً من حنود الحق سبحانه ،
فكون حديقاً للإهلاك ، وجدياً للنجاة في نفس الوقت^(٢) .

وقول الحق سبحانه هما : (ألا) يعلم منه أن (ألا) أداة تنبيه للسامع
فلا يؤخذ على عثرة ، ولا تقوته حكمة من حكم الكلام ، ويتب إلى أن

(١) يقول رب العرش سبحانه : ﴿قَالَ سَأَوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْصِلُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ قال لا عاصم اليوم من أمر الله ؛ لأن من رجو
و حال بينهم أنموذج فكان من المغرقين (١٦) [هود] لقد اعتقد ابن روح بجهله أن بطون لا تبلغ إلى
وعوس الخيال وإنما لم يعتق من رأس جبل سينادونك من العرق [تفسير من كثير ٤/٤٤٦]

(٢) الخودي قال مجاهد هو جبل بالحريه ، وهو الذي ركب عليه نوح عليه السلام [تفسير
ابن كثير ٤/٤٤٦] وقيل ، إنه جبل أرارات في شرق تركيا بالأناضول

(٣) يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَتَوَدُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وكذلك الله عليه حكيم (٤) [الفتح] ويقول أيضاً
﴿وَمَا يَتْلُو مِنْهُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْبُيُوتُ﴾ [الأنشراح]

هناك خطأ ما عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما في هذا الخطاب

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٩) [يوس]

ولقائل أن يقول : هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿مَنْ﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرد على هذا القائل :

وهل هناك أي شيء في الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

إذن فكل الكائنات في عرف الاستقبال عن الله سبحانه سوء ، ﴿مَنْ﴾ أو - «ما» ، وكل من في الوجود يفهم عن الله

ونلاحظ أن الحق سبحانه يأتي مسرة بالقول . ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴾ (٨٢) [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [يوس]

كما جاء في هذه الآية التي نحن بصددتها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً في الوجود يوجد في السماء ويوجد في الأرض ، وهم الملائكة المُدَبَّرَاتُ "أمرأ" هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما في السموات والأرض .

(٦٦) مَدَبَّرَاتُ أَمْرَأ هي ملائكة تُدَبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جس في السموات لا يوجد في الأرض وهم
الملائكة المهيمون^(١) العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن
لله تعالى جنوداً في الأرض ليس لهم وجود في السماء ، فإن لاحظنا
الملائكة المدمرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ...﴾ (٢٨٩) [لقرء]

مناسب لها

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين في السماء ، وجوداً في
الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه

﴿لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْاَرْضِ...﴾ (٦٦) [يرس]

وما دام كل شيء في الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراحه
سبحانه ، فلا يوجد مثلاً عار يدخله كائن مراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر
على أن يسد الفار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل العار فهو
تعالى يحسب نصر من يرقب العار^(٢)

إذن : فلن يجير^(٣) شيء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

(١) المهيمون الذين يهيمنون في عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا تشغل لهم إلا العبادة فتجد منهم
القائمين ولا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يركعون . وهناك الملائكة الكروبيون ، وهم
أقرب الملائكة حملة العرش الشمسي ، قال عنهم سبحانه ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٢٠) [حافر].

(٢) لسبحانه طلب حمايته قال تعالى ﴿وإن أحد من المتشركين استجارك فاصرفه حتى يسمي كلام الله
(٢٨)﴾ [التوبة] وأجابه : تكفل بحمايته . قال تعالى ﴿...وَهُوَ يَهْدِي وَلَا يَهْدِي عَلَيْهِ...﴾ (٨٥) [الزمر]
أي أنه يكفل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجير من يمد الله عنقه [العاموس الترم
نصره].

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث في حجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عند دخول العار
وأبى الله على يائه شجرة ولو وجد شخصان على النهر ، وهما كيوفاً كبيراً قد سد باب العار
بحيوط علاه براب و كأنه مرات السور.

لا يحلشها حادث من وجود الله في الكون.

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ..﴾ (٦٦) [بوس]

ومعنى تساعدهم شركاء ، كأن هناك شركاء ، رغم أن الأصل والحقيقة
الأشركاء له سبحانه

إذن: فهم يشحون غير شيء ، والدليل على ذلك موجود في طي
القصة ، فهم يعدونهم من دون الله تعالى ، ومعنى العبادة أن يطاع أمر
وينهى نهى ، وما يعدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهي ؛ فليس هناك
منهج جاءوا به .

إذن . فلا الوهية لهم .

إذن: فالأصل ألا شركاء لله تعالى ، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً
ولأوجدوا أوامر ، وكان لهم نواه ، لأن الذي يقول : «احسنى» إنما يحدد
طريقة وأسلوب العبادة . وهاتوا واحداً من الذين تتسعونهم وتدعون لهم
يكون له منهج ، ولن يستطيعوا ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا ابْتِغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ
مَبِيلًا﴾ (٤٢) [الإسراء]

أي : أننا لو فترصنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التي تضيء
والقمر الذي ينير ، والمطر الذي ينزل من السماء ، والملائكة التي تدبر
الأمر ، بوصلتنا أن كل هؤلاء آلهة ، فهم سيسبحون عن الإله الواحد
الأحد ؛ لباحذوا منه القوة التي ظنتم أنها لهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَى لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون]

ذَلِكُمْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ صَحِيحاً لَكَائِدِهِ هُنَاكَ وَلَا يَأْتِ إِلَهِيَّةٌ

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧)﴾ [الاسراء]

وهم قالوا إنهم يعبدون الملائكة ، وعلمهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى ، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم ، إذن : فأنتم تتبعون الضل

لذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿إِذْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الظُّرَّ (٦٠) وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦١)﴾ [يوسرا]

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يوجدوا في القرآن ظاهراً تعارضاً ليشككوا به ، قالوا : إن هذه الآية مثلاً على ذلك ، في بداية الآية يقول : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. (٦١)﴾ [يوسرا]

فيصير أن المشركين يتبعون شركاء لله ، ثم يأتي في آخر الآية فيقول : ﴿يَدْعُونَ الضُّلَّ وَالْخُرُصَ ، ظَنُّوا أَنَّهُم مِمَّنْ أُوتِيَ الْكِتَابَ ، وَلَهُمْ أَعْرَافٌ يَشْتَرُونَ .

(١) الظل : ما يحصل في النفس عن أماره ، فهو شك ورجح وفعل من أفعال الرجحان ، من باب نصر .
والنفس مصدر ، والظل : اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس . قال تعالى : ﴿وَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الظِّلَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظُّلَّ وَإِنَّ الظِّلَّ لَا يَنْفَعُ مِنْ أَثَرِ شَيْءٍ (٦٠)﴾ [الحج] وجمعه : ظلون ، ويسمى الظل يسمى بـ لبقين مجازاً كقولهم تعالى : ﴿وَلِيَّ ظَنٍّ أَتَى مُلَاكٍ مُنَايِبِهِ (٦١)﴾ [الحاقة] بمعنى سقط [القاسوس] القويم .

(٢) الخرص : الكذب والقول بغير علم . وقال تعالى : ﴿فَقُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (٦١)﴾ [الذاريات] قال الزجاج : أي : الكذابون . [لسان العرب] : مادة (خ ر ص) - [يصرف]

وهذا جهل من قال بهذا وادعى أن هناك تماقصاً في الآية ، فإله سبحانه
يقى أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله في ملكه ، فإله من
في السموات ومن في الأرض ، ولكنه يشت أنهم يتبعون الظن والخرص
والتخمين

ونقول ما هو الظن؟ وما هو الخرص؟

إن الظن حكم بالراجح كما أوضحنا من قبل في السبب من أن هناك
سبباً إن لم تكن موجودة فهي مشكوك فيها ، أو سبباً راجحاً ، أو أن سبباً
يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإذا كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو
الشك وإن رجحت ، فهذا هو الظن أما المرجوح فنسميه وهماً

الظن - إذن - حكم بالراجح. والخرص : هو التخمين ، والقول
بلا قاعدة أو دليل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يوسف]

والقرآن حين يوجه خطباً فهو يأتي بالخصم المستوعب لكل ممكن ،
وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتبعون الظن والخرص

وبمن نعلم أن الكافرين قسمان : قسم يُعلم حقيقة الشيء ، ولكنه بخير
الخدعة إلى ذلك " وإلى خرص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل
يستمع إلى من يعتقده أنه يعرف .

(١) أفك ، يَأْفِكُ وَيَأْفِكُ من باب « فح » و « فح » ك « فح » و « فح » ك « فح » و « فح » ك « فح » .
الكذب وأما صيغة مبالغة أي : كثير الكذب قال تعالى ﴿ وَيَلْ كُلُّ امْلِكٍ اَمْلِكٍ ﴾ [حائمه] .
[القاموس المقوم] بتصرف

إذن . فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبِع - بفتح الباء
المُتَّبِع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام مُتَّبِع ، يشوّه الحفيفة
ويريها ، أما المُتَّبِع - بكسر الباء - فيعلم أنه يتبع أماساً عذقلين أمماء وأحد
كلامهم بتصديق .

إذن : فالمتبع (بكسر الباء) يكون لظن من ناحيته ، أما المتبع (بفتح الباء)
فيكون الحرص والكذب والافتراء من ناحيته ، ولذلك يقول ل الحق
سبحانه .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكُتُبَ إِلَّا أُمَامِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)
[البقرة]

هؤلاء - إذن - يصدقون ما يقال لهم ، لأنهم أميون ، والكلام الذي
يقال لهم راجح ، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح
أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكُتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ (٧٩)
[الماء]

وهؤلاء هم الذين يأتي منهم الحرص والإفك وقول الزور والبهتان .
إذن : الكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن ، وينطق عليهم
قول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ (٨٠)

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطق عليهم قول الحق
سبحانه : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٨١) .

(١) البهتان : الكذب . قال تعالى ﴿ وَلَا يَأْتِي الْبَهْتَانُ بِفَرْجِهِ ﴾ (٨١) [المحجدة] [لسان العرب : مادة (ب ه ت) ١]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَسْلَ لِتَشْكُرُوا فِيهِ
وَلَسَهَارَ مُتَعِصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بين الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدعيه
لكافرون في نبي الرسالة ، وبعد أن بين المنهج ، ما هو سبحانه يأتي
بالكلام عن آياته سبحانه في الكون تأييداً للمطلوب بالموجود

فالمطلوب أن يؤمن برسول يبلغ منهجاً عن الله ، ليكون هذا المنهج ناعماً
سا ، وإن أراد أحد دليلاً على ذلك فليظر إلى الآيات التي وجدت للإنسان
من قبل أن يكلف . أهى في مصلحته أم في غير مصلحته ؟

ومدامت الآيات الموجودة في الكون والمسحرة للإنسان تفيد
الإنسان في حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد
أعطى الحق - سبحانه وتعالى الإنسان من قبل التكليف الكثير من
لنعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلفاً .

إذن : والله سبحانه لم يكلف أحداً إلا بعد أن عمره بالنعم النافعة له
باعتماد من العبد ، وصدق من الواقع .

فإذا ما جاء لك التكليف ، فقس : ما طُلب منك على ما وُجد لك ،
فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونية التي سبقت التكليف نافعة لك فبأن
يطلب منك «العمل كذا» و«لا تفعل كذا» ؟ فخذ منها صدقاً واقعاً يؤيد
صدق ما طُلب منك تكليفاً ، فكيف نفعل في الأولى ، فالحق سبحانه

سيجعلك باتساعك لتكليف ، واستقلال حركة الحياة على صوء هذا التكليف : لتسعد^(١) .

ونحن نعلم أن الأصل في الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد لتكليف قد جاءت على نفس الموال ، فقد أراحك الحق سبحانه إني من السوء وأحذّب نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى من اللوع ، ارتحت احتياراً ، وارتحت في مرادك ، ثم تحمى «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم^(٢) يصح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل رمى للراحة ، وأنت في حياتك تجد وقفاً للراحة ، ووقفاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذي تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تمنح للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فيس لا أنه كما قسم لوجود الإنسان إلى مرحلتين

الأولى : هي ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هي ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُنْصَرَفًا .

[يسراء]

﴿٥٧﴾

(١) مصداقاً لمروءة تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٢٠) مَعَ أَوْلِيَائِهِمْ فِي الْحَقِّ الدَّابِّ فِي الْأَحْزَةِ وَبَيْنَهُمْ مَا يَشْتَهُي أُنْسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٢١)﴾ [قصص] .

فكيف خلق الحق سبحانه لك اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ،
كذلك شرع الحق سبحانه مهج الدين ؛ لتستقسم حركة الحياة ؛ لأن
الإنسان خليفة في الأرض لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون
حركته على مقتضى «اعمل كذا» ولا تفعل كذا» ، وما لم يرد فيه
«اعمل» ولا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله^(١)

وكل فعل ، وكل سهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى
لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك في أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد
تترهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تحمل ،
ولكنك تسمى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تمنع عليك
أن تقوم بما تشتهي به نفسك ولا يواكب مهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع
وتكبح جماحها^(٢) ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ بذلك جعل الله تعالى
لك حقاً فى الراحة

وكذلك عُمر الإنسان ، لم يكلف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد
البلوغ ، وترك له الفسرة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ،
لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما مع
حسابه على ما «يعمل» أو «لا يعمل» ، وترك مسئولية التدريب على
التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقو لابه . «لا تكذب» فإن كذب ؛ فالأب
يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى
يتطلب ثوباً أو عقاباً .

(١) لأن كلمة «اعمل» يدرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والعقوبات والنهي والنهي والنهي
والاستحبات . كلمة «لا تفعل» يدرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى المنع والنهي . أما

غير ذلك فهو مباح

(٢) تكبح جماحها جمعها عن المعاصى مأخوذة من كبح الدابة أى جعلها ليه بالدجام ، وصرب لها به ؛
فى تعيد ولا تخفى [لسان العرب مادة (ك ب ح)]

وبيّن لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واخربوهم عليها لعشر سنين»^(١) .

والذي يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذي يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذي يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محسوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة .

وحين يكلف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطعم ؛ لأن الأب هو الذي يفرض حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر وانتهى من المانع للابن ؛ لئلا يجد حينئذ قول في النفس

وما إن يأت ابنه فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه

إذن فالأمر والنهي قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقلال الأمر والنهي من ربه ورب أبيه

ورداً كانت الحياة والسير فيها على صوء مسبح الله تعالى يقتضي حركة في «افعل أو لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك بيّن لنا الله سبحانه أنه جعل في «النوم» نهداً ونهراً ، ولكل مهمة ، عليك أن تضع مهمة شيء مكان شيء آخر ؛ حتى لا تترك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل في الحبيب ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ، وبذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه في آية ثانية :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٨٦) وأبو داود في مسنده (١٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي ، واللفظ لأحمد

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ضَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ [الرؤى]
 لأن الحق سبحانه قد علم أولاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون
 ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح بهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية : نفساً
 لمن ينام ' بالنهار ' لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة
 ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطى القدرى ، ليرتاح من يتصل
 عمله بالليل .

وهو يقول الحق سبحانه

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ...﴾ [يونس]
 ونحن نعلم أن هناك فرقاً بين «الحنس» ، و«الجعل» ، و«الملك» ،
 والمثال على الخلق أنه سبحانه خلق الرمس ، ثم جاء لهذا الرمس ليجعل
 منه ليلاً ونهاراً^(١)

إذن ، فالجعل هو توجيه شيء مخلوق لمهمة

ومثال ذلك - وبله المثل الأعلى - وهو سره عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الصخر وهو بمسك باطنين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع
 الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويجهضهما معاً ، ثم يجعل من الطين

(١) يوم فلان يوماً اضطلع أرميس وإله مسكن وأهلمان ووثن به ومن خاضعته عمل عنها ولم يهتم بها
 وأندم أوقده ، ويوم فلان أرسد والتسوم التظاهر باليوم واسماد يدم وأهلمان واليوم من
 يست الله ، لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والشباب فى التفكير والتفكير
 [أنعجم الوجير بتصرف]

(٢) يقول سبحانه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْقُلُوبَ سُرُمًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَخْتِمْهَا فَيُمْسِكْكُمْ فِيهَا فَيَكُونُ لَكُمْ عُقُوبًا﴾ [النحل: ١٠٦]
 سمعون (١٠٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْقُلُوبَ سُرُمًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَخْتِمْهَا فَيُمْسِكْكُمْ فِيهَا فَيَكُونُ لَكُمْ عُقُوبًا
 أهلاً تهرؤن (١٠٧) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وتذكروا (١٠٨) [الفصل]

إبريقاً أو أصحس ررع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحرك مخلوقاً إلى شيء له مهمة

والرمس كله لله سبحانه ، حمل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثل خلق الإنسان ، ووجهه خيراً منه ، يجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ يجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذة مما خلقه الحق سبحانه .

أي : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتزدي مهمة للمخلوق وفي حياتنا . والله المثل الأعلى - بعد من يغزل من لقطن حسوطاً ، وهناك من يسبح من تلك الخيوط مماشاً ، وبعد ذلك يجد من يأخذ هذا القماش ؛ لجعل منه جلباً أو بطوناً أو قميصاً أو لحافاً .

إذن ما جعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة . والخلق قد يترتب عليه ملك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملك ، فمن عمل قدراً من لطيف هو مملكة ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يمكنه .

وهكذا بعد الخلق والجعل قد ترتب عليهما ملكة ما ، لكن الملكية المسحقة بعد الخلق والجعل نجعلك تتفع بالاشياء وقد لا تمنكها ؛ لذلك بعد قول الحق سبحانه .

﴿إِنَّمَا يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ..﴾ (٢١)

[يوس]

والحق سبحانه حق لنا الأنعام ، ودليلها لنا ، وملئها لنا ، وإن قال الحق سبحانه «ملك» فملكته سبحانه لا تنتهي لأحد بدأ سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظل مملوكاً ؛ ولذلك قلت : إن فعل الأعصاء هو تحكّم فيها لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى .

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ۚ ..﴾ (٦٧) [يوس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتي هذا بالأداء القرآني المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾ .

هل النهار هو الذي يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصر أم مُبصر فيه؟

وعديمًا لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التي وصلوا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء " يخرج من العين إلى المرئي فتراه ، إلى أن جاء "الحسن بن الهيثم" العالم العربي المسلم ، وأوضح بالتحربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئي إلى العين ، بدليل أن المرئي إن كان في الورد وأنت في الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه .

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبين لنا أن النهار إنما يأتي بالضوء فيعكس الضوء من الكائنات والوجودات إلى العين فتراه .

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه خاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرئي إلى العيون .

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

(١) الضوء - يفتح الضاد والميم - صمها والضياء ، والضوء - الورد الذي ينتشر من الأجسام المضيئة ، وبدل بعض الضوء لما كان صافراً من شيء مضيء بعبء كضوء الشمس ، وقد يُعبر عن الورد لما كان صامداً من ضوء ، كمنور القمر قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (٥٥) [يوس] [القاموس القريم] بتصرف

[فصل]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ...﴾ (٣٧)

ويقول

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَرَّمَا^(١) آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُورَةً^(٢)﴾ (١٢)

[الاسم]

وهي مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم لمسلم ، وإن كانت في ظاهر الأمر مُصَوَّرَةً فيها .

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حبة مع موسى عليه السلام ، وذلك في قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿رَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١٧) قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غممي ولي ليها مأرب أخرى (١٨) قال ألقها يا موسى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَابٌ مُسْتَعْتَبٌ (٢٠)

[طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ، ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حبة أمام عينيه لأول وهلة سوف يمزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله .

﴿. حُذِّهَا وَلَا تَحْجَفْ سَتُعِينَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (٢١)

[طه]

وكانت المرة الأولى لتحول العصا إلى حبة ، هي تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجرع موسى عليه السلام - أويحاف لحظة أن يمر بالسحرة العملية ، وحتى يتبل على تقديم المعجزة وهو وثق تمام الثقة أمام فرعون

(١) جعل لله ليل آية وهي القمر ، وجعل لنهار آية وهي الشمس ، وجعل آية النهار مبصرة أي مبصرة الكون كله ، أي مبصرة عدد ساعاته وهو سواد القمر الذي فيه . ينصرف من تعبير ابن كثير (٢٧/٣)

(٢) أي . سعيها كما كانت (عصا)

ثم قال الحق سبحانه موسى - عليه السلام .

﴿وَادْخُلْ يَدُكَ فِي جَيْبِكَ﴾ .. (١٦) [التل]

والجيب هو المكان الذي نطد منه لرقعة في الحجاب وتسمى (لقفة) ، فلا يعل أحد أن الجيب المقصود به هو مكان وضع النقود ، لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الحجاب ، مثل حب (الصديري) الذي يرتديه أهل الريف ، وقد سُمي الجيب الذي يضع فيه المود حباً ، لأن اليد لا تذهب إلى الحب إلا إذا دخلت في لفتحة التي تخرج منها الرقبة

وقد قل الحق سبحانه لموسى - عليه السلام .

﴿وَادْخُلْ يَدُكَ فِي حَيْكٍ تَخْرُجُ بَيْضَاءٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ .. (١٧) [التل]

ويحضره الحق سبحانه

﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهُمَّ بِإِهِمْ كَانُوا فَرُوعًا فَاسْقِينَ﴾ (١٨) فلما

جاءتهم آياتنا مبصرة .. (١٩) [التل]

هكذا كانت الآيات مبصرة^{١٧} وكأنها تقوى بلعين أنصريي

١٧ الحب والصدور قال تعالى : ﴿وَيَصْرِفُونَ مِمَّا ضَلَّىٰ فِي حُجُوبِهِمْ﴾ ١٨١ [سور]

(٢١) مبصرة . - مبصرة ، وهم بصير ، وحضر بالأمم علمه كأنه رأى مبصرة وفوقه ﴿فَصَبْرٌ بَعْدَ غَیٍّ﴾

١٨١ ﴿مَقْصُصٌ﴾ أي رثه من أحد حركات لب وأنصر رأى قال تعالى ﴿وَأَنْصَرِفُوا﴾

بصرون ١٨٠ ﴿أَنْصَرَفُوا﴾ أي انصرفوا وبصره جعله مبصر ، وجعله يعلم عنهم من مبصر

قال تعالى ﴿وَأَنْصَرِفُوا﴾ فصرف مبصرون (١٧٩) ﴿أَنْصَرَفُوا﴾ رانصير من أسماء الله الحسنى .

والنصير من له عيان يصير به ، ضد الأعمى قال تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (٢٠) ﴿

لأنهم﴾ والنصير نور العيب والخفة الوضوء من المحاروتهم بهار مبصر ، أي مبصر ، قال

عالي ﴿هَؤُلَاءِ جَعَلْ لَّكُمْ لَيْلًا مُّسْكُوًّا فِيهَا وَنَهَارًا﴾ (١٧٩) ﴿يُوسَى﴾ . وفوقه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ

النهار مبصرة﴾ (١٨٠) ﴿إِسْرَافَ﴾ وفوقه ﴿وَأَنبَأْنَاهُ الْبَاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ (١٨١) ﴿الْإِسْرَافَ﴾ أي منحصره

راضح وفوقه ﴿إِذَا صَبُّوا عَلَيْهِمْ مِمَّا فِي السَّيْطَانِ لَذَكْرًا فَهُمْ يَنْصَرِفُونَ﴾ (١٨٢) ﴿الْإِسْرَافَ﴾ أي

غادره الحق [العالموس المرحوم - بصرة]

وهنا هي الآية : الى نحن بصدد حواطرها عنها - يقول الحق سبحانه
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ [يوسف]
ولم يقل : لئلا تحركوا فيه ، بل جاء لي يضمن سلامة الحركة ، فقال
سبحانه : ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذي ينعكس على الأشياء هو الذي يحفظ
للإنسان سلامة الحركة

ولكن البعض من الناس هي ربما ستخدمون عملة الكهرباء في
الإسرف في السهر ، وحين يأتي الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز
(التليفزيون) أو (الثيديو) أو هي غير ذلك من أمور الله فيه ، ثم ينامون في
النهار ، ويسبون أن الليل للرفود ، والنهار للعمل وقد ثبت أن للضوء
أثراً على الأجسام ، فالضوء يؤثر في الكائن الحي ، وقد سبق النبي ﷺ
ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال :

«أطعموا المصابيح إذا رقدتم» : وذلك حتى لا يشغل الجسم بإشعاعات
الضوء التي تتسبب في تفاعلات كيميائية في الجسم.

لذلك أقول دائماً حذروا الحصاره بقواعد التحصير لها ؛ لأنها يجب أن
تتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه ؛ لأن السهر صار ،
وإذا ادّعى الإنسان أنه هو الذي تحضر ، عليه احترام قيمة العمل الذي يصح
الحضارة ؛ لأن الآلة التي يسهر مراقبتها ومشاهدتها هي إنتاج أناس يلتزمون
بقواعد الحضارة ، واحترام قيمة العمل في النهار ، وقيمة الترفيه في الوقت
المخصص

نحن نساء امسخدام أدوات الحضارة ، فالرمن الذي وفّرته التكنولوجيا
للزوجة ؛ حتى لا تقف في المطبخ نصف النهار تعد الطعام ، وصارت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد في مسنده (٢٣٨٨/٢) عن جابر بن عبد الله ، وانظر
للمعاري

تطهرو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها في الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنتهى الغسيل في ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يصيب أمام (التليزيون) ولا تلفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا يسهل البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفي هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو المتحضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة . إياك أن تسرع بها في طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملاً صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يعسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يامر الإنسان في الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الرئوع ويفسد لهواء .

ويحب ألا تأخذ الحضارة بتلصص ، إنما عليك أن ترتقي إلى مدارجها بصيانة أساليبها ، لأن من لا يأخذ الحضارة بتقاعدها هو من يتخلف رغم تقدم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضراً منه .

إذن . فإن أخذنا كل أمر عهده فتنحن نحقق الراحة لأنفس ولغيرنا .

ولذلك قل في تفسير قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ^(١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ^(٢) ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى : تعطيت للمرثيات) ونجس النهار (أى : كشف المرثيات) فهذا ليس تعارضاً ، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

[الليل]

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣)﴾

وهذا خلق الذكور والأنثى هو لتكامل ، لا لتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بسوعين !

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني : هو الإنسان ذكراً وأنثى

[الليل]

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)﴾

أى ان حركتكم هى الموصلة إلى عايتكم ، والحركات شتى (أى مختلفة) ، سواء فى الليل او النهار أو للذكر أو للأنثى ، فمن خلقت الحركة وعشنا بأنظمة الحياة : فالحياة بركت ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن نتفقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفئها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجربة .

وهناك مثال آخر فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحصرة لا ينتهى وأنت تجد السهر منك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المتجددة فى النهار .

(١) شب جميع شئاً ، وشئاً تفرق فهو شئت ، وهم شتى وأمر شت مصروق رجمه أشتت قال سالى : ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً وأنشأوا (١٠) [الزور] أى مسرفين وقوله : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)﴾ [الليل] أى مشغوع به لحبس ومه السبى وهو : ﴿أزواجاً من بهائم شتى (٥٠)﴾ [طه] مختصة الطعام والرح ، وقوله : ﴿تخضعهم جميعاً وقلوبهم شتى (٥١)﴾ [الحشر] أى متفرقة [الحشر من الغريم من يتصرف]

إذ: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان في الرمان أو في الإنسان ، وقرأ جيداً قول الحق سبحانه .

﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَتَشُنَّ ①﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله معنى يختلف عن معنى الآخرين .
وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها يُنهي الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ②﴾ [يوسف]

ولغاش أن يقول : لم يقل «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَبْصُرُونَ»
وتقول : لتنبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبين في هذا الرمان مهمته ، وهو القائل في صدر الآية ووسطها .

﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ③﴾ [يوسف]

فالدلالة في هذه الآية هي سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين هي دليل لا تؤدي مهمتها ، بل السمع هو الذي يؤدي مهمته
والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ④﴾ [القصص]
﴿عَرَّ اللَّهُ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ⑤﴾

أي أن أحداً لن يستطيع الحركة في مثل هذا الليل السرمدي ولا أحد مستيقظ شيئاً

(١) السرمود دواء الرمان من بين أوبهات ولبين سرمود طويل هائل نخرج السرمود الدسم [سما] العرب مادة (سرمود)

والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ
اللَّهُ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُونُونَ فِيهَا أَفَلَا تُنْصَرُونَ﴾ [القصص]

إذن . فقد جاء الحق سبحانه في آية الليل بالسمع^(١) ، وجاء في آية النهار بالابصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن محال الحركة بالنهار والراحه في الليل ، يأتي الكلام عن اليسوع الذي يجب أن تصدر عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما ينافض حركة الإله الأول .

وكما تتحرك في النهار ، وترتاح في الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الأمر لواحد ، وهو الله تعالى الذي تعبد به بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يريك حركة الحياة والله سبحانه يقول :

﴿إِذَا لَدَّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ (٩١) ﴿[مؤمنون]

وَلَدَلَّكَ يَقُولُ اللَّهُ بِسَمَاعِهِ بِمَا خَلَقَ :

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَبْحُونَهُ هُوَ الْغَيْبُ
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بِهِ نَذِيرٌ أَلْقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

(١) وهنا عشتا صليبة الشجع إلى الأعمجاز القوامي في أسرار ، حيث وضع الحماة في مكان وظيفتها التي تستطيع الأداء ، به ، فجعل الإحصار للهار لأنه مكانه ، وحصل السمع ليل حيث إن البصر لا يؤدي مهتته ، وبهذا الهمة من شخص السمع ، وهذا كجمال الأدب وحلال الأسرار في كتاب الله ملاحظه سان ، وعمى برقى

وبعض نصوص الآية الكريمة يكذبهم فيما يدعون

ومثال ذلك أنك حين تقول: «اتحد فلان بينا» أى: أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبنت ، وبها اتحد البيت ، فلماذا قيل : ﴿ اتحد الله ولداً .. ﴾ (٦٨) ؟ [يوس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتية قبل أن يتحد الولد

وهم قد خضعوا في أمر هذا الولد ، فجنهم من قال: إن الملائكة هي بنات الله وكذبهم الحق سبحانه في ذلك ، ومنهم من قال: عيسى ابن الله وهم اليهود^(١) وقد كذبهم الله سبحانه في ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا: إن المسيح ابن الله^(٢) ، وكذبهم الحق سبحانه في ذلك^(٣) .

ثم ما الداعي أن يتحد الله الولد؟

هل استنم قوته حتى يساعده الولد ؟

وهل يمكن أن يصعب سبحانه - معاد الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه ؟

مثلاً يقال حين يراجه شيخ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، يقال للشاب: احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ، فبرئاع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب: إن أبائي يفوقونك في لقوة ، ومضى هذا اعداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يعمل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا مناقضة ؛ لذلك يسعى أن يكون

(١) يقول رب مرة سبحانه وتعالى ﴿ قال يهود عيسى ابن الله ﴾ (٦٨) [المائدة]

(٢) يقول الله عز وجل ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ (٣١) [الزبور]

(٣) يقول الله تعالى ﴿ ذلك قوتهم بالآراءهم يصاغنون دور الذين كفروا من قبل ما تلهم الله أنى يؤفكون ﴾ (٤٠) [التوبة]

المحرك إليها واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعرض في تلك الأوامر ؛
لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد وحركة الحياة تتصادم بما يبلد الطافه
ريفند الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادر من امر واحد يُسَلَّم له كل أمر ،
وهذا الإله مرة عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه في ذاته ،
فلا د ب تشبه ذاته ، ومرة في صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ،
ومرة في أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله ^(١)

وحتى تضمن هذه المسألة لا بد أن يكون لإله واحداً ، ولكن بعضاً من
لقوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهم أن له بياً
وولداً ،

ونقول لهم :

إن كنتم كنتم ﴿ اتحد الله ولداً .. ﴾ (٦٨) ﴿ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتحاد
الولد أن الألوهية وجدت أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتحد الولد
ومن المشركين من قال : إن الملائكة ينبت الله

فرد عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ (٦٩) ﴿ تلك إذا قسمة خبري ﴾ (٦٩) ﴿ [السم]

والكمال كله له سبحانه وهو كمال ذاتي ؛ ولذلك يأتي في وسط الآية

ويقول تعالى :

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه

لا حل له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله

(٢) صار في الحكم أي جار ، قسمة خبري وصوري أي حائرة ليس فيها حق ولا عدل [السم]

العرف : مادة (ض ي و) - ينصرف

[يوسا]

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ . . (٦٨)﴾

وسبحانه تعنى : التنزيه ، وهو الغنى أى المستغنى عن معين
كما تستعينون أتم بأنناكم ، وهو دائم لوجوده ؛ فلا يحتاج إلى اس مثل
الشر ، وهم أحداث تبدأ وتتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أباء
كما يقول الشاعر :

* أبى يا أنا بعد ما أقضى *

ويقال «من لا ولد له لا ذكر له» ، كان الإنسان لما علم أنه يموت
لا محالة أراد أن يستمر فى الحياة فى ولده .

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ،
والجامل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم
لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه صم
الذكر فى جيلين .

إذن فانحاذ الولد إما اسعانة وإما اعتماد ، والحق مسبحانه عنى عن
الاستعانة ، وعنى عن الاعتماد ؛ لأنك تعتمد من هو أقوى منك ، وليس
هناك أقوى من الله تعالى ، وهو مسبحانه لا يحتاج لامتداد ، لأنه هو الأول
وهو الآخر ، وعنى ذلك فمكرة اتحاد الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على
أى لون من ألوانها .

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة : ﴿سُبْحَانَهُ﴾^(١)
لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُسَمِّح ذلك بقوله . ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لأنه

(١) يسبح يسبح من باب فتح سبحا ، ومباحة عام وسرى الماء ومن الجذر يسبح الخود ، أى جرى
كأنه يسبح فى الماء ، ومن الجذر يسبح الجرم ، أى سارت فى ألاكها . قال تعالى ﴿ كُلُّ لى
فلك يسبحون (٢١) ﴾ [الأنبياء] وعرفت معاملة العلاء لانظامها فى سبها ويسبح اسم ربك ثرة
سبحه عن كل نقص وجمه بكل كمال أو قل سبحان الله ومعناها أنه الله تنزهها عن النقص وأصفه
بالكمال ، وهو مصوب عن المصدرة ، ومصدر نائب عن فعله [القاهر من القوم - بصرف]

سورة التين

٥٦. ٧٣

عنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله ﴿سُبْحانه﴾ تتره
له ، والتزيه ارتفاع بالمعتره عن مشاركة شيء له - فى الذات أو الأفعال
وإذا ورد شيء هو له وصف ولخالقه وصف ، فبإك أن تأخذ هذه
النصبة مثل تلك النصفة .

فإن قالت عيا من الشر ، فالغنى فى الشر عَرَضٌ ، أما عنى الله تعالى
فى ذاته سبحانه

وأنت حى ' والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته ؟ لا ؛ لأن حياته
سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها
عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم

والله مرجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه رجود ذاتي ،
ووجودك رجود عرضي .

وردا قال الحق سبحانه :

إِنَّ لَهُ - سبحانه وتعالى - يَدًا ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١١) ﴿الفتح﴾

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست
كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ،
ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلى الله سبحانه لخالقه ، فسوف يتجلى بالصورة التى

(١١) حى حى ، كوصف يوصى به بالعدم يحى حياة وحيواتاً محدثاً فهو حى ، وهو حى بكل ذى
روح ، ويطلق سبحانه على الأرض قال تعالى ﴿فَأَنبَأْنَاهُ الْأَرْضَ بِعَدَّتِ سَوْنَهَا﴾ (٩) ﴿الأنعام﴾
ويستمر أيضاً معنى الإصلاح والإيمان ، قال تعالى ﴿أَوْ مِنْ كَذِبَتِ فَاغْنَاهُ﴾ (٤٧) ﴿الأنعام﴾ والحق
من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢٥٥) ﴿البقرة﴾ وحيه الدب تقاسم
الحياة الآخرة ، قال تعالى ﴿وَمَا أَفْهَمُ الدُّنْيَا لَأَمْعَانِ الْغُرُورِ﴾ (٦٤) ﴿الأنعام﴾ وحيه الدب تقاسم
سبحى بحسب الحياء ، قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ عَلِمْتُ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا تَعْبَأُونَ بِهِ فَلَهُ بِهِ الْغَلْبُ وَالْحَبْلُ مُنْقَلَبٌ﴾ (٢٠) ﴿الأنعام﴾
[الأنعام] أي - حياى وموتى

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التي يتحلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذمناً شريعياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فإله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه حاطر ، والله سبحانه لا يقلب أبداً إلى مقدور عليه

وأنت حين تأتي بمسألة في الحساب أو الهندسة مثلاً وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، بمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ في المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررّة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعنه لن يقدر عليها .

إذن لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانتقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُسرّاً عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذي لا ينصب أبداً إلى مقدور .

لذلك بعلمت الحق سبحانه أن يقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شيء يحظر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية في الله تعالى ، قبل أن يوجد شيء ، وبعد أن خلق الخلق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق في التسبيح .

واتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينتهي ؛ لذلك نجد استدلالات القرآن في أسور لتنزيهية^(١) تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

(١) تسجد التسبيح في الماضي ﴿سُبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٧) ﴿[استعيد] وفي المضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨) ﴿[الغالبين] وفي الأمر . ﴿سُبِّحْ اسْمُكَ الْأَعْلَى﴾ (٢٠) ﴿[الأعلى] رغب المصدر سبحانه ، وبهذا ملاحظ أن الماضي يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن في تسبيح مستمر . . . وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان جليلاً غفور (٢١) ﴿[الأمراء]

﴿مَبْجَاهٌ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ۚ﴾ [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذي أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا نظر أن المسافة يمكن أن تبع مشيئة الحق المطبقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل مسبب لله تعالى ، ولا يمكن أن نفس فعلاً منسوباً لله تعالى بقباس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر محدود حادث محدود الزمان والمكان ؛

وأنت إذا سررت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة في أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ في الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة في ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق .

أي . أنت كلما رادت قوة أداة الوصول قلّ زمن الوصول ، وهذا موجر بطريقة الحركة ، وإذا كان الذي أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة اقوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالسنة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببعد أو قرب المكان أو كيفية الزمان لدى تعرفه

وإياك أن تفهم أن إسماء الله تعالى مثل إسراذك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد يقادر أن يحدّ أفعاله بزمن .

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى فتكلم في أدق شيء . تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أسرى به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن لأموس "قد خُرق له ،
وحدثنا عما نعلم لصدق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نفيس ما لا نعلم
على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم

كلمة «سبحانه» -إذن - هي للتمتيزه ، وهي لله تعالى أولاً قبل أن يخلق
الخلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ،
ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه .

وأثبت تحيد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكداً أنه سبحانه
مُزَنٌّ ، وله التسبيح من قس أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبحوا ،
في سورة الحديد بقول سبحانه :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ.. (١)﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ.. (١)﴾ [الحشر]

فهو سبحانه كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى
الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ الْمَلَائِكَةُ لِقُدُّسٍ .. (١)﴾ [الحجرات]

ويقول سبحانه في سورة التغابن :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [التغابن]

(١) يؤمّنون الكون ، الأمراء الذين أودعهم الله - سبحانه وتعالى - في الكون ، من قوانين تنظم حركة أجزائه
ومكوناته

إِذْ . قال سبحانه لله أرلأ ، وسبح وسبح الخلق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، ومن بنى إلا أنت أيها الإنسان فسبح باسم ربك الأعلى

وفي الآية التي نحن بصدد خراطرها عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۖ ۞ (٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التمسح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتي في قوله تعالى ﴿هُوَ الْفَرُّ﴾ ، لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما احتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القاتل في أية أخرى .

﴿ وَهَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُونَ (٦٩) ﴾ [البقرة]

والصوت "معناه" لإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته

ويقول سبحانه في الآية التي نحن بصدد خراطرها عنها

﴿ إِنْ عِدَّكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

والذين قد تأتي للنبي في مثل قول الحق سبحانه

﴿ إِنْ أَمَّاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَهُمْ ۖ ۞ (٧) ﴾ [الحجرات]

وفي قول الحق سبحانه هنا :

(١) فت يعبُ حصر كل وحصر به ، ولست اعلم بالله أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقت في صلاته شيع واحسان وصب دها واطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء فان تعالى ﴿ ومن يفتت سكر لله وسرته ونفسه ما لا يؤمن بها أجبرها مرتين . ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وقالوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لُهُ قَانُونَ (٦٩) ﴾ [البقرة] أي حاصرون معصرون بألوهيته مطعونون - [القاموس القويم] ينصرف

﴿إِنْ عِبَدْتُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا . (٦٨)﴾ [يوس]

أى . ليس عبدكم حُجَّةٌ تدل على أن الله تعالى اتخذ وبدأ .
ولذلك يُسَمَّى الحق سبحانه الآية بقوله .

﴿أَتَشْكُرُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٩)﴾ [يوس]

أى أنكم لا تملكون إعلماً من الله تعالى بذلك ، فلا إعلام عن الله إلا من الله ، وليس لأحد أن يُعَلِّمَ عن ربه ، فهو سبحانه من يُعَلِّمُ عن نفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قُلْ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي يَفْقَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْدَ
لَا يَمْلِكُونَ (٦٩)﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته وبهايته يأتى بالفلاح كنتيجة لذلك الإيمان ، فهو سبحانه القائل :

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٧٠)﴾ [النس]

وهو سبحانه القائل .

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (٧١)﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً .

﴿أَرْسَلْنَاكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف]

وكبها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة لكائن الحى ، فمقومات وجود الكائن الحى : تنفس ، وماء ، وطعام ،

والنتفس يأتي من الهواء الذي يحيط بالأرض ، والماء يرسل من السماء
أو يُسَنِّط بما تسرب في باطن الأرض ، والطعام يأتي من الأرض ، وكل
ما أصله من الأرض يُستخرج بالملاحة .

لذلك نقول إن الملاحة هي السبب الاستيعاقى للحياة ، فكما يُفْلَح
الإنسان الأرض ، ويشقها ويسد فيها الدور ، ثم يرويها ، ثم تنصج
وتخرج الثمرة ، ويقال : أفلح ، أى : أنتجت دراعته نتجاً طيباً .

وشاء الحق سبحانه أن يسمى الحصيله لإيمانه الطسة بالفلاح
ويبين لنا رسول الله ﷺ أن لدينا مردعه الآخرة ، فإن كنت تريد نعمة
مبادل الجهد .

وإياك والطن أن الذين حينما يأخذ منك شيئاً في الدنيا أنه ينقص
ما عندك ، لا ، بل هو يُسمى لك ما عندك ^(١) .

والمثل الذي أضربه دائماً - ولله المثل الأعلى - نخذ الملاح حين يزرع
ولداً بالقمح ، فهو يأخذ من محرمه إردباً ؛ يستعمله كبدور في الأرض ،
ولو كانت امرأته حقيقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له : أنت أخذت
من القمح ، وكيف ترك عدلك وأنت تفصلهم من قوتهم ؟

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردب القمح المُحَرَّر ؛ ليعوده بعد
لحصاد عشرة أو خمسة عشر إردباً من القمح

كذلك مطلوب الله سبحانه في الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكه
بعظلك ثمار الآخرة ويريدها .

(١) قول الحق سبحانه ﴿ مَا عَدَّكُمْ بِفَدْوٍ عَدَّ اللَّهُ بِأَقْدًا ﴾ [الحجر] ودونه ﴿ وَمَا تَقَفُّوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْمَ إِلَهِكُمْ ﴾ (٢) [الأنفال] ودونه ﴿ مِنْ جَاءَ بِأَمْنَةٍ فَلَهُ عِشْرُ مِثْلِهَا ﴾ (٣) [الأعداء] وقوله ﴿ إِنْ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ قَرَّبْنَا سُبُلَهُمْ وَبَخَصْنَا عَنْهُمْ وَبَخَصْنَا عَنْهُمْ ﴾ [النحل]

يُذَنُّ: فالفلاح مادة مأخوذة من فَلَح الأرض وشتها وزرعها لتأخذ لثمرة
وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من السحب ومن
العمل ، فدللت أمر الآخرة وأمر الدنيا .

ومثال ذلك الفلاح الذي يحرث الأرض ، ويحمله للأرض السجاد
على المطية ^(١) ، ثم يستيقظ مبكراً في مواعيد الري ، تجدد هذا الفلاح في
حاله من الانشراح والفرح في يوم الحصاد ، وأمره يختلف عما بهمل
الأرض ويقضى لوقت على المنتهى ، ويسهر ليل أمام الشيعة ،
ويأتي يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذي لم يحسن زراعته .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴾ ^(٢) [يونس]

أي : هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو في الله تعالى بخير علم من
الله ، هم الذين لا يفلحون .

وأوضحت من قبل أن كل ما يشعل بالله تعالى لا يُعلم عنه إلا عن
طريق الله . لكن ما الذي يحملهم على الافتراء ؟

نعم ، إن كل حركة في الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً ،
وبختلف النظرة إلى النفع وما ينرت عليه ، فالعالم الكسول المنكح في
الشوارع ، الرافض للتنعم ، يحده راسياً غير موفق في مستقبله ، أما التلميذ
الحريص على علومه ، فهو من يحصن على المكانة اللائقة به في المجتمع ،
والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع ووضخاته ، بل قصر
النفع على لذة عاجلة مُصْحِحاً بخير أجل .

(١) المطية العربة ، وهي الدابة التي يُركب عليها أي ظهرها وجسمها ، مطايا [السان العرب مادة
(م ط ي)] .

(٢) يقولون الكذب يكذبون ، أو يقولون بخير عن لا يفلحون ، لا يفلحون ولا يصحرون قال تعالى
﴿ وَفَقَّ حَابٍ مِنَ الْخَبَرِ ﴾ ^(٣) [طه]

ولدى جعل هؤلاء يمتدرون على الله الكذب هو انهيار الداب ، فكل
دات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه
بلا قيمة في مجتمعه

ولمثل الذي صرّفه من قبل بحلاق لصحة في القرية ، وكان يعالج
الحميع ، ثم تحرّج أحد شباب القرية من كلية لطلب وافتتح بها عبادة ،
فكان حلاق الصحة حاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل في عاداته
محصاً ، أو (تمرحاً) ، أما إن أحذنه العره بالإنتم ، فهو يعاند ويكابر ،
ولكنه لن يقدر على دفع صلح الطبيب .

وكذلك عصاة الكفر وورساء الصلال حينما يهاجأون بمقدم رسول من
الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة " لعهه " رغم أن أى رسول من
رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق
لأعلى سبحانه .

وحين يأخذ مهم السيادة التي كانت تخص لهم المكانة وانوجهة راشأن
والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصي ، ويحاولون مقاومة الرسول
دفاعاً عن السلطة الزميه .

ومثال ذلك ، هو مقدم النبي ﷺ إلى المدينة ، وكان المعص يعمل على
تنصيب عبد الله بن أبي ليكون ملكاً " ، ولذلك قاوم ارجح الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لسلطان الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه انكسار الناس والملك والسلطان
والجند ، واستل رب اكمل ، وقال فرفله انى سجدت الرمن وحفظت العقول بوعيه " والده ولو
وصعو الشمس في يميني والقمري في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أوأهدت قدمي
ترتيبه " أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٦)

(٢) أورده ابن هشام في السيرة أن قوم عبد الله بن أبي كذبوا أفند بطعوا له فحرّروا بيثو حواء ثم يمسكوه
عبيدهم ، فجاهداهم الله برسوله وهم على ذنبك ، فلما انتصر قد فوزه حث إلى الإسلام فضعف ورأى أن رسول
الله ﷺ قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد ابرأ إلا للإسلام رحل معه كثرها فصرّ على ما وضعه
سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٦)

وحين لم يستطع مَنْ نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترَب من رسول الله ﷺ لال أصعاف ما كان سيأخذه لو صبر ملكاً

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم ومجانسون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يُسَوِّى بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سب افتراءهم الكذب :

﴿ مَتَّعْنَا فِي الدُّنْيَا ثَمَرَاتٍ إِنَّمَا لَهُمْ فِيهَا مَعَٰرِضٌ يُعَذِّبُهُمْ

أَلْعَذَابَ الشَّدِيدِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داع جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعي الحديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراده

ولو كان الداعي إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية بذاته ؛ لقلت : ذاتُ أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذي يذاهبون عنه أنه

(١) أنواع النفع ، وهو كل ما يشبع به ويرغب من اقتنائه ، كالطعام ، والثياب البيت ، والسلعة والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى ينوك الكفار يتمتعون بنوع الدنيا الزائل - لا ، بدني كلها لا سوى عند الله سبحانه يحتاج موضعه ولكن سيمائهم على كفرهم بالعذاب الشديد في الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة ويقصد بالنفع أيضاً الروحة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»

أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الرضاخ - باب خير متاع الدنيا امرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبي نعيم في حبيب الأولياء (٢/٢٦٠) رواية «إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته»

﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا (v)﴾ : لَأَنْ كُلًّا مِنْهُمْ يَحِبُّ أَنْ يُقَعَ بِنَفْسِهِ ، بِحُتْمٍ تَمْدِيرِ الْمَفْعَةِ ، وَكَلِمَةُ «الدُّنْيَا» لَا يَدُ أَنْ مَعَهَا حَقِيقَةُ الشَّيْءِ الْمَسْرُوعَةِ إِلَيْهِ .

والأسماء - كما تعلم - هي سمات مسميات ، فحين نقول : إن فلاناً طويلاً ، فأنت تعطيه سمعة الطول .

وحيث تقول: «دنيا» فهي من «الدُّنْءِ» أو «الدَّناءة».

وإن اعتُرب الدنو هو طريق موصل إلى القمه ، فهذا أمر مفسول ؛ لأن
الدرجة الأولى هي الوصول إلى الأعلى هي الدنو ، وتلزم معج الله تعالى
فتصعد علواً وارتفاعاً إلى الآخرة .

إذن فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له . لا ، بل هي دنیا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكاته هي الديانة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العدو فهو الذي أودع بدناؤه مسجحه الله تعالى .

إذن فالدينا ليست من الدناءة ؛ لأن لدين ليس موضوعه الأحررة ، بل موضوعه هو الدينا ، ومسهج الدين يلزمك بـ «افعل» و «لا تفعل» في الدينا ، والأحررة هي دار الجراء ، والجراء على الشيء ليس عين موضوعه ، وأنت تستطيع أن تجعل الدينا مفيدة لك إن جعلتها مرعرة للأحررة

وإسائه أن تتمم على أساس أن الدنيا "عمرها ملايين السنين ، لأنه لا يعيش كعاش في الدنيا إلا طائ عمرها أم قَصُر ، بل يعيش في الدنيا مقدار مُكثَّت فيها ، وعمره فيها مطوون ، بل وزمى الدنيا كنه

(١) وقد وصف لنا رب العزة سبحانه الدنيا فقال ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء: ٧٧] ، وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا عِلُّ الدُّنْيَا كَمَا أَتَى لُتَاهُ مِنَ السَّجْدِ فَاسْتَلَطَّ بِهِ بِبَابِ الْأَرْضِ وَمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَى أَطْلَحَهَا أَتَاهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا نَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجِئْنَا بِهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ يَغْنَبْ إِلَّا يَدُنَا كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ [يونس: ١٣] [يويس]

مطرون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره
مائة سنة ، وكلُّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى
وهؤلاء الدين ضلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا
من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خلقه ، وهؤلاء المُضِلُّون هم
يلتفتون إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا

ولكن من بطر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجه إلى حسن
الشراب والحنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وانثرى على الله سبحانه
وبعالي - الكذب والمآب والمآل " إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ يُدَقِّقُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧)

[يوسر]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذَّب ، فإن كان المعذَّب ضعيفاً ،
فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإن كان المعذَّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون
متوسطاً ، أما إن كان المعذَّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ،
وهو سبحانه الحق القاتل .

﴿ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢)

[هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تربية الألوهية عن اتحاد الولد ،
فهو سبحانه العي الذي له ما هي السموات والأرض ، ويؤمن لنا سبحانه
أب يجب أن تأخذ المسح من مصدر واحد وهو الرسل المُلَمَّعون عن الله
تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام
حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظري ، فهذا دليل على
صحة الكلام النظري ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نصيِّم مسألة من

(١) مآب والمآل يرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من أللم ، وشديد : صيغة مبالغة من شلش ، أي شديد ، أللم

المسائل في داء اجتماعي ، محاول أد يصح منه روية ، أي أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكنا تحيل أنه حقيقة ، لنبيين الأمر المضري في واقع متحيل .

ويقص علينا الحق سبحانه في القرآن قصصاً من أدرك الرسالي ، ليس بالكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أمهم : المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، مبدئ كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق في أن يكون لهم أمل في الانتصار على رسول الله ﷺ

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث المركب لرسالي . ولكن قد يكون عدم هذا مدبته لأن الرمان قد حال عليه ،

وهذا يقول الحق سبحانه .

﴿وَأَنزَلُ عَلَيْكُمُ نَارًا تَلَوِّجًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُونَ إِن كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِثَانِيَةِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُوا ۝٧٦﴾

- (١) وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحت الكافرين وغيرهم على النظر في حقيقة الكافرين والمحرمين ، معروفة بعدلى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ۝١٣١﴾ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝١٣٢﴾ [الملء]
- (٢) كبر : عظم وشق عليكم . مقامى : أقامى بيكم . تذكيرى بآيات الله ، دعوى إليكم إلى الإيمان بالله تعالى . مصرم على قتالي وطردى . والله أعلم . وبه وثقت : وعنيته : اعتدلت ، وتوكلت : فأجمعوا أمركم اعزموا على ما تعربون عليه ولا هو شركاءكم حبة ملأها مهلاً ، أي كونوا جميعاً بآحاد واحدة ضدى ، والمقصود أى : امضوا إلى ما أمركم وامضوا به ولا تشظروا لا مؤخرين ولا قهضين . وثلة الإيمان روح - عليه السلام - بالله تعالى ، وثقه في نصرته ، أى إلى دمه لأن يحمى دمه الكافرين ضد النجدي ، فكان نصر الله ، والعرق والهلاك لأعدائه بالطوفان [استنصر تفسير الطبري - بصرفه]

ولفائل أن يقول ولما دعا الله سبحانه هنا بغفر نوح - عليه السلام - ولم يأت محبر آدم - عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهما من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن ها جاءت الشبهة في أن آدم لم يكن رسولا ؛ لأن البعض قد طرأ أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفتن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يرسل لنفسه أولا .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول المخلوق فهو مرسل لنفسه ، ثم يبلغ من سوف يأتي بعده من أمثاله .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم عليه السلام في الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ ۞ (٢٥) ﴾ [البقرة]

وحذره من الشيطان ^(١) ، ثم وقع بدم عليه السلام في إغواء الشيطان ، وأمره الله تعالى إلى الأرض واجبيه ^(٢) ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، حين حالف أمر به فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

(١) الشيطان كل عاد متهم من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مسمى حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يعويه بالشرك إلا من جعله الله يؤمنه يقول الحق ﴿ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِمْ (٢٧) ﴾ [الحجر] أي : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٣٦) ﴾ [فاطر] وقال ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ عَدُوًّا شِطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (٣٦) ﴾ [الأنعام] [العاموس القويم بتصرف]

(٢) اجتباها اصطفاها واختارها ، ومعناها قوة تعالى عن آدم ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَقَالَ وَلَدِي (١٠) ﴾ [طه]

إذن: فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته في الأرض ؛ في نفسه أولاً ، ثم يلمعه لمن بعده .

وكما علمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علم آدم الأسماء لأبائه فتكلموا ؛ وكما نزل إليهم آدم الأسماء نزل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليحمر الدنيا ، وعلمه المنهج ؛ ليحسن العمل في الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة

واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

[طه]

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ (١٣١) ﴾

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى :

[طه]

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ ۝ (١٣٢) ﴾

ومعنى الاجتباء هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو الفائز :

[لهم]

﴿ فَإِنَّا بِأَيْبِكُم مَّيْهُدَى ۝ (٣٨) ﴾

والهدى : هو المنهج المنزّل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق .

وإذ كان الحق سبحانه وبعالى هو الفائز :

[الأنبياء]

﴿ وَهَآ كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ (١٥) ﴾

فالناسيون لنوح - عليه السلام - هم من أنعمهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من حبر انبي آدم في قول الحق سبحانه :

﴿وَإِنَّا عَلَيْهِمْ بِأَبْنَىٰ أَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبْنَا قُرْبَانًا ۖ﴾ (٢٧) [السجدة]

وهما يدقما قربان إلى الله تعالى

إذن فخير الألوهية موجود عبد ابي آدم بدليل قول الحق سبحانه

﴿إِذْ قَرَّبْنَا قُرْبَانًا فَتَضَحَّىٰ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقِلْ مِنَ الْآخِرِ قُلْ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّعِينَ﴾ (٢٧) [المائدة]

إذن بهم قد أقرروا بوجود الله تعالى ، وأيضا عرفوا النهي ، لأنه في إحدى الآيتين قال ،

﴿لَوْ أَنِّي بَسَطْتُ ۖ إِلَىٰ يَدِكَ لِنَقُلَنَّ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) [الدودة]

إذن فالدين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد ، وعلموا المصحح .

إذن ، فالدين يقولون إن آدم "عنه السلام - لم يكن رسولا ، نقول لهم : افهموا عن الله جيدا ، كان يجب ان تقولوا هذه مسألة لا فهم فيها ، وكان عليهم أن يسألوا أهل الدكر ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول ، وأن من أولاده قابيل وهابيل ، وقد تكلم في التقوى .

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا باخديث عن نوح ، عليه السلام ، هنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان لأول ، وأنه قد نقل لأولاده المصحح

(١) الصبيان هو ما يعرب به العبد إلى الله أو إلى "إلهه" المزعومة ، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب لهم ، لمقرب أكرم عنه وأمنها وأخسها طه به ، أما الآخر فكان صاحب حوث فرب الشرح حوثه غير عليه به نفسه ، فتعبد الله من من صاحب لهم إلى قدم أصل ما عنده طيبة به نفسه . انظر تفسير ابن كثير (٢/٤٢) .

(٢) يطلب سبوت

المُسلِّع له ، ودلَّهم على ما ينعهم ، ثم طال ارمس ونشأب العصمة ، فحاء
بدرس عليه السلام ، ثم تبعته العفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام

وهذ يأتي لـ الحق سبحانه بحمر نوح - عليه لسلام - في قوله

﴿وَتَلَّ عَلَيْهِمْ بَا نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ (٧١) ﴿

[يوس]

والسأ هو الخمر الهام الذي بلمت لدمس ، وهو الأمر لظاهر الواضح .

والحق سبحانه يقول:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) ﴿عَنِ النَّبَا الْعَظِيمِ﴾ (٢) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَفُونَ﴾ (٣) ﴿

[الب]

إفد فالسأ هو الخمر الهام الملمت ، وقد جاء ها خمر نوح - عليه
السلام - الذي يُلَّع قومه أي يحاطهم ، وهو قد شهد بنفسه أنه رسول
يُلَّع مهجاً

وكلمة ﴿قوم﴾ لا تعلق في اللغة إلا على الرجال ، يوضح القرآن ذلك
في قوله لخلق سبحانه:

﴿لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَمَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ
عَمَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ (١١) ﴿

[الحجرات]

إذن هالقوم هم الرجال ، ولرأة إنما نُسى أمرها على السر ، والحركة
في الديق للرجل ، وقد شرحنا ذلك في حديث الحق سبحانه لآدم - عليه
السلام - عن إبليس ، فقال: **يعالني**

(١) النور جماعته من رجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمر الأمة كلها . جالاً وساء ، مثل
قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور في اللسان (معناه قوم) . وإنما دخل النساء فيه على ميل النسخ ؛
لأن قوم كل بني رجالاً . يوساء

﴿إِنْ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يَخْرِجُكُمَا مِنَ الْحَيَةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧)

[طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه . ﴿فَتَشْقَى﴾ (١١٧) [طه]

ولم يقل 'مشتقيا' ؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التي خارج البيت والتي تتطلب مشقة ، فالمرأة تقرأ 'في البيت' ؛ لتحتضن الأبناء ، وتبهيء السكن للرجل بما فيها من حزن وعاطفة وقرار واستقرار .

أما القيام والحركة فللرجل .

والحق سبحانه يقول .

﴿فَلَا يَخْرِجُكُمَا مِنَ الْحَيَةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧)

[طه]

إذن : فالكدح للرجل ومتنطسه القيام لا القعود .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام .

﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْ كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ (٧١)

[يونس]

وهنا يخص نوح قومه بإضافات التحنن ، أي جاء بالإضافة التي تُشعر المخاطبين بأنه معهم وهم منه ، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله ، مثل قول انائب الذي يخطب في أهل دائرته لانسحابية 'أهلي وعشيرتي وياحبي' وكلها اسمها إضافة تحس .

وكذلك مثل قول لقمان لابنه

﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ شُرْكَكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢)

[لقمان]

(١) المرعى البيت الاستقرار فيه ، وحدث قوله تعالى : ﴿وَمَنْ فِي بَيْتِهِ مَرْجٌ جَاهِلِيَّةٌ الْأَوَّلَى﴾ (٣٣) [الأعراف] .

﴿ . . قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهي مسألة صعبة لا يمكن قولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ . ﴾ [الشورى]

أي - عظم على المشركين ، وصعب على أنفسهم ، وشق عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهي تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهي تشق عليهم

وحما يأنى على لسان سيدنا نوح عليه السلام

﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ' . . ' ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً

(١) المقام مصدر ميمي بمعنى لقيام مكان المقام الخس ، ويطلق مجازاً على المكانة والمركب الأدبية ،

وقوله ﴿ وَالْخُفَاةَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى ﴾ (١٠٩) ﴿ [البقرة] أي مكان قيامه للمسجد الحرام وقوله

﴿ وَكَتُورٍ وَمَقَامِ كُرَيْمٍ ﴾ [الشعراء] أي صراط فيه خيرات ومياه ﴿ وَمَا مَثَ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْنُومٌ ﴾

(١٠٦) ﴿ [الصافات] أي مرلة معلومة وقوله ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنَّا كُفْرًا عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكُّرِي بآيَاتِ اللَّهِ ﴾

(٧٧) ﴿ [يونس] أي قيامي بالمرلة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ويقام هنا مصدر ميمي

والمقام (بالضم) مصدر ميمي من أقام الزيد بالهجرة بمعنى الإقامة واسم مكان واسم مكان

وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَعْلَىٰ يُرِيبُ لَا عُقَامَ لَكُمْ فَأَوْجِعُوا وَاسْتَخْلَفُوا مِنْهُمْ النِّسْيَانُ فَرِيقٌ بَرُّوا فَرِيقٌ عَرَبُوا وَمَا فِي سُورَةِ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (١١٧) ﴿ [الأحزاب] أي لا إقامة لكم في أس مع المحاضرين

فارجعوا إلى بيوتكم [القاموس القرطبي - بتصرف]

أَيُّ أَنْ حَبَاتِهِ طَالَتْ كَثِيرٌ بَيْنَ قَوْمِهِ ، كَمَا أَنَّ بَقَرِيْعَهُ لِلْكَافِرِينَ جَعَلَهُ ثَقِيلاً عَلَيْهِمْ

أَوْ أَنْ : ﴿ كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ (٧١)

معنى : أَنَّهُ حَمَلَتْهُمْ مَا لَا يَطِيقُونَ : لِأَنَّ نُوْحًا - عَلَيْهِ السَّلَام - أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ عَمَّا أَكْفَوْا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، فَشَوَّاهُمْ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، دُونَ : مَعْنَى أَنَّ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ يَضْعُبُ عَلَيْهِمْ .

أَوْ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْوَاعِدِ أَوْ الْمُلْعَ أَنَّ يَكُونُ عَلَى مَنْشَوَى الْقِيَامِ وَهُمْ قَاعُودٌ ، وَكَانَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَكَلَّمُ مَعَ الْخَوَارِيزِيِّينَ وَهُوَ وَاقِفٌ ، وَالرَّقُوفُ إِشْعَارٌ أَنَّ مَجْهُودَ الْهَدْيِ يَقَعُ عَلَى سَيِّدِنَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - سَمَّا يَقْعُدُ الْخَوَارِيزِيُّونَ يَسْتَمْعُونَ لَهُ فِي رَاحَةٍ

إِدْنٌ : فَقَوْلُ اسْمِ جَانِهِ :

﴿ إِنْ كَانَ كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ (٧١)

(يُوسَى)

أَيُّ : بَنٍ ضَعِيفٍ عَلَيْهِمْ مَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .

وَيَصِحُّ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ سَاحِيَةِ طُولِ الرَّعْطِ وَالْكَرَارِ فِي أَلْفِ سَمَةِ إِلَّا خَمْسِينَ عَمَامًا ، أَوْ أَنَّ مَقَامِي كَثُرَ عَلَيْكُمْ ، معنى : أَنَا انْقَسَمْتُ إِلَى تَسْمِينَ ، لِأَنَّ الْمُهَجَّ الَّذِي أَدْعُو إِلَيْهِ لَا يَعْجِبُكُمْ ، وَكَتَبْتُ أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا وَاحِدًا .

وَهُوَ هُوَ دَا سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَرْضَاهُ - حِينَ أَحْسَنَ أَنْ اخْتَلَفَ تَقْنَصِي أَنْ يَسْمَى مِنْ يَخْلُقُهُ مِنْ بَعْدِهِ ، قَالَ لَهُ بَعْضُ النَّاسِ : لِمَاذَا لَا تَوَلَّى عَلِيًّا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، فَقَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ : بِحَسَبِ

أل خطاب أن يسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد ثم أضاف أعلم
نكم مثلتم حكمي ؛ لأنني شديد عليكم

إذن : فقد أحسن نوح عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين :
هو قد أحد حسب الله سبحانه الذي يدعو إلى عبادته ، وهم أحدوا جانب
لأصنام التي ألفوا عاداتها .

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام .

﴿ فعلى الله توكلت .. ﴾ (٧١) [يوس]

أى أنى لن أتأزل عن دعوتى ، ولمحظ أنك إن قلت : «توكلت على
الله فقد يعنى هذا أنك قد تعمل وعلى فلان ، وفلان ، وفلان ، لكذلك
إن قلت . ﴿ فعلى الله توكلت .. ﴾ (٧١) [يوس]

فأنت قد قصرت توكلت على الله فقط

وهكذا واجه نوح - عليه السلام قومه ، ورصيده فى ذلك هو
الاعتماد والتوكل على من أرسه سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم
يستجيبوا ، وقال لهم .

﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمًا . ﴾ (٧١) [يوس]

ومعنى جمع الأمر . (أى جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد) ،
أى : اتصفوا يا قوم على رأى واحد ، وأنتم لى تضرونى وجمع أمر
الأجيال التى حل سبلنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى
جهد ؛ لأن الجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة

(١) سبلنا عمر من خطاب رضى الله عنه لم يردها ملك وإنما أرادها البراءة والشورى ليضرب المثل للأجيال
أن الأمم فى حياة لا يستقر للشورى مصداقاً لقوله تعالى ﴿ ومنهم شورى منهم ﴾ (٢٠٤) [الشورى]
ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريد ، وما يرامه

وقد ظل مسدداً نوح عليه السلام - يدعو اقنوم بعدد ما عاش فيهم ،
أى ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - يدن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين
يحمل مقيمة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن اسه خرج -
أبصاراً مع القوم الكافرين ، واداه نوح عليه السلام - ليركب معه وأن
يؤمن ، فرفض ، وأثر أن يظل في حاسب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم
الكافرين ، وطر أنه قادر على أن يأوى إلى حبل عصمه من الطوفان ،
ولم ينظر اس نوح إلى جندي آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة في سبيل
الوصول إلى الحمل ، وهو الموح

إذن فعوله نوح عليه السلام .

[يونس] ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ (٧١)

له رصيد إيماني صمى ، فلا يوجد محسر على الله من خلق الله ، لأن
الحق كله - جمده وساته وحيوانه - إنما يصنع لأمر الله تعالى في نصرة
نوح - هية اسلام - ولن يتخلف شيء .

هكذا كان توكل نوح - عليه السلام - على الله تعالى عما في هذا التوكل
من الرصيد الإيماني المتمثل في :

[ثلاثة] ﴿ لِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١٢٠)

[البقرة] ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢٨٤)

(١) ومصدق ذلك قوله تعالى ﴿ قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين وفعلنا ذلك من قبل عبيد القوم ومن آمن
وم اس معه الا قليل ﴾ (١٢٠) [مرد] [عمر ابن عباس] كفوا ثمانين بمسما منهم ساءهم ، وعن كعب
الاحدر كانوا اثنين وسبعين بمسماً ، وقيل كانوا عشرة وقيل عر ذلك وأياً كان عددهم فهو قبل
جداً بالسمة لمدة مكث نوح فيهم .

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في «كن» إلا الإنسان المخيار ،
ثم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وبه من عنده أن يكون
مختاراً ، ولو لم يهسه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ،
ولكان كل الشر من جود الحق .

وقد قال نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ۖ ﴾ .. (٧٨) [يوسر]

والإنسان حين يهيمه أمر من الأمور يظل متردداً بين حواطر شتى ،
ويحاول أن يرى ميرات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان
حواطره كلها في خواصر و حد ، فهذا يعنى استقراره على رأى واحد ،
وجمع أمره عليه

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأى ، فإن اجتمعوا
وقرروا الاتفاق على رأى واحد ، فهذا جمعٌ للأمر .

والاتفاق على رأى واحد إنما يحدث باختلاف هوية المجتمعين ، فإن
كانوا أهل حير فهم يتزلزلون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر .

ومثال ذلك : أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين
أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا :

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها

١- معقول به لفعل مضارع تقديره - وادعوا شريككم

٢- معقول معه ، أى أجمعوا أمركم مع شركائكم

٣- معطوف على أمركم ، فتكون أجمعوا بمعنى المزم على فعل الشئ ، وكذلك جمع الشئ .

وفي صيد «شركاءكم» تفصل انظره في تفسير القرطبي (١/ ٣٢٩٠)

﴿اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَعْزِلُ ۚ لَكُمْ وُجْهٌ أَبِيكُمْ﴾ (١٠) [يوسف]

أى ن الاقتراح بقتل يوسف هذبه الا يلتفت وجه يعقوب وقبه الى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح الثوبه ، فقالوا لبعضهم البعض :

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (١١) [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبه إن قتلوا القتل ستصبح مقبولة

وهذا الشر لبادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادى الأمر ؛ لأنهم أنه سرّة ، وما ير لول هم الأساط (١٢) ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحد منهم لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا ۖ﴾ (١٣) [يوسف]

أى أنه حُفّ المسألة من لقتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة فى برول الأختيار عن الشر الأول ، وأيضاً سارلوا عن الشر الثانى ، وهو طرحه أرضاً ؛ حتى لا يأكفه حيوان مفترس ، وجاء اقتراح ﴿وَلَقُوهُ فِى غِيَابِهِ الْجَبِّ بِنُقْطَةٍ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ۚ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٤) [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى برل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود لنخاة.

{١} يحسن. لمن مخزوم لأنه جواب الأمر، معناه يحلص ويصفو [تفسير القرطبي، (٣/٤٢٠)]
{٢} موسماً صالحين أى نابيين ، قيل «صالحين» أى يصبح شاسكم بعد أبيكم من غير أثره ولا نقصان ، [تفسير القرطبي (٤/٣٤٠)]
{٣} الأساط من من إسرائيل بمرلة الباتل من من إسما عن الأساط هم مريدعود اثنا عشر رجلاً ولد كل واحد منهم أمه من الناس فسبو الأساط. انظر تفسير ابن كثير (١/١٨٧)
{٤} غيبة، أى مكان مظلم من تحت وجب الشر أى الغوه فى موضع مظلم من الجب، حتى لا يلحقه خطر الناظرين قيل هو شرب افندس وقيل هو بالأردن، قاله وهب بن منبه وسميت السر ساً لأنها تظلم فى الأرض من صعداً والسر. اصبح الذين يسرون فى انطريق لدمر ، وإن قال العاتل هذا حتى لا يحتاج إلى حمته إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ، فإن من يسلطه من السبله يحمله إلى موضع بعيد ، وكان هذا وحده فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، وربما لا يأتون لهم بوعيم ، وقد يطلع على فعلهم ، [تفسير القرطبي، (٤/٣٤٠ + ٣٤٤)]

بدن فالأخبار حين يحتمعون على شر لا بد أن ينزل.

ومثال ذلك : رجل طيب رأى ابنه وهو يُصْرَب من آخر ، فيفكر لمحنة في أن يصرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس) ، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مريحاً بالعصا ، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعه صفعتين ، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه ، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفى بالشكوى لوالده ، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير.

أما إن كان الرجل من أهل الشر ، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من صرب ابنه ، ثم يرفضها يصعد شربه إلى فكرة أن يصفعه هو ، ثم لا ترصيه فكرة الصفع ، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً ، ولا ترصيه هذه الفكرة ، فيقول لنفسه : «سأطلق عليه الرصاص» . وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر .

وهذا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام .

﴿تَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ (٦١) [نوح]

أي . اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرضون على تعذيبه أنتم وشركاؤكم . وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه ، وكان عليه أن يحرض على احتلافهم . ولكن لأنه واثق من توكله على ربه ؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا قلن يقدروا عليه . ولن ينصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم

أو أنه مثلما يقول العامة . «أعلى ما في حيولكم اركسوه» أي : أنه يهددهم ، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى

ولا يكتفى بذلك بل بضيف :

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ (٧١) [يونس]

والغمة منها العمام ، ومنها الإغماء ، أى فقد الوعي وسنتر العقل ،
أى : أنه قال لهم . لا تتعصوا أنفسكم بتبادل لهيبات هبما نسكم ، بل
افعلوا ما يحلو لكم ، ولا تحاولوا جثرا ما سوف نعملون .

إن عليكم أن تجمعوا على رأى واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون
عليهم ، وتعبدونهم ، أو شركاؤكم فى الكفر ، ولم يأبه روح - عليه
السلام - بتقوية العصية المضادة له ؛ لأنه متركن على الله فقط

لذلك يقول . ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (٧٢) [يونس]

أى أنه يحقرهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم -
سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقاربهم فى الكفر - وأن يصمموا
على المصى فى تنفيذ ما اتفقوا عليه .

و«قص» أى . حكم حكماً ، لكن الحكم على شىء لا يعنى الاستمرار
بحيث يبعد ، فقد يُقضى على إنسان بحكم ؛ ويوقف التنفيذ

لكن قوله ﴿اقْضُوا إِلَيَّ﴾ يعنى . أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ
ما قضيت به .

ثم يقول ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أى : لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به على .
والتأمل للآية الكريمة يحد فيها تحدياً كبيراً ، فهو أولاً يطلب أن
يجتمعوا على أمر واحد ، هم وشركاؤهم ؛ ثم لا يكون على هذا الأمر

(١) غُمَّةٌ وغَمٌّ سوء ، ومعناه اضطراب ، من قولهم غم الهلال إذا ستر ، أى ليكن أمركم ظاهراً مستكشفاً
تتمكنون فيه من شئكم ، ليس كمن يحتمى أمره فلا يقدر على ما يريد . وهذا دليل على أنه روح عليه
السلام من ربه سبحانه وبصره بآراء على قومه الكافرين . (تفسير القرطبي ، ٤ / ٣٢٩)

عُمَّةٌ " ، ثم افصوا إلى ما انفقتم عليه من حكم وفضلوه ولا تؤججوه ،
فهل هناك تحدُّ لضعف أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، طلي نوح - عليه السلام - يترقب إليهم
ويتحن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ،
ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقى فى التحدى ،
فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم
الإبطاء فى تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى
قبول تنفيذ الحكم

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ،
وصفحت فى أمر لا علاقة له بمهيج الله ، بل بأمر يخص حلاًماً على
الأرض ، نجد الشاعر العربى يقول عن (بنى دُهل) الذين اتعبوا قوم الشاعر
كثيراً ، ولكن قومه صفحوا صهم ؛ يقول لشاعر^(١) .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي دُهْلٍ	وَقَلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ	بَنَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَبَّرَ لَشَرِّ	فَأَسْنَى وَهُوَ عَرِيَانُ
وَلَمْ يَتَّقْ سِوَى الْعَدُوِّ	فَنَدَانَاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشَيْنَا مَشْيَةَ اللَّيْثِ	عَدَاً وَاللَّيْثُ عَصَبَانُ

(١) عم الشئ - يصفه - كصبر - عاماً . أخفاه وعطاه وسره وعنه الأمر - كرهه وأحمره ، قال تعالى
﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء] والغم - التباس الأمر وعدم
وضوحه ، قال تعالى ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ [يونس] وقال ﴿ وَخَلَقْنَا عَلَيْهِمُ الْأُمَمَ
(١٢٠) ﴾ [الأعراف]

(٢) هو شهاب بن شيان ويلقب بالفتى الرقلى ، تولى سحر ٧٠ هـ ، من بنى بكر بن وائل شاعر جاهلى
سمى الفتى لعظم خلقته تشبهاً بالقطعة من الجبن وهى الفتى (الأعلام للزركلى ٣/ ١٧٩)

و الله لا يحتاج إلى حبه منكم لأن جأه سبحانه ذاتي فيه ، ولكن لسمع
حسروكم ونجبركم : لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم
صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ - (٧٦)﴾ فهل يُعَالِي^(١) نوح - عليه
السلام - أعداءه .

إن الإنسان يُعَالِي^(٢) العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه
السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلهم على
مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ
فهو غير باعد ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك من
سيهود على نوح - عليه السلام - ويُجْتَمَعُ عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم - إذن - لا يقصدون على ضرة ، ولا يقصدون على نفعه ، وهو
لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذي أرسله مركزاً قوياً

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر» تعني ثمن المصنعة ، والأثمان
تكون عادة في المعاملات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والدوات ، وإما أن
تكون ثمناً للمصنعة .

ومثال ذلك أن إنساناً يرغب في شراء «شقة» في بيت فيذهب إلى رجل
يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع به عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

(١) يُعَالِي: يعاون ويباعد . قال أبو عبيد: يعال للعزم . و«تعالوا يرأيهم» أي أمرهم عند محفلها عليه
[لسان العرب مادة (ع ل أ)]

(٢) لأجر: أجره على العمل ، والجمع أجور والأجر: الثواب ، وقد أجره الله يأجره ، وبأجره أجزأه
وأجره أي أعطاه الثواب [لسان العرب مادة (أ ج ر)]

وهناك آحر يريد أن يستأجر شعة فذهب إلى صاحب ليت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقه في البيت . 'أى' يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة . والآحر لا يدفع إلا لصاحب منعمة ملحجة .

وكان على نوح عليه السلام - أن يطلب منهم أحرأ ؛ لأنه يهديهم إلى الحق . هذا هو أصول اتقييم للأشياء ؛ لأنه يقدم لهم نفعاً أساسياً . لكنه يعلم أنه لا يطلب أحرأ وكأنه يقول . إن عملى كان يحب أن يكون له أحر ؛ لأن مصعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن أحد أحرأ عليه

ولكن نوحاً عليه السلام تبارك عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فليسوف يأخذ على قدر إمكانيهم ، ولكن الأحر من الله تعالى هو على قدر إمكانيات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانيات المحدود العطاء وهو الشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهذا يقول : ﴿ فَإِذَا تَوَلَّيْتُمْ . . (٧٤) ﴾ [يونس]

فهذا التولئ ولاعراض لا بصرئ ولا يصعئ ؛ لأنكم لا تملكون لى ضرأ ولا تملكون لى نفعأ ؛ لأنى لى أحد مكم أحرأ

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يحاطون أموامهم يخاطبونهم بهذه العسارة :

﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . (٨٦) ﴾ [مائدة]

إلا فى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ، وعن قصة سيدنا إبراهيم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَفْقَهُونَكُمْ أَوْ يَصُرونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾
[الشعر]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضاً في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون (١٢) وَيَضِيقُ صُلْبِي وَلَا يَنْتَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى مَرُورٍ (١٣) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَاحِلٌ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَاتَّبَعَا مِرْعُونَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)﴾
[الشعر]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - في عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا في قصة نوح - عليه السلام - ف نجد قول الحق سبحانه:

﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾
[يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام ، حيث يقول الحق

سبحانه

(١) المكوف على الشيء هو الإمامة والاستمرار عليه ، أي أنهم مقيمون مسرورون على عبادة الأصنام
[تفسير ابن كثير (٣/٣٣٧)]

﴿ كَذَبْتَ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴿الشعراء﴾

وجاء بمس المعنى أيضاً في قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَبْتَ ثَمُودَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٤١) ذَ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴿الشعراء﴾

وكذلك جاء بمس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه .

﴿ كَذَبْتَ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٦٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴿الشعراء﴾

ومس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام في قول الحق سبحانه

﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴿الشعراء﴾

إذن : فعالية الموكب انرسالي تأتي على ألسنتهم الكلام عن الآخر :

(١٠) أصحاب الأيكة هم أهل مدين على الصحيح وكاد بين الله شعيب عليه السلام من أنفسهم ، وإنما لم يقل سبحانه هذا أخوهم شعيب ، لأنهم مروا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة كانوا يملكونها [فكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤٥)]

[الشعراء]

﴿رَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...﴾ (١٦١)

فكان الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم ، لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكننا لا نريد منكم أتم أجر ، إنما سبأخذ أجراً من رب العالمين ، لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقوم بها ، ونعم لقادر على تقييمها هو واضع المنهج سبحانه - ومثله على رسده

وها هو القرآن الكريم يأبى على لسان رسول الله محمد ﷺ ، ويقول:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٢٣) [الشورى]

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فمحس تعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ، دعا عمه ، وكان لهم حظ بريئة إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأوبة

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذي قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكره بذلك ، وقال:

﴿الْمُتْرَبِّكَ فَمَا وَلَدْتُكَ مِنْ عَمْرُكُ سَبِي﴾ (٦٨) [الشعراء]

أما هنا هي دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتي قول القرآن على لسان نوح بما يوضح الأمر لقوم نوح

فإن توليتم فلا حزن لي ، ولا جرح ، لأنكم لن تصيبوني بضر ، ولن تمنعوا عني منفعة ؛ لأنكم لم تسألوني أن آتي لكم بالهدى لأخذ أجرى منكم ، ولكن خلق سبحانه هو الذي بعثني ، وهو الذي سيعطيني أجرى ،

وقد أمرني سبحانه أن أكون من المسلمين له حقاً وصدقاً.

وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عملاً من عنده ليصلح
شئنا ، فهو يأخذ الآخر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقي
وطبعي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ رِيْقُ الثَّلَاجِ وَجَعَلْنَاهُمْ
خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذْذِرِينَ ﴾ (٧٣)

وكان الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نيحة عدائهم بالإيمان كان من
الممكن أن يشملهم ، لأنه لا يقال : جَبَّيْتُكَ من كذا إلا إذا كان الأمر الذي
يجيبك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع لوطفان ،
فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ^(١) (١٦) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا .. (٧) ﴾

[القمر]

(١) «الغيث» السحابة

(١٦) حقيقة سحابة من باب خبر " نجاه بعدة قصور مكانه " علماً ، حلالة ، حلقة حلقة ، صدر حلقه فار
تعالى : ﴿ قَالَ يَتَّبِعْ خَلْقَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (١٥) ﴿ [الأعراف] والخلف : القرب من الناس بعد القرب ،
أي الخيل بعد الجمل والخلف الولد الصالح أو غير الصالح قال تعالى ﴿ وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
(١٧) ﴿ [الأعراف] والخلف بالفتح : بعض الولد والولد الصالح أو الولد غير الصالح والخليفة من
بخله غيره ، أو يورثه ، قال تعالى ﴿ إِمَّا يَنْتَظِرُ الْأَرْضَ فَخِيعَةً (٢٠) ﴿ [البقرة] ، وحليته
سحبها حللاً ، حلالة يقول تعالى ﴿ وَذَكَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ (٢٩) ﴿ [الأعراف]
وقال ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (١٠٦) ﴿ [الأنعام] (الفارس القريم - نصره)

(٢) ماء منهمر : مطر غزير

ومن استوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذي حدث أن انظر
انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجرت بالماء ، وبذلك نجد الحق سبحانه
وتعالى يقول :

﴿فَالْقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (١٧) [الفر]

أي : أن ذلك الأمر كان مقدراً ، حتى لا يقولن أحد . إن هذه المسألة
ظاهرة طبيعية.

لا إنه أمر مُقدّر ، وقد كانت السمينة موجودة بصناعة من نوح عليه
السلام ، لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك في قوله تعالى في سورة هود .

﴿وَاصْبِرْ لِفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحِّينَا ۖ﴾ (٣٧) [هود]

ويقول الحق سبحانه في الآية التي بعدها

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكَلَّمَا مَرْءٌ عَلَيْهِ مَلَأٌ ۖ مِنْ قَوْمِهِ سَجِرُوا مِنْهُ قَالِ إِنَّ
تَسْعُرُوا مِنَّا إِنَّا نَسْعُرُ بِكُمْ كَمَا تَسْعُرُونَ﴾ (٣٨) [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله
تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كل نوع ثنين ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ۖ﴾ (٣٩) [يوس]

يوحي أن الذي صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف بهم
مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى لسفينته ؟

نقول إن الأصل في وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسَخَّرَةٌ لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد في السمينة ؛ لأنها ككائنات مسخرة تسبح الله ، وتعيد الحق سبحانه ، فكيف تكون علمها فوق علم العقلاء الذين كسر بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخرة ذلك العراب الذي علم «قابل» كيف يورى سواء حيه^(١) إنه طائر ، لكه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوَاءُ أَحْيَاهُ .. (٣٩) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصددنا الآن

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَهَبْهُمَا مِن مَّعَدٍ فِي اللَّيْلِ وَحَمَلْنَاهُمُ خِلَافًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَابْطُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٢) ﴾ [يوسف]

وكلمة «المَلَكُ» من الألفاظ التي نطلق على المردد، وتطلق على الجماعة

وقول الحق سبحانه - ﴿ فَهَبْهُمَا ﴾ يعنى أنه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يحدث عن أى فعل له ، والكلام عن الفعل يأتي مثل قوله سبحانه .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الْدَّكْرَ (١) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٢) ﴾ [الحجر]

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا بِنَحْنِ بِعَمْدٍ وَلَكِن لَّا تُلْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٥) ﴾ [الاسراء]

(٢) يورى سواء أخيه يعنى جد أخيه «هايل» الذى قتله اخوه بغير حق أى بدنه

(٣) لنذكر القرآن الكريم قال تعالى ﴿ وَانزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا مَرَكَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [الحج]

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأنى بكلمة تؤكد الوجدانية وتكون بصير الأفراد مثل : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ﴾ (٦٤) [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَجِئْنَا مِنْ نَجْدٍ لِي الْقُلُوبِ .. ﴾ (٧٣) [يوس]

كلمة «أنجى» للتعددية ، وكلمة «نجى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن لفعل يتكرر

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ .. ﴾ (٧٣) [يوس]

تعنى : أن الخليفة هو من يجرى بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتي مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنهى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السمينة ، أحرق الباقين

إذن : فالصالحون على طهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتي كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَابِ .. ﴾ (٥٩) [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعدِهِمْ لَنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١١) [يوس]

[يوس]

(١) خلائف جميع خليفة وهو الذى يخلف من بعده وتجمع أيضاً على إخماء ، قال تعالى ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعدِهِمْ يَرْجِعْ .. ﴾ (١١) [الأنعام]



ولأن الإنسان محير بين الإيمان والكفر ، فسوف يلقي مكانه على
صخرة ما يختار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَاعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيَزِدَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ ﴾ (٥٥)

[البقرة]

إذن فالخلقة إما أن تكون خدعة لصالح ، وإما أن تكون صالحاً يخلف
عاسداً

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ حُلَافَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ۚ ﴾ (٧٢)

[يونس]

والآيات كما قلنا من قبل إما نأت الاعتدال التي تهدي إلى الإيمان
بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّك على
أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء في هذا الكون
تنظم انظماً حكيماً.

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما لديك فيه دحل ،
وما ليس لديك فيه دحل ؛ ستجد كل ما ليس لديك فيه دحل على درجه
هائلة من الاستقامة ؛ والحق سبحانه يقول :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي
فَلَاقٍ ۚ ﴾ (٢٢)

[الأنبياء]

(٢٢) فلانك لنادر سمع فيه الحرم السماوي وجميع أفلاك [العجم الوسيط مادة (فلانك)]

أما ما ليث فيه دحل ، واختياراً حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء
وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلتصق إلى وجود الخلق سبحانه وهي
مناط الاستدلال العقلي عبي وجود الإله ، أو أن الآيات هي الأمور
العجيبة التي جاءت على أيدي الرسل - عليهم السلام - لنقع الناس بأنهم
صادقون في البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التي يقول فيها الحق سبحانه .
﴿ هُوَ الَّذِي أَسْرَىٰ عَلَيْكَ ٱلْكِتَآبَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
ٱلْكِتَآبِ ۖ ﴾ (٧) ﴿

[آل عمران]

وهي الآيات التي تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه

﴿ وَأَعْرَفْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ ﴾ (٧٢) ﴿

[يونس]

فهو يعلمنا أنه أعرف من كذبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بدیع
صحة سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابيتها^(١) ، وهم
أيضاً كذبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذبوا آيات الأحكام التي جاءت
بها ، يسلمهم

ونتهى الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۖ ﴾ (٧٤) ﴿

[يونس]

والخصاب هنا لكل من شأى منه البطر ، وأولهم سيدنا محمد ﷺ ،

(١) رتابيتها أي سيرها على نظام رحد لا يمحط ، يقول الحق سبحانه . ﴿ لَا تَتَّبِعْ ٱلَّذِينَ يَبْغِي ٱلْعَاقِبَةَ ٱلْأُولَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ يَبْغِي ٱلْعَاقِبَةَ ٱلْأُولَىٰ ۚ ﴾ [يونس]

(٢) عاقبة عذاب وحرو وبهاية الشدائد اسم معمول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم نوح
الذين آمنهم بيهم ، فلم يؤمنوا ، فاستحقوا العذاب والعذاب

وهو أول مُحاطة بقُرآن

وأنت حير تقول. «نظر» فأنت ثلثت إلى أمر حسى ، إن وجهت
نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشيء ؛ فتراه
والكلام هـ عن أمور عاتية ، فهي أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم
صارت حراً ، فإن أحرك بها محرر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة
فيه

فمن رأى عصا موسى عليه السلام وهي تلقف الحبال التي ألقاها
السحرة ، آمن بها ، مثلما آمن من شاهد لسار عاحرة عن إحراق
إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه لسلام وهو يُسمى الأكمة
والأترص ويُحيى لموتى بإذن الله تعالى ، فقد من ع رأى ، أما من لم ير
تلك المعجرات وإيمانه بتوقف على قدر توثيقه لمن أُحبر ، فإن كان المحبر
بدلك هو الله سبحانه وفي القرآن الكريم فإيمانه بتلك المعجرات هو أمر
حسى ؛ لأننا آمننا بصدق ما نلغ عن الله تعالى .

ونحن نعلم أن الرسالات السابعة على رسالة محمد ﷺ ، كانت
رسالات مرقونة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء ليتنظم الناس الموحد
إلهم مد أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السب
في أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى صهيح
رسول الله ﷺ أن يقول محمد رسول من عند الله تعالى ، وبذلك هي
معجزته .

وساعة يقول الحق سبحانه ﴿فانظر﴾ فمشها مثل قول الحق سبحانه

(١) نكته الحمى الذي يولد به الإنسان أن ليرص فهو مرض جلدي عبده عن بيع بعشاء تكون في
حيمة انظر السور

وتعالى لرسوله ﷺ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ جَاءَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (١) [الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيبدأ رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما بلغت إلى طرق الأدب ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأذنك قد تسمع خبراً ، ولكن من الحائر أن تتخذك حراسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان حائباً عنك الآن وغير مسموع لك فحذره على أنه أقوى من رؤية العين .

ولقائل أن يقول لماذا لم يقل الحق : « ألم تعلم » وجاء بالقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ . . (١) ﴾ ؟ [الفيل]

وقول لديك الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر عيسى عليك أن تتلقاه باقبال أكثر من تلقيك لرأى العين .

إذن : ﴿ فانظر ﴾ تعنى اعلم الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُسَلَّعك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسائله ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المحبر الصادق أبداً

ولقائل أن يقول ولماذا لم يقل الحق : « فانظر كيف كان عاقبة الكافرين » بدلاً من قول الحق سبحانه :

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنتصرين ﴾ (٢) [بوس]

(١) أصحاب الفيل ، هم جيش أبرهة يعيثى حين يدمر لهدم الكعبة ، فمروهم الله شر عرق وأرسل عليهم طيوراً من السماء فزعمهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كغصص مأكول . ووافى ذلك قبل مولد النبي ﷺ بخمسين وخمسين ليلة ، فهو لم ير الحادثة بعينه ، ولكن أخبر الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق ، فكانه قدره بعينه معلماً

وهنا نقول :

إن الحق سبحانه وتعالى قد بين أنه لن يعذب قبل أن يُنذِر ،
فهو عدلٌ أندر أولاً ، ولم يأخذ القوم على جهلهم .

فانظروا - كما نعلم - هي خطاب لرسول الله ﷺ ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً ، وجاء هذا الخبر تسلياً لرسول الله ﷺ ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلم أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح .

وفي هذا تحذير وتخويف للمنادين لرسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ^(١)
فَمَا كَانُوا لِلْيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِإِيمَانٍ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ
الْمُعْتَرِينَ ^(٢) ٧١ ﴾

(١) يقول الحق سبحانه ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عَلَيْنَا نَذِيرٌ ^(١) ﴾ [طه] ويقول ﴿ وَمَا كُنَّا نَعْذِبُ حَتَّى يَبْعَثَ رَسُولًا ^(٢) ﴾ [الأنعام] القلي والإندر رحمة تدبر ، قال تعالى ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . ^(٣) ﴾ [الأنعام]

والنذر هنا : هو الرسول المنذر بالعذاب . والنذر اسم مجعول بمعنى الإنذار كقوله تعالى ﴿ فَالْمُنْقَلَبَاتِ ذُكْرًا ^(٤) هَذَا أَوْ لَدُنَّا ^(٥) ﴾ [المرسلات] وقوله ﴿ وَمَا نُنْفِئُ الْآيَاتِ وَالنُّفْرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٦) ﴾ [يونس] يحتمل أنها الإشارات . أو المنذرون من الرسل جمع منذر ، وقوله ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ خَلْفِهِ . ^(٧) ﴾ [الأحزاب] ، والمراد بالذکر هم الرسل المنذرون

(٢) بالبينات : أي : بالجميع والأدلة والبراهين على صلتهم ما جاءهم به . [ذكره ابن كثير في تفسيره (١٢٦/٢)]

(٣) الطبع : هو الختم على القلب ، ولكنه لا يُحصى ولا يُغنى أبداً . أما الختم فقد يملك ، وقد تكون له مدا معلومة ، وقد يقبل مع التوبة الخالصة . ويكلا الأمرين ورد القرآن ﴿ وَأَتَىكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعُوهُمْ وَأَبْصَرُوهُمْ ^(١) ﴾ [التحليل] . وقال سبحانه ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوًا . ^(٢) ﴾ [البقرة]

وكلمة «بعث» هنا ستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فبعثه الله تعالى

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفظنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تنبيير من البشر لمنهج^(١) هو إمامة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولا ، فهو لا ينشئ منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكر الفطرة السيمة .

وهنا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بحث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالنفس كانوا يعيشون وسيطلون هي تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليعثرا للحساب

ولم يكن من العقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ، وما دامت انضلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل^(٢) المبلغين عن الله تعالى

(١) منهج الطريق من باب فتح ، نهجاً سلطه وروح الطريق له أوضحه ، والمنهج والمنهج والطريق الواسع والغنيب حسياً ومعتزلاً ، قال تعالى ﴿لَنُكَلِّمَنَّكُمْ فِرْعَوْنَ وَمَنْهَجًا﴾ (١٢٤) [الأنعام] أي : «نهجاً أو طريقة أو ديناً» فهو هنا معنى

(٢) الرسالة اسم لما يرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتعليمه من الله للناس ، ودمونه الناس إلى ما أوحى إليه . والرسول - المرسل - والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإد وصفه «بالمصدر فلا يؤت ولا ينهى ولا يجمع» قال الزمخشري «الرسول يكون بمعنى المرسل» وبمعنى الرسالة فجعله القرآن في سورة طه بمعنى المرسل . ولم يكن يدعى تيسر . يقول الحق ﴿إِنَّا رُسُلُكَ﴾ (٢١) ﴿[طه]﴾ [طه] لما في آية الشعراء في معنى الرسالة ، فجاءت التسمية به إذا وصف به بين لفرد والمثنى ، فلهذا قال ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١) [الشعراء] والمرسل ثلثي لجراد البعث والإعلاق مثل ﴿وَعَارِضَ مَجَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢) [الأعراف] (الزمخشري بتصرف) .

سُورَةُ نُوحٍ

٥٦١١٧

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ .. (٧٤) ﴾ [يونس]

أى : من بعد نوح ، فمساءلة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرّكّاب الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد دلّوا عنه إنه رسول عامٌ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عاماً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جمعه رسولاً لكل الناس ، لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بدينهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسماً : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عاماً بخصوصية من بقوا وهم المرسل إليهم بخصوصية الزمان والمكان^(١) .

وهذا يقول الحق سبحانه .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [يونس]

فهل قص الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام ؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ مِنْهُمْ مَنْ أَنْصَبْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَنْصُبْ عَلَيْكَ .. (٧٨) ﴾ [عامر]

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهي رسالة الزمان والمكان ، وهذا مما خصّه به الله رسوله ﷺ وأتى ، وهذا عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت حباً لم يعطه أحد قبلى » يصرّح بالربعية صيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وظهوراً ، فأما رجس من أمى أدركت الصلاة « ملئصل » ، وأحب لى الخاتم ولم يحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشعاع ، وكان الذى بعث لى قومه خاصه وبعث إلى الناس عامة « أخرجه البيهقى من صحيحه (٢٢٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله

وجاء الحق عر وجل يقصص أولى العرم منهم ^(١) ، مثلما قال سبحانه :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ^(٢)﴾ [النساء]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتي ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتي للأمة المنعزلة ؛ لأن لعالم كان على طريقة الانعزال ، فمن مثلاً منذ ألف عام لم تكن تعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم تعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الحوى في العصر الحديث ، وقد توجد مناطق في العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم اساحت ^(٣) في الأرض ؛ لأن الأصوات التي كانت تكفي ذرية آدم على هذه ، لم تعد تكفي بعد ما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق في رقعة الأرض التي كانوا عليها ، واناح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ^(٤)﴾

[النساء]

.. (١٠٠) ﴿

(١) أولو العزم من الرسل هم محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام قال تعالى ﴿وَجَاءَ كُلُّ الْأُمَّةِ رَافِقًا﴾ [الأحقاف]

(٢) أي يزيدهم ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين [تفسير الخليلي ص ٣٩٦] و[تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٦)] ، و[صعوبة التفسير للصايغ (٣/ ٢٤)] .

(٣) اساج من السياحة وهي الذهاب في الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان - [لسان العرب : مادة (س ي ح)]

(٤) مرافعاً كثيراً : فرقة الهجرات والتباعد . والمراد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها يعيش فيها . [اللسان بتصرف]

وسعة : أي ، بعداً عن تضيق المشركين ، وقبل سعة ، أي : كثرة في الرزق [مختصر تفسير الطبري] بتصرف

وهكذا اتصل بعض من ذرية آدم عليه السلام - إلى مواقع العيث^(١) ،
فالهجرة تكون إلى مواقع اياه ؛ لأنها أصل الحياة .

ويلاحظ مؤرخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب
الأنهار والوديان ، أما البدارة فكانت تتعرق في الصحارى ، مثلهم مثل
العرب ، وكانوا في الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد
وأعرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ، لأن العدوئين اللذين لم يقلد
عليهما انبشر هما النار والماء

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التي
أخذوا منها الماء على قدر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم لسوا في قوة
المواجهة مع الماء

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت في بقية
لأرض ؛ وبذلك اختلفت الداءات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق
سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤٠ ﴾ [طه]

وقصَّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص بعضهم
الآخر

يقول الحق سبحانه :

(١) العيث الطير

(٢) بن جني بمعنى (ما) أي ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من بذرهم . خلا : حصص ويمشي . قال
تعالى ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ٢٤٠ ﴾ [الرحمن]

نذير : سبب مبالغة من الإنذار أي كثير الإنذار لهم يعني الله إذا لم يرسلوا به . قال تعالى ﴿ قَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى صِرَاطٍ مَنِ الرَّسُولُ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ٢٤٠ ﴾ [المائدة]

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْتَ عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُرْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ رَسُولٌ أَنْ يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٧٨) [غافر]

وما يقول الحق سبحانه :

﴿ لَمْ يَخْشَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَنَجَّاهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴾ (٧٩) [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى
ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح -
عليه السلام - بخير موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتي لنا
بحبر عيون الرسالات^(١)

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم
رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة «قوم»^(٢) في الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع
بالجمع تقتضي القسمة أحاداً ، مثلما نقول : هَيَّا أركبوا سياراتكم ،
والخطاب بكم جميعاً ، ويعنى : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبيِّنات ، أى . بالآيات الواضحات الدالة
على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

(١) عيون الرسالات . أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً
(٢) القوم . جماعة الرجال ليس منهم نساء . قال تعالى ﴿ لَا يَسْمُرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ .. ﴾ (١١) [الحجرات] ، ثم
قال ﴿ وَلَا نَسَاءٌ مِنْ نَسَاءٍ .. ﴾ (١٢) [الحجرات] يدل على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ،
ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم [الأمموس القويم]
رأى لسان العرب مادة : قوم

﴿فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦)

أَيُّ أَنْ النَّاسَ حَسِيمِهِمْ لَوْ أَمْنُوا لَانْقَطَعَ الْمَوْكِبُ الرَّمَالِي ، فَمَوْكِبُ
إِيمَانِ كُلِّ الشَّرِّ لَمْ يَسْتَمِرْ ، بَلْ حَاءَ الْعَصْلَةُ " ، وَطَبَعَ اللَّهُ نَعَالِي عَلَى
قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ . وَالطَّعْمُ - كَمَا نَعْلَمُ - هُوَ الْخَتْمُ .

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه ؛ فمادام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله مسحاها على هذه القلوب ألا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا منسوب لله تعالى .

ويعص الذين يتلمسون ثغرات في مذهب الله تعالى يقولون، إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذي طبع على قلوبهم

وفول التفتوا إلى أنه سبحانه يئس أنه قد طمع على قلوب المعتدين ،
فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم يظفروا هي آيات الله
تعالى ، وكسروا ما برز إليهم من مهج ، فهم أصحاب اسبب في الطمع
على القلوب بالاعتداء والإعراض .

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى هو المائل في الحديث القدسي:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»⁽⁷⁾.

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ۖ فَأَنْتَ تَقُولُ لِي يَسِيرٌ^(٢) فِي غَيْبِهِ: مَا دُمْتُ تَعْنِي
دِيكَ الْأَمْرَ فَاشْعُرْ بِهِ.

(١) الغلبة سهو ويمرر الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، قال تعالى ﴿ لَقَدْ كُتِبَ فِي حَفْطَةِ مَنْ عَدَا ۚ

(٢٦) ﴿قُلْ، أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرُ عِلَالًا، إِنَّكَ أَتَىٰ عِلَالًا غَافِلًا﴾ عن أحداث ما بعد أدب [العمامه، المص ١٠٠]

(۲) أخرجه مسلم في صحيحه (۲۹۸۵) وابن ماجه في سننه (۴۲۰۲) عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) السادر في عيه المعص في ضلاله اسمر عيه لا بهم شيء ولا يبالى ما صمغ [اللسان مادة طر]

ومثل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٧٥)

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أحد البعث لهما مراحل ، ولأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) ﴾ [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) ﴾ [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدّ عضده بأحبه ، فقال الحق سبحانه وتعالى .

﴿ قَدْ أَوْثَقْتُكَ لِي مُوسَى (٣٦) ﴾ [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجي موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْطُلْ غُفَّةً (٧١) مِنْ لِسَانِي (٧٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٧٨) ﴾ [طه]

(١) مثله : قومه وقيل هم أشركاء القوم ورجوعهم ورجوعهم إلى قولهم [اللسان، مادة : مل]

(٢) الغفلة : تنطق على رنة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى ساجداً من موسى عليه السلام . ﴿ وَاسْأَلْ غُفَّةً مِنْ لِسَانِي (٧٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٧٨) ﴾ [طه]

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام

وقال الحق سبحانه . ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ^(١١) ﴾ [طه]

فالأصل إذن كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم صم الله سبحانه هارون إلى موسى إحانة لسؤال موسى ، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوث في تلك الرسالة كانت بيد موسى ، وحين يكون موسى هو الرسول ، وينصم إليه هارون ، لا بد - إذن - أن يصبح هارون رسولا

ولذلك نجد القرآن معبراً عن هذا - ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. ﴾ [طه]

أى . أنهما رسولان من الله .

وفي اية أخرى يقول الحق سبحانه .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء]

فهما الاثنان معوثان في مهمة واحدة ، وليس لكل منهما رسالة منفصلة ، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد ، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون .

ومثل ذلك - والله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وهداً إلى ملك آخر ، فيقولون : نحن رسل الملك فلان .

وفي رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز في إلقاء الآيات كان لموسى . ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية ، لذلك قال الحق سبحانه

﴿ إِنَّا رَسُولَا .. ﴾ [طه]

(١) لمس تجاور الحد ومنه قوله تعالى ﴿ الذين طغوا في البلاد ﴾ [الاعراف] أى ظلموا وغيروا واحداً في العصبان رسل تعالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [حاقة]

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمَجاً^(١) رَذُلٌ^(٢) الخُسُفُ ، فإن تكلم هارون
بيشد أزر^(٣) أخيه ، فقد يقول الفرعون وما دخلت أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، يعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون
هارون ، فكانه يرد موسى أيضاً .

أمول ذلك حتى تعلق الباب على من يريد أن يتورك^(٤) القرآن متسلاً:
ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟
وفى هذا ردٌ كافٍ على هؤلاء المتوركين .

ويقول الحق سبحانه ها في الآية التي نحن بصدد حواطرها هذا .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا
فَاسْتَكْبَرُوا ۖ ۝ (٧٥) ﴾ [يونس]

والملاّ هم أشراف القوم ، ووجرهم وأعيانهم والمقرّبون من صاحب
السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملاّ» ، لأنهم هم الذين يملأون العيون ،
أي : لا ترى العيون غيرهم .

وفرعون - كما نعلم - لم يصح فرعوناً إلا بالملاّ ، لأنهم هم الذين
هَيَّئُوهُ عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة
يؤكّدون أن الفرعون إله

(١) سَمَجٌ الشيء قُبْحٌ . والسَمَجُ والسَمِيج الذي لا خير فيه [لسان العرب مادة (س م ح) يتصرف]
(٢) الرَذُلُ والِرَقِيبُ اللون من الناس ، وقيل هو الخسيس وقيل هو الرديء من كل شيء [لسان
العرب مادة (ر ذ ل)]

(٣) الأَزْرُ : العزة والشدة ، وأزرة وأزروه أهله ومعهده [لسان العرب مادة (أ ز ر)] .

(٤) التورك : إغصاة الدب أو التقص إلى الشيء ، وحمله عليه على غير الحقيقة ، وتحمل معنى إسقاط
عنه من غيره [انظر لسان العرب مادة (ت ر ك)] والمراد أنهم يحملون القرآن تناقضاتهم

ولكل فرعون ملاً يصنعونه ، والمثل الشعبي في مصر يقول : «قالوا لفرعون من قرعك ؟ قال : لم أجد أحداً يردني» ،
 أى : أنه لم يجد أحداً يقول به ، تَعَقَّلْ ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن .

والآيات " التي نعت بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهرون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلفت إلى صلق البلاغ عن الله

أو أن الآيات هي المنهج الذي يثبت وجود الخالق الأعلى ، تكن فرعون وملاء استكبروا والاستكبار هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى طلب الإحراج ، ومثل «استمعهم» أى : طلب الصهم ومن يطلب الكبر إنما يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٧٥)

وشرُّ لإحرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إحرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإحرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة " له ، وإحرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم حالدين مخلدين فيها ملعوبين ؛ وفي عذاب عظيم ومهين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

١١) من يعنى ﴿ وَاللَّهُ آتَيْنَا مُوسَى كُلَّ شَيْءٍ قَاسًا ﴾ في إسرائيل إله جدهم فقال له فرعون إني لأظنك ؟ موسى مسجود (١٠) ﴿ [لإسرائيل] والآيات التي أرسل بها موسى عليه السلام هي : العصا ، وإحراج يده من غير سوء ، وصي الجذب ، والبحر ، والظلمات ، والخراب ، والقمل ، والصدع ، والدم (٢) المندوحة اتساع الأمر والبراد أن معلوم هذا لا سب محقول له ، ولا مبرر [لسان العرب مادة (دج) تصرف]

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٦)

وقد جاءهم الحق على ساد الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فيفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمشابهة " على الرسول ، لا يتأبى على مساو له ؛ لأن الرسول هو مبلغ من الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى معناه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ انقادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شيء بالحق . سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجري بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى بما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بلون منهج الله والفساد إنما يجرى من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العيا التى لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

(١) اللام في كلمة السحر التوكيد والمسى أن ما يجب به ما هو إلا سحر قوى ظاهري ، والسحر هو كل أمر يجرى سببه ، ويتجلى على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى من سحرة فرعون ﴿ قُلْ بَلْ أَتَاكُمْ مِنْكُمْ وَمِنْكُمْ يَعْمَلُونَ ﴾ [طه] (٢) الثابت الرقص والكراهية [اللسان مادة (أبى)] .

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَرَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾

[الرحمن]

أى : إن كنتم تردون أن نعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة لاحتيار المخوفة لكم خاصعة لمهيج الله تعالى ، وتسير في إطار هذا المنهج الرباني .
وحين نتأمل قوله الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا .. (٧٦) ﴾ [يوس]

نجد في هذا القول بوحياً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ، فهذه الدوات لا تدخل لها في الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق في ذاته ، ولا تدخل في مناهة البحث عما جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بحمد رسول الله ﷺ ، فهم من قالوا

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الحرف]

وهم بذلك قد أدخلوا لتأزل عليه القرآن في الحكم ، مع أن العقل كان يقتضي أن ينظروا إلى القرآن^(١) في دانه ، وأن يأخذوا بالحكمة من أى وعاء خرجت ،

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وتُخذ الحكمة من أى قائل لها ،

(١) لأن اهداك الموازين ثبات للحق ، وإن ثبت الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحيد ، وعند استقامتها لا تجد محروماً ولا مظلوماً

(٢) القريةتان هما مكة والطائف واختلص الأقوال في تحديد هذين الرجلين ، قيل : إنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي وقيل : إنهما عدي بن عمرو بن مسعود ، وهبة بن زبيح ، وقيل ابن عبد يليل وللعمود أنه رجل كبير من أي القبيلتين كان انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧) .

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة حال في وصف القرآن : والله إن لقوله خلالة ، وإن أصله لعدي ، وإن فرعه لجناة ، وإن أثرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء يقول هو ساحر يعرق به بين المرء وأبيه ، وبين فرء وأخيه ، وبين المرء ورجله ، وبين المرء وعشيرته ، سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٠) فرغم قوله في القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مساب لفرقه ، وحافظاً على مكانته بينهم جعل القرآن راثهم محمداً ﷺ بالسحر

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه، وإن كنت تحبه أحدثتها لا، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك^(١)

والحق هو الشيء الثابت، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق، وأن الباطل تغلب عليه، فهذا يعني ظهور المفاسد؛ فيصرخ الناس طالين الحق

وانتشار المفاسد هو الذي يجعل الناس تستدعي الحق، وتتحمس له؛ لأن الباطل حين يعمس الناس، تجدهم يتجهون إلى الحق ليمسكوا به. والحق سبحانه هو القائل:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا^(٢) وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَمَّا زَيَّادُ الرِّبِّدُ فَيُذْهِبُ جُمَاءً^(٣) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ لَيْسَ لَكُمُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ^(٤)﴾ [الرعد]

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: الكلمة الحكمة صالة المؤمن، بحيث وجدها فهو أحق بها، أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه في سننه (١٦٩٩) قال الترمذي: حديث غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل، يصف في الحديث من قيل حظه

(٢) الزبد هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه وبحر مريد، أي: مائج يقذف بالزبد ويريد الماء طفاوته وقلاه وجميع الزبد [لسان العرب: مادة (ز ب د)]

(٣) رابياً مرتفعاً؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء [اللسان: مادة (ز ب ي)]

(٤) جاء السيل هو ما يقلعه من الريد والوصح وسجود [اللسان: مادة (ج ه ي)]

(٥) مثل الصفة العجيبة يشبه بها غيرها، فالأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أليق في الأدعان لاستعانة الذهن فيها بالحواس. وأمثال البراء تسمان.

- قسم ظهر مبرح به، مثل قوله تعالى: ﴿ظَلَمُوا كِسْفًا لَّحْدَى اسْتَرْقَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَجْتَدُوا مَا حَوْلَهُمْ خَبَأَ اللَّهُ بِمُورِهِمْ وَبِرُوَاهِمُ فُلُجَاتٍ لَا يُصْرِوْنَ﴾ [البقرة]

- قسم كاس، مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا انْقَلَبُوا ثُمَّ يَرْجِعُونَ رَجَعًا﴾ [الأنعام: ١٢٧]

[الفرقان] وهو يزيد معنى مثل: أخبر الأمور أوساطها، [انظر: الإنعام في علوم القرآن ٤/ ٤٦]

والحق سبحانه ها يضرب المثل البارل كسيل من السماء على الجبال ،
 فيأخذ كل واد أصغر الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى
 لأرض ، لكن السيل في أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من
 لطمى ، والقش ، ويستقر الطمى فى أرض الأودية ، لتستفيد منه ،
 أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية
 رِبْدًا ، وساعة تصعها فى النار ، فهي تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة)

ومثال ذلك : حين يوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، يجد الخس هو الذى
 يطفو ، ويبقى الحديد النقى فى القاع

هذا يزيد الذى يوحى فوق الماء ينزاح على الخواب ، ومثال ذلك : ما
 نراه على شواطئ البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطئ ، هذه
 لقاذورات التى ألفتها الوح ، فيلعظها البحر بالموج ، وهذا الربد يذهب
 جُفاءً ، أما ما يرفع الناس فيبقى فى الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ ﴾ (١٧)

[الرعد]

إذن فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم به الحق ، بل
 يترك الباطل ؛ ليحضر غيره الناس على الحق ، حين لم يعاروا على الحق عار
 هو عليه^(١)

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَلِيلًا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا فَأَلْزَمْنَا هَذَا لِسِحْرٍ مِيقٍ ﴾ (٧٦)

[يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التى جاءت مع
 موسى - عليه السلام - هى السحر المبين ، أى . السحر الظاهر لواصح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من حل ذلك
 مدح نفسه ، وليس أحد أعير من الله ، من أحل ذلك حرم الفرائض » أخرجه مسلم فى صحيحه
 (٢٧٦٠) . والبخارى فى صحيحه (٤٦٣٤)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا
وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

وفي هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا .. ﴾ (٧٧) [موسى]

والدين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتي القرآن ليؤكد أنهم قالوا
إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتي في الآية التي بعدها ليقول إنيهم قالوا
متسائلين : أسحر هذا ؟

وفهم هؤلاء الدين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أسحر هذا ﴾ من
كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه
السلام قد نساءل ، ليعيدرا النظر في حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهنا
استفهام استنكاري ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس سحر ، ولكن جاء
بصيغة النساؤل ؛ لأنه واثق أن الإحالة الأمانة سنقول : إن ما جاء به ليس
سحراً.

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خبر لكان يحتمل
اصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ، لأن المكذب له
سبب بلحجة^١ .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى أنت حين تذهب لشراء قميص ،
فقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اسبحه والتدليج : انتردد في الكلام ، والاحتياط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : بهي أبلج ،
والباطل الخلق ، أي أن اخبر وضح قوى الظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات
له [لسان العرب مادة (ج ج) - بصرف]

لنا في خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كم يحترق البلاستيك
أو القماش الصناعي ، فأنت تقول للبائع وهل هذا صوف نقي يا رجل ؟
وهنا لن يجيب الناعم إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة
إذن : أنت إن طرح الأمر بأسفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله
كخبير مجرد : لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. ﴾ (٧٧) [يوس]

يصد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عن حاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام . أتقولون للحق ما جشاكم به : إنه
سحر مبر ؟

إن القول الحكيم الوارد في الآية انكرية هو تأكيد على ضرورة النظر
إلى الحق مجرداً عن حاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ أَسْحَرَّ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧) [يوس]

إذن - سيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر
لا يفتح ، ولكن الآيات التي جاء بها من الحق سبحانه قد أفحمت ، فقد
ابتلعت عصاه - التي صارت حية - كل ما الفوه من جمالهم ؛ وكل
ما «سحروا» من «سحر»^(١)

(١) يقول الحق سبحانه ﴿ رَأَوْهُمْ إِذْ يَضْحَكُونَ ﴾ (١٢٧) فوضع الحق وبطل
« كفوا يعلون » (١٢٧) [الأعراف]

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة^(١) من جس ما نبغ فيه القوم .

قاله سبحانه حين يرسل معجزة إلى قوم ؛ يجعلها من جس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً في المجال الذي لهم به خبرة وحرية^(٢) ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ، ليسى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبنى لك هرمًا ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشف القدماء ولم يسجلوه في أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يوس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التي يقوم بها الفلاح من جهد في حرث الأرض ووضع البذور ، وري الأرض ونظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلاح الحديد ، أى . شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ .. ﴾ (٧٧)

[يوس]

هو لفقت لنا أن السحر نوع من التخيل ، وليس حقيقة واقعة .

ولذلك قل الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

(١) المعجزة هي . الأمر الخارق للعادة يُجريها الله على يد النبي أو الرسل تأييداً له وتأكيداً برسائه ،

كمعجرات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وإفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص .

وحصن ﷺ بمعجزة القرآن الخالدة . وله ﷺ معجزات حسية كثيرة كبرق الله من بين يديه ﷺ

(٢) حرية . عادة وخبرة أو تدريب

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ (١٦) [الأعراف]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (٦٦) [طه]

إذن . فاسحر هو تحييل فقط ^(١) وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدث كل القدرات ^(٢) ؛ لذلك أعلن فرعون التعمشة العظام بين كل من له علاقة بالسحر ، الذي هم مشوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر ^(٣) .

ولأن اسحر مجرد تحييل ، وجدنا السحرة حين اجتماعهم وألقوا حبالهم وعصبيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تنمق ^(٤) « صفعوا » وهما ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة طه :

﴿فَأَنقَضَى السَّحَرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠) [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم حيلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصبيهم مجرد عصي

(١) سحر نوم فرعون هو من مع سحر التحييل ولا مد بالعيون ، ومناه على أن الصر قد يحطى ، ويشمل بالشيء أعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ (١٦) [الأعراف] وقال تعالى : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (٦٦) [طه]

(٢) السحر هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وبصيرة ما به الشيء ، بقدرته سبحانه ؛ لذلك انصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه آمانه عليهم بقدرته التي لا راد لها

(٣) وذلك أن فرعون من مكره جعل الملا من حوله هم الذين يصعدون المواجهة مع موسى بأن قال بهم ﴿إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ عَلِيمٌ﴾ (٦٦) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فبادر قارون ﴿٦٧﴾ [الشعراء] . فكان ردهم عليه أن قالوا له ﴿أَرَجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَلَائِكَةِ حَاشِرِينَ﴾ (٦٦) يأتوك بكل ساحر عليهم ﴿٦٧﴾ [الشعراء]

(٤) النقف : صبره ، لأخذ والناول . [اللسان : هذا (ن ق ا)]

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها
أسحرة حية حقيقية ، ولقمت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك حرُّوا^(١)
ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا للإيمان:

﴿ بِرَبِّ قُرُونٍ وَمُوسَى (٧٠) ﴾ [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو من فعل خالق
أعلى

وكان ثبات موسى - عليه السلام - في تلك اللحظة ناعماً من التدريب
الذي تلقاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه:

﴿ وَمَا تَلَكَ بِمِثْلِكَ يَا مُوسَى (٧١) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ^(٢) عَلَيْهَا وَأَهْوُسُ^(٣)

بِهَا عَلَى غَتَمِي . (٧٢) ﴾ [طه]

وفد أجمل موسى ومصل في لرد على الحق سبحانه ؛ إنساناً وإطلة
للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطلال الإيأس أو عز وقال بأدب:

﴿ .. وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ^(٤) أُخْرَى (٧٣) ﴾ [طه]

إذن: فقد أدركه أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب
التخاطب مع الله تعالى ، ودربه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر سقط ووقع ، وإراد أنهم أسرعوا بالسجود لله رب العالمين

(٢) أتوكأ عليها - التحمل واعتمد واستند عليها [اللسان - مادة (وكأ) - بصرف]

(٣) أهوَسُ بها على غتَمي . (طه) أي أمزجها الشجر لتساقط أوراقه لترجاء عني - بقله ابن كثير

في تفسيره (١٤٥/٣)

(٤) مأرب أخرى أي مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك

أولاً أن يلقبها ، فصارت أمه حية تسمى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس^(١) منها خيفة ولرأها مجرد عصا .

إذن . فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون ، أن سحرة فرعون سحرُوا أعين الناس وحِيل إلى الناس من سحرهم أن عصيهم وحالهم تسمى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - في إلقاء العصا عرفوا هم بالمتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها

والعصا - كما تعلم - أصلها فرع من شجرة ، وكان باستطاعة الحق سبحانه ونعالي أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت سطل نباتاً .

وتشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى اللينة لأعلى من النبات ، وهي المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلتف كل ما ألقاه السحرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا أَاجْتَنَّا لَتْلَفُنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨)

(١) أوجس أى . وقع في نفسه ولله الخوف والفرح [انظر اللسان مادة وجس] وقد وقع هذا الخوف لأن من الأنبياء ذكرهم القرآن الأول إبراهيم عليه السلام عند مجيء الملائكة في صورة بشر ليشرحوا بأسحاو ويعقوب ، وقد ذكر هذا في القرآن مريم الأولى في سورة هود ﴿ ولقد جاء ربنا إبراهيم بالبرقين قلوا سلاماً قال سلاماً فما لبث أن جاء بحمل حيد ﴾ (٧٧) قلوا وإنهم لا تعلمون أنه نكرهم وأوجس منهم خيفة قلوا لا تعلمون أنزلناهم في قوم نوح ﴿ (هود) أم الثابتة تسمى سرورة الساربات آية ٢٨

أما النسي الثاني فهو موسى عليه السلام ﴿ قالوا يا موسى إنما أن نهي وإنما لم نكن نوك من أهي ﴾ قال بل ألقوا فإننا سنقوم وعصيتهم بمنزل إليه من سحرهم أنها تسمى ﴿ قلوا من في معه خيفة من من ﴾ (٧٩) قلوا لا تعلمون ذلك أنت الأعين ﴿ (طه)

(٢) لتلقينا : بشيئا وتبعنا عن آلهة الآباء والأجداد

(٣) لكما أى . فرسى وطلون عليهما السلام

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة [ابن كثير ٤/٤٢٦]

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية ،
نسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب
مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملته - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصه الرسول ^(١) .

ولو قال فرعون لموسى : « جئ بك » لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : « أَجْتَبَا » فنسب المحيى على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون ونومه :

﴿ اٰمَنَّا بِاٰلِهٰنَا عِمْٓا وَّجَدْنَا عَلَيْهِ اٰبَاؤُنَا ۝۷۸ ﴾ [يونس]

والالذات هر تحريك الروح عن شيء - مواجه له ، وما دام الإنسان يصد
 شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم قمرعون على فساد
 وصلال ، وليس أصمهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال

وجاء موسى عليه السلام : يصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلal ، فقالوا :

﴿ أَحِبَّنَا لِنُحِبَّكُمْ وَجِدْنَا عَلَيْهِ يَأْتِيَانَا ﴾ (٧٩) [یونس]

[illegible]

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آبائهم ، والتقليد يريح المقلد ، فلا يُعْمَلُ عقله أو فكره في شيء ليقتنع به ، ويبنى عليه سلوكه^(١)

والمثل ، المعنى يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : مثل الأطرش في الرقة ، أي : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أي جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له اتجاهًا .

والمقلد إنما يعطل فكره ، ولا يحثار بين الدلائل ، ولا يميز الصواب ليعمله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنبه

ومرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب لتفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجله .

أما تغيير الصواب من الخطأ واتسع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذي يطيل أمد^(٢) الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالين :

الحالة الأولى : أنه لا يُعْمَلُ حُفْلُهُ ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

(١) وهذا التعميد بهي عن رسول الله ﷺ في حديث ، من سبهمه بن ليمان أن رسول الله ﷺ قال : لا تكونوا معاً ، تقولون : إن أحسن الناس أحس ، وإن ظلموا ظلموا ، ولكن وطروا أنفسكم إن أحسن الناس أن يحسوا ، وإن أظلموا فلا تظلموا ، أخرجه الترمذي في سننه (٢٠١٢) وقال : حديث حسن قريب لا يعرف إلا من هذا الوجه

(٢) أمد الشهوة عابثة والأمد : استهن الأجل ، وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات في القرآن ، فقال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ أَنْزَلْتُ أُفْرِيحُ مَا يُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ ([الحج] أي : زماناً بعيداً) وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَرَأْيِهَا وَنَبْعَلُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ ([الأنعام] أي : في غاية البعد) وقال تعالى ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ لُغْمٌ أَيْ الْعَزِيزِينَ أَحْسَنَ لِمَا بَغَرُوا أَمَدًا ﴾ ([الكهف] أي : أمد ، وربما) .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه تكليف ، ولكن الرسول الذي يأتي إنذاراً يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على مسيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يلزم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتبع ناحية الشهوات .

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالشرف ما دام لم يصل إلى البلوغ فأتت نلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ في التمرد ، وقد يقول للآباء: أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرب الشيء القيم الدنيوية الصحيحة ؛ فسيمثل بقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات .

ونحن نعد أبناء الأسر التي لا تتبع منهج الله في تربية الآباء وهم يعانون من أسيئهم حين يتسلط عليهم أقران^(١) السوء ، ليتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن آباء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب .

ثم إن تقليد الآباء قد يجمع الأبناء مجرد نسخ مكررة من أباائهم ، أما تدريب وتربية الآباء على إعمال العقل في كل الأمور ، فهذه هي التثنية التي تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً .

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذي سوف تقلده ، لن يكون مستولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل .

(١) أقران (جمع قرن) بكسر القاف وتسكين القاء) وهو الطير والثنين والمراد بأقران السوء أصدقاء السوء ورفقاء الشر والرفاق [لسان العرب مادة (قرن) - بتصرف] .

سُورَةُ الْيُونُسَ

﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ انْقِرَاءً رَبُّكُمْ وَأَخْسِرُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا فُتُورَةٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (٣٣) ﴿[المعاد]

إذن . فأمر الابن بحب أن يكون نفعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يعمل عقله بين البدائل (٣٣) .

ولذلك نجد القرآن الكريم يقول على السنة من فلدوا الآباء .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَاهُ عَلَيْهِ آبَاؤُنَا﴾ (١٧) ﴿[القرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه :

﴿..أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧) ﴿[القرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا يتام الأسماء على الأرض ولا يشترون أسرة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور في الأشياء والأنوات التي تسهل الحياة ؟

فالتقليد هو إلقاء العقل والمكر ، وفي إلقاءهم إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

ذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، قلنتهت بما جاء لك من هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السمو نحو الحياة الفاضلة .

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهي مواضع الاختيار من التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿وَنُفِصِرُكُمْ مُتَوَافِينَ﴾ (٧) فألهمها فجورها وتقواها (٨) لئلا تلحق من ركابها (٩) وقد خاب من دسأها (١٠) ﴿[الشعر]

(٢) أفقي : وجدنا الشيء . وجدته قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ أَفْقَاهُ آبَاؤُهُمْ خَالِينَ﴾ (١٧) ﴿[الصافات] ، وقال ﴿وَأَفْقَاهُ سَبْعًا لَهَا تَبَافِيدُ﴾ (١٢) ﴿[يوسف] أي : وجدها .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٤)﴾
[المائدة]

أى : أنهم أعلموا أنهم فى غير حاجة للمهيج السماوى فَرَدُّ عليهم القرآن :

﴿.. أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٥)﴾ [المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموعين فى آيتين مختلفتين عن المقلدين :

الآية الأولى : هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿.. بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧)﴾
[البقرة]

والآية الثانية : هى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿.. حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٥)﴾
[المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آبائهم .

وهناك مارق بين الآيتين ، فالعاقِل غير من لا يعلم ؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنطاق غيره .

(١) حسب يكسباً وهناك فرق بين قولة الكافرين للمقلدين لأبائهم هنا ، وبين قول المؤمنين لهذا الكلمة ﴿حَسْبُنَا﴾ ، فالمؤمنون قالوا : ﴿.. حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٧)﴾ [آل عمران] ، وقالوا ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ يَا رَسُولَهُ﴾ [التوبة] ، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم من الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الأعداء لهم ورغم أن مرقتهم هذا سيضرهم فى دنياهم وقد يقطع أرزاقهم ، فهم قد نظروا إلى الآخرة ، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات

وهم لها وجدوا في دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة.

الأول: هي ترك عقدة الأبناء .

والثانية: هي سلب الكسرياء ، أى. السلطة الزمنية والجاه والسيادة واعظمة والائتمار^(١) ، واصالح القضية ، فكس واحد من بطانة^(٢) المرغون بأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون.

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهي به الحق سبحانه الآية
الكريمة التي نحن بصددِها :

﴿وَمَا تَحْجِزُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨) [یوسی]

أَيُّ أَنْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَالْمَلَأُ الْقُرْؤَا عَمَّا حَرَّصُوا عَلَيْهِ مِنْ مَكَاسِبِ الدُّنْيَا
وَالْكِبْرِيَاءِ فِيهَا، وَرَفَضُوا الْإِيمَانَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَشْنُوْنِي بِكُلِّ مَسْجِدٍ عَلَيَّ﴾ ﴿٧٦﴾

وكن فرعون يعلم تقدم السحرة في دولته ، ويكفي أنه شخصياً حيل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتي أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جيء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه في الآية التي بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى الْقَوَامَا أَتُمْنُونُ﴾ ﴿٨٠﴾

(١٦) الالتزام بالشاور في الأمر والتواصي به. ويسمى التشاور التصديق لأن المشاورين يقبل بعضهم أمر بعض. وعنه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَسْبُورًا فَقَالَ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمَتَّصِينَ بِكُم بِأَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ دُونَ حُلِيِّكُمْ أَأَنتُمْ تَزِيدُهمْ كِبَارًا﴾ [التقصص: ٢٥]. [القاموس التوجيهي - وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٧].

(٢) بطانة الرجل خاصته [سنان العرب مادة (ب ط ر)]

وكان المامة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هي أصيق مسافة
وقتية ، وذلك حتى نصهم أن أمر صاحب السلطان لا يحصل من الناس
التأجيل أو التباطؤ في التنفيذ .

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ،
ولا يأتي بأشياء تفسد الصورة

يقول الحق سبحانه

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَقُولُوا مَا آتَمْتُكُمْ لُكُوفُونَ ﴾ (٨٠) [يوس]

وفي هذه الآية تدخيس بالسوقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون
يحتاجهم في ورطة ^(١) تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم
أن يسرعوا إليه .

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتمصيل الكامل لذلك الموقف ؛ لأن القصة
تأتي سياقها المختلفة في مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح لنتطة
التي تأتي بذكرها ^(٢) .

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا : إن أعوان فرعون نادوا في المدائن ^(٣)
ليأتى السحرة ، مثلما جاء في مواضع أخرى من القرآن ^(٤) .

(١) الورطة : الرجل نصح فيه العمم فلا تفسر على الحلفاء منه . يقال : ورطت العمم إذا وقعت في
ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان في الأمر ، واستورط فيه . إذا ارتك
فيه ، فلم يسهل له الإفراج عنه . [لسلك العرب : مادة (ورط)]

(٢) وهذه ميرة القصص القرآني في الإشارة إلى قصصه هذا قصة يوسف عليه السلام

(٣) المدائن : جمع مدينة ، وهي القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع في القرآن تحامياً لقصه موسى ثلاث
مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [التوبة : ١٠١ ، ١٢٠]
[الأحزاب : ٦٠] [المائدة : ٨]

(٤) وذلك في قوله تعالى عن سحرة فرعون ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (٨١)
[الأعراف] ، وقال تعالى ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (٨٢) [الشعراء] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون :

﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) [الأعراف]

ووضَّع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، فطالبهم للأجر ، يعنى أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسحيراً ويدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون في أزمة ؛ طالبوا بالأجر ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقربين^(١) ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى ؛ ففى ذلك العمل محافظة وصيانة للملك ، ولا بد أن يصبحوا من لبطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شجداً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى ؛ ليستقر عرش الفرعون .

وشاء الحق سبحانه الإحمال هنا في هذه الآية - التى نحن بصدد خواتمنا عنها - وجاء بيقية اللفظ في المواضع الأخرى من القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨٠) [يوس]

(١) فرعون : الفرعون الكبير والنجر ، وفرعون الذى ذكره كتاب الله ترك صِرفه في قول بعضهم ؛ لأنه لا سمى له وكذا ليس ليس أصله من ألبه . وقال ابن سيده : إن فرعون عَلِمَ أعجمى ، ولذلك لم يصرف الجوهري فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ، وكل باب فرعون ، والعناء افرعنة ، وقد تفرعن ، وهو فرعون أى دعاء وتكبراً . وقيل : الفرعون بلغة للقبط . التماح (لسان العرب)
وقيل في القاموس القوم فرعون لقب يسمى به كل ملك في مصر في الزمن القديم ، وفرعون موسى هو مصعب ، وقيل رمسيس الثانى . والعبرة بالأحداث لا بلفظ فرعون ، قال تعالى ﴿ أَتَقْبَلُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (طه) والله أعلم .

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر يقولهم : ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) [الأعراف] قال فرعون . ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١١٤) [الأعراف] فإرادهم اقرب منه فوق الآخر ؛ بذلك جاء حقايقهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاه الحجاب على قدره .

وَأَلْقَى السَّحَرَةَ عَصِيهِمْ وَحِبَالَهُمْ

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعَدِّ ذَلِكَ

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٨١)

وبحر نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه بيّن بالتفصيل ما حدث ، في آية أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ (١١٥) [الأعراف]

وبحر نعلم أن الوجهة تقتضي من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه ، يضعفه معتوياته .

وها أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تحييل .

وقد أعلم الحق سبحانه ببيه موسى - عليه السلام - أن عصاه ستصير حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تحييل^(١) للعيون .

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى في ذلك التحيل .

﴿ .. مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ

الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٨١) [يونس]

(١) والتحيل ما تشبه لك في اللحظة أو في اليوم من صورة ، والظل : ما يتصوره جسد من شيء - والتحيال

إحدى قوى العقل التي يتحلى بها الأنبياء ، ويتصورها .

قال تعالى ﴿ يُحِيلُ إِلَهُهُمُ سَحَرَهُمْ أَنَّهُمْ تُسَمَّى ﴾ (٩٧) [طه] أي : يشبه له ، ويصوره بصيغ سحرهم أنها كالحيات ، والحقيقة أنها لساحيات ، ولكنه توهم ونسيئ (القاموس لقرن)

وهكذا جاء القول لفصل الذي أنهى الأمر وأصدر الحكم فيمَا فعل
برعون وملأه^(١) والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد في الأرض ،
ولولا ذلك لم بعث الله سبحانه إليهم رسولا مزيّناً بمعجزة من صنف ما
برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا في السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه
معجزة حقيقية نلتهم ما صرعوا ، فإن كانوا قد برعوا في التحييل ، قاله
سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كن» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخيلات

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ^(٢) وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ^(٣)﴾

فالمسألة التي يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشيء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٤)﴾ [يس]

«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشيء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا
توجد عبارة أقصر منها عند البشر ؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما
يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن
الشيء يوجد قبل كلمة «كن» ، لأن كل موجود إنما يتحقق ويبرز ببرادة الله
تعالى .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبين لنا أن الحق إنما يأتي على السنة الرسل ،
ومعجزاتهم دليل على رسالتهم : ليضع أنوف المحرمين في الرغام^(٥) ،

(١) ملأه آل برعون ومن يرجع إليهم

(٢) الحق يشق ويظهر بكلماته : بمواعيده [تفسير الجلالين ص ٢٨٦] .

(٣) الرغام القراب والمراد إدلالهم وعقابهم على عصيانهم وجرائمهم

وليريح العالم من إصلاهم ومي معاسدهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِسَهُمْ وَإِن فِرْعَوْنُ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٨٢)

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعدده مواجهة موسى أعلا
الإيمان ، فحاقهم المرعون وقال :

﴿ امْتُمْ لَهُ قِيلَ أَنْ آذَن لَّكُمْ ﴾ (٧٦) [طه]

بهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما ترال مسيطرة على عقله ،
ولذلك حاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ (٨٢) [يونس]

وكلمة « ذرية » تفيد الصغر الذين لم تلمسهم حميرة من الصناد الذي كان
متشراً ، كما أن انصعار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون في حُلُو
من المشاكن ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التي يُحرَّصُ عليها ،
ومع ذلك هم قد آمنوا ؛

(١) مريم - طلعة (حماسة) من بولاد يوم فرعون [تفسير الخليلي ص ١٨٦] وييل من بني إسرائيل
[مختصر تفسير الطبري: ص ٢٣٩]

(٢) ملتهم آل فرعون والمصريون منه وأبو القوق به

(٣) بعتهم بصرخهم من دينهم متعديهم لهم

(٤) عال في الأرض: جبار متكبر والمراد بالأرض هنا أرض مصر

(٥) المشرمين: التجاورين الخلد بأذهان الربوبية [تفسير الخليلي: ص ٢٨٦] ،

﴿ عَلَى خَوْفٍ ^(٨٢) مَن فَرَعُونَ وَمَلِكِهِمْ .. ﴾ [يوس]

وكلمة ﴿على خوف﴾ تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا: «على الكرسي» أو «على الكرسي» ويكون المستعلي في هذه الحالة متمكناً من «المستعلي عليه» ومن يستعلي إنما يركب المستعلي ، ويحمل المستعلي العبء .
ولكن من استعمال «على» أنها تأتي بمعنى «مع» .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه:

﴿ وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ^(٨) .. ﴾ [الإنسان]

أي : يطعمون طعام مع حبه .

وحين يأتي الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من عنة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ فَلَا تَقْطَعْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ جِدَافٍ وَلَا تَصْلَبْكُمْ فِي جُدُوعٍ
النَّحْلِ .. ﴾ ^(٧١) [طه]

جاء الحق سبحانه بالحرف «في» بدلاً من «على» ؛ ليندل على أن عملية الصلب ستكون تصليفاً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب في المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) الخوف هو المزعج لتوقع حدوث مكره ، أو هوب أمر محبب ، والخوف ضد الأمن ، قال تعالى ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَأَسْلَمَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ^(١١) ﴾ [قريش] وقال : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مَّرْجٍ جَنَافًا أَوْ إِنَّمَا فَتِخَ بِهِمْ فَلَا ظَمَّرَ عَلَىٰ إِنْ أَلَّهِ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ^(١٢) ﴾ [البقرة] أي : مريخ لتوقمه ظلم الموصى ووجود خوفه جمعه بخاف قال تعالى ﴿ .. وَلَنُخَوِّجَنَّهُم مِّنْ آلِفْئَةٍ كَثِيرًا ^(١٣) ﴾ [الأنعام] ونحوه فلا نأ أي جمعه يخافه بمعنى المزعول قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. ﴾ ^(١٤) [آل عمران]

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦١٤٩﴾

[الإنسان]

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَنَى حَبْءٍ..﴾ (٨)

فكانهم هم المستعملون على الحب ، سذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

[يونس]

﴿عَلَى خَوْفٍ..﴾ (٨٢)

أي أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقع الآلام .

وهم ها اموا : ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَنَّهُمْ أَنِ يُفْتَنَهُمْ..﴾ (٨٣) [يونس]

والكلام ها من الحق الأعلى سبحانه يسير لنا أن الخوف ليس من فرعون ؛ لأن فرعون إنما يمارس التخريف بمن حوله ، فعائلهم مثل زوَّار الصحر في أي دولة لا يقيم ورنأ لكرامة لإنسان .

وفرعون في وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه ، بل يقوم به ربابسه .

والإشارة ها تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم .

وقال الحق سبحانه ها : ﴿يُفْتَنُهُمْ﴾ ، ولم يقل «يفتنوهم» ؛ ليدلنا على

ملحظ أن لربابسة لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون .

(١) من معاني الحرف (على) الاستعلاء ، وهو أكثر معانيه استعمالاً ، نحو قوله تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ..﴾ [الفرغ] والظرفية ، نحو قوله تعالى ﴿وَمِنْ أَمْسَدَ عَنِ حَبِيبٍ عَقْلًا مِنْ أَطْفَالِهَا﴾ [القصاص] أي من حين عمده والمصاحبة ، نحو قوله تعالى ﴿وَأَنَّ يَمُوتَ لَدُوْهُ مَفْرُوقًا لِّنَاسٍ عَنِ ظُلُمِهِمْ﴾ [الرعد] أي مع ظلمهم ؛ ونحو قوله تعالى ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَنَى حَبْءٍ مَّكِينًا وَيَتِمَّا وَأَمْسِرًا﴾ [الإنسان] أي مع حبهم للمال . ومن معانيها أيضاً أن تكون بمعنى (من) نحو قوله تعالى ﴿وَبِئْسَ لِّلْظَالِمِينَ﴾ الذين إذا كفروا على الناس يسرفون (٢) [الطعن] أي من الناس ومن معاني (على) أيضاً اللجاجة ، والمتمليل ، والإضراب ، وأن تكون بمعنى الباء انظر بمصطلح ذلك في [النحو الوافي] : (٢/٥٠٩ - ٥١٤) .

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً ؛ ليكون كل لفظ في لقران جادياً لمعناه .

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (خربة) قالوا^(١) . إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وحازب فرعون ، وامرأة الخنز ، وماشطة فرعون ، ومن آمن من قوم موسى - عليه السلام - وكنتم إيمان

كل هؤلاء معتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى ؛ لأن فرعون كان جباراً في الأرض ، مدعياً للالوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يحدث ادعاء للالوهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة قاتكة .

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة رباته - أبناء بني إسرائيل وستمائة نسائهم^(٢) ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين بقوا ما أراد فرعون .

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع في قوله سبحانه وتعالى

﴿وَعَلَّتْهُمْ .. (٨٢)﴾ [يوس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الأمر في قوله سبحانه وتعالى .

﴿أَنْ يَفْسَهُمْ .. (٨٣)﴾ [يوس]

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبي في تفسيره (٢/ ٢٢٩٦) وعلى هذا يكون الضمير في ﴿وَعَلَّتْهُمْ﴾ عائداً على فرعون وقد ذكر القرطبي قولاً آخر ومنه للمرأة يجعل الضمير يحمل عوداً على موسى وفرعون في نفس الوقت ، باعتبار أن القوية أقوام آبائهم من القبط أي آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل

(٢) استحياء النساء أي تركهن أحياء وقد كان بنو إسرائيل واقفين تحت الإذناء والاستتعداد من قبل أن يأتيهم موسى ، يبطش فرعون بهم كان مستمراً ولذلك قالوا لموسى ﴿قَاتُوا أَوْدِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ يَبْدُ مَا جَعَلْنَا﴾ (٢٢) [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن قتره إيداء فرعون لبني إسرائيل قبل مجيء موسى . ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَنْفَهُ شَيْءً لَا يَتَخَضَّعُ لَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَدْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢) [التقص]

فهم خافوا أن يقتلهم فرعون بالتعليب الذي موع به أعوانه.

والحق سبحانه وتعالى هو الغافل:

﴿.. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنِ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣) [يوس]

والمسرف: هو الذي يتجاوز الحدود وهو قد تجاوز في إسرافه وأدعى الألوهية.

وقد قل الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون:

﴿.. أَمَّا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (٢٤) [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَآءِ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي..﴾ (٢٨) [القصص]

وعلا فرعون في الأرض علو طاعة من الشمر على غيره من البشر المستضعفين.

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون:

﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مُصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي..﴾ (٥١) [الرحمن]

ذن: فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مِمَّنْ آمَنُوا بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا

إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤)

(١) انصر السيد العظيم، قال تعالى ﴿اتَّخِذُوا مِصْرَ﴾ (٥١) [الفرقة] أي بلداً عظيماً كبيراً ومصر مصر تنوي من بلادنا العريقة، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ﴾ (٥١) [يوسف] [القدوس المريم]

وهنا شرطان ، في قوله تعالى

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ...﴾ (٨٤) [يوس]

وجاء جواب هذا الشرط في قوله سبحانه :

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا...﴾ (٨٤) [يوس]

ثم جاء شرط آخر هو : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ...﴾ (٨٤) [يوس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضي الإسلام وأن يكونوا مسلمين

ومثال ذلك في حياتنا حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر لمدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : «إن جئت يوم السبت القادم قبلتك في المدرسة إن كان معك وليٌ أمرك» ومجىء ولي الأمر هنا مرتبط بالموعد الذي حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول.

وهنا يتجلى ذلك في قول الحق سبحانه :

﴿... إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ...﴾ (٨٤) [يوس]

والإيمان - كما تعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام^(١) ، وقد يظن مرة أخرى من

(١) لأنه لا إيمان موصوف إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فهما تلازم حقيقى بلوغ المراد
(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى وما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهري
جميع أحكام الإسلام ما لإيمان مظهر اعتقاد القلب وتصديقه الجازم الذي لا يدع له شك ، قال تعالى
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ لَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَتَكُنْ تُرَاوِدُونَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لِيُؤْمِنُوا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
لَا يَفْعَلْكُمْ فِئَئِمَّةً مِّنْكُمْ﴾ (٩) [الحجرات]

تفويض التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة نجد واحداً يتخذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٥)﴾ [البقرة]

وبجده سبحانه يبين هذا الأمر بتحديد قاطع في قوله تعالى :

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. (١٤)﴾ [الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ، لذلك يأتي الأمر الإلهي :

﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُرِنُوا أَسْلَمَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات]

أي : أنكم تزودون فروص الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤)﴾ [بوس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان رماحه في كل أمر إلى من آمن به ، وبذلك لا ينصح الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الرماح لله في التكليف إلى الله في «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلماً فيه شرط تقدم ، وحاء جرات بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الآخر هو المقدم ؛ لأنه شرط في الشرط الأول ^(١) ، وبالمثل هنا فإن التوكل
ليس ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ^(٢)
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(٣) ﴾

أى : أنهم استجابوا للدعوة مرسى - عليه السلام - بمجرد قولهم .
﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الحار على المجرور فمعنى ذلك قَصْرٌ وَحْصَرُ الأمر ، وهما قصر
وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه .

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ .. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(٤) ﴾ [يوسف]

والفتنة : اختبار ، وهى - كما فك من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ،
بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة .

ويقال : ففتنت الذهب ، أى : صهرت لذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تنوالت أدتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر ، وتنوالت مع
الاتصال المباشر يكون الاعتبار به للأداة الأولى ، فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب أما تنوالت
مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جعلتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين
الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا
كان النوالى يعين عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تغير غيرها أما باقى الأدوات
النالمة فـجواب أى منها معدوم لدلالة جواب الأداة الأولى عليه . انظر تفصيل ذلك فى [المحو
الرائى ٤/ ٤٨٩ ، ٤٩٠]

(٢) فتنة . موضع عذاب [كنهات القرن للشيخ حسين محمد معلوف] .

(٣) لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين أى لا تظهرهم علينا مظهر أنهم على الحق ، ميفتتوا بنا [تفسير
الجلالين ، ص ١٨٦] .

الشوائب ، ونحن نعلم أن صنّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المختلط بعناصر أخرى لا يتماسك والفتنة لتي قالوا فيها

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥) [يوس]

هي فتنة الحروف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذبتهم ، وكأنهم يقولون يا رب لا تسلط علينا فرعون بعذاب شديد . هذا إن كانوا محتملين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين ؟

إنهم في هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التسع الحقيقي لما علم فرعون وأله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلسلون بحق ، وهم لو انصرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون : إنهم ييسروا أهل إيمان حقيقي ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أسر الأنبياء وله قدره العظيم في النبوة ، يقول

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ (٩٠) [الأنعام]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يطر أحد إلى السلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه .

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدي الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ... ﴾ (١٢٤) [البقرة]

أي أنه كان يتم كل عمل بنيه وإتقاناً ؛ لأنه أسرة " ، فلم يقيم بعمل

(٩) دسلي : اختبار بكلمات - بأوامر ونواه كلفه الله بها

(١) أسرة : بذرة حسنة

إيماني بظهور سطحي

إذن ، وإن كانوا هم المفتويين ، فهم يدعون العتة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعندهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير في أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفرًا وضلالًا .

وجاء قول الحق سبحانه .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يوس]

ليدل على اشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتويين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر لغير من الكافرين فهذا يعني أنهم طمعوا في إيمان العدو؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان .

ورسول الله ﷺ يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١)

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم .

وهكذا يعلم الحق سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُقق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوه بالشر ؛ لأن الذي يتعبدك من عدوك هو شره ، ومن صالحك أن تدعو له بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

(١) مصر عليه أخرجه البخاري في صحيحه (١٣) ، ومسلم في صحيحه (٤٥) كتب الإيمان من أنس بن مالك بلفظ « والذي نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه »

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتمدى النفع إليك ، وهذه من عميزات الإيمان أن نعمة يتعدى إلى الغير .

وهم حين دعوا 'لأ يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضح لنا أن الظلم درجات ، وأن فرعون وماله كانوا في قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) [لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير صاحب الحق وفرعون وملأه أشركوا ماله - سبحانه وتعالى - ففطن فرعون أنه إله ، وصدقته من حوله

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يترب إلى الظلم في الكبار ، ثم في الصغائر .

وقولهم في دعائهم للحق سبحانه ،

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦) [يونس]

ي . اجعلنا بنجوة^(١) من هؤلاء .

وكان الذي يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تدفق ، ولا ينجو إلا من كان في ريو عالية - والحجرة هي المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة " النجاة " .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦) [يونس]

(١) الجوة ارتفاع من الارض ويقال هو بنجوة من هذا الأمر اي بعيد عنه يرى سالم [المعجم لوسيط مادة (ن ج و)]

والرحمة هي الوفاية من أن يجيء الداء .

والحق سبحانه يقول .

﴿وَسُورُكَ مِنَ الْفُرَّانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ۖ ۞ (٨٧)﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الداء ، والرحمة هي ألا يجيء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه

فقال سبحانه وتعالى .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا يُبَوَّءُ الْمَسْكُونَةُ
وَأَجْعَلُوا يُيُوتِكُمْ فِتْنَةً وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ۞ (٨٧)﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عيهما السلام رسولان برسالة

واحدة ، وأن الوحي قد جاء للآتين برسالة واحدة .

فالحق سبحانه ساعة يختار نبياً رسولاً ، فإلى يختاره تكوين وعطية

تؤهله لحمل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخلق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

(١) تبوءوا اتخذوا محلاً ، فله صلى صلوات الله عليهم تساموا من الخوف وكان عرضون خدمتهم من

الصلاة أقيموا الصلاة أنوما وشرافهم بالنعيم والجنة [تفسير السعدي ، ص ١٨٦]

وذكر ابن كثير في تفسيره (٢، ٢٢٨، ٤٢٩) أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن

يتبوءا أي يتخذوا قرومهما بمصر بيتاً ، واعتلمت بالمصريين في معنى قوله تعالى ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة

﴾ (٨٧) . قال - أمروا أن يتخذوها مسجداً - وعن إبراهيم الخليل قال : كانوا يخافون

فأمرهم أن يصلوا في بيوتهم ، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير ، وكان هذا والله أعلم لما انتدبهم

ليلا من قبل برحمته وقومه وشيخراً عليهم أمروا بكثرة الصلاة ، كقوله تعالى ﴿بنيناها للذين آمنوا

استمعوا بالصبر والصلاة ۖ﴾ [الشورى] ، وقال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية (هيك) أي يقابل

بمعناها بعضاً ، [من تفسير ابن كثير - بتصرف]

ولا رَوْنَه^(١) ، مثل الساعة التى تُؤَدِّنْ ، أو المذيع الذى يذيع فى تونيت محدد ، إذا كان الشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوير لرسول أن يؤدى المهمة الموكولة إليه فى أى ظرف من الظروف ، وقول الحق سبحانه هنا ،

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوس]

يُبين لنا أن الوحي شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من الم افق يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، بهارون أيضاً يمكن أن يتكلم فى نفس الأمر؛ لأن الشحنة الإيمانية واحده ، والمهح واحد .

وهذا حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فحاء لهم الأمر أن يستقروا فى مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت . ولكن لنا أن نسال :

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا . . إن فرعون لس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كس حاكم لمصر نديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن شعل أنفسنا: هل هو تحتس الأول ؟ أو رميس ؟ أو ما إلى ذلك ؟ هب أن فرعون المعنى هنا قد غرق ، ألا يعنى ذلك محى فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة نالت ، وكانوا مراعة ، وكان منهم من يصطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون حليفة الفرعون أشد ضراوة وأكثر شحنة ضد هؤلاء القوم .

(١) الرويه النظر والتفكير فى الأمور، وهى خلاف البديهة [المعجم الوسيط - مادة (ر و ي)]

وقول الحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواصها عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا^(١) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُبُوتًا^(٢) . (٨٧) ﴾ [يونس]

يحد في كلمة « مصر »^(٣) وهي إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .
ونحن هنا في بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من
البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أي : وادي النيل .
ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادي النيل
ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات في القاهرة : « محطة مصر » .
وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]
نفهم منه أن التَّبوُّءُ هو اتخاذ مكان يعتبر مبةة^(٤) ؛ أي : مرجعاً
يبرء الإنسان إليه .
التَّبوُّءُ - إذن - هو التروطن في مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن
له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أي بلد لعترة .

(١) تَبَوَّأَ : نَزَلَ وَسَكَنَ

(٢) ورد اسم « مصر » في القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون في قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُبُوتًا .. (٨٥) ﴾ [يونس] . وفي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْغُلَامُ الْهَرَاءُ مِنْ مِصْرَ لَا تَرْجُوهُنَّ أَهْلَ بَيْتِي مَحْرُومٌ (٦١) ﴾ [يوسف] وفي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ابْتَظِرُوا مِصْرَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَسَمِعْتُهُنَّ (٦٩) ﴾ [يوسف] وفي قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مَدْيَنَ وَفَجَدُوا بِهَا قَوْمًا تُفْسِدُونَ فَكَانَ لِقَوْمِ الْأَوَّلِينَ فِي مِصْرَ (٦٩) ﴾ [الزمر] أم قوله تعالى ﴿ ابْتَظِرُوا مِصْرَ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ (٦٩) ﴾ [البقرة] فقد وقعت فيها كلمة مصر مربة ، دلالة على أن ليس المقصود بها مصر فرعون العالم الأعجمي الذي يُجمع من مصر والشام ، فهي مصر من الأمصار أي : بلد من البلاد

(٣) المباح : المكان الذي ينزل به الإنسان ويسكن به [لسان العرب مادة (ب و ا) - يتصرف] .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضي العردة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالراحد منا يطوف طواف السهار في حفل أو لمصع أو المكتبة ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للستونة ^(١) .

واليوت التي أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ۖ ۞ (٨٧) ﴾ [يونس]

والقبلة هي المتجه الذي تصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة من هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتها التي يذهب إليها ، وحين ندخل المسجد ننحى دحله إلى القبلة ، وانجهاها إلى القبلة هو الذي يتحكم في وصفا الصفى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ ۖ ۞ (٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة السوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - في أوليته - صعيماً عكة ، وكان المسلمون حين داك يصلون في قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر بقيد في ألا ينته الخصوم إلى مكان المصلين .

وأم الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

(١) البيتونة مصدر للفعل باب بيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والبيت [لسان العرب - مادة

(ب ي ت) - يفسرها]

وهي تقول الحق سبحانه

﴿ أَنْ تَوَدَّ الْقَوْمُكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . . (٨٧) ﴾ [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة .

والى يومنا هذا أنت إذ نظرت إلى ساحات ^(١) اليهود في أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حياً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى . .

مضى كل بلد لهم حتى يسكنوا فيه ، ويسمى باسم «حتى اليهود» وكانت لهم فى مصر «محارات» كل منها تسمى باسم «محارة اليهود» .

وقد شاء الحق سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز .

﴿ وَخُضِرَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . . (٩٦) ﴾ [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفرعهم ، يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا .

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . . (٨٧) ﴾ [يونس]

أى . أن يكون تحيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة .

وأى خطأ معمري مثل الذى يوجد فى تربية ماء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يرجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

(١) الساحات جمع ساحة وهي إتاحة من البيوت . وهي أيضاً قضاء يكون بين بيوت الحى . وساحة الدار . بحثها [اللسان مادة س ر ح] رمت قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ نَدَبْنِهِمْ سَبْحًا لِّتُؤْتُوا نَوَافِلًا ﴾ [البقرة ١٦٦] قوله سباحهم قضاء صباح السطرين (٢٧) [الصفات] أى . بالمحلة أو الديار التى يسكنونها .

الارتباك للمصلين ، لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين في أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر .

وحين نصلى في المسجد الحرام مكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فنجد من ينه إلى أن الصف يعدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة ، ثم يسحب الصف . وكذلك في الأدوار العليا التي أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف مسحية متجهة إلى الكعبة .

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام . إن معنى قول الإمام «سوروا صمواتكم» أى : اجعلوا سماواتكم ' في ماكب معصكم البعض ، أما خارج الكعبة فكفى أن ننحى إلى الجهة التي فيها الكعبة ، ونحى خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة ، ولكننا نصلى تجاه الكعبة ؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف في أى مسجد عن اثني عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة .

وقول الحق سبحانه هنا

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ۖ ﴾ . (٨٧) [يوس]

أى : خططوا في إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك

ثم يقول الحق سبحانه :

-
- (١) الماكب جمع مكب ، وهو مجتمع عظم العدد والكثف [لسان العرب مادة (دك ب)] .
 (٢) القبلة الوجهه قال تعالى ﴿ قَدْ بَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَتَوَلَّيْتَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَرَأَى وَجْهَكَ شَهْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة] ، وهي الجهة التي تنحى إليها في صلاتنا ومعنى الآية هنا أن ييسر بيوتهم ، مواجهاة بمكة أو اجعلوها قبة للناس يشهدون إليها بيل الخير

[يوس]

﴿ رَاقِبُوا الصَّلَاةَ .. ﴾ (٨٧)

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة في العمر ، ونركب - إن كان عبداً مال - مرة واحدة في السنة ، ونصوم - إن لم يكن مريضاً - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة في العمر ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان قلبيد ، وكان الحق سبحانه وتعالى هت يبه إلى عماد الدين وهي الصلاة .

ولكن من الذي اختار المكان في الآية التي نحن بصدد حواطرنأ عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟ نلاحظ هنا أن الأمر بالتموء هو لموسى وهارون - عليهما اسلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع .

ويهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله

[يوس]

﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٧)

وفي هنا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل في الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل الشارة للمؤمنين

ونلاحظ هنا في هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالنتبية في التوء ، وجاء بالجمع في جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد في بهية الآية ليسها إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل في الرسالة إلى بني إسرائيل .

(١٦) الولاء الحب والنصرة يقول سبحانه ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدِيَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَعْتُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُفْرُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤) [الأنفال]

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى: التشهير بالحمة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ مَأْتِيَتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ
زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ
رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا
حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٨٨﴾

والريبة: هي الأمر لرائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ،
فاستقاء الحياة يكون بالماكل لأى غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذى يروى
العطش

أما إن كان الطعام متنوعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس
التي لا تسر العورة فقط ، بل بالرى الذى يشمير بجودة النسيج والتصميم
والتفصيل

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأنيته

(١) اطمس على أموالهم قال ابن عباس ومجاهد: أى لمعنها وعل الصلابة وبخرود جعلها
حجارة منقوشة

(٢) واشدد على قلوبهم - اطمس عليها - وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام شعباً لأنه ولدته ، على
عربون وملته الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يرجى منهم شيء ، لذكره ابن كثير عن تفسيره
[١٢٩/٣] .

(٣) رأى نظريته كأيصر ورأى فكره وقلبه بمعنى : علم ورأى - اعتقد ورأى في نفسه رؤيا
حلم والرؤيا الحلم في النوم ، ورأى هنا في العبارة أى حتى يروا العذاب بأعينهم ويعلموه
معاينة

بما خسر الرياش^(١) ، ولكن الضرورة في اليوم يكفى فيها مكان على الأرض ، وأى فراش يبقى من برودة الأرض أو حرارتها .

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتي من الأموال ، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية .

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أمة دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب

وهذه الأحجار الكريمة - كالناس مثلاً - إن كُثرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتت فانت تعيد صهره ، فتستخلص ذهباً مُجتمِعاً

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يستخرجون النحاس في كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من عربة رمال بعض الجبل لاستخلاص الذهب منها .

وانت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون في القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وثير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، مما يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب .

(١) الرياش والريش - الخشب ، والبساتين ، والماء ، والآلات والبساتين الخشب المعمر - قال تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُبَازِي سُرُورَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسًا تَتَفَضَّلُونَ ﴾ ذلك من آيات الله لهم يذكرون ﴿ [الأعراف]

وَأَتَتْ بِإِنْ مَطَرَتْ إِلَى رِيَّةِ الْمَرَاعَةِ تَجِدُ قَتَعَ «تَوْتِ عَجِ آمُونَ» آيَةً فِي
الْحِمَالِ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ قُصُورُهُمْ فِي قِمَةِ الرِّفَافِيَّةِ ، وَيَكْمَى أَنْ تَرَى
الْأَلْوَانَ لَنِي صَعَتِ مِمَّا دَهَابَاتِ الْحَوَاطِطِ فِي نَلِكِ الْآيَامِ ، لَتَعْرِفَ دَفَّةَ
الصَّعَةِ وَمَدَى التَّرَفِ ، لَدَى هُوَ أَكْثَرُ بَكْثِيرٍ مِنَ الضَّرُورَاتِ

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ذِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ (٨٨)

وَهُمْ لَمْ يَضِلُّوا فَقَطْ بَلْ أَرَادُوا أَنْ يُضِلُّوا عِبَرَهُمْ ؛ لَدَلِكِ تَحْمَلُوا وَزَرَ
صَلَالِهِمْ ، وَوَزَرَ إِصْلَالِ غَيْرِهِمْ .

فَهَلْ أَعْطَاهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَالَ وَالرِّبَةَ لِلصَّلَالِ وَالْإِصْلَالِ ؟

لَا ، فَهِيَ ذَلِكَ عِلَّةُ الْعِطَاءِ ، وَلَكِنْ هَاكَ لَامُ الْعَاقِبَةِ ، مِثْلَمَا نَعْطَى أَنْتَ
إِنَّكَ عَشْرَةَ جَنِيهَاتٍ وَتَقْوَى لَهُ أَفْعَلُ بِهَا مَا تَرِيدُ ، وَأَرْجُو أَنْ تَنْصَرِفَ فِيهَا
نَصْرَفًا بِعَوْدِ عَلَيْكَ بِالْخَيْرِ . وَقَدْ يَسْرُ هَذَا لِأَنَّ لِيُشْرَى شَيْئًا غَيْرَ مُعِيدٍ
وَلَا يَشْتَرَى - مِثْلًا - كِتَابًا تَقْبَلُهُ .

هَذَا أَنْتَ أَعْطَيْتَ هَذَا الْإِبْنَ قُوَّةَ شِرَائِيَّةٍ لَكِنَّهُ سَمَ يَحْسَنُ النَّصْرَفَ فِيهَا ،
وَعَاقِبَةُ الْإِحْتِيَارِ هَدَّيْتَهُ إِلَى اللَّعِبِ . وَهَذَا مَا يَسْمَى لَامُ لِعَاقِبَةِ ، وَلَامُ الْعَاقِبَةِ
لَا يَكُونُ الْمَقْصُودُ بِهَا سَبَبُ الْمَعْلُ ، وَلَكِنَّهَا تَأْتِي لِيَاكِ عَاقِبَةُ الْمَعْلُ

وَإِذَا أَرَادَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَسْجِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - هِيَ
طُفُولَتُهُ مِنَ الْقَتْلِ أَوْحَى إِلَى أُمِّ مُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - يَقُولُهُ تَعَالَى

(١) نى - أَنْ مَرَعُونَ لَمْ نَكُنْ عِلَّةَ التَّقَاطِطِ لِمُوسَى لَنْ يَكُونَ مَعْدُومًا بَلْ لِيَتَعَدَّهِ وَلِنَأْ . وَأَصَابَتْ مَرَأَتُهُ أَنْ يَكُونَ
مَرَعًا عَيْنَ لَهَا وَلَمَرَعُونَ ، وَلَكِنْ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ غَيْرَ ذَلِكَ ، أَيْ أَنْ مَرَعَتْ كَانَ عَكْسُ مَا كَانَ يُرِيدُهُ
مَرَعُونَ

﴿فَإِذَا حُفَّتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ۚ وَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَبِي..﴾ (٧)

[التقصير]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق ؛ لأن الابن إن حُطِبَ أو قُتِلَ بهذا كله موت مظنون ، أما إلقاءه في الماء فليس فيه موت مظنون ، بل موت مؤكد ، إن لم يُنَجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد في انقطة منازعاً له .
أما نرغات الشيطان فهي تحمد ألف منازع بها في النفس ، وكذلك هواجس النفس

ولذلك نَقَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق .

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال (١) ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى في قلوبهم ، قال :

﴿..وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (٢٩)

[طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبه فلم يقتلوه ، وهكذا تعدت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

﴿.. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧)

[التقصير]

أى أن لموسى - عليه اسلام - مهمة مسقة أرادها له الحق سبحانه .

(١) اليم . الماء الكثير للجمع . والكراديه . نهر النيل في مصر

(٢) كان فرعون وزبانية يهبطون أبناء بني إسرائيل ويستحيون ساءهم بعد أن سمع فرعون البيوة التي

قيلت من أن ولدأ من بني إسرائيل سيقتضي على فرعون قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ

أهلها شعباً مستضعفاً طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ إذا كان من المُستحيين (٣) [التقصير]

وقال تعالى ﴿.. رَأَى فِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَجُوعَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٣٦) [التقصير]

ولذلك يجد أن هلك أوامر متشعبة جاء بها القرن الكريم في مسألة إلقاء أم موسى لاسها ، فقال الحق سبحانه .

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ (٣٩) فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ (٣٩) . . ﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فترى زوجة فرعون فتقول لزوجها:

﴿ قُرْتُ عَيْنَ (٣٩) لِي وَلَكَ . . ﴾ [القصاص]

فمن كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذي التفتله سيكون عدواً له ؟

لا ، لقد اتفقوا وأعطاه حياة النرف ، ليكون قُرَّةَ عَيْنٍ له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت ، لئى أن يكون عدواً ، ولو كانت العلة هي العداوة لما التفتله فرعون أو قتلته لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى في كونه أشبه تكسر مكر البشر ؛ فأحده فرعون وربّاء ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون

وقوب الحق سبحانه هنا في الآية اتى نصر بصددهما ، ﴿ لِيُضِلُّوهُ ﴾ تفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهِم المَال لِيُضِلُّوهُ ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالا وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى احتشار الإنسان ، إن له أن يصل أو يهتدى .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه .

(١) التابوت : الصندوق الذي وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه في اليم ، ليحفظه من الماء

(٢) الساحل : شاطئ النهر القريب من قصر فرعون

(٣) مرة عبر مرة فرح [كلمات القراء للشيخ حسين محمد محترف]

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلِّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يوس]

ومعنى الطمس أى : إخفاء المعالم ، مثل قول الحق سبحانه

﴿ مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا .. ﴾ (٤٧) [الباء]

ومعنى الطمس هنا . إخفاء معالم تلك الوجوه ، فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عيين أو أنف أو شعاع أو دقن

إذن : فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشيء . ودعوة موسى عليه السلام - هنا :

﴿ اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يوس]
أى . امسحها .

وقال بعض الرواة^(١) أنها مُسحت ، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجددها حجارة ، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجددها زجاجاً .

أو أن ﴿ اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يوس]

أى : أذهبها ، لأن الأموال كانت وسيلة إضلال .

(١) وردت مادة «الطمس» بالمران الكريم فى خمسة مواضع ، هى قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ (٦٦) [يس] ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَقَدَّرَ وَادُّودُ عَنْ ضَلَالَةِ قَوْمِنَا أَهْبَهُمْ لَدُولُوا عَلَى يَدَيْهِ ﴾ (٦٩) [القمر] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْفُؤَادُ لَمِصَّةٌ ﴾ (٦٥) [المرسلات] . وقوله تعالى : ﴿ أَمْتُوا بِمَا تَزَكَّى فَعَيْنًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ (١٢٧) [النساء] ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يوس]

(٢) قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي : سارت أموالهم ودرهمهم حجارة متفرقة كهبتها صحاحاً وثلاثاً وانصافاً ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم يتنع يد أحد بعد

وقوله عليه السلام بعد ذلك .

﴿ .. رَأَيْدُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْاَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

أى : أحكم يا رب الأربعة على تلك القلوب ، فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ؛ لأن هؤلاء قد افترأوا افتراءً عظيماً ، وأن بطل الأربعة على قلوبهم ، حتى يروا العذاب الأليم .

ولمّا دعا موسى عليه السلام - على ال فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلاً دعا سيدنا محمد ﷺ : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ؟ والإجابة . لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تخلص فيهم دعوة الإيمان .

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من صلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم .

إذن : فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء في هذه الآية

﴿ .. رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْرِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْاَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

وهي موضح الخبر عن القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا .. ﴾ (٨٥) [عاد]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإجماع والقصر^(١) وبين إيمان الاختيار^(٢) .

(١) القصر والقصر الإجماع على كره ومنه مصرع موسى على الشيء ، واحسنها عليه وألزمها إليه انظر [لسان العرب مادة - قصر ، قهر]

(٢) قال تعالى : ﴿ وَكَلَّ الْحَيُّ مِنْ رَبِّكُمْ لِمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ (٩١) [الكهف] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّا نَكْفُرُ وَإِنَّا نَكْفُرُ ﴾ (٩٢) [الإنسان]

فحين يأتي الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدهونه أن
يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما
إيجال الإلحاء والقصر فهو لا يقع الإنسان

ومثال ذلك : فرعون ، فساعة أن جاءه لحذاب أعلن الإيمان ^(١) . فالحق
سبحه وتعالى يقول :

﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَ نَارِقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ يَا إِسْرَآئِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٤٠) ﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه
نوح عليه السلام في مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن في قوله :

﴿ .. رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ضَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ
يُصَلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام :

(١) قال تعالى : ﴿ الْآنَ وَقَدْ جِئْتُكَ نَبِيًّا وَكُنْتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ [يونس] قبل حرم قول الله تعالى
ونبي موسى قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . فرعون قلبي قال ﴿ أَنَا وَكُمُ الْأَعْنَى (٤٠) ﴾
[الأنعام] وقال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (٤٠) ﴾ [القصر] جاء الآن عندما حايى ابوت وأمه
الله على صدق موسى عنطق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ حُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ
يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ كَلَامِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَفْعَلُ لَهَا إِمَامَةً بِمَنْ يُكْفَى آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيمَانِهَا ظَنًّا قُلْ إِنظُرُوا أَنَا نُنظُرُونَ فَخِذُوا (٤٠) ﴾ [الأنعام]

(٢) دياراً أحداً أى : استحصان كل بسمة كافرة من قوم نوح . حتى طال هذا ولده من صبيه ، وقد أورد
ابن كثير في تفسيره (٤١٧/٤) حديث ابن عباس ، وعزاه لاس ابن حاتم أن رسول الله ﷺ قال : قال
رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم جمعت الحبل ، فلما بلغها الماء
صعدت به متكئها ، فلما بلغ الماء متكئها وضمت ولدها على رأسها . فلما بلغ الماء رأسها رطمت ولدها
بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ

سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

ويلاحظ أن الذي دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه .
﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ (٨٩) بدل عنى أن هارون - عليه السلام - قد دعا
مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إنا إن نظرنا إلى الأصالة في الرسالة لوحدها موسى
عليه السلام هو الأصل فيها ، وجاء هارون ليشتد عصبه " ، وإن نظرنا
إلى طبيعته الاتسي فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة

وم دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن افعل واحد
مهما لشيء فلا بد أن ينعمل الآخر لنفس لشيء ، لذلك فلا يوجد ما يجمع
أن هارون ساعة سمع أحياه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء
صه ، أو آبه - أى هارون - قد دعا بهذا الدعاء سرّاً .

والدعاء معناه أنك تفرغ إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ،
فأنت لا تدعو إلا في أمر عرّت عليك أسبابه ؛ فتقول : إن لى ربّاً أو من
به ، وهو يقدر على الأسباب لأن حالق لأسباب ، وقادر على أن يعطى
بلا أسباب ، والمؤمن لحق يستقل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدره من
أمن به ، وهو المسبب الأعلى سبحانه .

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطئ
البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردوهم ، فقال قوم موسى :

(١) المعنى من الإنسان وغيره الساعد ، وهو ما بين الرق إلى الكتف ، والمراد بالمعنى هنا العون
والمساعدة قال تعالى ﴿مَشَقَّنَا عُضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلْنَا كَمَا نَفْلًا﴾ (٢٤) [الفصل]

﴿.. إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦١)

[الشعراء]

قَرَدَ موسى عليه السلام .

﴿.. كَلَّا إِنَّ فِي رَأْيِ سَاهِدِينَ﴾ (٦٢)

[الشعراء]

أى: لا ترتبوا الأمر بترتيب البشر ، لأن معنى رب البشر ، فجاءه الإنقاذ:

﴿فَأَرْحَمْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣)

[الشعراء]

إذن فالدعاء إنما يكون فرعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه .

والموضوع الذى كان يشمل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إصلاال غيرهم ، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدهاء ، ومثل هذا بجده فى غير الرسم ونسبته «التخاطر» ، أى: التقاء الخواطر فى لحظة واحدة .

ومثل ذلك فى التاريخ الإسلامى ، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالسكبر فى جيش المسلمين المعاتل فى إحدى المعارك ، وكان عمر فى المدينة يحطب على الشر ، فإذا به يقول فجأة : «يا سارية» الجبل» وهى كلمة لا موضح لها فى منطق الخطبة ، ولكن كن فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب ، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر ؟ فانهاز إلى الجبل .

(١) الفرق الجبل والطور الجبل الكبير [تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٦]

(٢) «يا سارية بن زبيم التميمى» أسره عمر بن الخطاب على جيش وسيرة إلى فارس سنة ٢٣ هـ ، عوفى فى خاطر عمر وهو يحطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاني العدو وهم فى بطن واد قد عموا بالهرمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية الجبل ، الجبل» ووقع صوته فألقاه الله فى سمع سارية فانهاز بالس إلى الجبل ، وقا تلوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم وانتصروا [الإصابة فى تميز الصحابة لابن حجر العسقلانى ، ٢/ ٥٢ ، ٥٣] .

ويقال في هذه المسألة إن الخطر قد شغل مع الخطر ، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذي تريد الكلام معه قائلاً: لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً ، وهذا يعني أن الخطرين قد انضبط معاً .

وإذا كان هذا ما يحدث في حساباتنا العادية ، فما بالنا عما يحدث في الأمور الصغائية ؟ وفي أرقى درجاتها ، وهي النبوة ؟

أو أن الذي دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمناً^(١) ، والمؤمن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قبل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قبل أيضاً دعوة المؤمن معه .

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هي تحقق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هي موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز لطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى - وأمس هارون - جاءت إجابة الدعاء ﴿ قَدْ أَجَبْتَ دَعْوَتَكُمْ ۖ - (٨٩) ﴾ بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الظمى على المال .

فالسماء ليست موطئة عند من يدعو ، وتقبل أي دعاء ، ولكن قبول لدعوة يقتضي تحديد الميعاد الذي تنفذ فيه .

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ، فالحق سبحانه وتعالى مزمع أن يكون منفذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذي يبدع مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في لميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيبَت على الفور فقد تنصر .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿رَيْدُ الْإِنْسَانِ بِالشَّرِّ دُعَاؤُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝ (١١)﴾

[الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع .

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿... سَأَرْيَكُم آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝ (٣٧)﴾

[الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء ، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شرًّا ، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيرًا .

إذن : فالقدرة العليا رقية علينا ، وتعلم ما في صالحتنا ؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ ادعوات ، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه .

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ ۝ (٣٧) بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ ۝ (٣٨)﴾

[يونس]

(١) عجل لا صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة والمراد أن الإنسان عجول على حب الخير ، وعلى العجلة في طلبه لنفسه ، ويلج في السوء ، حتى لو كان الأمر شرًّا وهو يظن بهجه أنه خير قال تعالى ﴿سَخَّرَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۝ (٣٧)﴾ [الأنبياء] وقال تعالى ﴿إِنِّي أَمَرْتُ غُلَامًا بِسَخِرَ لَهُ ۝ (١١)﴾ [الشعرا]

(٢) عجل يعجل - عجلًا وعجلة واستعجل استعجالًا . قال تعالى ﴿وَأَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۝ (١٧٥)﴾ [الأعراف] وقال ﴿وَمَا أَصْحَابُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ۝ (٢٥)﴾ [طه] وعجل الأمر : طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر سقه [القاموس المفيد] (٤) الأجل : مدة من الزمن ، والمراد : العمر .

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه^(١١) ، ألا تسمع أمّا تدعو على ابنها أو ابنها رعم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس في ذلك شر بالنسبة للأم .

والولد قد يقول لأمه مخاصباً: يا رب تحدث لي حادثة ، حتى تستريحى مى . فهب أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو مرضى أمه ؟

طبعاً لا ، فإذا كان الله سبحانه قد أسطأ عليك مدعاء الشر فهذا خبر لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك مدعاء الخير على أنه خير لك

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام .

﴿ قَدْ أَجَبْتَ دُعَاؤَكُمَا فامْتَقِيَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٥)

[يوس]

أى بقيا على الطريق السوى ، ولا تُنحِلَا نفسيكما فيما لا عسم لكما به ، أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَادَنِ نُوْحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٤٥) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح

(١١) أنتهى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس ولأولاد والأموال ، فمن حارب بن عبد الله ومضى الله عنه قدس سره مع رسول الله ﷺ من عرره بطن بواحد وهو يطلب المجدى بن عمرو الخنسى ، وكان الناصح يعقبه من الخمسة والسنة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على الناصح له بأن حبه فركه ثم شتمه فطلب عليه بعض البلد حال له . قال لك الله . فقال ﷺ : من هذا إلا عن بعير ؟ قال أن نارسوا الله قال ففرل عنه فلا مصحبه يعلمون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم أخرجه مسلم (٣٢١٩)

في اجتياز البحر ، لكن المحاورة كانت بأساليب غير ملحوظة بالنسبة للشبر ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى لموسى :

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ ﴾ (٦٤) [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق^(١) هو وسيلة السيولة ، وهي عكس التجمد الذي يتسم بالتحير .

والاستطراق هو الذي قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التي تكون في الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم صبح المياه إليها ؛ لتتورع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى استطرقة على المارل ، أما إذا كانت هناك ساية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المسى بتركيب مصححة لرفع المياه إلى الأدوار العالية .

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ . . كَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ۖ ﴾ (٦٥) [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التي تحميه ، وهي تعبير لقول الحق سبحانه :

﴿ . . إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ ﴾ (٦٦) [الشعراء]

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بلبونه أفقية ، وإذا وضع سائل في إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد في جميع الأنابيب ، [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية] .

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده بعده يدرّكهم ، وأراد سيّدا موسى - عليه السلام - بمجرد مجاحته في العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينحى ويهلك بالشئ الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام :

﴿وَأَنزَلْنَا الْيَمْرُوتَ ۖ وَهَؤُلَاءِ مِنْهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِقُونَ﴾ (٧٤) [الدخان]

أي : أترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وبإن ينزل بحر جندى منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيفرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَأَتَتْهُمْ فرعون وجنوده﴾ (٩٠) [يونس]

فهل كان هذا الإتيان دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستفروا فيها ؟

لا ، لم تكن هذه هي نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتيان : ﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ (٩٠) [يونس]

أي : أنه إتيان رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان

وبصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

(١) قال الأزهري : هو أسكن من نعت موسى ، أي : على هيتك . قال : وأجردت أن يجعل وهو أسكن نعت البحر ، وذلك أنه قام غرقه ساكنين فقال لموسى : دع البحر قائما ماؤه ساكنا وأجبر أنت البحر [ذكره س. منظور في اللسان ، ص ١٢٤ : هذا] بقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا الْيَمْرُوتَ ۖ وَهَؤُلَاءِ مِنْهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِقُونَ﴾ (٧٤) [الدخان] أي : ساكن الأمواج يخترقوا فيرلوا به

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ .. ﴾ (١٠) [يونس]

والإدراك قصد للمدرك أن يلحق بالشئ ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شئ يلاحق المرعون ؟

نعم ، فكان العرق جندى من الجود ، وله عقل يفعل ؛ فيجرب إلى الأحداث :

﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١١) [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لِّمَ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ (١٢) [الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « من آمن بالله ثم استقم »^(١) . وفي هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى

لكن لو قلت مثلاً « آمنت أنك رجل طيب » فهذا يمان له متعلق ، أما إذا ذكر الإيمان بإطلاق فهو بصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولدت قال الله سبحانه للأعراب :

﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ (١٣) [الحجرات]

(١) وثاني المسلمين ، أى من المؤمن المسلمين بالانقياد والطاعة وهو قول متأخر جداً جاء بعد موت الأول

(٢) عن معمر بن جندب عن النبي قال : « قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدٌ بعدك قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد بن حنبل (٢٨٦/٤)

وهنا تأتي القول على لسان فرعون :

﴿ . آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يُوسُفُ وَإِسْرَافِيلُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾

[يوس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجبهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهم كجبهة إيمان ، وأعلى فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ﴾

[يوس]

ولم يقل الله ذلك من دليل قول الحق سبحانه :

﴿ أَتَكْفُرُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩٢) ﴾



وهذا يعني : أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين . إن قولك هذا محدود ، لأنه جاء في غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإخبار وإيمان الاختيار ، أتقول الآن مت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد في الأرض

وكان من الممكن أن يقلل الله سبحانه منته إيمانه وهو في بحيرة^(١) بعيدة عن الشر الذي حاق^(٢) به

(١) من هو من قول الله تعالى وقيل . هو من قول جبريل وقيل ميكائيل ، أو هيرهما من ثلاثته - عليهم السلام وقيل هو من قول فرعون في نفسه ، ولم يكن ثم قوب باللسان ، بل وقع حيث في قلبه فقال في نفسه ما قال حيث لم تسمع الندامة ونظيره : ﴿ إِنَّمَا نَعْبُدُكُمْ فَرجه الله . (٩٣) ﴾ [الإنسان] أتى عليهم الرب سبحانه بما في ضميرهم ، لا لأنهم بالوا ذل بلعظهم . والكلام هو كلام القلب [أذكره القرطبي في تفسيره ٦/٤ - ٢٣٠] - تصرف

(٢) البحيرة ما ارتفع من الأرض

(٣) حيان به الشيء بحقيق حقيقاً نزل به . وأحاط به . وقيل الحق من اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عذبة مكروه عمله . قال تعالى ﴿ فَوَفَّاهُ اللَّهُ سِنِينَ مِمَّا كُفِّرُوا وَرَجَى بَالُ فِرْعَوْنَ سَوَاءَ الْعَذَابُ (٩٤) ﴾ [عاقرة] وقال تعالى ﴿ . إِذْ كَانُوا يَصْطَلُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٩٥) ﴾ [الأحقاف]

فالحق سبحانه لا يقس إيمان أحد بلفت روحه الملقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار .

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجر الحق سبحانه اخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأماما الكون كله حاضعا لإمرة الله سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى ، وقدره الحق عز وجل - اطلقة فادرة على إخبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبة للمعبد

وهذه المحبوبة للمعبد لا تثبت إلا إذا كان لك خيار في أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار

إذن : فالمرءود من فرعون ليس القول ، ولكن رضى القول .

ويقال إنها رُدَّتْ ولم تُصل رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا في مرحلة التحسيس لذات الله وادعوا - معاد الله أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأمر رجليه في حوض ماء ، وكان يلعب مع الخوت ، إلى آخر الحرفات التي ابتدئها بنو إسرائيل .

وحس أعلى فرعون أنه آمن بالإله الذي أصت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه ، ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافُلُونَ ﴾ (١٢)

(١) يقول الحق سبحانه ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلها جميعا لآب نكرو الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (١٢) [يوسف]

ونحن نعرف أن الإنسان مكون من بدن ، وهو الهيكل المادي المصور
على تلك الصورة التي عرفها ، وهناك الروح التي في البدن ، وبها تكون
الحركة والحياة

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول :
جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادي للمجرد من الروح
والحق سبحانه هو الفاعل :

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ۚ﴾ (٣٤) [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من
الملك ما لا ينبغي لأحد من عبده ، وسخر له الجن والرياح وعلمه كل
اللغات ، وكان صاحب لأوامر والنواهي والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً
على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أي واحد من لرية ، ثم
أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٣٥) [ص]

أي . أنه أفاق لنفسه ، يعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُقاض عليه ، لا
أمر نابع من ذاته

وهنا في الآية للكرمة التي نحن بصددھا لأن يقول الحق سبحانه :

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَئِنْ كُنْتُمْ لَمَنِ كُفُّوا أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ لِيَبْتَغُوا ظُهُورَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَحِطُّوا إِلَيْهِ يَوْمَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ (٣٦) [بوس]

(١) أناب إلى الله تعالى بالتوبة [كلمات القراء للشيخ حسين محمد مخلوف]

(٢) نجيت مخرجك من البحر ببدنك بجسدك الذي لا روح فيه لتكون من عطفك بعدك . أي
غيره ، فخرجوا عيونك ولا يقدروا على مثل فعلك . وعن ابن عباس أن بعض بني إسرائيل شكروا
موتهم فأخرج لهم ليرؤهم . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] . وقد قرأ اليربوعي وابن السميع «سجيت»
بالخاء ، أي تكون على ناحية من البحر ليرؤك

وبالله ، لو لم يأمر خلق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كن من
الحائز أن يقولوا: إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الخلق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى
حيوان غارق ، حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ،
وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصح
عبارة للجميع ، بعد أن كن حياراً مسرفاً طاغية يقول لهم

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ۚ ۝٢٨ ﴾ [المعصر]

وبعض من ساحى التاريخ يقول : إن فرعون المقصود هو "تحتشمس" ،
ولأنهم حللوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة .

وبحق نقول : إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ،
ولعل أجساد المرعين المعطاة تقول لنا : إن علة حفظ الأبدان هى عبده ؛
ولستعط كل إنسان ويرى كيف انتهزت الحضارات ، وكيف بقيت تلك
الأبدان آية نعتير بها .

وقد تعرض القرآن لمآلة الفرعون ، فقال الخلق سبحانه .

﴿ فَرُوعُونَهُ ذِي الْأَوْتَادِ ۚ ۝٢٩ ﴾ [المعمر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة من كل حصار مفيد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ۚ ۝٣٠ ﴾ [المعبر]

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد : لأن فرعون كان يثبت الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى ص ٥١٢] وذكر فى تفسير الخلالى (ص ٢٩٨) أن فرعون كان يتد لكل من يعصب عليه أربعة أوتاد يشد
إليه يديه ورجليه ويهدمه وفى [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] الأوتاد الجسود
أو ملأنى لفظة

(٢) إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم ويجزيهم عليها [كلمات القرآن]

ونلاحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون في سورة الحجر كان كلاماً يضم إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك نكلم الحق سبحانه عن الفرعون في أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف في قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتي وطفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هي وظيفة «عزير مصر» - أي : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتِنِي بِهِ . (٥) ﴾ [يوسف]

ولم يُكتشف الصارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» في التاريخ المصري إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر رفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيده» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون «المراعاة» إلا في فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أعادوا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوه من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن في قصة يوسف عليه السلام كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أي اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقي ، نجلده برؤيد كتاب الله .

ويُنتهى الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها بقوله

﴿ ... وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لِعَافُونَ ^(١) (١٧) ﴾ [يونس]

(١) وكثيراً من الناس - أي : أهل مكة ، عن آياتنا غافلون ، لا يعتبرون بها [تفسير الخلالين ص ١٨٧]

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦١٨٧﴾

وهذا القول يوضح أن هناك من يعفل عن الآيات ، وهناك من لا يعفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ريتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن حدود كل شيء ، فيصل إلى انتكارات واحتراعات يستفح بها الإنسان ، أدن ميلادها عند البحث عنها ، لتبيين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الانتكارات سيجدها وليدة أفكار من بطروا بامعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يفعل الناس عن الطر في آيات الكون ، ولسموات والأرض ، لرادت الانتكارات والاحتراعات ، والحق سبحانه هو القائل .

﴿وَكَايَ مِنْ آيَةٍ^(١) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾﴾

وحين ينظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذي رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، لتحذ أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذي تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية

وحاء من بعد نيوتن من بنى سمن المصماء التي تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك يجد من صمم العواصم ، والبوحر العملاقة التي تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعده «أرشميدس» الذي لاحظ أنه كلما غطس شيء في المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء العاطس فيه .

(١) كاي من آية - كم من آية - كثير من الآيات [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد معلوف]

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة في الكون ،
وهم تميزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذي اكتشف «البنسلي» قد لاحظ أن أصبصاً^(١) من
المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التي
تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عيته من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها
بعض التجارب في معمله إلى أن اكتشف «البنسلي» .
وقول الحق سبحانه .

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) ﴿

[يوسف]

فكانهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التي تأتي في القرآن ، إنما جاءت ليستعبر الناس
ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسلاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ،
فعلى الناس أن يستمعوا ويقولوا : «آمناء» ، لا أن يظفروا في حالة إعادة
للتجارب السابقة ؛ لأن ارتفاعات البشر في الأمور المادية قد بواصلت ،
لأن كل حيل من العلماء بأحد نتائج العلم التي ترصل إليها من سبقوه .
فلماذا لا يحدث هذا في الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله
تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولوصل خير آدم

(١) الأس (بفتح الهمزة ، وبكسر ما ، وضمها) الأصل والأصبص أصل الدن (إناء) أي أسفه
ويقال : هو كهيشه الجر له عروقان يعمل فيه الطين وفي الصحاح الأصبص ما تكسر من الآيه ، وهو
صم بلجر أو الخابية نزع فيه الويا سين [لسان العرب مادة (أ ص ص)] ، وتطلق هذه الكلمة على
أوان من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات

إلى كل من وكَّدَ بعد ذلك ، بكنافة البشر أن للإنسان يريد أن يجرب نفسه

وحيث نجد ذلك في أمور ضارة مثل : الخمر ، مجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرّمها الدين وحديا من يتساءل : لماذا تُحرّم ؟ وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره معمر الآخرين .

و يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَوْأَصِدِي وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلَادُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣﴾

وكلمة «تبراً» تعنى إقامة مباءة أى البوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مو» فهى تعنى الإقليم أو الوطن ، والوطن أب تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص في البيت ، وقد يحصل الثرى في
مترله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أب غالبية الناس فكل أسرة تسكن في «شقة» قد تكون من عرق
أو اثنين أو ثلاثة حسب إمكانيات الأسرة.

(۱) برانا آرت میوا صدف قتر کرے وہو مصر والشام بال آمن معصم وکشر معصم [تفسیر حلالین، ص ۶۸۷ - مصرغہ]

إذن: فيوجد فرق بين تَبَوُّءِ السيوت وتَبَوُّءِ المواطن ، فتَبَوُّءُ المواطن هر الوطن .

وسبق أن قل الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام

﴿ أَنْ تَبِوءُوا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا .. ﴾ (٨٧) [يونس]

هذا فى التَبَوُّءِ الخاص ، أما فى التَبَوُّءِ العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوتًا صِدْقٍ .. ﴾ (٩٧) [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك فى زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن فى مصر والشام ، وهو سبحانه القائل:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ﴾ (١) [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التى حوله مُبَوًّا صِدْقٍ .

وكلمة «الصدق» تعنى جماع الخير والبر ؛ ولذلك نحمد الرسول ﷺ حينما سئل : أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ قال : «نعم» . وحين سئل : أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا ؟ قال : «نعم» . وحين سئل : أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا ؟ قال : «لا»^(١)

(١) سبحانه الذى أسرى بعبدته تنزيها وبركة له سبحانه وتعالى مما يقول فيه المشركون والإسراء السرى. السرى الليل المسجد الأقصى بيت المقدس الذى بارك حوله لسكانه فى معاشهم وأقواتهم [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣١٣]

(٢) أخرجه الإمام مالك فى موطعه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلًا

ولذلك فأنت تجد في الإسلام عفوية على الرنا ، وعقوبة تقام على السارق " ، أما لكذب فهو حصلة لا يقربها للمسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً . وكى نحصال الخير هي مَوْأ الصدق .

ولذلك يجد قون الحق سبحانه :

﴿وَقُلْ رَبِّ اَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَّاَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (٨)

[الإسراء]

وقون الحق سبحانه :

﴿وَبَشِّرِ الَّذِيْنَ آمَنُوْا اَنْ لَهُمْ اَلَمْ يَكُنْ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (٢٠)

[يوسف]

ونول الحق سبحانه :

﴿وَاَجْعَلْ لِّيْ لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِيْنَ﴾ (٨٤)

[الشعراء]

أى جعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهي سوانق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان اجراء على الصدق هو ما يقوله عنه الحق سبحانه :

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٥٥)

[القمر]

(١) مرر الكتاب والسنة صعوبات محددة جرائم معينة هي جرائم الحدود ، وهي الرنا ، والقذف ، والسرية ، والشكر ، والحدارية ، والردة ، والنسب ، وذلك لتحقيق صيائه للجمع من مواسى الدين المقتل ، المال ، العرمس ، النفس ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها بتم تعدد العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا في كتب الفقه (أبرار الحدود) .

(٢) وقول رب ادخلى مدخل صدق ، أى ادخلى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره وأخرجنى من مكة مخرج صدق : إخراجاً لا أنصنه بعلنى إليها . [تفسير الخلالى ج ٢ ص ٢٥١] .

(٣) قدم صدق سلفه فصل ، ومراد ربيعة [كلمات القرآن] للشيخ حسين محمد مخلوف]

(٤) لمد صدق ثمة حسناً وذكر أجمعياً [كلمات القرآن]

(٥) محمد صدق مكان مرتضى [كلمات القرآن] عند ملك . دى ملك مقتدر على كل ما يشاء ،

لا إله إلا هو [مختصر تفسير الطبرى ص ٦٠٧]

وهو مقعد عند ملك لا يسخن ، ولا يجلس في رحابه إلا من يحبه ،
ولا يضن بخيره على من هم في رحابه

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ،
وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن برأ الحق سبحانه بنى إسرائيل موطأ صدق ، في مصر والشام ،
وبعد أن قال لهم

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ ۝ (٦١) ﴾ [الأنعام]

أي : أن الحق سبحانه حقق قوله .

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۖ ۝ (٦٢) ﴾ [يونس]

وأجابه من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم
ويقول الحق سبحانه .

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ النُّعْمُ ۖ ۝ (٦٣) ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ،
ومنهم من ترقب مجيء نبي ﷺ ليسوا يؤمنون به ، ومنهم من نادى في
الطغيان : لئن قطعتهم الله - سبحانه - في الأرض أئماً .

وحين نظر إلى دقة التعبير القرآني نجد أنه يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم
في كل أمة يمثلون قطعة ، أي أنه سبحانه لم يُسبِّحهم في الشعوب بل
لهم في كل بلد ذهبوا إليه مكان خاص بهم ، ولا يتدربون في غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ ۖ لَبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُتُوا الْأَرْضَ ۖ ۝ (٦٤) ﴾ [الإسراء]

(١) «هبطوا» انزلوا مصرًا من الأمصار أي بلدًا من البلاد

(٢) من بعد أي من بعد إعراف فرعون

وقد يقول أحد السطحيين : وهل هناك سكن في غير الأرض ؟

ونقول : لنا أن نلاحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم في أية بقعة من الأرض يسكنون ، فكان الحق سبحانه قد بيّن ما أصدره من حكم عليهم بالتقسيم في الأرض أمّا : فهو سبحانه القائل :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي لَآرِضٍ أُمَمًا ۚ ۞ (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

وإذا كنا نراهم في أيماننا هذه وقد صار لهم وطن ، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَضِيَ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۚ (١٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال في آخر سورة الإسراء :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۚ ۞ (١٤) ﴾ [الإسراء]

ولمجيء بهم لفيفاً إما يعنى أن يجمعهم في وطن قومي لتأتى لهم الصرة القاصمة التي ذكرها الحق سبحانه في قوله :

﴿ .. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوزُّوْا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۚ ۞ (٧) ﴾ [الإسراء]

(١) أي : مرتين في الأرض مرة لتفسير الجلالين : في ١٤٦

(٢) لفيفاً جميعاً

(٣) أي : رد أمستهم الكرة الآخرة وجاء أعدكم ليسوزوا وجوهكم ، أي : يهزئكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ۚ ۞ (٧) ﴾ أي : بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ۞ (٧) ﴾ أي : في التي حاسوا فيها حلال الدبار ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۚ ۞ (٧) ﴾ أي : يدمرو ويحربوا ما ظهروا عليه تدبيراً يتصرف من تفسير ابن كثير (٢٦/٣) وقد ذكر ابن كثير قول قتادة : قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا النبي محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدهم صاعرون ، وهذا لا يعنى أن يحدث عدة مرات ، وبذلك حال رب العزة ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَا ۚ ۞ (٨) ﴾ [الإسراء]

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم في كل بلد من البلاد التي قطعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون في مكان واحد ، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله .

وحين ننظر إلى رحلتهم نجد أن «يثر» كانت المكان الذي اتسع لهم بعد اصطهادات المجتمعات التي دخلوا إليها ، وعين اجتماعوا في يثر صار لهم الجاه ، لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب .

وهم قد اجتمعوا في المدينة ؛ لأن المحلصين من أهل الكتاب أحروهم أن هذه المدينة هي المهجر لبني ورسول يأتي من العرب في آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش : «لقد أظلم زمان يأتي فيه بني تبعه ، ونقتلكم فيه قتل عاد وإرم» .

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالة الله ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بورساله حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية .

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿لَمَّا اخْتَلَفُوا فِيَّ فَأَمَّهُمْ الْعِلْمُ﴾ (٩٢) . [يونس]

أي : أن علمهم بمجيء ارسول الله ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فأمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به .

(١) قال ابن سبويه : ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَشِّرٌ لَهُمْ وَأَنذَرٌ مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتَحُونَ عَلَى الدِّينِ كَفَرُوا لَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ نَصَّةَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة] ومن أشياخ من الأنصار قالوا : كتب مدعيهم قهراً دعواً في الجاهلية وسمى أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن تبعه ، قد أظلم زمانه فقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش وانبعث كرهوا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١٢٤ / ١) فلا عن ابن إسحاق

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متغفبين ، وتوعدوا المشركين من هريش . وبإذن أهل الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد طهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج : إنه النبي الذي توعدنا به يهود ، فيها بنا لنذهب ونسبهم إليه نيل أن يسبقوا ، فيقتلونا به .

فكان اليهود هم الذين تسببوا في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لتعلم كيف يبصر الله تعالى ديه بأعدائه .

ولذلك نجد أنهم في أحلافهم يأتي عبد الله بن سلام ^(١) إلى رسول الله ﷺ ويقول : إن اليهود قوم بُهتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون في ما يسيء إليّ ؛ لذلك قبل أن أحس إسلامي سألهم عنى

وكان ابن سلام في ذلك يسيك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبي ﷺ وقال ما تقولون في ابن سلام ؟

قالوا . حنربا وشيخنا وهو الورع دينا ، وبعد أن أثروا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام . يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله

وهنا بدأ اليهود يكتلون له السباب ، فقال ابن سلام . ألم أقبل لك يا

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الأسدي البجلي ، أبو يوسف ، سبى مع قدوم النبي ﷺ إلى المدينة ، كان سبى الحبشيين وسماء النبي ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس وأخاياه . ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اتخذ سبأ من حبش ، وعثر بها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - لدرر كلبي ٩٠ / ٤)

رسول الله إنهم قوم بُهت^١

إذن . بمعنى قوله سبحانه :

﴿ فَبِمَا اخْتَلَفُوا فِيَّ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۖ.. (٩٢) ﴾

[يوس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الساطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ

ويهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَيْثَ يُقْضَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾

[يوس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا من صف الإيمان ، وبين من بقوا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلاحظ أن كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ توضح أن الضمير عم ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكاافرين ، ويقضى أيضاً بين لكافرين ، فمنهم من كان صالحاً لكافر ،

(١) من أس بن عائذ ابن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة ، سأته يسأله عن أشيائه فقال إنى سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بان الولد يروح إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال أخبرني به جبريل انصاً . قال من سلام . ذلك عند اليهود من الملائكة . ما أول أشرط الساعة من تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الخوف . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة يروح الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل يروح الولد . قد أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فسألهم عنى قل أن يهدموا بسلامي . وجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ . أرى رجل عبد الله بن سلام فكلمهم ؟ قالوا خبره . وبين خبرنا وأعضنا رابن أنفك . فقال النبي ﷺ . أرايتم إن أسلم جد الله بن سلام ؟ قالوا . أعاده الله من ذلك . فبعد عليهم . فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : شربنا من شراب ، وتقصصوه . قال : هذا ما كتب أعف يا رسول الله . أخرجه البخارى بن صحيحه (٣٩٣٨) وأحمد بن مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧٩ ، ٢٧٢)

سُورَةُ الْيُونُسَ

٦١٩٧

ومهم من كان مخلصاً أو مرتشياً ، ومهم من عمل على غير مقضى
دينه ؛ لذلك ، يقص الله سبحانه بينهم

والآية تعيد العموم في القصص ماضياً وحاضراً ومستقلاً بين كل مؤمن
وكافر ، وبين كل نائب وعاصي ،
وبقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ
يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾^(١)

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

وبحق تعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك في رسالته ،
وحين وعده أهله بالسيادة قال :

« والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك

(١) مُخاطب بهذه الآية محمد ﷺ وأمراده غيره ، وكذلك الآية بعدها ﴿ وَلَا تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
بَاهَمُوا اللَّهَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه صيغ المصدر ،
أي : إن فساق صدرك بكفر هؤلاء عاصير ، وبسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يمبروك صبر
الأنبياء على هتك على أي قلوبهم وكنية عافه لهم . [تفسير القرطبي ٤/ ٢٢١٠]

(٢) من شك في أمرنا إله فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك من أهل السورة والإنجيل ،
كعبد الله في سلام . رقبك إن رسول الله ﷺ - كما رتب هذه الآية - قال : « ما أشك ولا أسأله » وقد
علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، قول الرحمن لآله : « إِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ مِنْ الْبَرِّ أَى كَرِ
بَرِّائِي وَهوَ لَا يَشْكُ مِنْ أَنَّهُ بِهِ مِنْ الْمُتَمَرِّينَ الشَّاكِّينَ » [مختصر تفسير الطبري ص ٢٤١]

(٣) امتري في الشيء - شك فيه ولم يستعير - تجلوى العموم به ، فطلوا وتعدى في الشيء - تشكك
فيه - قال تعالى ﴿ هَلْ يَأْتِيَنَّكَ تَتَمَارَى ﴾ [الحج] أي تشكك ، وينظم معنى التكدب
[المأمون الترمذ] وراجع : لسان العرب مادة [مري] .

هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك قبه ، ما تركته ^(١) .

تقول : إن الحق سبحانه وتعالى يظمّر خطاب الأمة في خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا ^(٢) عن أي أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثني من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما إياك أن تعمل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرعوسيه من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لشأنهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ يتفد كل ما يؤمر به بدقة ^(٣) ؛ وذلك من باب خطاب الأمة في شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ .. (٩٤) ﴾ [يوس]

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معروفاً لابن سحاح ، أن قريشاً قالوا لآلئ طالب ، يا أبا طالب ، إن لك سباً وشراً ومحنة ، وإن قد استعصمك من ابن أخيك فممنته ما ، وإنا والله لا نصبر على مد من شتم آئتنا . ونسب أعلام ، وغيب قلب ، حتى تكفه عنا ، أو نلزمه وإياك من ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوا بي ، فقالوا إن بك ركد ، فأبى عليّ وعلى هلك ، ولا نعمل من الأمر ، لا أطيق . فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة .

(٢) الاستكفاف الامناع تكبيراً وأتمة ومنه قوله تعالى ﴿ لَنْ يَسْتَنكفُوا السُّبْحَ أَنْ يُخْرِجُوا عِندَ اللَّهِ وَلَا الْفَلَائِكُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكفِرْ عَنْ صِدْقِهِ وَيَشْكُرْ لِمُبَشِّرِهِمْ إِلَهُ جَمِيعاً (١٧١) ﴾ [الباء]

(٣) ومصداد ذلك قوله سبحانه ﴿ فَلَمَّا لَكَ فَادَعٍ وَصَفْتُمْ كَمَا أُمِرْتُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ نِعَتُ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ .. (٥) ﴾ [الشورى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



هذا القول دليل على أن الدين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لآبي ، ومعرفتي لمحمد أشد» .^(١)

إذن فالحق عندهم واضح مكتوب في التوراة^(٢) من إشارة به ﷺ ، وهذا يشهد أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء

ويُهيئ الحق سبحانه الآية بقوله تعالى

﴿ .. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴾ (٩١) [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه وقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٤) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أنعرف محمداً كما تعرفونك؟ قال نعم وأكثر ، من الأُمم من السماء على الأُمم في الأمر بنته معرفته ، وإني لأدري ما كان من أمه

(٢) يقول تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الرُّسُومَ فِي الْإِسْلَامِ الْأَمِّيُّ الَّذِي يُحْمِلُونَهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ رَيْبًا لَهُمْ مِنَ الْمُنْكَرِ وَيَحْمِلُ لَهُمُ الطَّيْمَانَ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِمْ وَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ فَكُنْ لَهُمْ سَاحِدًا شَاهِدًا أَنَّهُمْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢٤٠) [البقرة]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كانه يقول : إن هذه الآية التي في القرآن ﴿ وَاللَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة ٢٤٠] هي في التوراة : يا أيها النبي إن أرسلتك شعاعاً وميضاً وميضاً فوجروا لأُمميين ، أنت عندي وزعزلي ، صعبتك ، المشوكل ، بسيت بسطاً ولا غلب ولا مستغيباً ولا أميواً ، ولا يدع المسيئة بالسبيطة ، ولكن يعمر ويصنع ، ولن يقيمه حتى يقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها عبداً عمياً ، وإفاناً صمياً ، وقلوباً عملاً أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٨/ ٥٨٥) فتح (١/ ٣٧٥)

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقق الدقيق أن يقلب أوجه الشهادات التى تقال أمامه
فى النية أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدحس فيه لتأقضى ،
ولا يعتمد على تحيُّل أو أكاديب
وقول الحق سبحانه

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ ۖ ۞ ﴾ (٩٤)

[يوس]

إنما يدل على أن الدين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقاً ،
واعتهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ، لأن الحق
الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك .

﴿ ۖ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْتَرِينَ ۞ ﴾ (٩٤)

[يوس]

ومجيء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجّه إلى الأمة المؤمنة فى
شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَيْسَ أَشْرَكَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ۖ ۞ ﴾ (٦٥)

[المرم]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى
ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المنه عنها رسول
الله ﷺ خاصة بأمته

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(١) أى. لكن أشرك بالله أحداً ؛ ليحبط عملك [مختصر تفسير الطبرى ص ٥٢٧] يصرف وجوب
الأيمان بطلانها ونسبها رغم تحصيلها وأصله [إدحيط الماشة أى تأكل فتكثر حتى تشبع
طوبها ولا يخرج منها ما يبيها] نظر اللسان مادة [حط]

﴿ وَلَا تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

[يوس]

والقول الحكيم ساعة يوجه إلى الخير قد يأتي بمقابلته من الشر ، لتتضح الأشياء بالمقارنة .

ونحن في حياتنا اليومية نجد لأب يقول لابنه : اجتهد في دروسك ، واستمع إلى مدرسك جيداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذي رسب ، والوالد في هذه الحالة يأتي بالإعراء الخير ، ويصاحبه بمقابلته ، وهو التحذير من الشر .

وقد قال الشاعر :

وَلَوْحُهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيَّنٌّ وَاشْعَرُهُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ
صِدْقَانِ لَمَّا اسْتَجَمَا حَسَنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الصُّدِّ^(١)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ
فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

آيات الله سبحانه كما عرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهي الأصل في المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتلقت هذه الآيات إلى بديع صنعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرته .

وكذلك يقصد بالآيات ، المعجزات المبررة على الرسل - عليهم السلام لتظهر بصدق كل رسول في البلاغ عن الله تعالى

(١) لا صدق في ظهوره يظهر مبرراته ، فمن لا يعرف قيمة الحق إلا إذا تلوّثها مرارة الباطل ، ولا يعرف قيمة الهدى إلا إذا عشت الليل في ظلامه ، ولا يعرف حماره العبد إلا إذا اكتوينا ناراً بالظالم

وآيات القرآن الكريم التي تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل آيات .

والخطاب في هذه الآية هو خطاب للنبي ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما في الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ (٩٤)

[يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن يفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذبوا بآيات الله . سببها وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد يدفع خواطر الشبهة ، أبنا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ في التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موارين الفهم هي أمته تعليماً وتوجيهاً ، لأن المنهج مُنزل عليه لتبينه لأمته فهو شهيد على الأمم .

وإذا كانت الآية التي سبقت توضح : إذ كنت في شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه اسؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، ويستمع له لكل الأمانة ، الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبي ما أنزل الله سبحانه عليّ .

ألم يرد في القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيمة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكتهم .

﴿ .. أَهْلَؤْلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٩٥)

[سأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٩٦)

[التحريم]

(١) ردت مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَتُكُونَ لَكُمْ عَلَى هُدًى ﴾ (٢١٣) [البقرة]

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون

﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيَّا مِنْ دُونِهِمْ...﴾ (١١٦) [١]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسمع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستكروا أن يعبدوا أحداً من الخلق ، هؤلاء الخلق إنما عبدوا الجس

إذن هالسؤال جاء : ليس الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ (١١٧) [الثانية]

فيأبى الجواب.

﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ (١١٨) [الثالثة]

إذن . فالمراد أن يقول الرسول ﷺ أنا لا أشك ولا أسأل .

ولشك^(١) كما نعلم - معناه - تساوى كفة النفس وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، ونكون المرجوحة ومماً واقتراء وكذباً

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فحين يرى الصيادون وهم يصطرون كل سمكة بعد اصطيدها فى حيط يسمى «المشكاك»

وكذلك يرى من يقوم بـ(لضم) لعقود ، وهو يشك الحبة فى الحيط^(٢)

من هذا يأخذ أن الشك معناه - ضمُّ شيء إلى شيء ، ومنه الشكك^(٣) ،

وهى الثيرت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

(١) لشك - حالة يفسد بتردد منها الدافع من الإثبات والنفي ، ويترتب عن الحكم [المعجم الوسيط]

(٢) شك الشيء واشكاه - ضم أجزائه [المعجم الوسيط - مادة (شكك)]

(٣) الشكك - جمع شككة ، وهى مجموعة أشياء شك - أى ضم - بعضها إلى بعض [المعجم الوسيط - مادة (شكك)]

ومنه «شك السلاح» أي: الذي ضمّ نفسه إلى الدرع

فالشك هو ضم شيء إلى شيء ، وفي النسب تضم النعمى والإثبات معاً ؛ لأنك غير قادر على أن ترجع أحدهما .

وكل حطاب في الشك يأتي على هذا اللون .

والآية التي نحن بصددنا نقول .

﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦٣)

[يوسا]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات ، وهكذا يرى أن الخطاب موجه لأمته ، فسر المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذّبين بآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعنى : إخراج الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع .

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بآله ، أو يؤمنون بآله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بآله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ .

والذى يؤيد هذا وجود آية في آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الدِّينَ تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ اللَّهِ . . ﴾ (٦٤)

[يوسا]

(١) الشكّة : ما يحمل أو يلبس من السلاح . [المعجم الوسيط - مادة (ش ك ك)]

(٢) دون : يقبض فوق ، وتكون ظراً ، وتأتى بمعنى أمام ، وبمعنى وراء ، وبمعنى غير ، وبمعنى قرب أو جهة ، وبمعنى بيل ، وبمعنى أقل . والتعبير بين هذه المعانى يكون بالقرائن . وهى من الآية ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الدِّينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَرَفَّعُ عَمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أن أتود من المؤمنين . [يوسا] بمعنى (غير) [القاموس القويم] بتصرف

فكان الخطاب المقصود منه لأمة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

﴿١٦﴾

وهذا القول بوضوح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم علماً أرباباً بأنهم لن يُوجهوا اختيارهم للإيمان.

محكمه ما لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار ، ولكنه علم الله الأرسى بما سوف يفعلون ، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق عدم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم .

وحُكْمه سبحانه مبني على الاختيار ، وهو حكم تقديري

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يأتي وزير الزراعة ، ويعلم أن ما قدّرنا محصول القطن هذا العام ، بحساب مساحة لأراضي المزرعة فقط ، وبالتوسط المتوقع لكل فدان ، وقد يصيب الحكم ، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة برعاية القطن ، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بأفة من الآفات ، مثل : دودة اللوزة ، أو دودة الورد

إذن ففي المجال الشرعي قد يصيب التقدير وقد يخطئ ، لأن الإنسان يُقدّر بعين علم مُطلق « بل جهلهم نسبي » .

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أرسى ، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدّر .

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ١٠/ ١٨٧.

ولذلك يجب أن نفرق بين قصص حكم لارم فهري ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّرَ من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختباره ، وهذه هي عظمة علم الغيب

ومثال ذلك : هو سلوك أبي لهب ^(١) ، فقد نزل فيه قرآن يُثَلِّى :

﴿ تَبَّتْ ^(٢) يدا أبي لهب وتب ^(٣) ما أغنى عنه ماله وما كسب ^(٤) ﴾

[المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة ؛ لأن الحق سبحانه قد علم أولاً أن خواطر أبي لهب لن تدفعه إلى الإيمان ، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لحاء لرسول الله ﷺ وقال : أنت قلت عني إني سأصلي ^(٥) النار ، لكن ها أنذا أعلن أنني أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب ، فقد علم الله أولاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام ، مثلما دعت حمرة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وعمر من الخطاب ، وحالد بن الزيد ، وعمر بن العاص . وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبي ﷺ أمراً وارداً

وقد يُقدَّرُ للبشر التقدير ، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنت أمة ، وإفان سى أبا لهب لا حمرار وجهه وإشراقه كأنه الذهب

وسبب نزول السورة التي ذكر فيها ، أن النبي ﷺ خرج إلى الطلحة فصعد الجبل ليدى بأصحابه واجتمعت إليه قريش فقال : رأيتم إن جعلتكم أن العدو مصبكم أو ممسككم ، أكنتم تصدقوني؟ قالوا نعم قال : إني بغير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : ثباً لك ، ألهذا جمعتنا؟ فأمره الله ﴿ تَبَّتْ يدا أبي لهب وتب ^(١) ﴾ إلى آخرها أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٨-٨٠٩) عن ابن عباس

(٢) تبت : هلكت أو خسرت أو خابت [كلمات القراء ، نلشيخ حسين محمد مغلف]

(٣) وهو قوله تعالى ﴿ سعلى لرا ذات لهب ^(٢) ﴾ [مسد] أى : سبوى النار جهنم

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كويّياً أزيّياً بتقديرته ، معيّمه محدود ، وقد يأتى الأمر على غير ما يُقدّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر .

ولا يقوس أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قلّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه تابع من علمه الأزلّى ، وهم كانوا يستمعون بحق الاحتيار والله سبحانه هو القاتل :

﴿ وَإِذْ مَا أَنْزَلْتُ سُورَةَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَهْكُمْ رَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا هَإِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مُرُصٌّ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [النورة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ مَآيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (١٢٧) ﴾

إذن : صجى الآيات وتكرارها لى يفيلهم فى الاتجاه إلى الإيمان ، لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيوحيون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قل - ما أوردّه الحق سبحانه فى كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩١) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتُفَجِّرُ (٩٢) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ

(١) الرّحس القدر والحق حسياً ومعنوياً ويطلق على ما يستفح فى الشرع والرحس والرحس معاً واحد ويطلق الرّحس على العذاب لأنه سبب عنه قال تعالى ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رِجْسٍ وَرِجْسٌ وَغَضِبَ (٧٥) ﴾ [الأعراف] أى : عذاب بسبب الرّجس الذى اقترعوه [القاموس القويم] تنصير

(٢) ولو جاءهم كل مائة حتى يردوا العذاب الأليم فلا يبعثهم جسد [تفسير الخلالى ص ١٨٧]

(٣) النبوع : العين التى لا ينضب ماؤها

كما زعمت علينا كسفاً^(١) أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً^(٢) " (٩٢) أو يكون لك
بنت من زخرف^(٣) أو ترقى في السماء وتؤمن لوفيك حتى تنزل علينا
كتاباً تقرأه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً^(٤) ﴿٩٣﴾ [الإسراء]

وكان الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضعاً: لست أنا الذي ينزل
الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتي القرآن بالسبب الذي لم
تنزل به تلك الآيات التي طلبوها ، فيقول سبحانه

﴿وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون .﴾ (٩٩) [الإسراء]

إذن . فقد نزلت آيات كثيرة لمن سقى في المعاندة والمعارضة ، ويقابل
قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون
مُعتمد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فلمحلله فيه ؛ وبهذا
الاختيار القلبي غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول.

وقد قال الحق سبحانه في الآيات السابقة كلاماً في لوحانية ، وكلاماً
في الآيات المعجزات ، وكلاماً في صدق النبوة ، وكلاماً عن القبيمه ،

(١) كسفاً قطعاً والكسف السحاب انقطع قصفاً ، ومنه قوله تعالى ﴿ويجعله كسفاً فخرج الرعد يخرج
من حلاله .﴾ (٤٨) [الروم]

(٢) قبيلاً متدبين والمراد (بينهم عيلاً

(٣) الزخرف هنا هو الذهب والزخرف - الزينة - وقد يقصد به التزيين والتزيين الكذب ، ومنه
قوله تعالى ﴿وكذلك جعلنا لكل سبيراً عدواً شياطين الإنس والجن يحسن بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً
(٩٣) [الأعام]

(٤) يبعثاً عياً تبع تاء ماضية بلعاف جنة بستان فتصغر الأنهار بأرضنا هذه التي نحن بها
خلالها يحيى خلال المخيل والكروم وخلالها يبعث في أصولها تصجيراً مبيلاً يسيل بين
كسفاً قطعاً قبيلاً مقابلة أوجيماً ، فديهم معانة وخوف دعب ترقى تصدق في دج إلى
البدء [مختصر تفسير الطبري ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] بصرف .

وفصّل لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصل قليلاً في قصة موسى وهارون عليهما لسلام ، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يوسف عليه السلام

ونحن نلاحظ أن خلق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب (١) ، ثم جاء بحسر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يوسف عليه السلام ، فالسورة تصم ثلاثاً من الرسائل رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يوسف ، وهو الرسول الذي مُنِّب السورة باسمه

ولسائل أن نقول : لماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة ؟

وأقول : لقد تعنا كثيراً ، ومعا كثير من المفسرين حتى تلمس الحكمة في ذلك ، ولماذا لم تأت في السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلّى لنا أن اخو سبحانه وتعالى يعرض مواكب الرسالة ومواكب المعارض لكل رسول ، والنتيجة التي انتهت إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التي انتهت إليها أمر الرسول ومن آمن به

ونجد الدين ذكرهم الله سبحانه لما قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بيوع واحد في الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالفرق ، وكذلك الإهلاك لقوم هود كان بالعرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يوسف لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الخوف بحر في البحر .

(١) الإطناب المساواة والإيجاز من فرد البلاغة لإطناب شرح بإفصحة والمساواة مساواة اللفظ للمعنى والإيجاز اللفظ القليل للمعنى بكثير ولكل معناه [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف

إذن ، فمن ذكرهما من الرسل كان له علاقة بالماء ، أما بقية الرسل
الرسالي فلم تكن لهم علاقة بالماء .

ونحن نعرف أن الماء هو الحياة ، وبه الإهلاك ؛ لأن وهب الحياة يهب
الحياة بالشيء ، ويهلك بالشيء نفسه . وكان الحق سبحانه يبين لنا الحكمة
أنا أهلكك بالغرق هناك ، ونجيتك من الغرق هنا

إذن : فطلاقة القدرة الإلهية هي المسئولة على هذه السورة ، كما تظهر
طلاقة القدرة في مجالات أخرى ، وبألوان أخرى^(١)

وسُميت هذه السورة باسم يوسف ، لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من
مائة ألف^(٢) ، وهم الأمة الوحيدة في هذا المجال التي استثنىها الحق سبحانه
من الإهلاك ، فقد أعرق قوم نوح ، وأغرق قوم فرعون ، وكلاهما قد كذب
الرسل ، ولكن قوم يوسف أول ما رأوا البأس^(٣) آمنوا فأبجأهم الله سبحانه

وسُميت السورة باسم من نجا ؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين
العذاب ، ولكمهم رأوا فقط شائر لعذاب ، فنجوا أنفسهم بالإيمان

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى .

(١) من طلائع العبرة بوظيف الشيء في هذه مثل النار ، فوظيفتها الإحراق ولكنها كانت على سيدنا
إبراهيم برحاً وسلاماً ، وبنابيه أخيه وقه الغرق ، وبه النجا ؛ فقد نجى الله سبحانه موسى عنه السلام
وأغرق به فرعون .

(٢) يقول سبحانه ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ نَرِيحُونَهُ فِي هَاجِلٍ يَوْمَ الْقِيَامِ ﴾ [الصافات : ١٢] وهم من نرية نوري جهة
الموصل بالعراق الحالية

(٣) البأس . العذاب . يقول تعالى ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسًا ﴾ [الأنعام : ٦٦] ،
ويعمل ﴿ وَكَمْ مِّن فَرِيَةٍ تَتْلُوهَا إِذْ يَصْرَخُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٧] والبأس شدة
الحرب ، يقول تعالى ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي تَضَارُّهِمْ وَابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ١٧٧] والبأس القوة
يقول تعالى عن قوم بلقيس ملكة سبا حين شاورتهم في أمر سليمان ﴿ قَالُوا مَتَىٰ آتِيهِمُ الْوَيْلُ وَلَئِن لَّا يَأْتِيَهُمُ
بِشْعَرٍ ﴾ [النمل : ٢٧] .

﴿١٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَغْنَمٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٨﴾

وهكذا بين لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت
العداء ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يوسف قبل أن تأتي
سائر العداة والناس أعلنوا الإيمان فقبل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه
سبحانه لا يظلم عبداً .

فَمَنْ وَصَلَ إِلَى الْعَذَابِ ، وَأَعْلَى الْإِيمَانِ مِنْ قَلْبِ الْعَذَابِ لَا يُقَلِّمُهُ ،
وَمَنْ أَحْسَنَ وَاسْتَشْفَى بِوَكَائِرِ الْعَذَابِ وَآمَنَ فَالْحَقُّ سَحَابُهُ وَتَعَالَى نَقْلُهُ .

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمتلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فيها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : «لولا زيد عندك لأتيتك» نفيد أن اسماع المجيء هو سبب وجود زيد ، لكنهم إن دخلت على جملة فعلية يقال عنها : «أداة تخصيص وحث» مثل قول الخن سبحانه :

﴿فَلَوْلَا نَصْرُ مَنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لَّوَتَفَقَّهُوْا إِلَى الدِّينِ﴾ (١٦٧) ﴿تَبٰرَكَ﴾ [توبه]

(١) لو لا شرط لا يعمل ويدل على امتناع الحواس في حود الشرط ، وحملة السرمط (مسمية) ويختص الحيز وجوبا إذا كان كرويا عاما وإذا وليها مصمر يكون ضمير رفع متصل [القاموس الفري]

(٦) ﴿قُلْ لَا تَكُنْ مِثْلَ قَوْمِ آدَمَ﴾ (١١٣) ﴿يَقُولُ عَرِ وَحِلْ لِمِ تَكُنْ سِرِيهِ امْتَنِعْ جَمْعَهَا الْإِيمَانُ إِذَا تَرَى بِهِمْ مَأْسَ لَكَ﴾ (١١٤) ﴿يَقُولُ إِنَّهُمْ لَا أَمَلُ لَهُمُ الْمَقَاتِلُ ، وَخَوُّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ سَمُومٌ ، وَفَقَدُوا يُونُسَ ، وَفَقَدَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْيُوسُفَ ، وَفَقَدُوا فِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَاعْجُوزًا - أَيْ دَعَا صَوْنَهُمْ بِالسَّلْبَةِ إِلَى فَتْنَةِ أَرْبَعِينَ بِلَالَةً - فَلَمَّا عَرَفَ صِدْقَ تَوْبَتِهِمْ كَسَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ (١١٥) ﴿وَتَقَعَّاهُمْ إِلَى حَبِيبٍ﴾ (١١٦) ﴿يَعْرِضُ عَنْهُمْ يَوْمَ يَمْشِي أَمْشِيًّا ، وَلِيٍّ حِينَ مَاتَهُمْ وَوَقْتُ مَاتَهُ أَعْمَارُهُمْ﴾ (مُحْتَضَرِ تَكْوِينِ الْعَقِيدَةِ ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢)

أى : أنه كان يجب أن يتفر من كل طائفة عدد ليتدارسو أمور الدين .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ۖ ۞ (٦٨) ﴾ [يوس]

أى : أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجبها كما أنجبا قوم يوس ، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب

ذن تقوم يونس هت مُسْتَشُونَ ١ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب

وهناك آية أخرى تعلق بهذه القصة ، يقول فيها الحق سبحانه .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (٦٩) لَـبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٠) ﴾ [الأنبياء]

أى : أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو أن يوحى

وهنا يبين الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يوس حين يقول .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَمَعُوا بِإِيمَانِهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٨١) ﴾ [يوس]

() المسبحون هم المستودعون لله تعالى ، قس الملاء والصفوة التي تولت به رفيع المسبحون هم الداعرون ، بقوله كثير فى بطن الحوت . ﴿ - لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٢) ﴾ [الأنبياء]

﴿ - لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٨٣) ﴾ [الأنبياء] . نصارى بطن الحوت قرأ له إلى يوم القيامة . [مختصر تفسير الطبرى ، وتفسير الجلالين]

أى أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قل أن يفتح بهم العذاب .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. لَمَّا آمَرُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١٨)

[يونس]

وسن نعلم أن كلمة «قرية» تعني - مكاناً عُمياً ، أهله مترطون فيه ،
فإذا ما مرَّ عليهم زائر في أى وقت وخذ عندهم قرى^١ أى وجبة طعام
ويحب مجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «سد» ، وهؤلاء من
يملكون طعاماً دائماً ، أما من يكونون قلة قليلة في موطن فيمى العالب ليس
عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفهم ويكفى الزائر مرة واحدة
وتسمى مكة المكرمة «أم القرى»^٢ ؛ لأن كل القرى تروورها .

وقربه قوم نوس اسمها «نوى» قد حكى عنها لبي^٣ في قصة
الذهاب للطائف ، وهى قرية العبد الصالح يونس بن متى^٤ ، وهى فى

(١) القرى هو طعام الضيفان والقرية هي الدعة المصر أو البلد الكبير مثل مصر . مكة ، الطائف ،
بيوتى ، وغيره من أشار إليه القرآن . فقد وردت كلمة «القرية» في بعد المعنى (٣٧ مرة) غير المتى منها
(١٩) (راجع ١٩٩) مرة .

(٢) ما عنى من - مكانه . وهذا كعذاب أقرناه تبارك مصلق لئلا يبين يديه وتنتذر أم القسوى ومن
حونها (٢٠) [الأنعام] ، ويقول ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ (١٧) [الشورى]

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قبل هجلاً مبعوضاً لحنه وشبه لى ربيعة يفسد له عداس ، فمتدب ثم رسول
الله ﷺ بالأكل من عيب بسانته قال باسم الله ثم أكل ، فظفر عداس في وجهه ، ثم قال والله إن
هذا الكلام ما يضر له أهل هذه البلاد فقال له ﷺ ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟
قال نصراني ، وأند رجل من أهل بيوتى ، فقال رسول الله ﷺ ، من قرية الرجل الصالح يونس بن
متى فقل له عداس وما يترك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ ذلك حق ، كان ميتاً وأنا
مى ، فأكب عداس على رسول الله ﷺ فيقبل رأسه ويديه ويدعي أووده بن هشام في السيرة النبوية
(٢١) (٢٢)

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿وَقَدْ لَوْنٌ﴾ إِذْ ذُهِبَ مُعَاضِبًا . . (٨٧) ﴿ [الأنبياء]

وكلمة «معاصب» غير كلمة «عاصب» ، فالعاصب هو الذي يغضب دون أن يغضبه أحد ، لكن المعاصب هو من أغضبه غيره

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواحية بعيداً

والمعاصبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة»

والحق سبحانه يقول

﴿وَدَا النُّونَ إِذْ ذُهِبَ مُعَاضِبًا عَقْبًا أَلْ نُّنْ تَقْدِرُ عَلَيْهِ فَهَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) ﴿ [الأنبياء]

وسمى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ، لأن اسمه اقترن بالحيوت الذى اتلعه .

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى اسداية ؛ لأن الرسول حين يحىء إنما يحىء ليقوم الحياة الفاسدة ؛ فيصطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالخرات الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج معاضباً ، أى : أنهم أغضوه .

والمعاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصريين ، مثلاً أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ، لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألحاه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدح فى الفعل

(١) النون الحوت (وَدَا ، ذَا ، ذَى) بمعنى صاحب أى صاحب حيوت ، وهو يونس عليه السلام

وأبو الطيب المتسى^(١) يقول فى هذا المعنى :

يَا تَرَحَّلْتُ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرَا
الْأَثْمَ عَلَيْهِمْ فَأَتَرَّاحِلُونَ هُمْ
أى . إن كنت تعيش مع قوم ، وأردت أن تمارقهم وقد قدروا أن تعيش
مهم ، فذلذى رسل حقيقة هم هؤلاء القوم .
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً .

﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ . . (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

أى : أنه رجح أن الحق سبحانه لن يضيق عليه الأرض الواسعة ،
وسهى به مكاناً أحر غير مكان المائة الألف أو يريدون الدين بعنه الله
تعالى إليهم

وكان من المعروف أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا
الظن - والظن ترحيح حكم - يدل على أن معارضة دعونه كانت شديدة
تَحْطُط^(٢) وتغلب القلب بالألم والتعب .

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

والقرية التى أرسل إليها يوسف عليه السلام هى قرية «بوسى» ، وهى
التى حياء ذكرها فى أثناء حوار بين النبى ﷺ والغلام البصرانى «عداس»
الذى قبله ﷺ فى طريق عودته عن الطائف .

(١) هو أحمد بن الحسن المتسى ، شاعر حكيم ، ولد بالكويت عام ١٣٠٢ هـ ، وشاع بالشام ، ثم سفل إلى
البلادية بطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . توفى مملولاً بالعمانية ببغداد عام ١٣٥٤ هـ عن ٥١
عاماً (الأعلام لأبرك كى ، ١ / ١٦٥) .

(٢) تحطط تعصب والخفيظه العصب وشال إن الحفاظ بلف الأحقاد أى إثاريت جميعت
بظلم جميعته ، ورد كاد مجرىة فى قلت جقيه . [البصائر : ص ١٠]

وكان النبي ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها الصرة بعد أن آذاه قومه في مكة فلم يجد التصير^(١) ، وجلس النبي ﷺ قريباً من حائط بستان .

فلما رآه صاحباً ابستان - عتة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقي من السفهاء :
تحرّك له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقل له عدّاس ، فقالا
به : حُذْ قَطْفاً من هذا العنب ، نضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى
ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس ، ثم أكل به حتى وضعه
بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له . كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه
يده ، قال . باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال . والله
إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ . «ومن
أهل أي البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينك؟» قال نصراني ، وأنا رجل
من أهل نينوى : فقال رسول الله ﷺ . «من قرية الرجل الصالح يونس
بن مَتَّى» : فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن مَتَّى ؟ فقال رسول
الله ﷺ . «ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي» ، فأكب عداس على رسول الله
ﷺ يُقْبِلُ رأسه ويديه وقدميه .

ولما سأل صاحباً لبستان عدّاساً عن صبيعه هذا . قال لهما : لقد أخبرني
بأمر ما يعلمه إلا نبي^(٢)

(١) خافس رسول الله ﷺ من قومه بكة الدين أدبه وآدوا المسلمين لجأ إلى الطائف يطلب نصره ، فقبضه
وكتمهم وعرض عليهم الإسلام ، مما كاد منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأعرضوا به سفهاءهم وعبيدهم
يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وأجأوه إلى حائط (بستان) لعته بن ربيعة وشيبة بن
ربيعة وورجع عنه سفهاء تقيف فعمد إلى ظل شجرة صب مجلس فيه وهذا دعا رسول الله ﷺ ربه
قائلاً «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ،
أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى بيده يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن
لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له
الشمس ، وصبح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العبي
حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» [أسيرة النبوة لأبي هشام ٤١٩/٢ ، ٤٢١] بتصرف

(٢) انظر تفصيل هذه القصة في السيرة النبوية لأبي هشام (٤١٩/٢ - ٤٢١)

وحين نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحرر وعصب من عدم استجابه قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيِّماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى في حواطيرهم أن هذه العواصف هي بديهة عذاب الله لهم^(١) ؛ فَهَرَّعُوا إِلَى دَوَى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هي بؤادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله ، فأمنوا به ليكشف عنكم انتمة .

وهَرَّعَ النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْحَىِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، الْحَىُّ حِينَ لَا حَىٌّ ، وَالْقَيُّومَ وَالْمُحْيِيَ وَالْمَمِيتَ

ودهب قوم يونس عليه اسلام لاسرصاته ؛ وحين رضى عنهم بدأوا يظرون في المطالم التي ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد منتلسته من جوار له^(٢) .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهذا يقول سبحانه :

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرَابِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٣) وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى

حِينَ (٩٨) ﴾

[يونس]

ومن نورم قصة يونس عليه السلام ، لبب المعاصنة فقط ، بن قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد معاصيته لقومه قد ركب سفينة ،

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج : «إنهم لم يبع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأى حين العذاب لم نفعهم الإيمان» واستأذنه القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣١٦)

(٢) عنه القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣١٦) من قول ابن مسعود

(٣) اختلف المفسرون ، من كشف عنهم العذاب الأخرى مع النبي ، أم كشف عنهم العذاب في الدنيا فقط ؟ على رأيين :

١- الأول : إنه كان ذلك من الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة

٢- والثاني : كشف العذاب في الحياة الدنيا وهو الأخرى ، لقول الله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَرْبُودٍ (١٧) فَأَمَّا فَعْصَانُ إِلَى حِينٍ (١٨)﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منذ من

لعذاب الأخرى ، وهذا هو الظاهر ، وقد علم [ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٣٣)]

فجئت بها الأمراج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على العرق
بركابها ؛ وألقوا الأمتعة في البحر ؛ لنحفظ بهم السفينة ؛ فاستمر
اضطرابها ، فاقترحوا على أن يلقوا إلى البحر من تقع عليه القرعة ، فوقعت
القرعة على نبي الله يونس عليه السلام .

مثلاً نركب مصعداً ، فنجد البصوء الأحمر وقد أصاء إنذاراً لنا بأن
الحصول زائفة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى
العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خلقاً ،
لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين

كذلك كان الأمر مع السفينة التي ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن
تغرق ، فاقترحوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر
والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهِمٌ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ (١٤١)

[المصادات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فانتقمه الخوت وانتلعه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام في بطن
الخوت .

﴿ فَاسْتَوْثَقَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ (١٤٢) **ثَلَاثٌ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ
يُخْرَجُونَ** (١٤٤)

[المصادات]

وهنا في الآية التي نحن بصدد نواظرنا عنها يقول الحق سبحانه :

(١) مادم فرج ، أي اشرك في الاقتراع المتعاضين المعتبرين إد وقع الاقتراع عليه [ابن كثير
٢٠/٤ تصرف]

(٢) التمسك بتمسكه في سرعة فله سبحانه ﴿ فَاقْطَعُ الْخُوتَ وَهُوَ يُعْجَمُ ﴾ (١٤١) [تصايف] ، والمسلم هو
من أتى دياً بسلام عليه

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٩٨) [يوس]

وعذاب الخرى في الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُحَسِّدًا فيمن افتري وتكبر على الناس ، ثم يراه الناس في هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخرى في الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخشى وأشد.

وَيُنْهِى الْحَقَّ سَجَنَانَهُ الْآيَةَ يَقُولُ :

﴿ وَمَعَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٩٨) [يوس]

أى : أنهم سَجَوْا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت أجالهم بالموت الطبيعي .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا
أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩)

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامَت معركة بين نبي مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنْزِلَ الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

(٩٨) تُكْذِرُ النَّاسَ يرميهم ويُلْحِظُهُمْ أى ليس ذلك غلبت يا محمد صدقات الله وسلامه عليه بل الله تعالى يُعْمَلُ من يشاء ويَهْدَى من يشاء كما قال تعالى من ذلك ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٠١) إلا من رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (٩٩) [هود] وقال تعالى ﴿ نَسِيتُ عَلَيْكَ فَدَاهَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٩٩) [البقرة] وقال تعالى ﴿ نَعَمْ لَا يُهْدَىٰ مِنْ أَجْبَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١٠١) [القصص] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو المَعَالِمْ لِمَا يَرِيدُ الهدى من يشاء ، أفضل من يشاء لِمَا يَحْكُمُهُ وَحُكْمُهُ وَحُكْمُهُ - سبحانه [تفسير ابن كثير : ٤/٤٢٣] بصرفه

وربك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عباده الناس ؛ لأن الله عز وجل قديم أرئى بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الحق ، وقوته سبحانه وتعالى هي داه ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق نسل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذي أوجد كل شيء من عدم .

وبذلك يسمون صفته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول: حي ، ومحي ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف بـ «محي» بعد أن وجد من يحييه ، لا ، إنه محي ، وبهذه الصفة أحياء .

ولله مثل الأعلى ، وهو سبحانه مُتَرَفَّعٌ عن كل تشبيه : قد ترى المصور أو الرسام الذي صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التي مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة .

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَقَ الخلق .

فياك أن تفهم أن هالك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شيء يجد على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينفذ من خلقه بل هو الذي ينفذهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الحسن الطاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جس أخير أخسنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن^(١)

(١) وذلك في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذريات]

وأما بقية الكون فمُسَّحٌ "مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكل نظام لا يتحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الثقليين الإنس والجن - في نظام التسخير ما عَزَّ عِيبُهُ ذَلِكَ ، لكن هذا التسخير يشهد له القلرة ولا يشهد له المحبوبة .

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يشهد له المحبوبة إن حشته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القسّر والفهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجر هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القسّر والفهر ، فكل ما في الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسَّحٌ لَهُ .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴾ [الأنعام]

[الأنعام]

وهذا ليس تسبيح "دلالة ورمز" ، بل هو تسبيح حقيقي ، بدليل قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴾ [الأنعام]

فإن فقهك الله تعالى في لغاتهم علمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

(١) يقول رب اعز سبحانه ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ [الأنعام] ويعرف

تعالى ﴿ تسبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر]

(٢) تسبح لدلالة وأمره بلطفه بقسا في حركة الخمد ، حركة ونمو وتنفس لسان وحركة وتلو وتفسر

وعزيمه الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتنفس الإنسان ، فكل حركة لها محرك ، وفيه محرك سبوح

وهو ديث مجد للأرض والسماء يكاد في عونه تعالى ﴿ وما يكذب عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين

﴾ [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والمعاطفة تصدر عن علم ، وهذه لمراتب تسبيح بحقيقته

لا يدركها عقل وقد يحسها قلب

عَلَّمَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ^(١) ، وَسَمِعَ امْتِلَاءُ تَقُولُ :

﴿ يَنَابِهَا السَّيْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨)

[الممل]

وَالْهَذِهِ قَالَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا رَأَاهُ عَنْ بَلْقَيْسَ مَلِكَةِ مِصْرَ :

﴿ وَجَدْتُهُمَا رَقُومًا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٩)

[الممل]

إِذَنْ : فَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُسَبِّحٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، يَسِيرُ عَلَى مَنَهِجِهِ سَبْحَانَهُ مَا عَدَا الْمُحْتَارَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ : الْإِنْسَانَ وَالْجَانَّ ؛ لِأَنَّ كِلَاهُمَا فِيهِ عَقْلٌ ، وَلَهُ مِيزَةُ الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ الْبَدَائِلِ .

وَمِنْ عَظَمَةِ أَحَقِّ سَبْحَانِهِ وَتَعَالَى أَنْ خَلَقَ لِلْإِنْسَانِ الْإِخْتِيَارَ حَتَّى يَذْهَبَ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ إِخْتِيَاراً ، وَلَوْ شَاءَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُجْبِرَ الْإِنْسَانَ عَلَى الْإِيمَانِ لَفَعَلَ .

أَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَقُولَ أَحَدٌ . وَلِمَاذَا كُنْ هَذِهِ الْمَسَائِلُ مِنْ حَلِّ وَرَمَلِ رُسُلٍ ، وَتَكْذِيبِ أَنَامٍ ، ثُمَّ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ ؟

وَلِذَلِكَ قَالَ أَحَقُّ سَبْحَانِهِ وَتَعَالَى

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمْسَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَمْسَتْ تُكْرَهُ النَّاسُ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠)

[يوس]

(١) قُرْبُ الْعَرَةِ سَبْحَانَهُ يَقُولُ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَرَوَى سُلَيْمَانُ جَاوِدٌ وَهَذَا يَشْرِيهِ النَّاسُ عِنْدَ مَنْطِقِ الطَّيْرِ وَأَوْتَمَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا هُنَا هُوَ الْقَطْلُ الْمَقْبُولُ (٢٠) [الممل]

سُورَةُ التَّوْنِيسِ



إذن فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ ۖ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

[التبراء]

وكان رسول الله ﷺ مُحْتَأً مُحْصِياً لقومه وعشيرته ، وداق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فببها الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلف نفسه شَطَطاً^(١) .

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حق الاختيار وسخر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرء ، ويعصى أخرى ، وهذه هي مشيئة الحق ليتوارن الكون ، فكل صفة خير إن وجد من يعارض فيها فهذا ما شاء الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك

وإن عصب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصغاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرارق ، قد كهره وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فَتَحَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) باح أي مهلك نفسك ، أي مما تهرس وعمرن عليهم يعلمهم وهدم عليهم من الله سبحانه وتعالى لئلا يهلكوا ﷻ في هلك إيمان من لم يؤمن به من الكفار كما قال تعالى ﴿ لَا تَحِبُّ بِصُفَّتِ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ۖ ﴾ (١٢١) [الحجر] . ويقول سبحانه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ عَلَى قَارِهِمْ ﴾ (٢) [الكهف]

فإن مجاهد وعكرمة وابن جرير : باح نفسك ، أي قاتل نفسك . وقد قال الشاعر
إني دلت على أنني بانيه قاتل
الأيدي الباعية الخرون نفسيه

[ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٣٣٦)] بمصرفه .

(٢) الشطط : جور ومجاورة لقدر في كل شيء ، والمقصود لا تظلم نفسك ، ولا تجاور أحد في جور عليهم . ومنه قوله تعالى من الخصم المدين حذا حكم دارديهم ، فعلا به ﴿ فَاسْكُتْ يَاسَا بِالْحَقِّ وَلَا تَطْلُطْ وَاهِدًا إِلَى سِوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ (١٢٢) [ص]

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمْسَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩) ﴿ [يونس]

نه سبحانه وتعالى يريد إيمان للحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَفَعَلَ
الرَّجْسُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٠) ﴿

هكذا يُبَيِّنُ لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛
لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك مطردة نتيجة تفكير في سماء ذات
أبراج^(١) ، وأرض ذات هيجاج^(٢) ، وبحار تترحر^(٣) ، ورياح تصفر^(٤) ، كن
ذلك يدل على وجود الخالق سبحانه

نكي أنك الله سبحانه وتعالى الداس للقطرة ؟

(١) الأبراج الخيال والضلال [نبي كثير ٢/ ٤٣٣] فان الرجاج الرجس في اللغة اسم لكل ما استقدر
من حمل ، صالغ الله تعالى في دم هذه لأشياء وسماها رجساً ودرجس معاد أخرى فهو العذاب
كالتنجر ، زهر عائم وهو اشك في مثل قوله تعالى ﴿ إِنْ تَرَىٰ نُفُوسًا مِّنَ النَّاسِ يَسْعَىٰ فِي الْغَدَاةِ وَفِي الْوَارِثَةِ يَتَّبِعُهُمُ الْغَايَةُ أُولَٰئِكَ نَجِثُهُمْ لِيَجْزِيَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ سَعْيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأعراف]

(٢) لأبراج جمع برج وهو سائر الأفلak في السماء أو هي فلك كوكب وقيل هي الجيوم [انظر لسان
العرب مادة برج]

(٣) هيجاج جمع فج وهو الطريق المراسع بين جبلين ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ لَكُمْ الْأَرْضَ مَسَاطِعًا
(١) فَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا مُّجَادًا ﴾ (٢١) [سج] وقال ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيًا أَنْ تَمْسَهُمُ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا
فُجُجًا مِّنْهَا لِيَمْلَأَهُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْيُنُهُمْ ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى في صيغة المبردة ﴿ وَ عَلَىٰ كُلِّ مَسْرِعٍ مَّالٍ مِّن
كُنُوزٍ عَمِيقٍ ﴾ (١٧) [الحج]

(٤) بحار تترحر أي كثر ماؤها وارتفعت أمواجها ورجح القوم جاشرا بغير أو حرم [لسان العرب] .
مادة رخر [وهذه جملة من خطبة خطبها فُسِّي بن مساعد الزبدي في الجاهلية ، كد أوبها * أبها
نفس اسمعوا وسموا ، من عاش مات ، ومن مات مات ، وكل من مات انتظر البعث والقيام
بالحفظ (٢٠٨ / ٣)]

لا ، بل أرسى سبحانه لهم الرسل ليدذكروهم بالآيات الموجودة في الكون ، وليتبه العاقل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿... ثُمَّ يَكُنْ رُبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرُونِ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام]

لذلك ينههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكان الحق سبحانه يُبين لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يحرج عن مُسكى إلا يار دنى ، فأنا نحلم له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وممنعت له أن يطيع أو أن يعصى .

كل ذلك من أجل أن يثبت في صفة المحبوبة .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بآذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بآذنه سبحانه ؛ لأن من خلقه مختاراً علم برضاء منه عما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه

وساعة يأتي الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إنسان المصرة ويقول : لقد جاء هذا لرسول بهذا المنهج ليعدل لي حياتي ، فلا بد أن أُرهِفَ^(١) له السمع .

وساعة يُقبل العبد على الله تعالى ، سبحانه بآذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمان .

إن العبد مأ إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه بفضل من الله السبب الذي جاء من أجله لعبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه . لا تُدْخِلُوهُ . وهو يقول ذلك ،

(١) إرفاف : نسمج الإنصات الشديد والرجاء من الله الرقة والنفط [إنسان : مدة رجف]

لأن الله سبحانه أطلعني على ما في قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاقٍ

أما إذا دقَّ بابُه عبد آخر ، فتجده يأمر معاوניה أن يدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم ما في قلبه من محبة ورغبة في صدق اللقاء والمودة إذا كن هذا يحدث بين لعباد ، وهم كلهم أغبار ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى ؟

والله سبحانه هو القائل في حديث قدسي : « من ذكرني في نفسه ذكرته في ملاخي » .

ما بالك بالبعد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بحقيقة عبد الله إذن : أقبل على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إن ذكرت الله في نفسك ، فأنه يذكرك في نفسه ، وإن ذكرته في ملاذك في ملاخي منه ، فالملا الذي ستذكره فيه ملاخطأ ، والله سبحانه مذكرك في ملا طاهر .

ويقول الحق سبحانه في ذات الحديث القدسي ^(١) : « إن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً »

والذرع أطول من الشبر .

ويقول : « وإن أتاني يمشي أتيت به بركة » .

فالشي قد يتعب العبد ؛ لذلك يسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربهيته ما إن يعلم أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى في

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (١٦٧٥) ، ونحوه « أن هذ علي عبيدي ، وإن سمع صوت يذكرون ، والله ، أنه أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد عبثه بالملأ ، من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أتني إلى شيء أعيايت له أفرول »

شيء ، حتى يفتح أمامه أبواب محنة سبحانه ، فيحُبُّ فيه خلقه ، ويحمل له مدخل صدق في كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق ، وهو الحق القائل .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا رَادَّهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]

وتلحظ أن الحق سبحانه يؤكد في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها أنه لو شاء لآمن مرّ في الأرض جميعاً ؛ ليبين لنا أنه حتى إبيس الذي دخل في جدال مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس .

وحناء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ ليُحْكِمَ الأمرَ حول كل خلقه ومخلوقاته ، فلا يشك منهم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ أَفَأَمَّتْ تَكْرَهُ النَّاسِ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩) [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُبَيِّنَ رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . ﴾ (٢٥٦) [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هي المطلوبات الظاهرة فقط التي تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فهُبْ أنك أكرهت قالاً أنتستطيع أن تُكره قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالاً^(١) .

وهكذا لا يصلح الإكراه في قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألا يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو محاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «إن الله لا ينظر إلى أعضائكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد في مسنده (٢٨٥/١ ، ٥٣٩) وابن ماجة في سننه (٤١٤٣) ، واللفظ مسلم . والقلوب لها أبعاد والاعتبار والحب والكراهة ، والقولاب مادة تسير حسب الإدراك الذي انفعّل بوجوده ، ووجدان وصح أمامه الباطل بعيداً ويسمى (الروح)

لا يصلى فينهره صديقه ، فيرد . لا إكراه في الدين وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطيء ؛ لأن الإكراه في الدين إنما يكون مجموعاً في لقضية العقدية الأولى

ولكن من أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإن أحل بحكم من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته .

ولا إكراه في الدين ، فيما يخص القضية العقدية الأولى ، وأنت حر في أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإن دخلت للإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرت محسوبة عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرق ، تُقطع يديك ، وإن زنت تُرجم أو تُجلد ، وإن شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلت قواعد الإسلام وشريعته .

وإن رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقوين إن الإسلام يُسرق ، ولكن إن رآه يُعاقب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب من يجرم .

إذن ﴿ لا إكراه في الدين ٢٥٦ ﴾ [البقرة]

تحصن المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن يؤمن فأنت ملتزم بصرعيات الدين ، وتعاقب إن حرحت على الحدود .

والرسول ﷺ يقول «مَثَلُ الْعَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَمْسَكَ فِيهَا كَعَمَلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا» على سبعة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

(١) لربما في شريعة الإسلام عقوبات الرجم ، أو الجلد ، أم الرجم يعاقب به الراس المحصن الذي قد أحصى بالروح أما الجلد مائة فهو لغير المخرج أو لم يسبق له لزواج ، فيجلد مائة جلدة تعبيراً لقول الله عز وجل «وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا فَعِيْلَةٌ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيُعْذِرَ عَلَيْهِمَا خِلَافَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٥٦ ﴾ [النور]

(٢) استهزأوا فخرها

فَكَانَ الدِّينُ فِي أَسْفَلِهَا إِذْ اسْتَسْقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ مَوْقِهِمْ عَقَلُوا
لَوْ أَنَّا حَرَقْنَا فِي نَصِيبِ حَرْقًا وَلَمْ نُوْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا
هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَحَدُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ يَحْجُوا ، وَيَحْجُوا جَمِيعًا^١

إِذَنْ : فإللتزام بفروع الدين أمر واجب عن دخول الدين دون إكراه ، وإنَّ نخدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهذا ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم من ارتد عن الإسلام ، وهو
القتل^(٤٤) .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إن آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتل ؛ ولذلك فيمن له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين : لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متقن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلم أنك إن دخلت على الدين ثم تحلّيت عنه فسوف تُقنّن ، وهي هذا تصعب لأمر دخول الدين ، فلا بدّعه أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيماني ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين

وهما يقول الحق سبحانه

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (١٠) [يونس]

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٤) والترمذي في مسنده (٢١٧٣) وقال: حسن صحيح.

(۲) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقلبه» أخرجه البخاري في صحيحه (۶۹۲۲) وأحمد في مسنده (۱/ ۳۹۷، ۳۸۲، ۳۸۳، ۳۲۳) وابن ماجه في مسنده (۲۵۳۵) وقد قال رسول الله ﷺ في حديث آخر عن ابن مسعود: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأتى رسول الله بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الراني، ولما فرق بينه التارك للجماعة» أخرجه البخاري في صحيحه (۶۸۷۸) ومسلم (۱/ ۱۶۷).

والرجس هو العذاب ، وهو اللبس ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على اللبس لا يعقلون ، لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَرَيٍّ ، لا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ الْعَقْلُ إِلَى الْإِيمَانِ .

ولذلك تجد الفهم الفكرية حين يدرسون الدين : فهم يتجهون إلى الإسلام : لأنه هو الدين الذي يسمى العلة^(١) ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يفضلون على حالهم .

وبعض القمم الفكرية في العالم التي انجذبت إلى عشق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام في زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك الفهم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادئ الإسلام ، وهرقوا بين مبادئ الدين ، وبين امتثال المؤمنين للدين ، وهذا إنصاف في البحث العقلي ، لأن الدين حين يُجرّم عملاً ، فليس في ذلك التجريم إذن من الدين بحدوث مثل هذا العمل المحرم ، بذليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحسن مسبحانه قد قال .

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ يُقَطِّرُهَا يَدَاهُمَا﴾ (٢٨) [مسئلة]

إليه الإذن بأحصال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للمهاجرين^(١٦) .

(١) المدة هي السنة شدة المعيشة ، باعتبار أن يتألم الإنسان عذوبته ودرسه كالنظامية بطيب الماء

(٢) يقول رب العزة سبحانه وتعالى ولا تقرب من قرى الله كان فاحشة وما سبيلها (٣٦) ﴿[الأنعام]﴾ ويقول سبحانه يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تأخذوا بهما حلفكم ولا تأخذوا بهما إيمانكم في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وسعجدوا لله مبشرين (٤٠) المؤمنين (٤١) الزمعي لا يتكلم إلا زانية أو عسكرة والزانية لا يسكنها ولا زانية أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين (٤٢) وإذا هم يرمون المحصنات فليمنه لم يأثروا بربعة شهداء فاحضروهم ثمانية منهم ولا تتلقوه بهم شهادة أبداً ولو كنت معهم الفاسقون (٥٣) إلى الذين قالوا من بعد شئت وأطعنوا وإن الله عسير وحكيم (٧٠) ﴿[البقرة]﴾

وعبر ذلك من الجرائم التي جعل لها الحق سبحانه عقوبات تناسب مع
الصرر لوائح على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً
يسرق ، فتذكر لعقاب الذي أوقعه لإسلام على السارق ، وإن رأيت
مسلماً يرمي ، فتذكر العموية التي حددها الحق سبحانه للرامي

وهكذا الخاب في جميع الجرائم

وكسار المفكرين العالمين الذين يتجهون إلى الإسلام إما يدرسون مبادئ
الدين مفصلة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الدين انتعدوا عن مبادئ
لدين الحنيف

وها هو ذا «جيو» المفكر المرسى يقول : « الحمد لله الذي هداني
لإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنت قد عرفت المسلمين قبل
لإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة في النفس تجعلني أتردد في الدخول إلى
هذا الدين الرقيق المقام »

إذن . بإعمال العقل الراهي لا بد أن يؤدي إلى الإسلام لأنه فطرة
الله ، والإسلام يُمَيِّها ، ويرتقى بها ، والعقل هو مناط التكليف

والرحس ولذات والعداب كله إما يقع على الدين لا يُعملون عقولهم ،
وإعمال العقل المتعقل للقيم يسمى الرحس ، لأنهم سيقبلون على الدين
يؤذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .

وإذا سأل سائل ما هو العقل ؟ وما هو مناط التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقَّال المعبر ، وهو ما يُشدُّ على رُكَّته
حتى لا يهص ، ويظل ساكناً ، وحين يريد صاحبه أن يهصه فهو يفكُّ
العقال .

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (عُتْرَة) ويثبتونه بيسيح معزول على هيئة خلقتهم ، ويسمون هاتين الحلفتين «العقال» ؛ لأنه يمنع عطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يطيره .

إذن : فالعقل أراد الله سبحانه لك ليحجزنا عن الانطلاق والوضى فى تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق لنفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل

فحين يفكر الإنسان فى تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهسى له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لعبرك أن يأخذ شهوة العاجلة منك ؟

إذن . عليك أن تعلم أن العقل إنما أراد الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التى فيها هوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومعيتها "متعبة

ويخطئ من يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ويقول لمن يظن مثل هذا الطل : إن العقل هو مناط التكليف ، وهو الذى يوضح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك .

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلف المحبون ؛ لأن حكم المحبون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبعى ؛ لأنه يعتقد أنه لاختير بين البدائل

وكذلك لم يكف الله سبحانه من لم يتضح بابلوع ؛ لأنه غير مُستوفٍ للملكات ، ولم تستو لديه القدرة على إيجاب مثل له .

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، قلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طعمها مقبولا مستساعاً إلا إذا أصبحت البذرة الى فيها قادرة على

(١) حب الأمر مقبلة عاقته وآخره [لسان العرب مادة (ع م ح)]

أن تبتث منها شجرة إن زرعناها في الأرض .

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لبها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ،
وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات اللون الذي حمار أسود اللون ؛ لأن
دليل نضج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللب وترزعه يتج بك بطيخاً

إذن : فإكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يزن السلوك قبل الإقدام
عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل السالم غير المكروه بقوة نضجه ، على أن
يعدل ما لا يعقله .

أما قبل البلوغ فالتكليف يسر من الله ، بل من الأسرة ، لتدريبه على
لطاعة

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مرروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ،
واصربوهم عليها لعشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع»^(١) .

وهنا نجد أن الذي يأمر هو الأب وليس الله ، والذي يعاقب هو الأب ،
وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء من يُكرِّمه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن
يمسك (مسدداً) ويقول له : «لَمْ تَشْرَبِ الخمر أَطَلَقْتُ عَلَيْكَ النارَ ، فهذا
يرفع عنه التكليف

ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمي .
لخطأ ، والنسيان ، وهما يستكرهوا عليه»^(٢) .

(١) المضاجع أماكن النوم سواء أكانت فرشاً أو غيرها
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) ، وأبو داود في مسنده (١٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص
(٣) أخرجه ابن ماجه في مسنده (٢٠٤٥) والبيهقي في مسنده (١٧٠/٤) وإسحاق في المستدرک (١٩٨/٢)
وروي عنه علي بن شريك الشيباني ، عن ابن هب ، ولكن يستاد لين ما يجهده قطع .

فالعقل إذن - هو مناط التكليف ، وعصمه أن يختار بين البدائل في كل شيء ، وهي الطعام مثلاً يجد مَنْ يهوى وضع (الشطّة) فوق الطعام ؛ لأنها تمنح شهيته للطعام ، ويعد أن يأكل ليجده صارحاً من الحموضة ، ويطلب المهيّضات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد به العشاء المخاطى الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فربّ أكلة منعت أكالات ؛ ولذلك يجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا يجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأسى والإحادة في العمل ؛ ليكون نافع العمل معيّداً لك ويعبرك باستمرار ، ولم يأت العقل للإنسان ليستمريء به الخطأ والخطايا

وهكذا يجد أن العقل يدرك ويحذر السلوك الملائم لكل موقف ؛ بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى في مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا يُدّ أن بقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صانع الخالق سبحانه وتعالى

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

وهنا يُحدثنا الحق سبحانه عن عالم المُسك الذي نراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذي يعيب عنه ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلب .

(١) قل أنظروا ماذا في السموات والأرض أمر للتفكير بالنظر والاعتبار من المصوغات الدالة على الصانع والقادر على الكمال ، والآيات هنا بمعنى الأدلة والبراهين على ألوهية الله . ووحدة إنيته ، والآية نفيه عما هو منزه في ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر "النذر" فربما ، جمع تدبر ، وهو الرسل ﷺ عن قوم يؤمنون أى عسى سيرونه في علم الله سبحانه أنه لا يؤمن [تفسير القرطبي

إن لهذا العالم خالقاً إلهياً قادراً قوياً ، وتؤمن به : مما تهبُّ عليك سمحات
الغيب : تتصل إلى عالم الميكوت ؛ لأنك اكتشفت في داخلك أمانتك مع
نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صنّعه في السماء
والكواكب ، وأعجبت بدقة نظام سير تلك الكواكب

وترى لتوسب الدقيق لظهور لشمس والقمر ومواعيد الخسوف انكلى
أو الحرثي ، وتبهر بدقة المنظّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد رحام
مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما
لنفاذ وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْجَىٰ لَهَا أَنْ تَذُرَّ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقَ النَّهَارِ رُكْلٌ فِي فَلَكَ
يَسْتَعِينُ ۝ (١٧) ﴾ [يس]

وتحن في حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكنير فيما هو أقل من اسماء
والشمس والقمر ، فنحن نكرم الصانع ، وهذا أكرمت البشرية مصمم
التعريف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، مما نالنا سخالق الكون كله سبحانه

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق صوتية ، والثانية
الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، عبر
آلاف الشمس الأخرى في المجرات الأولى ، وكل مجرة فيها ملايين من
المجموعات الشمسية ، ويكفى أن نعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

(١) لا الشمس ينجى لها أن تترك القمر قال الثوري أى لا يدرك هذا صوره ، ولا هذا صوره هذا
وقال عكرمة يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا سمي للشمس أن تطلع بالليل ولا الليل سابى النهار
قال سعاد بطلان حين يُلغ أحدهما من الآخر والمعنى فى هذا أنه لا نراه بين الليل والنهار ، بل
كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا نزاح ، لأنهما مسجوران دائبان والملك : جميع أملاكه ، ومعنى
النداءات فى السماء التى تدور فيها النجوم والكواكب ، فكانها تسبح فى لغواء [نفسه] كثير
[٥٧٣/٣] شريف * وهذا دليل على تقدير العزير القديم *

بالشمس^(١) ، وقال عن كوكب الشعري :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾^(٢) [الحجم]

لأن كوكب الشعري أكبر من الشمس .

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جمالاً شامخاً ، وتمر عليها فتُدْهَش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ترات كتلات مرافة الحديد ، وتتحلل الأرض التي شققتها حرارة الشمس

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيز من عرين^(٣) في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء لسد العالي ، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من موط امسراجها بذرات الغرين ، وفي مثل هذا العرين يوجد الخصب الذي نأخذ منه لأقوات^(٤)

ولو أن الجبال كلها كانت هشة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح لأرض ، ولاحمى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

(١) قال الحق سبحانه في سورة الشمس ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١)﴾ [الشمس] وقد ذكر الله عز وجل الشمس في كتابه العزيز (٣٢) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا الحجم .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعري) إنه هو الحجم الوفاد الذي يقال له موزم الخوراء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه في الجاهلية [تفسير ابن كثير ٢/٢٥٩]

(٣) العرين . ما بقى في أصل الخوخ والغمير من الماء أو الطين ، وقيل هو الطين الذي يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو باسماً ، وكذلك (العرييل) قال الأحمسي : العرين أن يجيء السيل فيشت على الأرض ، فإذا جف وأيب الطين رقيقاً على وجه لأرض تدششق [لسان العرب مادة (ع ر ن)]

(٤) أقوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يُقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى

متماسكه ، وجعل سطحها بفض هو النهش لسزل المطر في كل عام مرة ،
ليحمل الخصب إلى الأرض

ومن يتأمل هندسة التكوين في الاقتات يجد لجنا محارن بلقوت

هالشري يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات
لحرت الأرض ، أو أي آلات أخرى تساعد في تجميل الحياة ، وتجد الحديد
مخزونا في طبان .

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المجهيز ، أو الرخام ،
أو الصبر أو العارات .

إذن فباطمور^(١) هي الحبال إمالا لافتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ،
أو وسيلة للترق فوق الاقتيات .

وحس يرل انظر فوق الحبال فهو يأخذ الخصب من الطبقة لهشة^(٢) على
سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كنشوات للناس ، وفي إفريقيا مثلاً توجد
مناجم للصحم والماس ، وفي بلاد أخرى تجد حود الطيب ، وهو عبارة عن
جذور أشجار

وأن لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض
الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الحبال ، متساوية في الخير مع انقطاع
المقابل لقطاع الأول .

(١) طمران شيء خبأ ومطمور اسم معقول من طمر ، وطمر إذا غلب واستغنى ، وسماد حيراب
الله للجنة داخل الأرض تنظر إله الله تعالى لها بالظهور

(٢) والشئ الهش الغير متماسك ، وهشم لشئ اليابس هشماً كسره قال تعالى ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾

(٣) ﴿ القمر ﴾ أي كالحطب والخشب للحطيم في يد المحتظر أي صانع الخطيرة [القاموس القويم

ج ٣٠٣ باختصار]

وقد تخلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فانت لو
حسبت مثلاً ما أعطاه المطر لليل من خصب الحقل من يوم أن خلق الله - عز
وجل - النيل في أرض وادي ليل في إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط
(البترو) في صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء
البترو ، وعم أن اكتشاف البترو قد تم حديثاً

وكل قوت محسوب من مخزون القوت ، وكل قوت له رسم ، فهناك رسم
للصحم ، ورسم للبترو ، كل ذلك بنظام هندسي أشاء الحكيم الأعلى سبحانه .
وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿يَعْقُلُونَ﴾ في مجال النظر في
لسموات وفي الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الحبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل
لهرم ، وتجد الوديان على العكس من الحبال ؛ لأن الوديان يكون بين
جبلين ، وتجد رأس الوادي في أسفل ، ورأس الجبل في قمته .

وحين يرل المطر فهر يمر برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل في
الوادي الضيق ، وكما نزل المطر فهر يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملاً مساحة
الوادي المتسعة ، وكلما زداد الخلق ، راد الله سبحانه رقعة الاقيات .

ومثل ذلك تجد في العريّن القادم من منابع النيل ؛ ليأتي إلى وادي
النيل والدلت ، وكانت هذه الدلت من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء
لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة

وحين تتأمل ذلك ترى أن كل شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه
بحساب .

والذي يفسد الكون هو أما لا يقوم تكثير ما تكاثر ، بل نستظر إلى أن
تزدحم الأرض من عليها ، ثم نفكر في استصلاح أراضي جديدة ، وكان
يجب أن نعمل ذلك من قبل .

وكلمة نزل المظر على الخيال فهي تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ،
يكشفها الإنسان ويُعمل عقده في استخدامها .

والمؤمن حين يرى ذلك يرداد إيماناً ، وكلمة طبع المؤمن حكماً تكليفاً
مأموراً به ، يحد نور الإيمان وهو يشرق في قلبه .

وليُحَرَّبَ أي مسلم هذه التجربة " ، عليه أن يعيش أسوعاً في ضوء
مهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يَرِنُ نفسه ويُصَمِّمها ليعرف الفارق بين أول
الأسرع وآخر الأسرع ، سيكتشف في هذا الأسرع أنه يصلي في
مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق في عمله ليكسب حلالاً ، وسجد أنه
يصرف ماله في حلال .

رَبُّ نَفْسِكَ بقيياً في آخر الأسرع ستجد أن نفسك قد شفت شفاية
رائعة ، لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع سبحانه بينك وبين الكون كله
في أبسط التفاصيل وأعقدتها أيضاً .

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أصبح عليهم تطبيقُ
مهج الله الشفاية نسأله زوجته : ماذا تطبخ اليوم ؟ فنقول لها : فلنُطبخ
اليوم بما بقي من طعام أمس ، ثم يُفَاحاً بقريب به يروره من الريف ، وقد
جاءه ومعه الخبز

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفاية تجعله مسجماً مع الكون كله ،
فيضله رزق الله تعالى له من أي مكان .

ويحد لشفاية أيضاً في أبعاد الأمور ، ألم يقل يعقوب عليه السلام

[يوسف]

﴿إِنِّي لَأَحَدُ رِجَالٍ يُصَفَّى﴾ (٩٤)

(١) هذه بحرية الريض الإيمان . فالمسلم الذي تعلّى عن المعاصي وتعلّى بالطاعات تعلّى لله عليه
بالحبوسات والشفاعات

وكان نخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين
مها للقاء نبيهم ، حاملين قميص يوسف ، الذي أوصاهم يوسف بإلقائه
على وجه أبيه ليرتد إليه بصره^(١)

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه
السلام قد عاش في نسجهم مع الكون ، ولا ترحم مضارة بينه وبين
الكون

وانشال الحق لذلك هو فرح الكون لمجيء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ،
لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسَبِّح لله سبحانه ،
محسن بأننى من يدعو العباد إلى التوحيد لا تُدَّ أن يفرح الكون ، أما من
يخص الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثن

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذى أَرَدَ الله سبحانه أن تنزل عليه
الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ (١٦)

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يُصْصرون
ولا يستصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه
وتعالى

١١ ردت إلى يوسف عليه السلام بعد ما تعرّف عليه خبرته قال لهم ﴿ قُلْ لَا تَهَيَّبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَهَيِّئُ اللَّهُ لَكُمْ بِهِ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٢) انه يهيئ بكم ما ألفوا على وجه أبي بات بهيئاً وأنسى بآهلكم أجمعين (١٣)
ولم تهنأ العيون أبداً أبومهم إلى لا يجد ريح يوسف لولا أن تصدونه (١٤) يوسف أى لولا أن يهيموسى
بفساد الرأى والحرف

﴿ وَمَا تُعْطَى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١]

[يونس]

إِذْ : فَعَدَمَ إِيمَانَهُمْ أَفَعَدَّ لَهُمُ الْبَصِيرَةَ وَالنَّاصِلَ .

وَلِذَلِكَ يَهْوِلُ الْحَقُّ سَحَابَهُ وَنَعْلَاهُ :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾



وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظنون في طغيانهم يعمهون^(١) ، وكأنهم يتظرون أن تكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان بكل المكذبين السابقين .

ويحسن تعلم أن اليوم^(٢) هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعد الأسبوع ، وبعد الأسبوع أحد لشهر ، ثم لحد السنة ، وكلم ارتقى الإنسان قسم اليوم إلى ساعات ، وقسم الساعات إلى دقائق ، وقسم الدقائق إلى ثوانٍ .

وكلما تقدمت الأحداث في الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه ومعاني وحدة من وحدات الزمن ، وهو مكون من ليل ونهار .

-
- (١) التور : جمع تثير ، وهو الرسول بهتججه وإيانه ويبراهيه .
 (٢) جنوا مضرو وسبقوا أي لما يتظرون تكرارهم إلا مثل ما وقع للأمم التي سبقهم من العذاب والمصاب [تفسير المجلدين ص ١٨٨] .
 (٣) يعمهون يحيطون ويترددون في الضلالة . قال ابن الأثير : العمه في الصحيفه كالعين في النصير [لسان العرب مادة (ع م هـ)] .
 (٤) اليوم في علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة وخمسة أدع وأربع الد - ربعهم وأ - م الله أيام حلت فيها عبه وعدده القاموس القويم ص ٣٧٤

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلَمَّة ، مثلما نقول : «يوم دى قَرْد»^(١) و«يوم حنين»^(٢) و«يوم أحد» .

إذن فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذى حدث فيه ، وحين ننظر فى التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث»^(٣) و«يوم أو طاس»^(٤) وكل يوم يمثل حرباً .

إذن فالיום ظرف زمنى ، ولكن قد يُفصِّد به الحدث الذى كان فى مثل هذا اليوم .

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الرمن المعاصر من عاش فى أزمنة سابقة فيُذكر الأيام الخوالى ويقول : كانت الأسعار قديماً متحصصة ، وكان كل شيء متوفراً ، فيسمع من يرد عليه قائلًا : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها

إذن : فقد يُنسب اليوم إلى الحدث الذى وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا . . . ﴾ [يوسف]

(١) ذو قرد مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما على بلاد ضلعان ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البحري فى صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل حبيب بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية انظر : سيرة ابن هشام (٣/٢٨١) ودلائل النبوة (٤/٢٧٨ - ١٩٣)

(٢) كان فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه ﴿ ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبكم كثير منكم فلم ينهى عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت سوا وليتم شأنهم ﴾ [الأنعام]

(٣) يوم بُعَاث هو يوم اقتتل فيه الأوس والخزرج ، وكان يظهر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حبيب بن مسلمة الأشجى أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن العاص الميالى ، فقتلوا جميعاً . (سيرة ابن هشام ٢/٥٥٥)

(٤) يوم أو طاس هو يوم حنين ، وكان فى سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة وأوطاس وادى ديار هرازل ، كانت فيه رقعة حنين

و لذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم
فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً

والله سبحانه هو القائل :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ لَمَنَّهُمْ مِنْ أَرْسَاتٍ عَلَيْهِ حَاصِبًا ۚ ﴾ وَمِنْهُمْ مَنِ اخَذَتْهُ
الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون يوماً مثل
هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمروا بالكفر ، حتى لا تتكرر معهم مأس
كألى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر .

و نحن نجد في العامية المثل العفري الذي ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع
من يقول : « لك يوم يا ظالم » أى أن اليوم الذي ينتقم فيه الله تعالى من
الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفتري على خلق الله ؛ لذلك
يأتى له الحق سبحانه يحدث ضحى يصيبه فيه الله تعالى ويديقه مجموع
ما ظلم الناس به .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَانْتَظِرُوا يُسَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ ﴿١٢﴾ [يوس]

(١) الحصب كل ما يلقي في النار ، لُسُفْر به قال تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَن تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنعام] ، وحصبه نذبه بأخصى ، قال تعالى ﴿ أَمْ أَمِنُ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ [الأنعام] أى إحصاراً شديداً يذهبكم بأخصى ، فهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر
من ذلك

وقوله هنا : ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) فيه إشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سيستظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر في هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي وَرُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا
نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

والحق سبحانه قد أنجى - من قتل - رُسله ومن آمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن نظل معالم الشر ، لأنه لولا مجيء الشر بالأحداث التي تعصفُ الناس ما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً ، إن الألم الذي يصيب المريض هو جسد من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خطأ يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له

والألم يوجد في ساعات اليقظة وانوعى ، ولكنه يختفى في أثناء النوم ، وفي النوم رَدْعٌ دائمٌ للألم .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي وَرُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) [أيوس]

هذا القول يقرر البقاء لخصائص الخير في الدنيا

(١٠٣) أي: أنه قد سبحانه قد أنجى رُسله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب ، وسيجي النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تعذيب الكفار والمشركين [تفسير الخلالين ص ١٨٨ - بتصرف]

وكما راد الناس في الإلحاد زاد الله تعالى في الملة ، قضي أي بلد يُفتري فيها على الإيمان ويُطلم المؤمنين ، ويكثر انطاعة ؛ تُجهد فيها بعض الناس منطمين إلى الله تعالى ، لثمتهم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدين بالظلمة والطعة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجي المؤمنين في قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَحْمِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٢) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠١)

والشك "معناه" رضع أمرين في كفتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قصة الدين ، وأن يضعوها في كفة ، ويضعوها في الكفة المقابلة ما يؤمنون به .
ويترك لهم الحكم في هذا الأمر .

هم - إذن - في شك هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعرض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعني : أن أمر الدين ملحوظ أبصاً عند أي كفر ، وهو يشبه أحياناً إلى قيمة الدين .

(١) الشك . فبعض البقيس ، وجميعه : شكوك . قال تعالى ﴿ قُلْتُمْ رَبَّنَا إِنِّي أَتَتْكُمْ فَأَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١٠٢) [إبراهيم] [الإنعاب] [الإنعاب] [الإنعاب] .

فلما كنتم في شك من الدين اندي أنزل على رسول الله ﷺ ، وهل يتصور الرسول ﷺ ومن معه عليهم ، أم تكون لهم العلية ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إن نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن ينتجىء الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿فَلَا تُعْبُدُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ اعْبُدُ اللَّهَ..﴾ (١٠٨) [بوسى]
 أى أن لا يمكن أن يعبد لشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد
 إلا الله ﴿وَلَكِنْ اعْبُدُ اللَّهَ﴾ (١٠٩) .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذي لا مرأى فيه ، الدليل القوي ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُم﴾^(١) ، ولا يوجد من يقدر أو يتأبى على قدر الله سبحانه حين يمته .

وہنا قضیتان

الأولى : قضية العبادة في قوله سبحانه : ﴿ فَلَا أُعْبِدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ ﴾ (١٠٤) [يونس]

(١٦) المراء، وإحصارة، والتماري، والامتراء * الجمال والشت. قال تعالى: ﴿... فلا تعذر بهم ولا مردة ظاهراً ولا تستفتي بهم منهم أحداً (٥٦) ﴾ [الكهف]. وقد يقال: ﴿... إحصارونه على ما يرين (٥٦) ﴾ [التيسيم] وكذلك لمرة (بكسر الميم، وبضمها)، قال تعالى: ﴿... ولا يزال الذين كفروا في مرة بعد مرة (٥٥) ﴾ [الحجج] [لسان العرب مادة (م ر ي)] بتصرف.

(٢) يتوكلوا على الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وينصروا الله ورسوله. (١٢٩) ﴿الزمر﴾ أي يستوفى
مُدَّ أجالهم في الدنيا. (السلطان : مادة وهي)

وكان لا بد أن يأتي أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصص الله تعالى وحده بالعبادة .

ولفصل واضح بما يُحدد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه في قوله

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَتُمِّمُ عِبَادَتَكُمْ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَتُمِّمُ عِبَادَتَكُمْ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن في سورة (الكافرون) " تكراراً لا يتمتعون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ، ليستمر هذا القطع في كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقتاً للعلاقات " .

وهذا أول قطع للعلاقات في الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتصالح أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله

(١) مرت سورة الكافرون في عهد من قرش فاشوا يا محمد ، هم اتبع دينا وتبع دينك ، بعد آلهما سنة وبعد إلهت سنة ، فإن كان الذي حسب به غيراً بما بأيدينا قد شر كذاك فيه وأخذنا يحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا حيراً مما في يلك قد شركت في أمرنا وأخذنا يحظك ، فقال محمد ﷺ أن أشرك به صيره فأترل الله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ إلى آخر السورة ، بعدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه للأ من قرش ، فقرأ ما عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسو منه عند ذلك [أسباب البرول لدوا حدي ص ٢٦٩]

(٢) أنوال مُفسري وعلماء سلفنا الصالح تتلافى كلها فيما قاله ومصلحة الشيخ هـ فقال البعض منهم البخاري وصيره أن المراد ، ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (١) وَلَا أَتُمِّمُ عِبَادَتَكُمْ مَا أَعْبُدُ (٢) ﴾ [الكافرون] في الماضي و﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَتُمِّمُ عِبَادَتَكُمْ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾ [الكافرون] في المستقبل وقال البعض الآخر إن هذا تأكيد محض . وهاك قول آخر يصوره الإمام بن تيمية ، وهو أن أم ادبوله ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (١) ﴾ [الكافرون] متى ، يعمل لأنها حملت معنى ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) ﴾ [الكافرون] في قبحه لذلك بالكيفية ؛ لأن المعنى بالجملة لا اسمه أكد ، فكانه معنى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه في الواقع ، وهي الإمكان الشرعي أيضاً ، انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٩) .

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَأَفْتَحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاحًا ۝ لَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ۖ وَاسْتَغْفِرُ لَهُ ۖ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾ [النصر]

هذا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وقبضه ، فخرج الناس من معسكر اشرك إلى معسكر الإيمان^(١)

هم - إذن - الذين جاءوا إلى لإيمان هذه هي القضية الأولى

﴿ فَلَا تُعْبُدُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ اعْبُدِ اللَّهَ ۖ ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وبت إذا نظرت إلى الأجسام في الوجود ، فأكرمهم هو الإنسان الذي سخر له الحق سبحانه بقية الأجسام لتكون في خدمته

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان

ثم يأتي الجنس الأقل مرتبة من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتي الجماد كأدنى الأجسام مرتبة ، وهم قد انحلدوا من أدنى لأجسام آلهة ، وهذه هي قمة الخيبة .

وتأتي القضية الثانية في قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) كان بين سورتي «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، عبادة الكافرون ، لك في بداية الدعوة ومحاولة قريش إقناع رسول الله ﷺ عن الاستمرار في دعوته ، ثم حدثت المعصنة ، ثم الهجرة ، ثم العزوات ، إلى أن تم نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فكانت سورة النصر وهذا يؤكد حالة تفهيمه الشيخ في إصدار التلخيص مع معسكر الشرك ، فحصل الزم كذا بالنسبة لقضية «يبدأ معسكر ومحاصر ومستقبلا»

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠١) ﴿ فإذا كان رسول الله ﷺ قد رخص العبادة لمن هُم دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه من يعد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضى استئصال صهيح الله بأن يطيع أوامره ، ويحسب بواهيه .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٥)

وما دام الخطاب موجهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما يطوى على الأمر لكل مؤمن وإدا ما عبد المؤمن لله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتي الأمر بها بالآيات وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :
﴿ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ ۝ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فلا يلتفت في العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً^(١) ، كأن يعبد الإنسان من هُم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التي يلتفت بها الإنسان .

(١) حيفاً مأثلاً عن كل طرق ومنهج الضلاله ، إلى طريق الحق وحده .
(٢) لشرك الخفى من انرياء وطلب السمعة والصب . عن إسماعيل بن أوس قال قال ﷺ : من أخرب من أخرب على أمس الإشراف بالله أما لم است أمور يعبدون شيئاً ولا مبرأ ولا وثناً ولكن أعدلاً يعبد الله : وشهوة حبه وأمره فتن طاحه في حسنه (٤٤٠٥) .

ومضى صرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ۖ يَأْتِيَنَّكَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَبِيرًا وَتَحْتَهُ عَالَمٌ خَافٍ ۚ﴾^(١)
[إبراهيم حنيفاً] (١٢٥) ﴿

واختف^(٢) أصله ميل في الساق ، وتجدد البعض من الناس حين يسرون
تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم ملتصقة ، هذا احتجاج في الشكوك
أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى ' معوج عن الطريق المعوج ' أى
أنه يسير باستقامة .

ولكن لماذا يأتى مثل هذا التعبير ؟

لأن الذين لا يحىء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد
قد عمّ ، فيأتى الدين ، ليدعو الناس إلى المي عن هذا الفساد . وفى هذا
عتبات لسلوك الأفراد والمجتمع .

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن تقع فى الشرك الخفى بعد الإيمان بالله
تعالى .

(١) البين ' الطاعة والانقياد والشرعية والخير ' ، والعقيدة والبهج والصراط المستقيم [القاموس القويم -
بإختصار ص ٢٣٩]

(٢) الملة (يكسر اليم، وتضعف اللام) الشريعة والدين قال تعالى ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [يوسف] وقال تعالى ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِرَبِّهِمْ هُوَ مَسْكُوكُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ
قَبْلُ (١٢٥)﴾ [الحج] [لسان العرب مادة م ل ن] - بصرف

(٣) الخنف من القدمين إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإيمانهما رجل أنحف، وامرأ، حناء، وبه
سُمي 'الأحنف بن قيس' ، واسمه 'صخر' ؛ لحنف كتف في رجله قال الجوهري الخنف
الاحتجاج فى الرجل وقال أبو عمرو الخنف هو المائل من غير إلى شيء أو من شى إلى غير - رحنف
عن الشىء - وحنف مائل والخيف: المسلم الذى يحنف عن الأديان، أى يحيل إلى الحق، وقيل هو
الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، قال تعالى ﴿مَا كَانَ
إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْتَمِرًّا (١٢٥)﴾ [آل عمران] - وقيل الخيف هو الذى يميل
عن الضلال ، ويعد منه لينجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين [لسان العرب
مادة ح ن ف] - بصرف

ويأتى لكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه

﴿..وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٥)﴾ [يوس]

وهذا اشرك انشأى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لآى شىء مع الله عملاً

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، مَقُلْ لِمَكَ ، إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كَمعالج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، يدلل أن الطبيب قد يخطئ مرة ، ويأمر بدواء يحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

• وعلى المؤمن ألا يُعْتَنَ فى أى سبب من الأسباب .

وتذكر مثلاً آخر لذلك ، وهو أن بلاداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المنسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، وسنت السنين وأبعت ، ثم جاءتها ربح عاصف أفست محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ

فَأِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٦)﴾

والمشرك من هؤلاء حظة أن عبد الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتحدوها المشركون آلهة لم يكن لها مهج ، ولا أحد منها

يتنفع أو يضر ، وحين يجيء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين
يجيء الضر لا يقدر الصنم أن يدفعه .

إذن : فمن يدعو من دود الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا يتنفع
ولا يضر .

ومن يفعل ذلك يكرر من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حق لغير ذي
حق ، سواء أكان في القصة ، أو في غير القصة^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْكَ أَصَابًا مُمْسِكَ لَا يُفْلِكُ أَهْلُ الْأَرْضِ
وَأَنْتَ يَوْمَئِذٍ بِرَدِّ الْأَعْيُنِ عَنْ يَوْمَئِذٍ فَذَرْهُمْ لَا يَكُونُوا لَكَ آفَةً
وَأَنْتَ بِمَا تَعْمَلُ الْغَالِبُ ۖ وَأَنْتَ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكَ آلِافَةً مِمَّنْ
يَبْغَىٰ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾

هذا كلام الرواية المستغنية عن الخلق ، فإله سبحانه وتعالى خلق
الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ،
ولا يأخذ منهم ؛ لأنه في غنى عن كل خلقه .

ويأتي الكلام عن الضر هنا بالمتن ، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْكَ أَصَابًا مُمْسِكَ لَا يُفْلِكُ أَهْلُ الْأَرْضِ ۖ وَأَنْتَ يَوْمَئِذٍ بِرَدِّ الْأَعْيُنِ عَنْ يَوْمَئِذٍ فَذَرْهُمْ لَا يَكُونُوا لَكَ آفَةً وَأَنْتَ بِمَا تَعْمَلُ الْغَالِبُ ۖ وَأَنْتَ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكَ آلِافَةً مِمَّنْ يَبْغَىٰ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس]

وحيث نعلم أن هناك «مساء» و«إصباحا» .

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المس ، أي . الضر
البسيط ، ولا ثقل . إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرُون عليه ، فلا أحد

(١) أي سواء كان ظلماً في القصة - أي ، بالإضرار بذلك ، أو ظلماً في غير القصة بنظم المصاد بأخذ حقوقهم
والاعتداء عليهم

يقدر على الصر أو النفع ، قل الصرام كبر ، وكثر النفع أو قل ، إلا بإذن من الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمرس ، أي : أهون الانصافات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .

ومن عظمته - جلّ وعلا - أنه ذكر مع المرس بالضر ، الكشف عنه ، وهذه هي الرحمة .

ثم يأتي سبحانه بالمقاس ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه * يؤكد أنه لا يردده .

وحيث يجد كلمة «يُصِيبُ» في وصف مجيء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء من عباده

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الحميلة في قوله تعالى

﴿... وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٧)﴾ [يونس]

وهكذا تتضح لنا صورة حلال الخير المتجنى على العباد ، وهي الشرع جاء به مستأً ، ويكشفه ، وفي الخير يصيب به لعباد ، ولا يمسعه .

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه^(١) ؛ ولذلك نلحده سبحانه في آيات النعمة يقول :

﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (١٨)﴾ [الحج]

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لما قصي الله الخلق كتب لي كتابه ، وهو عنده في العرش إلهي غمضي غلقت غمضي» أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٢٥١)

(٢) الإحصاء العدد والحصر

وجاء الحق سبحانه بالشك ، فقال ﴿إِنْ﴾ ولم يقل «إذا تعدون نعمة الله» لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنة أنه يمكن أن يحصى ، فقد تُعدُّ النقود ، وقد يُعدُّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يعدَّ أو يحصى حَبَّات الرمان مثلاً .

وقال الحق سبحانه وتعالى

﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا.. (١٨)﴾ [الحل]

وهذا شك في أن تعدو نعمة الله .

ومن العجيب أن العَدَّ يقتضى التجميع ، ولجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هي ﴿نِعْمَةً﴾ ولم يقل : «نعم» فكان كل نعمة واحدة مطمور فيها نعم شتى .

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ التَّعَمُّ المطمورة في نعمة واحدة

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم في آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿..وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" (٧٤)﴾

[إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [الحل]

(١) ظنوم صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو بها معاً وكفَّار صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى شديد الكفر ، والكفر فى اللغة - السر ، من ستر الشيء إذا أخفاه فكان الإنسان يعلم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها أى سترها وأخفاه ولم يؤد حقها من الذكر والشكر .

وَصَدَّرَ الْاَيْتِيزِ وَاحِدًا ، وَلَكِنْ عَجَزَ كُلُّ مِنْهُمَا مُعْتَلِفٌ ، فَفِي الْاَيَةِ الْاُولَى : ﴿ .. اِنَّ الْاِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢١) [ابراهيم]

وفى الْاَيَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ .. اِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٨) [الحل]

لَا اَنَ الْعَمَّةَ لَهَا مُنْعَمٌ ؛ وَتُنْعَمُ عَلَيْهِ ، وَالْمُنْعَمُ عَلَيْهِ - يَنْفُوهُ - لَا يَسْتَحِقُّ الْعَمَّةَ ؛ لِأَنَّهُ ظَلُومٌ وَكَفَّارٌ وَلَكِنْ الْمُنْعَمُ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى غَمُورٌ وَرَحِيمٌ ، فَفِي آيَةٍ جَاءَ مَلْحَظُ الْمُنْعَمِ ، وَفِي يَهْ أُخْرَى جَاءَ مَلْحَظُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ نَجَدَهُ ظَنُومًا كَفَّارًا ؛ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ الْعَمَّةَ ، وَلَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَيْهَا.

أَلَمْ تَقُلْ السَّمَاءُ : يَرْبَا اَتَدُنْ لِي اَنْ اَسْقُطَ كَسَفًا عَلَى ابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنْعَ شُكْرِكَ
وَقَالَتِ الْاَرْضُ : اَتَدُنْ لِي اَنْ اُخْصِفَ بِابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنْعَ شُكْرِكَ.

وَقَالَتِ الْجِبَالُ : اَتَدُنْ لِي اَنْ اَسْفُطَ عَلَى ابْنِ آدَمَ.

وَقَالَ الْبَحْرُ : اَتَدُنْ لِي اَنْ اُعْرَقَ ابْنِ آدَمَ الَّذِي طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنْعَ شُكْرِكَ.

هَذَا هُوَ الْكَوْنُ الْغَيُورُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَرِيدُ اَنْ يَعْاقِبَ الْاِنْسَانَ ، لَكِنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ رَبُّ الْحَمَمِ يَقُولُ : « دَعُونِي وَعِبَادِي ، لَوْ خَلَقْتُمْهُمْ لَرَحِمْتُمْهُمْ ، اِنْ تَابَرَا اِلَيَّ فَاتَا حِيَهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَتَرَبَّرَا فَاتَا طَيِّبُهُمْ »

وَيَقُولُ الْحَيُّ سَبِّحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ قُلْ يَٰ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ
فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ ﴾

إذن فالخلق سبحانه لم يُقصر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان يكفي أن تفكروا بها لتؤمنوا من غير مجيء رسول ، وكان على هذه العقول أن تفكر في القوى الذي خلق الكون كله ، بل هي التي تسعى لتطلب أن يرسل لها أقوى رسولا بما يطلبه سبحانه من عبادة ، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول .

إذن كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم ؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون ، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»^(١) تبحث عما وراء المادة فمن أعلم الفلاسفة إذن أن هناك شيئا وراء المادة .

وكان لعقل المجرد ساعة يرى نظم الكون الحقيقية كان يجب أن يقول : إن وراء الكون الواضح المحس قوة خفية

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، لا لأنهم أخذوا من

(١) الركن الكبير الموكل بأوراق الدس وأمورهم والحفيظ الذي يحفظ أعمال الدس قال سبحانه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عَنْهُمْ حِفْظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝١٠٧ ﴾ [الأنعام] ، وقد نفى الله سبحانه ملاه من بيه ورسوله محمد ﷺ

(٢) الفلسفة ، لفظ يوناني وسماه البحث عن الحقيقة والفيزيقا ما وراء الطبيعة والكون أي العيالات التي لا تعصم لقوانين المادة

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذي وراء المادة هو الذي يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل .

وقديماً صرنا مثلاً في ذلك ، وقلنا : هَبْ أَنَا جَالِسُونَ فِي حَجَرَةٍ ، وَدَقَّ جَرَسُ السَّابِ ، فَعَلِمَ كُلُّ مَنْ فِي الْحَجَرَةِ أَنَّ طَارِقاً بِالسَّابِ ، وَلَمْ يَحْتَفِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَقِيقَةِ .

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاهلوا مهمتهم ، وأرادوا أَنْ يُعَرِّفُوا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التي تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أَنْ تُعَرَّفَ بالعقل ؛ لأننا ما دُمَّا قد عرفت أن السَّابِ طَارِقاً يَدُقُّ ، فَكَيْفَ لَا نَقُولُ مَنْ هُوَ ، وَلَا نَتْرِكَ الْمَسْأَلَةَ لِلْعَيْنِ ، بَلْ نَتْرِكُهُ هُوَ الَّذِي يَحْدِدُ لَنَا مَنْ هُوَ ، وَمَادَا يَطْلُبُ ؟ لِأَنَّ عَلَيْهِ هُوَ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ نَفْسِهِ

طلباً منه أَنْ يَعْنِ عَنْ اسْمِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَهَذِهِ مَسَائِلُ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْرِفَهَا بالعقل

إِذِنْ فَحِطْوا بِالْمَعْلَافَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْنَعُوا عِنْدَ تَعَقُّلِ أَنَّ هَآكَ قُوَّةٌ مِنْ وَرَاءِ الْمَادَّةِ ، وَأَرَادُوا أَنْ يَتَّقِلُوا مِنَ التَّعَقُّلِ إِلَى التَّصَوُّرِ ، وَالتَّصَوُّرَاتِ لَا تَأْتِي بالعقل ، بَلْ بِالْإِجْهَالِ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَسْأَلُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ (١٨) ﴾ [يوسف]

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، وَأَنْ يَأْتِيَ

الحق من الرب الذى يشولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمد من عدم^(١) ،
ولا يكلفنا بتكليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا
حلقاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فهذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا
لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كن يجب - إذن - أن نأخذ من المربى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى
تدير به حركة الحياة ، فلا نمسك .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿جاءكم الحق^(١) من ربكم .. (١٠٨)﴾

[يوس]

فمعنى ذلك أنه لا عثر لأحد أن يقول : «لم يبلغنى أحدٌ بمراد الله » ،
فقد ترك الحق سبحانه العقول لتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصور للسلاج عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولا
يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن
تقول للرسول بعد أن تصدق بمعجزته : أهلاً ، فأنت من كما نبحت عنه ،
فقل لنا ماذا تريد القوة العليا أن تلعب به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية .

(١) العدم والعدم والعدم فقدان الشيء وهما . ومثله فى ضبط حروف الكلمة الرشد والرشد - الجزن
والجزن . ومثله بوله تعالى ﴿لا إله إلا الله الذى لا يئس الرشد من الفنى .. (١٠٨)﴾ [البقرة] وقوله
تعالى ﴿.. ولما اتوا من ليلته راحة وحى لنا من أمرنا وشأنا (١٠٨)﴾ [الكهف]

(٢) الحق - الأسر الثابت عند الباطل ، والحق من أسماء اله الخمسى ، ولحن القرآن ، والحق العدل
والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى ﴿إلا
إذا الله ما فى السموات والأرض إلا إن وعد الله حقاً ولكن أكثرهم لا يعلمون (٢٢)﴾ [يوس] ، راجع ما

وسبب حبك لميرك [قاموس الترميز يتصرف ص ١٦٦ ، ١٦٥]

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٢٥٩

[يوس]

﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا مَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ ۖ﴾ (١٠٨)

لأن حصيلة هديته لا تعود على مَنْ خلقه وهذاه ، بل تعود عليه هو نفسه اسجماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتهاهاً لعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

[يوس]

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَلَا يَهْتَدِ ۖ﴾ (١٠٨)

وكلمة ﴿ضل﴾ تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضل عنها

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُخَوِّدٍ﴾ (١٠٨) [يوس]

وأنت لا توكِّل إنساناً إلا لأن وفئت لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمت وحركتك ، وهن يُسلخ الرسول القوم : أما لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل عبي فقط مهمة البلاغ^(١) عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء ألقب من غير ، تهتدوا

وإذا اهتديتم ، فالخير لكم ؛ لأن الخراء سيكون خلواً في نعيم تأخذونه مقابل تطبيق النهج الذي صيِّق على شهرات النفس ، ولكنه يهذى حياة نعيم لا يموت الإنسان ، ولا تعوب النعم فيه الإنسان .

(١) وقد ورد تأكيد هذاه آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا فَرْغَناكَ عَلَيْهِمْ حِسَابًا إِنَّ عَلَيْكَ الْبَلَاغَ﴾ [الشورى] وقال تعالى ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التك] [النور] فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ مبياً جلياً واضحاً

وإذا كان الإنسان مثلاً يقبل أن يتعب ؛ ليتعلم حرفة أو عملاً أو صناعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إنقائه هذا العمل بقية عمره .

أليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التي تصلح بآله ، وتسرع به إلى الغاية انسجماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعم في الآخرة .

أما من يستكثر على نفسه الجِدَّ والاجتهاد في تحصيل العلم ، أو تعلم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا في حقيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً في التعلم .

وبرى من يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى في المستوى الاجتماعي والاقتصادي ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذي يأتي له بسعة الرزق .

وكلما كانت الشجرة التي يريد الإنسان أينع ^(١) وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول .

وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما يتطرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شامعاً ، ولا مقارنة .

وقول الحق سبحانه

﴿ وَهُنَّ ضُلٌّ ^(٢) فَإِنَّمَا يَهْدِي اللَّهُ ^(٣) . (١٠٨) ﴾

[يوس]

(١) أينع أكثر نضجاً والبيع النضج - ومنه قوله تعالى : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا تم وهو نضج . (١٠٨) ﴾ [الأنعام]

(٢) ضل الكافر غاب عن الحجة المقتضية ، وحدد من الطريق المستقيم ، ومن يعرف الحق والضلال السبيل والضلال - ومن الضل - حفي وغاب فهو فعل لاوم - ومن للسافر الطريق متعباً لم يعرفه [القاموس المعجم ص ٢٩٤ - بتصرف] .

تجد فيه كسمة ﴿عليها﴾ وهي تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك
بالضلال - والعباد بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى
الهاوية .

وفي المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا مَهْتَدِي لِنَفْسِي .. (١٠٨)﴾ [يوس]

وتجد «اللام» هنا تفيد الملك ؛ لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه في حتام سورة يوسف :

﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْضَمَ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْمُخْضَمِينَ (١٠٩)﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يُنَاقِبْهَا
النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨)﴾ [يوس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى - الظرفى ، ولا بُدَّ أن يثنى الناس فى
المنهج ، بأن يكون لرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه معاد الله - لو
عشَّ الناس جميعاً بما غشَّ نفسه

بذن بعد البلاغ^(١) عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

(١) البلاغ اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ قال تعالى ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم] وقال تعالى ﴿إِنَّمَا هِيَ إِفْكَةٌ مَقْرُونَةٌ بَيْنَهُمَا لِيُبْلِيَ اللَّهُ الْقَلْبَ الضَّالِّينَ﴾ [النمل] لاخير والملاحظ

ومبعض الشيء - حده ونهايته التى يصل إليها ، أو معادله الذى ينتهى به - قال تعالى ﴿ذَلِكَ مَنَعَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ .. (٥٧)﴾ [المحمد] [العاموس القوج - تصريف ٨٣ / ٨٤ : ٨٤]

لا يعود نفعها على الحق ، بل هي للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحه اليال في الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا بامتلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد الهلكة .

وارسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتي لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر .

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ١٦١﴾ [الأحراب]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ١٦٢﴾ [يونس]

أي . عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتبع ما يوحى إليك ؛ ستجد عقبات من يعيشون على الفساد ، ولا يرصيهـم أن يرجد الإصلاح ، قوطين العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تقصر .

(١) الأسوة القدوة ، والمثل الأعلى الذي يقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقنوتنا وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً ﴿لَقَدْ كُنَّا لَكُمْ أُسْوَةً حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا قَتُلُوهُمْ إِنَّهُمْ بَرَاءَةٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبَثُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ١٦٠﴾ [المتنعة] ثم قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ١٦١﴾ [المتنعة]

(٢) ورد الرجاء في القرآن على معان عدة

- معناه الطلب والأمل في تحقق شيء ، وذلك مثل قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ١٦٨﴾ [البقرة] .

- وقوله تعالى ﴿وَالْقُرْآنُ مِنْ نَبَأِ الْآخِرِ لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ١٦٥﴾ [النور] .

- منها ، الخوف ، مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَحِمْنَا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آثَارِهَا غَافِلُونَ ١٦٧﴾ أُولَئِكَ مَا أُنَمِّسُ النَّارَ مَا كَانُوا بِكُمْ يُنَمِّسُونَ (١٦٨)﴾ [يونس] .

سُورَةُ الْيُونُسَ

٦٢٦٣

ومجىء الأمر بالصبر ذليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن
تصبر وتعطى النموذج لغبرك^(١) ، والثقة في أنه لو لم يكن هناك حير في
اتباع المهج لا صبرت عليه ؛ حتى يأتي حكم الله ﴿... وَاَصْرُ حَتَّى يَحْكُمَ
اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩)

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى

وهذه لسورة التي تُحْتَمُّ بهذه الآية للكرامة ، تعرضت لقضية الإيمان
بالله ، قمة في عقيدة لآله واحد يحب أن تأخذ البلاغ منه سبحانه ، لأنه
الرب الذي خلق من عدم ، وأمد من عدم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور
سنوات الطمرنة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلف يستحق أن يُكَلِّفَ
بعد أن انتفع بخيرات الرخود منه ، وثبتت من صدق الربوبية .

ومعنى الربوبية هو التبرية ، وأن يتولى الربى الربى إلى أن يبلغ حدَّ
الكمال المرجو منه .

وقد هددت هذه الفصحة في الكون

إذن ؛ نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذي خلق ، حين يُسِّر لنا
مهمتنا في الحياة بمهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع
العبادة التي يعرفها قل أن يحظر أي خطوة .

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُصَيِّعُه ، بل
لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه^(٢) ؛ لأن كل صفة إنما يضع قانونها

(١) يقول سبحانه ﴿وَالصَّابِرِينَ كَمَا صَبَرْنَا آلُكَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٠٩) [الأحزاب] فالصبر هو اقتداء بالرسول
الأعلام ، الذين صبروا على إبداء أقومهم صبراً بغيره فترات الشر ، مثل نوح وموسى وعيسى
وإبراهيم ومحمد ﷺ

(٢) يقول تعالى ﴿وَلَا يَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٢١) [القيامة] قال ابن كثير في تفسيره
(٤٥٢/٤) الآية تعني الخالين أي ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في
قبره سدى لا يصعد ، بل هو سامع من في الدنيا ، مستور إلى الله في الدار الآخرة

ويحدد العانة لها مَنْ صنعها ، فإذا ما حاللنا ذلك نكون قد أحللنا^(١) وغيرَ ن الأمور ، وأدخلنا العالم في متاهات ، وصار لكل امرئ غاية ، ولكل امرئ منهج ، وكل عقل فكر ، ولصار الكون متصارماً ؛ لأن لأهواء ستتصارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأبدان^(٢) يضعف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذي يجب أن يعالجه

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً^(٣) في العقيدة ، وتوحيداً في المذهب .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يصوب لنا مثلاً تطبيقياً في مواكب الرسالات ، فذكر لك في هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما لسلام - وذكر بينهما لقصص الأخرى .

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام .

ثم ختم السورة بقوله سبحانه :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩)﴾ [يونس]

بلاغاً عن الله تعالى .

وما دُمْتَ تَبْلُغُ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

(١) أحللنا الأمور : حركناها وبذلناها لغير ما وضعت به . وهي السكينة . كل شيء تغير عن الاستواء إلى العرج فقد حال واستحال . ويقال : حال الرجل بحول مثل تموج من موضع إلى موضع . (مادة حَوَّ)

(٢) الأبدان : لأشكال والنظراء .

(٣) الرسالات في جوهرها نسر بالترديد وعليه وبه ، يقول الحق سبحانه : ﴿لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا رَضِينَا بِهِ﴾ . ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا رَضِينَا بِهِ﴾ إبراهيم وإسماعيل وعيسى أذ اتبعوا الدين ولا تفرقوا فيه . (١٥٩) [الشورى] .

البوء ، ولم تُعدْ هناك سورة بعك يـ محمد ﷺ تسليماً كثيراً .

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوه لمنهج الذي نزل إليك .

إذن : فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بلّغ ، ويجب أن تكون أمة شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالته الله إلى الدنيا ^(١) ، وهذا شرف مهمة مـ محمد ﷺ .

ولم تكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أي رسول تفقر ، ونهبت تكاليفه ^(٢) ، ويعمل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى رسولا ، ولكن الأمر يختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تُعدْ هاك سوء ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى .

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة في تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، وغدوذج تطبيقي حتى لا يكلف الناس فوق ما تطبيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصير على أنه بشر ، وأوصح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض :

[قصت]

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۚ ﴾ (٦)

(١) يقول رب لعمري سبحانه وتعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة] وقال تعالى ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا بَيْنَكُمْ أَبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج]

(٢) يقول عليهم السلام في تفسيره وسأله الرسول : وضع فيها التحريم والسبيل والنهي ، وقد حدث أكثر هذا مع بني إسرائيل

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن شراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا: لن نستطيع لأنك لست مثلاً.

ولذلك نلاحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحى إليه ، مهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحي ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحي ويُطبقه على نفسه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ (٧١) [الأحرام]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقل الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبار ، وهو كمردج سلوكي تتوازن فيه ربه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه مع أقاربه وأهل من حقوق أقربا لعبرهم من المسلمين ، فأقربيه لم يُعطهم الحق في أن يرثوا شيئاً عما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكون كل عمل صادر منه ﷺ أو عن يتسببون بأقربيه إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الرمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومن بعد في القرابة يأخذ لأقل حسب درجة بعده .

(١) الأسوة والإسوة الفكرة ويقال اتسبه ، أي: اقتدبه وتكون مثله قال الفيلسوف ملاك ياتس يملان ، أي يرضى لنفسه ما رغبه ويقتدى به وقال الهروي تأسّى به . اتبع معبه واتتدى به [كتاب العرب مادة (أ س ا)]

لكي الذي في دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذ المقير في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان مسوياً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة .

إذن . فالإتباع الذي أمر الله تعالى به ، هو اتباع الرُوحى ملاعاً ، واتباع ما يُوحى به تطهيراً ، وسيستلزم هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبابرة لمتعمين بالفساد في الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ لحافظوا على سلطتهم البرمينة ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفي الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقْبِلٌ على عقبات فليُتَعَدَّ نفسه لحمل هذه العقبات بالصبر^(١)

وفي آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو وللمؤمنين . . يقول سبحانه :

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا^(٢)﴾ . . [آل عمران]

أي : إن صبرت ، فقد يصبر حصنك أيضاً ، وما عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبر» توحي أن دعاة المهج الحق سبحانه لا بد أن تعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجيء . فلو كان العالم مستقيماً الحركة ، فما ضرورة المهج إذن ؟

(١) وقد كان الحق سبحانه يُعَذِّبُهُ ﷺ لهذا ، من بحر بؤله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ لِصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَفُوا عَلَى آثَانِهِمْ تَبَرَّأْنَا لِلْكَذِبَاتِ اللَّهُ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ بَنِي الْمُرْسَلِينَ (٢٥)﴾ [الأنعام]

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصي وصابروا الكفار فلا يكونوا أشدَّ صبراً منكم ورابطوا أي ساهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه [تفسير الجلالين ص ٦٤] وصيغة «اصبر» من «قاعل» تدل على شدة التحمل والمثابرة فيه ، أي شدة الصبر والتحمل والاستمرار عليه حتى الوصول للهدم .

ولكن المهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عمّ لكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليوطن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنفص من حفظه في ميراث النبوة ؛ لأن الذي يأتي له لأذى هو الذي يأخذ حفظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجرى إلا بمقدار خطورة الدعى إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده .

ورسول الله ﷺ يقول : «نضر^(١) الله امرأ سمع مقالتي فوعاها^(٢) وحفظها وبلغها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(٣)
إذن : نحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١)

[الأحزاب]

إذن فنقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ..﴾ (٦٠)

[يونس]

هو دليل على أن الوحي بصيغة الإنزال ؛ لأن الوحي لم ينزل بالقرآن

(١) النبارة [سرايق الوجه ونوره] .

(٢) وعاء : حفظها ، فكان كالوعاء بين ما يروى عنه ، وإن لم يدرك تفاصيل ما وعاء .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٨) وأبو يعقوب في حلية الأولياء (٣٣١/٧) من حديث عبد الله بن مسعود .

دُفْعَةً واحدةً ، فقد كان لوحى ينزل على رسول الله ﷺ طوال حياته^(١)

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هي مقام الاستقبال للوحى

وقول الحق سبحانه :

﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ (١٠٩) [يوس]

بوضح لنا أنه سبحانه قد وصح جداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ،
وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

وكلمة ﴿يَحْكُمُ﴾ بوضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدعى أنه على حق ، ثم
يأتى مَنْ يفصل فى القضية ، ولحجة إما لإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال
لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون حُدولاً ، أو يكونون ممن
يُدارون فسقهم فى ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ،
فهو لا يحتاج إلى شهود ؛ لأنه حير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم
فقط دون قدرة إمام الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة
الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

وبعد فى زماننا برى القوى وهى تختلف ، فبعد انهوى من الدول وقد
تسلط على لضعف ، فليحاً الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ،
ويصدر كل منهم قرارات ، وحتى لو اقتصرتنا عدالة الحكم ، فأين قوة
التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

(١) أى كان ينزل مُجماً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالسبب لأصحاب رسول الله
ﷺ قصاً رطباً ، لأنه يترك ما ياسب حالهم . ومعلوم أن القرآن له نزل آخر ، حيث مر جملة واحدة
من النوح المحفوظ إلى سماء الدنيا . واجمع الإنقاذ فى علوم القرآن (١/١١٦) .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هي قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذي يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدَلِّسَ عليه في الشهادة ؛ لأنك إن عميت على قضاء الأرض ، لمن تُعَمَّى على قضاء السماء ^(١) .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حكماً لا هوى فيه ؛ لأن آية الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق ^(٢) .

ويعلمنا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أبصاً لا يعلق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه .

﴿وَمَا يَتَّقِ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ (٢) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (١)﴾ [التجم]

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه سمع نصوصاً بباب حجرته ، يخرج إليهم فقال : إني أنا بشر ، وإنه يأتيهم الخصم ، فلعن بعضكم أن يكون النسخ من بعض ، فأحسب أنه صدق فألقى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليركها أو ليركها البخاري في صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣)

(٢) يقول سبحانه : ﴿لَنْ يَدَّأِلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ وَلَا يَدَّأِلُهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ . (٣٧)﴾ [الحج] قال تعالى مر الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا دبحوا الهذايا والضحايا لألهتهم وضعوا عنها من لحوم قرايبهم وبضجوا عليها من دماها . فبين عز وجل أن ما ياله الله منهم هو النقوى وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٤ - ينصرف)

(٣) الهوى - هوى النفس - وراداتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿وَالْهَوَىٰ عَنِ الْهَوَىٰ (١)﴾ [الفرع] أي - معها من المعاصي والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مدموماً حتى يُنعت بما يفرجه من معناه كقوله : هوى حس ، أو هوى موافق للضراب . أما إرادته في الآية فهو الهوى المبرم قال تعالى : ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَصْلَوْا (٣٤)﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (٢١)﴾ [النحل] . وقال تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ مِنَ الْعَبْدِ إِذَا هُوَ . (٤٢)﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْدَ هُدًى مِنَ اللَّهِ . (٤٣)﴾ [القصص] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ (٤٤)﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿وَإِنْ كَثُرَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . (٤٥)﴾ [الأنعام] [لسان العرب مادة (هوى) - ينصرف]

أى: اطمئنا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسن عبادة خالق سبحانه .

وقد يقول قائل : ولكن الحق عز وجل عدل للرسول بعضاً من الأحكام

ونقول لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حكماً ، وحين يُنزل الله حكماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما راه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حكماً معاًيراً فهو يلح المسلمون ويُعدلون من الحكم .

إذن: ما تعدل للحكم هو دمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم من أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من رأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذي عدل له ليس مساوياً له بل هو مخالفه

ثم إن الذى أحرمنا أن الله سبحانه قد عدل له هو السبى ﷺ ، فهل يوجد من يضعف مكر كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عدل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقل الوحي تحلى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب وبه له^(١) .

(١) عاتبه وبه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعشى الذى جاءه يسمى لتعصم منه ، فتلقى عنه رسول الله ﷺ بدعوة رعماء مريش للإيمان فمررت سورة هيس ﴿عَسَىٰ وَتَرَىٰ﴾ أن جاءه الأعشى (٢) وما يدريك لعله يرثى (٣) لو يدكر قصصه الأخرى (٤) أنا من استغنى (٥) فأتت له قصدي (٦) وما عليك ألا ترثى (٧) ولما من جاعك يسمى (٨) وهو يحسن (٩) فأتت عنه تلقى (١٠) ﴿عسى﴾ وعاتبه أيضاً بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُ النَّبِيُّ لِمَ تُعْرَمُونَ مَا حَلَّ اللَّهُ لَكُمْ تَهْنِئَةً مِنْكُمْ وَأَرْوَاهُكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) ﴿التحریم﴾

وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله ، وكان اجتهد رسول الله ﷺ محصوراً في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لتحرراً ولتجهداً .

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أنقض بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : بسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أنجته رأي لا أبى^(١) . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذي يعلم حائثه الأعين وما تخفى الصدور^(٣) ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية^(٤) ، ولا هوى له ، وهو الذي يصدر الحكم بطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تُجبر عليه ، ولا يوجد حاكم يقدر

(١) لا أبى لا أقصر في اجتهدى وبحسب المسألة ومنه قولهم ، قلان لا يبالو خيراً ، أى لا يدعه ولا يزال يعمل . وقول سبحانه ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَضَعُوا إِبْطَانَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتِيكُمْ خِيبَةً ﴾ (١١٨) [آل عمران] أى ، لا يصبرون في فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد بن مسدد (٥/ ٢٢٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦) وأبو داود في سننه (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) وقال ليس بسنده عدى يتصل لا يعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه ﴿ يعلم خائفة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ [عامر] قاله عز وجل يعلم العيون الخائفة وإن أبقت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائم والشرائر قال ابن عباس وصي الله عليهما ، هو الرجل يدخل على أهل البيت يشتم ، ويقبهم لمرأة اخفاء ، أو يمر به ويهم بلراءة اخفاء فإذا غلبوا لحقت إليهما ، فإذا غلبوا غص بصره عليهما ، فإذا غلبوا لحقت ، فإذا غلبوا غص ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على مرجعه . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٥) .

(٤) يقول عز وجل ﴿ الله يعلم ما تعمل كل ألوف وما تفيض الأرحام وما تردأه وكل شيء عده بيلغار ﴾ [عامر] الغيب والشهادة الكثير المتعالي (٢٠) سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسار به بالنهار (٢١) [الرحم] .

على كل هذا إلا الله سبحانه

وشاء الحق عز وجل - أن يكرم المؤمنين لذين يحكمون بين الناس بأن جعل دانه صمية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين من قد يدلّس^(١) عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى في أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة مطلقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله داته مع خلقه فيه ؛ فاعلم أن ذلك إبدان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة من لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول

﴿..فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمن]

ويقول تعالى :

﴿..وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١٦)﴾ [الجنّة]

ويقول تعالى :

﴿..رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨١)﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى :

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾ [النبي]

وكلما وجدت جمعاً أدخل الله داته مع عباده من لهم هذا الوصف ، فهذا يدلّسك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه

(١) التدليس الإحفاء والمعاذة بعدم بين العيب في الشيء . ومن التدليس من الإساده بأن يحدث الحديث عن شجرة الأكبر تمام ينمعه منه ، بل سمعه من هو دونه من الرتبة

سبحانه وتعالى أزلَى مُطلق الصفات ، وهم أحداث ^(١) ، وأغيار تتابهم القوة والتغير والضعف .

وتجده الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ . أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١٢) [المؤمن]

وكك تعلم أن الله سبحانه هو حالى كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك قاله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ . خَيْرُ الرَّاقِينَ ﴾ (١١) [الجمعة]

والررق هو ما به يُتَفَمَّح ، وقد يأتى لك ولى أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تستمتع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الرزق فى الكون كله

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه .

﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُحَاكِرِينَ ﴾ (٥٤) [آل عمران]

والإنسان حين بمكر قد يُدَارَى مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء .

إذن: فالخيرية فى الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم فى بعض الأحكام وعدلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ .

(١) الأحداث - جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدثاً زمانياً ، ومدى قصر الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدثاً ذاتياً . (المرغبات للرجزاني - ص ٧١)

ومثال ذلك . قصة زيد بن حارثة ^(١) ، وكان مولى أو عبداً لحديجة بنت خويلد ^(٢) رضي الله عنها ، وروسته لسيد رسول الله ﷺ ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه في مكة ، وكان قد خطف صغيراً من بلده وبيع في مكة ، كمادة الحرب في البجاهلية مع الرقيق ^(٣) ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليسردوا بهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : والله إني لأحير ، فإن ختاركم فخذوه ، وإن اختارني فهو لي ، فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرط به ، فأعطاه شرف النسوة ، فأسماه زيد بن محمد ^(٤) .

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل ، صحابي ، من أئمة الإسلام ، كان ﷺ لا يخطه في سرية إلا أمره عليها ، وجعل له الإشارة في مؤبده ، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (٥٧/٢٢)

(٢) من روج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة به ١٥ عاماً ، وأول من صفتت بهدنت ﷺ ، كانت مأمورة ، فاجتر رسول الله ﷺ بها ، وكانت غير محبب له في رسالته . توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بني هاشم من الشعب . راجع الإحصاء في غير المسألة (٦٧ - ٦٠/٨)

(٣) الرقيق العبد ، وقد سُمي العبد رقياً لأنهم يكونون لأهلهم ويدلون ويخضعون [راجع اللسان مادة رقيق] وقال الجرجاني في التمهيد (ص ٦٩) : طريق في اللغة الضعف ومتى ولفظ الضعف ، وفي عرف الفقهاء عبارة عن حجر حكى شرع في الأصح جزءاً من الكفر . أما أنه غير ملائم لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والنسب وغيرهما ، وأما أنه حكى بلان العبد فله يكون أقوى في الأعمال من الحر حراً

(٤) وذلك أن حارثة بن شراحيل جاءه هو وأخوه كعب بن زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وذلك قبل الإسلام ، فقال له : يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد قومه ، أقم جهرتي لله ، وتكون العاتي (الأميرة) ، وتعلمون إصلاح ، وقد جعلت في بيتك عديك ، فحسن إلينا في ذلك . فقال : لو غير ذلك؟ فقال : وما هو؟ فقال : أدعوه وأحرره ، فإن اختاركم فخذ ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار علي من اختارني بحداً ، فقال له : قد زدت علي المصنف ، فدعه رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال : من هذا؟ فقال : هذا أبي حارثة بن شراحيل ، وهذا حمي كعب بن شراحيل ، فقال : قد خيرتكم إن شئتم دميتم سحماً ، وإن شئتم أقمتم معي ، فقال : بل أقم معك . فقال له أبوه : يا زيد ، أنتظر المصيرية علي أمك وأنت ربك وعمرتك؟ فقال : إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذي أحرره أبداً . فبعد ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده ، وقام به إلى اللأاس فربش فقال : اشهدوا أن هذا أبي ولدي وموروثي . فطابت نفس أبيه عند ذلك ، وكان يسمي زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿وَادْعُوهُمْ لِأَنَّهُمْ هُوَ﴾ [الأنعام]

وهكذا رأى النبي ﷺ في التنبي وسيلة تكريم ، ولكن الله هو رجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ۝٤٥ ﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوّة بالسببي قد تحدث خلطاً في الأنساب ، فالابن بالنبي له حق الزواج من ابنة مَنْ تَبَّاه ، فكيف يمنع عنه هذا الحق ، ولابن بالنبي قد تحرم عليه زوجة مَنْ تَبَّاه إن رُحل عنها أو طلقها .

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۝٤٥ ﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوّة لكم

وقال الحق سبحانه في تعديل حكم التنبي :

﴿ ادْعُهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ ۝٤٦ عِنْدَ اللَّهِ ۝٤٧ ﴾ [الأحزاب]

وهذه ردّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعت محمد ﷺ عدلٌ وقسطٌ معرّف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدل ، فينتهي بذلك سبب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه المصلي "زيد بن حارثة" .

(١) القسط العدل والحق ، ومنه قوله تعالى ، ﴿ وَإِذْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝١٥٩ ﴾ [المائدة] أما القاسطون فهم الجائرون ، قال تعالى ﴿ وَأَنَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لَهُمْ حُخًّا ۝٦٠ ﴾ [الحج]

وحتى لا يؤثر هذا الأمر في نفس ريد ، يجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يكرمه لصاحبه غيره ، فهو الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه بالشخص والعلم في القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ رَيْدٌ سَبَّحًا وَطَرًا ۖ ۝ (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم ريد، كلمة في القرآن تُتلى ويُجهر بها في الصلاة ، فإذا كان قد نسي عنه السب إلى محمد ﷺ فقد أعطاه ذكراً ثانياً خالداً في القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ . وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝ (١٦) ﴾ [يوسف]

يفيد أن حكم الله تعالى أعم من أن يكون حكماً في الدني أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه في الدنيا نصراً للدين الله ، ومن مات من المؤمنين أو الكافرين لهم حكم آخر

وحتم الله تعالى سورة يوسف بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن يوسف كني من نبياء الله تعالى - قصبة عندما ذهب مخلصاً ، قال فيه الحق سبحانه .

﴿ وَوَدَّ الْيُونُ ۖ إِذْ ذَهَبَ مُعَاصِبًا فَلَقْنُ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ نَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَّحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه ومداً بقوله :

(١) لوطر مال اللب الرطر كل حنة كان لصاحبها همة ، فهي وطره وجمع الوطر أوطار وقال الزجاج الوطر والأرب في اللغة بمعنى واحد وقال الخليل بن أحمد الوطر كل حنة يكون لك بها همة ، مدا بلعها البالغ قيل قصي وطره وربه [لسان العرب مادة (وطر)]

(٢) اليون الحوت ودوالون لقب يوسف بن موسى عليه السلام أي صاحب الحوت ، وهو الحوت الذي منع يوسف عليه السلام بعد إلقاءه في البحر .

﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ ﴾... (٨٨) [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى في هذا الوصام بقوله تعالى :

﴿ .. وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨) [الأنبياء]

وهكذا أسدى^(١) إلينا سيدنا يوس جميلاً كبيراً ، حين هداه الله إلى قوله :

﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأجده من الغم ، وهو أعنف جود الله ؛ لأن الشيء الذي يضيقك هو الذي لا تستطيع له دفْعاً .

ولذلك يقال : إن العدو كلما لطف^(٢) عُنْفَ ؛ لأن العدو إن كان صخماً الخجيم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضحكماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البعد ، فيجربى منه الإنسان أو يحتبىء ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع العرار منه ، وإن كان ميكروباً أو فيروساً لا يرى بالعين المجردة ؛ ههنا أعنفُ قدرة وقوة في مهاجمة الإنسان

إذن : كل مُتَعَبٍ في لدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصص عليك بدقّة ولطُف ؛ فإنك لا تعرف مدخله .

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف منى اختراق الفيروس جسده ، لكنه فوجئ

(١) هم الشيء يغمه غمّاً أحماه وغطّاه وستره وغمّه الأمر ، أحزبه .

قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ ﴾ [الأنبياء]

والعمّة : التباس الأمر وهدم وضروحه ، قال تعالى ﴿ تُمْ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ۖ ﴾ [يونس]

[القاموس القويم ٢ / ص ٦٠ ، ٦١ يصوب]

(٢) أسدى أعطى ، وأهدى [لسان العرب مادة (سدى)]

(٣) لطف الشيء يلطف صخّر [لسان العرب . مادة (ل ط ب)]

بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون^(١) الفيروس في جسده لأسبوعين ،
وهكذا نجد أن العدو كلما لطفَ عَصْفَه .

والعمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام علي
كرم الله وجهه . وهو المشهور بالفتنيا^(٢) ، وكان الناس يستمتعونه فيما
يمجزون عن العثور على حل له ، واحتمم بعض من الناس وقالوا يريد
أن يجمع بمص الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنتخبره ، فلما احتمموا قالوا
لعلي كرم الله وجهه نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسا معاً
لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حسب
ما برأه .

لم يتروا على س أبي طالب ، ولم يقل كلاماً مسروداً^(٣) بحيث إن
وقف ، لا يخاله أحد بزيادة ، بل حذد من حملة لأوى عدد القوى
حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعداد ، وهذا دليل على
أنه مُستحضر للقضية استحضار الائق . وفرد أصابع يديه وقال :

أشدُّ جنود الله عشرة . الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار
تذيب الحديد ، والماء يطعم النار ، والسحاب المسحَّر بين السماء والأرض

(١) الكمون الاختفاء والامسار ومنه الكمين في الحرب وحرر مكمن في القلب مخفٍ
[اللسان : مادة كمن]

(٢) انما سبب المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو انشاب الحذب (الحديث السن) الذي شبَّ
وقوى ، فكانه يقوى ما أنكل بيده يشب ويصير ديناً قوياً وأقوى المفتى إدراج حكمة حكماً . واقتاد في
الأثر لانه رافى الرحمن في المسال واستصيته بها فأتى قتاد قال تعالى ﴿فامضهم لغم أشد
خلقاً﴾ (٣١) [الصافات] وقال تعالى ﴿يستغوث كل الله فتيكم﴾ (١٧٨) [النساء] أى : يأسؤوك
وقال تعالى ﴿ففى الأمر الذى فيه تستفتيان﴾ (٤١) [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبا
﴿قالت ياأياها الصفا القونى فى امرى﴾ (٢٤) [الحمل] [لسان العرب : مادة فدى] تنصرف

(٣) الكلام السرود : الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا بد من السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع
أن يستترك شيئاً على التكلم ، أو يحفظ منه شيئاً

بحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستقر بالشوب أو الشيء ويهوى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، واللهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله سبحانه اللهم .

هكذا قال سيدنا علي بن أبي طالب ، فالهم والغم من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يوسف عليه السلام مسياً في أن قدم الله سبحانه لكل مؤمن به إلهي أن تقوم الساعة فتجني من الهم والغم بالدعاء الذي ألهمه ليونس عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) فاستجيباً له وبعثناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين (٨٨) [الأنبياء]

وهكذا تعددت «المنجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق رضي الله عنه وجعل منها «تذكرة طيبة» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، في كل جوانبها المفعرة ، لأن الإنسان يهتده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا يبتئوا له

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعماً ومرقهاً في كل لمور الحياة ، يجعله عُرضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق (١) به بصير وبصيرة بآيات القرآن ومتعقباتها ، فقال : «عجبت لمن حائف ولم يفرع إلى قول الحق سبحانه»

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١٧٣) [آل عمران]

(١) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة من حب الرياسة ، روى عنه شعبة والثوري ومالك . توفي بالمدينة عام ١٤٨ هـ

ولا يتعجب لمن يحبه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يريل الخوف
فمن عله صدىع يمكنه أن يعالجه بالأسيرين ، أما الخوف فقد وصف
سيدنا جعفر دواءه ، يقول الله سبحانه:

﴿..حَسْبَا اللَّهُ وَنِعْمَ الزَّكِيُّ﴾ (١٧٧) [آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل حرف.

ويقدم جعفر الصادق لـ السب يقول: لأن الله سبحانه قال عقبا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ بَشِيرٌ ذُو نَضْرَةٍ﴾ (١٧٨)

[آل عمران]

أي . أن سيدنا جعفرأ جاء بالحبيشة من نفس القران ، وأصاف جعفر
الصادق: «وعجبت لمن اهتد» - وهو لموضوع الذي نبهه الآن ولم يزع
إلى قول الله سبحانه:

﴿..لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء]

فإني سمعت الله تعالى يعصها يقول:

﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) [الأنبياء]

وعجبت لمن مكر به كيف لا يزعزع إلى قول الله سبحانه

﴿.. وَأَوْفَىٰ بِأَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٤) [عامر]

لأنني سمعت الله تعالى يعصها يقول:

(١) انقلبوا رجوعاً إلى أنهم لم يتركوا على الله كذبهم ما أمسهم ورد عنهم بأس من أرادوا كذبهم،
فرجعوا إلى بلدهم بعمه من الله وتصل بهم بصلهم سوء كما أصبر لهم عليه هم . (أس كثير ١/ ٤٣٦)

﴿فَوَقَّاهُ^(١) اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَخَافَ^(٢) بَالَ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ^(٣)﴾

[غار]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفرج إلى قول الله سبحانه :

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾^(٤)

[الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى يعقبا بقول

﴿فَقَسَىٰ رَبِّي أَن يُّزَيِّنِي خَيْرًا مِّنْ جُنَّتِكَ وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحُ صَبِغًا زَلْفًا^(٥)﴾

[الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع
حالات نفسية نصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ...﴾^(٦)

[يونس]

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تنبأ بها .

﴿أَوَّلَ كِتَابٍ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتَ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٌ خَبِيرٌ^(٧)﴾

[هود]

لأن الوحي كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً .

(١) وقاه الله وقياً ووقاية ووقاية صلته ووقيت الشيء بما صوته وسهرته عن الأدنى ووقاه ما يكره حساه
جبه وقال تعالى ﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ طَرَفًا ذَلِكَ الْيَوْمَ﴾^(١) [الإنسان] وقال تعالى ﴿... وَمِنْ قَوْلِ السُّفَهَاءِ
يُرْمَىٰ فَهُوَ وَجْهَةٌ﴾^(٢) [غار] [لسان العرب : مادة (و و ي)].

(٢) خاف أحاط وأحاط ، الإحاطة بالشئ والإطاط المحيط به المستدير حوله قال الثعلبي الحقيق ما خلق
بالإنسان من مكر أو سوء عمل يحمله ، عيرل ذلك به وقيل : الحقيق فى اللغة هو أن يشمل على
الإنسان عاقبة مكرهه فحله وقال الزجاج خاف بهم العبد أى أحاط بهم جراء ما كانوا
يسهرئون ، كما تقول : أحاط بعلان عمه وأهلكه كسبه ، أى : أهلكه جراء كسبه قال تعالى
﴿... فَرَحَرْنَا بِمَا مَنَعَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣) [خاطر] وقال تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ
الْمُكْرُ فَسَيْنَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٤) [باطر] [لسان العرب : مادة (ح و ق ، ح ي ن)].

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبدأ سورة هود "بقول الحق سبحانه وتعالى"

الرَّكُوبُ أَتَوَكَّمْتُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّي

حَكِيمٌ خَبِيرٌ ١

وسأ الأية بحروف توفيقية مقطعة من الحروف التي تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أي : أن كل حرف من تلك الحروف يُنطق بمفرده ، والحرف - كما نعلم له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو نطق بمسمى الحرف لا باسمه .

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف تقرأ باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ في أول سورة البقرة ونقول -

(١) سورة هود هي السورة الحادية عشر ، هي تريب سور القرآن ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وغيرهما وقال ابن عباس وقصة إلأيا ، وهي قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ [هود] - وعدد آياتها (١٢٣) آية

سميت باسم نبي الله هود عليه السلام ، الذي أرسل إلى قوم ثمود ، فذكر فيها اسم النبي هود ٥ مرات ، ويكرر في سورة الشعراء آية ١٢٤ ، وفي الأعراف آية ٦٥

قال عنها رسول الله ﷺ ثميني هود وأخواتها الواقعة ، وهم يتساءلون ، وإد النمس كورب ، أخرج البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٣٥٨)

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في «تلوح الأهل» : «سرع يورث الشيب ، وذلك أن الصرع يعمل النفس فيشف رطوبة جسد ويحت كل شعرة مع ، ومنه يعرف ، فإذا شُف الصرع رطوبته يصب المانع من انشع فابيض ، كما ترى الروح الأعصر يسقاه ، فإذا صب سقاه يس بابيض فائنس مدخل برعيد الله ، وأهوال ما جاء به القبر عن الله ، فتلين ، ويشف ماء ذلك الرعيد والهول الذي جاء به ، فصب شيب

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حل بهم من عذاب بلس الله تعالى ، فأهل البقي إننا نلوح سرامي عن مديهم من مذكة وسلطنة ، لحظاته البطش بأعداء ، فلو ماتوا من الصرع حتى لهم ، ولكن الله يترك و تعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحيان حتى يقرأوا كلامه - منه القم طمى في تفسيره (٤/ ٣٣١٩)

«ألف. لام. ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿الْم ١﴾^(١) [البقرة]

إذن : نحن نطلقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه :

﴿الْمُ شَرَحٌ^(٢) لَكَ صَدْرُكَ ١﴾ [الشرح]

و نحن نطلقها بأسماء الحروف . . لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، وانقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف .

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى : أن يقرأ الفقيه أولاً ليعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ .

والذى يُسحب لناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فيه أو دون أن يستمعوا إلى قارئه للقرآن .

ونقول لهم : إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فصور الحروف تختلف ، فمرة نطلق اسم الحرف ، ومرة نقرأ معنى الحرف .

وقول الحق سبحانه : ﴿الْم﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلاحظ أنه من العجيب فى فواتح السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبني على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن واصل ، مثلما تقرأ قول الله سبحانه .

(١) ﴿الْم﴾ ذكرت فى السجدة سور هـ ، البقرة ، آل عمران ، النكبات ، الروم ، لقمان ، السجدة . وعجبة مطقة

(٢) أى رسمه معنوياً ، وأولنا عنه الضيق والهم والمراد أرضيك وسرورك أو هو ذق العصر معللاً حياً أرحاماً [القاموس القويم]

﴿ مِدْهُامَتَانِ ﴾^(١) ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(٢) فِيهِمَا عَيَانُ
نَضَّاحَتَانِ^(٣) ﴿

[الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مسببة على
الوصل .

وهي آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾^(٤) [يونس]

فلو لم تكن موصولة لنطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك
تقرأ مصرباً بالفتحة . وهي موصولة مما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن العجيب أن فوائج السور مع أنها مكونة من حروف مسببة على
الوصل ، لا أنت تقرأ كل حرف مرقوفاً ، فلا نقول : «ألف لام ميم» بل
نقول : «ألف لام ميم» .

وكذلك نقرأ في أول سورة مريم «كاف هاء ياء عين صاد» ، ولا نقرأ
الحروف بتشكيلها لإعراسي ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها .

وهي القرآن الكريم آيت بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

﴿ حَقِّ الْقُرْآنِ ذِي الْذِكْرِ ﴾^(٥) [الحق]

وقول الحق سبحانه :

(١) مِدْهُامَتَانِ : صوداوان من شدة تخضرتهما وكثرة الغلال وهذا كناية عن السيم السام (وهو وصف
لنجنتين اللتين ورد ذكرهما في قول الله تعالى في آية ﴿ وَنَزَّلْنَاهُمَا جُنَّادِ ﴾^(٦)) [الرحمن]
(٢) الآلاء : نعم ، عطاياها إلى أو ألى (بكسر الهمزة ، وبفتحها) قال تعالى : ﴿ ... فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٧) [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُصَلِّحُونَ ﴾^(٨) [النجم] ، [القاسم] من
القوم : يتصرف .

(٣) نَضَّاحَتَانِ : فؤاران بالاء لا يقطعان ويخرج ما بينهما غريراً ، ونضاح : حبيطة سائغة يدل على
الكثرة . [تفسير الحلالين ص ٤٧٠] و[الدايس من القويم] تصرف

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١﴾ [ق]

وقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ وَأَقْلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ٢﴾ [القلم]

ولنلاحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكذك تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿حَمِّ ١﴾^(١) [الشورى]

وهي آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه .

﴿عَسَى ٤﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، ونقرأ قول الحق سبحانه .

﴿كَهَيَّعَ ١﴾ [مريم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه . ﴿طه ٦﴾ [طه] كآية بمفردها

وكذلك تقرأ قول الحق ﴿يَسَّ ١﴾ [يس] كآية بأكملها .

ونجد أيضاً ﴿الْحَمْدُ ١﴾ [الأعراف] كآية .

﴿طَسَمَ ١﴾ [الشعراء ، والفصص] كآية

ونجد أيضاً ﴿الْقَر ٢٠﴾ [الرعد] ملتصقة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل : ﴿طَمَّ ١﴾ ملتصقة بما بعدها في آية واحدة .

(١) يسطرون يكتبون من غير الكتاب أى جعله سطوراً

(٢) ﴿حَمِّ﴾ ذكرت في افتتاح سبع سور هي غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجمانية ، والأعراف وتحسب آية مستقلة - والله أعلم بماها [التاسوس التوسيم] وتسمى الخواص

إذن والمسألة لا سق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرب
حكمة ، والحكمة نحلها حين نتأمل العالم المادي في الحياة ، فنفتن إلى
عمر الله سبحانه وتعالى في آيات الكون المحسنة ، ويجد الدليل على صدق
الله تعالى فيما لم نعلم .

ومثال ذلك . حين يرل الإنسان في فندق راق فهو يجد لكل غرفة
مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدة ، ولكن في كل طابق
من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المثل عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح»
وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك ، حتى لا يفتح كل يرل
غرفة الآخر .

ومع اتقدم العلمى حلوا الآن بكل غرفة بطاقة الكترونية ، ما ين
يُسلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى يفتح الباب ، وكل
غرفة لها بطاقه معينة ، وأنصاً يوجد مع مسئول الطابق في الفندق بطاقة
واحدة ، تفتح كل غرف الطابق

وأنت حين نقرأ فوائج السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف في
هذه الفوائج قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسان التي
تمتص باب الغرفة ، فلن تفتح لك السورة .

إذن فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطّعة على أنها آية ،
أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قل القراءة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(١) ليخلص
نفسك من الأعيار المناقصة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل
قول الحق سبحانه وتعالى ﴿الْقَمِ ١﴾ [البقرة]

(١) قال عمر بن الخطاب : «إذا قرأ القرآن فاستمعوا له فهو من الشيطان الرجيم» [الحل] ، عن عبد الله بن
الاستماعة راجية لكل قراءة في الصلاة أو غيرها . أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٦٥) طبعة دار
الفكر ، وعراء لعبد الرزاق في المصنف وابن النذر .

فيمنح لك باب لقراءة.

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك قاتماً .

وخذ فوائخ السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل وبحث معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الر﴾ وهي مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿الم﴾ ، وقد وردت في خمس سور من القرآن الكريم هي : يونس ، هود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر .

ولكن ﴿الم﴾ تقرأ كاية ، ولكنها هنا في مقدمة سورة «هود» جرة من آية رعم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يوس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، و تقرأها كاية .

وأيضاً (المص) هي أربعة حروف تقرأها آية في سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف في أول سورة الرعد ، وتقرأها كجرة من آية في سورة الأعراف

إذن فليس هناك قانون لهذه الحروف التي في أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تكشف كل أسرارها بعد^(١) ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده »

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ (١)

[هود]

(١) قال البرص في «الإتقان في علوم القرآن» (٢١/٢) : «المختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى عن عامر الشعبي أنه مثل من فوائخ السور . فقال إن لكل كتاب سرّاً ، وإن سر هذا القرآن فوائخ السور»

قال ابن كثير في تفسيره (٣٧/١) : «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور يحلف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي ، أ ل م ص و ز ح ط س ع ق ن . يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر»

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه ﴿كِتَابٌ﴾ ومرة يقول .

﴿قرآن﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿﴾

(میرزا)

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، ونشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدُّكَ
على أن الخافظ للقرآن مكاناً هدير ، وسطور فإن صلَّ الصدر ، نذكر
السطر .

ولذلك حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن^(١) ، ومطابقة ما في
الصدور على ما في السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من
أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقعوا عند آخر آيتين في
سورة التوبة^(٢) ، ولم يحدوا إلا شاهداً واحداً هو «حريصة» ، وصدقوا
«حريصة» وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد منحه وساماً ،
حين قال عنه : «من شهد له بحريصة فهو حسيه»^(٣) .

إذن : مياطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة في الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ، لأنه في الأصل مكتوب في اللوح المحفوظ .

(١) المقصود به هنا جمع القرآن على عهد أبي بكر رضى الله عنه ، بعد أن أشد القتل بقراءة القرآن في
المحارقات ، فأشار عليه عمر بجمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه وقال له إنك شاب
عاقل ، لا تنهك ، وقد كتبت الرمي لرسول الله ﷺ ، ففتح القرآن ما سمعته فأخذ زيد يجمعه
من لسان (هو مصنف التحليل) ، المحافل (حجارة يقصر عريضة رفاق) وصدور الرجال انظر الإتيان
في علوم القرآن (١/ ١٦٥)

(٢٧) هَاتَانِ الْآيَاتِ مِمَّا ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ [التوبة]

(٣) أخرجه الحاکم فی مستدرکه (٢/ ١٨) والطبرانی فی معجمه الکبیر (٤/ ١٠١) من حدیث حریفة بن ثابت . قال الیهی فی الجمع (١/ ٣٢٠) : «رجاله کلهم ثقات»

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفياً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۖ ۝١﴾ [هود]

ومادة الحياء والكتاب والميم^(١) تدل على أمر مُحسّن وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع منه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تنقض ، ولا تعارض ولا انهيار

ولا بد من توازن هندسى لكل فتحة في البناء ، حتى لا تكون الفتحات التى فى البناء متوارية على خط واحد ، فتحدث شروخ فى الجدران أو انهيار البناء كله . هذا هو إحكام البناء فى عالم المحسّنات .

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المسجع بآته .

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۖ ۝١﴾ [هود]

فخذوا من هذا الإحكام^(٢) ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرت إلى أن القرآن الكريم فى لؤلؤ المحفوظ ستجده قد برز جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحي بعد ذلك حسب الأحداث التى تتطلب الأحكام ، وقد نشر الحق سبحانه فى القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً .

(١) أحكم الأمر ، أتقنه قال تعالى ﴿وَمَا يُعَلِّمُ اللَّهُ إِلَهًا ۖ ۝٣٦﴾ [الحج] ، أى وينهار جعلها متقنة مقننة محكمة ، وآيات محكمة متقنة واضحة ، وقيل محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل ، قال تعالى ﴿مِنَ آيَاتِ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أَمُّ الْكِتَابِ وَأُمُّرٌ مُّشَابِهَاتٌ ۖ ۝٣٧﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةَ مُحْكَمَةً ۖ ۝٣٨﴾ [محمد] أى مقننة ، [القاموس القويم]

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٢٩) : أحسن ما قيل فى معنى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۖ ۝١﴾ [هود] قول قتادة ، أى جعلت محكمة كنهى لا خلل فيها ولا باطل ، والإحكام مع القول من الفساد ، أى نظمت نظاماً محكمة ، لا يلحقها تناقض ولا خلل

إذن: فالقرآن قد أحكم أولاً ، ثم فُصِّل^(١) .

وبذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ۖ (١) ﴾ [هود]

ولفواصل الكبيرة في القرآن هي السور ، والفاصل الصغيرة هي الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذي جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هي مجموعة من الآيات

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحكم وفُصِّل ، لأنه من منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى .

وحين نَظَرُ إليه نجدُه مُوسِماً ، فمرة يتكلم في العقيدة وقمتها ، ومرة يتكلم في النبوة وموكبها الرسالي ، والمعجزات ، ومرة يتكلم في الأحكام ، ومرة يتكلم في القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات . ومرة يتكلم في علم الفرائض^(٢) .

إذن فهو مفصل في اللفظ أو في المعنى ، وهو يتناول معاني كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة في الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول المراثيات حتى أدق التفاصيل .

أو أحكم نزولاً ، لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم فُصِّل حسب الحوادث ، وهذا أدعى إلى أن تتعلق النفس بكل نعم من محوم لقرآن حين يشرل وقت جلده .

(١) فصل الشيء جعله أقساماً متميزة واضحة ، قال تعالى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلاً (١٦) ﴾ [الأنعام] ، وقال تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْتَصِلُ (١٣٩) ﴾ [الأعراف] أي معجرات ميات واصحات ، وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصْلَانَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (٢٦) ﴾ [الأعراف]

(٢) الفرائض المعنى بها علم الموارث ، أحداً من فرعه الله لكل واحد من أصحاب العروس

وأنت حين تُعد لنهضك صيدلية صغيرة في البيت ، قد تأتي فيها بكل الأدوية ، لكن إن أصابك صدع ، فقد تقتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدّها أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه .

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاثة بيوتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش .

إذن: فمرول القرآن مجسماً شاء الحق - سبحانه - لتعش النفس الإنسانية وهي تعشق استقبال القرآن .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقرآنًا فرقناه ﴾ ^(١) لنفراءه على الناس على مكث ^(٢) وقرآنًا تنزيلاً ^(٣) ﴿

[الإسراء]

وقد جاء في القرآن على لسان الكافرين :

(١) قرئت هذه الكلمة بخراءتين فرقناه ، فرقناه (بتشديد الراء) - فعلى القراءة الأولى لمعناه خصه من الدوح ليعطوط إلى بيت البعرة من السماء الدنيا ، ثم نزل مصرفاً منتجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس .

وعلى القراءة الثانية مبعده أنزلناه آية آية مبيناً مبسوراً ، قاله ابن عباس أيضاً ولهذا قال ﴿ لنفراءه على الناس ﴾ (١) أي لتبليغه الناس وتلويده عليهم ﴿ على مكث ﴾ أي مهل ﴿ وقرآنًا تنزيلاً ﴾ أي شيئاً بعد شيء . تفسير ابن كثير (٦٨/٣)

(٢) مكث - أقام في مكانه ، وتفيد التثاني وعدم المجدلة . وقوله تعالى ﴿ لنفراءه على الناس على مكث .. ﴾

[الإسراء] أي . على مهل ودان بغير عجلة في أزمة متطولة وقال تعالى . ﴿ لمكث غير حيد

فقال أسلمت بما لم تعلم به .. ﴾ [النحل] أي . استمر الهدم في غيت مدة لكنها غير طويلة وقال

تعالى - ﴿ وآتانا ما يفتح الناس فيمكث في الأرض ﴾ [الزمر] أي يبقى مدة طويلة فيها فيزولها

خصياً وقال تعالى ﴿ امكثوا إلى أن تأتي نارا ﴾ [طه] أي : أقيموا في مكانكم منتظرين

[القاسم القويم]

سُورَةُ هُودٍ

٦٢٩٥

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ..﴾ (٣٢) [الفرقان]

ليكون الرد من الحق سبحانه .

﴿.. كَذَلِكَ نُنْشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٣) [الفرقان]

ولو كان القرآن قد رس مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما اتعت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن يرسل القرآن مُتَجَمَّعاً " على الرسول ﷺ ، ليكون في كل بحم تثبيت لرسول الله ﷺ في المواقف المختلفة ، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده في حاجة إلى تبيينات متعددة حسب الأحداث التي تعترضهم ، ولذلك قال الحق سبحانه .

﴿.. كَذَلِكَ لِنُنْشِئَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٣) [الفرقان]

فبإذن الله تعالى يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التي جاءت فيه .

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آيات ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق في هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣) [الفرقان]

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التي

(١) مجمعا : مرفعا ؛ لأن القرآن أنزل إلى سبعة الدعا حملة واحدة ، ثم أنزل على النبي ﷺ آية آية ، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرين سنة (السان العرب ، مادة بحم) فترسل القرآن كان متجما حسب مقتضى حال الدعوة ، والآيات المكية تناوب العقيدة وتقويم العادات ، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله ، والآيات المدنية تناوبت العبادات والمعاملات لإتمامه صرح المفسرون في التجميع

(٢) رتلاء تترتيلاً : أمراء مرفلاً مسقاً مجوداً حسن التاليف [القاموس القويم] قال ابن مظهر في اللسان : أى : أمراء على الترتيل ، وهو حمد المعجزة والتمكث فيه .

جاءت في القرآن ﴿يَأْتُونَكَ عَنْ﴾^(١).

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين . كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ؟

ينزل قول الحق سبحانه

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْتَحِنُ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا هِيَ بِهَا﴾ [البقرة]

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا كيف ركب الحق سبحانه في هذا الكائن الضئيل - البعوضة^(٢) - كل أحرأ الكائن الحي ؛ من محل العذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب .

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة ؛ لأن عظمة المصنعة تكون في أمرين : إما ضخامة الشيء المصنوع ، وإما أن يكون الشيء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك - ولبه المثل الأعلى - أن الغنيس حين صنعوا ساعة لبيع بس الثفت لباس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفايون في «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً في حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة لصعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى في صناعة الشيء الكبير في الحجم ، أو صناعة الشيء الدقيق جداً ؛ فما بالناس يخالف الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

(١) قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي قُلْنَا لِمَنْ هُوَ مَوْلَانَا لِلنَّاسِ الْغِيظِ﴾ [البقرة] وقال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مِنَ النَّهْرِ الْمُرْتَمِ قَالَ فِيهِ قُلٌّ قَالَ فِيهِ كَمَرٌ﴾ [البقرة] وقال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغُرِّ وَالْغُرِّ قُلْ لَهَا كَمَرٌ﴾ [البقرة] وقد وردت في القرآن ١٤ آية تبدأ بـ (يسألونك).

(٢) البعوضة - حشرة صغيرة طائرة لها جناحان دقيقان ، وخرطوم تسمى به الدم ، فهي حشرة لاصقة صلبة ، وهي أنواع كثيرة جداً ، من ما ينقل الأمراض منها .

سُورَةُ هُودٍ

٦٢٩٧

والحق سبحانه وتعالى يضرب لمثل بالذبابة فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ سِمْيَاتٌ لَا يَخْلُقُونَ ذِيبًا وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ...﴾ (٧٢)

[الحج]

فلو جتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذبابة ، أو حتى لو حاولوا هم خلق ذبابة لما استطاعوا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط ، بل يتعداه إلى عجز آخر

﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْقِدُوا مِنْهُ صَعْفٌ لَطِيفٌ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣)

[الحج]

فإن جاءت ذبابة على أي طعام ، وأخذت بعضاً من الطعام ، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذبابة ما أخذته؟

لا ، وكذلك يرى صعف الاتين: الطالب والمطلوب

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿الرَّحْمَانُ أَعْجَمَ بِآيَاتِهِ ثُمَّ نُفِصِلُ مَنْ لَدُنَّ حَكِيمٌ حَبِيرٌ﴾ (١) [مود]

فالإحكام^(١) لا يتناقض مع التفصيل ؛ لأن الحق سبحانه هو الذي

(١) الطالب اسم فاعل والمطلوب اسم مفعول أي ضعف الإنسان الطالب ، وضعف الطالب المطلوب [القاموس المبرور] قال ابن عباس : الطالب الضم ، والمطلوب الذباب وقال السدي وعيره الطالب العابد والمطلوب الضم ، [لسان العرب - مادة طلب]

(٢) لذن ظرف مكان أو زمان بمعنى (عند) مسمى على الكون وإذا أصيب إلى ياء المتكلم نصبت منهما من الرفع والاعتماد في نوعها مثل قول ﴿قَدْ بَغَىٰ مِنْ لَدُنِّي عُقْرُ﴾ (٧٦) [الكهف] وجاءت مضافة إلى ضمير المضاف مثل ﴿وَهَبْنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ (٨٥) [آل عمران] وإلى ضمير المتكلمين ﴿إِنَّا قَدْ عَلِمْنَا مِنْ لَدُنَّا عَلَيْكَ﴾ [الكهف] وتضاف إلى ضمير الثالث كمره ﴿لَتُبَرَّاهِمَا شَيْئًا مِنْ لَدُنِّي وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٢) [الكهف] [القاموس المبرور]

(٣) الإحكام وحكمه من الشيء فدرجة تحمل أسرار فيها حكمة الخلق والإبداع ، والتفصيل البرز وإقامة العدل ، والإحكام أمس ، والتفصيل ناء ، وهب مثلاً زمان بلالرم الحكم مع خبره لإطلاق

أحكم ، وهو سبحانه الذي فصل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب
الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .
وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكَمًا لا يتطرق إليه فساد ، وهو
سبحانه خبير عنده علم بخفيا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى:

﴿ لَا تَدْرِكُهُ لَآبْصَارٌ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَاصِرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٠٣ ﴾
[الأنعام]

فإن الله سبحانه لا تدركه عيون ، وعينه سبحانه وتعالى - لا تغفل عن
أدق شيء وأخفى نية .

إذن: يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَهْلَ عِلْمٍ فَصَلَّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١٠٤ ﴾ [مرد]
يسير لت أن القرآن كلام الله القدير الذي بُنى على الإحكام ، ونزل
مُحْكَمًا جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا
مُجَمَّعًا مفصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هي العاية من المسبح كله ، وبينها
الحق سبحانه في الآية الثانية:

﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكَرِيمٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ١٠٥ ﴾

إذن: فقد أحكمت آيات الكتاب وفصلت بغاية هي: ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هي صاعقة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

(١) اللطيف: صفة من صفات الله واسم من أسماءه ، ومعناه الرفيق بعباده قال ابن الأثير اللطيف هو
الذي اجتمع له الرفق من الفعل والعلم بدقائق الصالح ويوصلها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان
مادة لطف]

وهكذا نجد ان العبادة تقتضى وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عِنْدَ الصنم تلقى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عِنْدَ الشَّمْسِ تلقى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن . بكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هي عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جراء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة يدور مهبج «افعل» و«لا تفعل» لا وحوود لها ، وعبادة لا جزء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ ۝ (٢) ﴾

[هود]

غير قوله سبحانه :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ۖ ۝ (٧٢) ﴾

[المائدة]

ولو أن الرسل نأتى الناس وهم غير ملتزمين إلى قوة يعبدونها ويقدمونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ۖ ۝ (٥٩) ﴾ [الاعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ ۝ (٢) ﴾ [هود]

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن يُهَيِّى هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله

إذن : فهنا نهي وإثبات ، مثل قولنا : «أشهد ألا إله إلا الله» ، هنا نفي أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، وثبت الألوهية لله سبحانه .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجِدَ قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

«الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بالوهمية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الدهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة»^(١).

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ..﴾ (٢) [هود]

معناه النفي أولاً للباطل ، وإذا نفي لباطل لا بد أن يأتي إثبات الحق ، حتى يكون كل شيء قائماً على أساس سليم .

ولذلك يقال : «درء»^(٣) المفسدة مقدّم دائماً على جلب المصلحة فالبدائية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجه العبادة إلى الله سبحانه .

وما دامت العبادة هي طاعة لأمر ، وطاعة النهي ، فهي - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى .

وإن نظرت إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل قضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة^(٤) الأدى عن الطريق^(٥) .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإيقاظ الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصليح ، بهذه عبادة .

(١) لأن الشهادة تكون في قضية وعلى قضية ، فالذي يشهد أن لا إله إلا الله ، مقدّم على الوهمية ليعبر الله ، وأثبتها له ، لأن المقام يقتضي ذلك ، فهذا إحكام في البنى والعسى ، فقوله تعالى ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ..﴾ (٢) [هود] فقد قصر العبادة لله ، أب الشهادة على القضية فالكون بما فيه ومن فيه يثبت الوهمية الواحد الأحد لعمد الصمد ، الذي بهذه المثلث ، وهو على كل شيء قدير .
(٢) درء - دفع وإبعاد قال تعالى ﴿وَعَدْرًا عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ (٨)﴾ [البقرة] أي ويدفع عنها عذاب الحد أن تشهد هذه الشهادات ، وبقية الحكم في سورة التوبة في الآيتين رقمي (٨ ، ٩) . [القاموس القويم] .

(٣) إماطة الأذى عن الطريق - تحييه وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم ، ولأذى قد يكون أحجاراً أو أي شيء - قد يؤذي الناس ويعوق سيرهم من الطريق .

(٤) من أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «الإيمان شفع وسبعون - أو سبع وسبعون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وإحياء شعبة من الإيمان» أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه (٩) دون أنفسها ، وأدناها

إذن فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه «أعمال دينية» ، و«أعمال شريفة» ، ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دينياً وعاملاً شريعياً.

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترفيه لصلاحه
وعدم الإفساد ، عهدا عامل شريف ، وقيمة كل امرئ بما يحسنه .

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أفضية الحياة ؛ لأن هاك أمرأ بما
يجب أن يكون، وهاك نهياً عما يجب ألا يكون، وما لم يرد فيه بهى لك
الخيار فى أن تفعله أو لا تفعله، فإذا نظرت إلى نسبة ما يؤمر به، ونظرت إلى
ما تُهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة فى
المائة من كل أعمال الحياة، ولكنها الأساس الذى تقوم عليه كل أوجه الحياة

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان » ^(١).

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا ائدين في هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هي الأعمدة التي تقوم عليها عبارة الإسلام .

وَأَرْكَانَ الْإِسْلَامِ هِيَ إِعْلَانُ اسْتِدَامَةِ الْوِلَاةِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَكُلُّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْحَمَاءِ هُوَ مَطْلُوبٌ لِلَّذِينَ ؛ لِأَنَّهُ يَصْلُحُ الْحَيَاةَ .

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهي مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقى بها ليعيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعياً لرفعة الإسلام

إذن : فالقاسم المشترك في الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نعلم
هذه القضية على قدرها ، فلا يأتي إسان لا يعرف صحيح لدين ليتكلم

(۱) معمر علیہ أخرجہ البخاری فی صحیحہ (۸) ، ومسلم (۶) من حدیث عبد اللہ بن عمر رضی اللہ عنہما

والمعرك^(١) ، والرد^(٢) ، لأن المسلم قد عمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً في قضية التوروث ، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك .

وإن تعرض المسلم لقضية مثل هذه ، بقول له ، أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فإذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفكرى ، لأنك حين تعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب ، وحين تعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إلى أمر ديني ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر^(٣) .

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، نجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلب . حب أن إنساناً يصلي ، ولا يفعل شيئاً في الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشتري ثوباً يستر به عورته ما دام لا يحمل عملاً آخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشتري ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ مقابله أجراً ، ويشتري الثوب من تاجر التجزئة ، الذي يشتري الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ،

(١) القول في اللغة الارتفاع وعند الفقهاء زيادة في سهام ذوي الفروض ، وقسمان من مبادئ أنصبتهم في الإرث وهي مسائل تظهر عند حساب الأنصبة ، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة في جانب والنقصان في جانب

(٢) الرد أي رد ما فضل من التركة إلى أصحاب الفروض نسبة فروضهم ، عند علم استحفاظ العير ، وتنطبق ذلك بأركان ثلاثة

١ - وجود صاحب الفرض

٢ - بقاء فائض من التركة

٣ - عدم العاصب

راجع تفصيلات هذه المسائل ونظائرها في كتاب (فقه السنة) للشيخ محمد مابن ، وغيره من كتب الفقه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى ﴿ .. فاستأذوا أهل الذم إن كنتم لا تعلمون ﴾ [الأنبياء]

في الدين ؛ لأن العلم ياندين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول ، صدقت بمعنى الدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتعمقة ^(١) .

وأهل الذكر أيضاً في العلوم الأخرى يقصود السنوات لتنمية دراستهم ، كما في الطب أو الهندسة أو غيرها ، وكذلك الأعمال للهية تأخذ من الذي يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالناس بالذي يصلح أسس إقامة الناس في الحياة ، وهو التعمق في الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا نَعَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) ﴿

[التوبة]

نحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس المورثات ليعرف العصة ^(٢) وأصحاب العروش ^(٣) ، وأولى الأرحام ^(٤) ،

(١) التعمق الفهم ، وبقية يفقه هو يشق حار علمياً ملعمياً والتعمق في الاصطلاح علم أحكام العبادات والعبادات وهو فرع من لروع المعارف الدينية ، قال تعالى ﴿ لِيَعْلَمُوا لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) وقال تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَعَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ (١٢٢) ﴿

[التوبة] أي ليدرسوا أحكام الدين وليتسلطوا [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) العصة هم هو الرجل وراثته لأبيه وللقصود بهم في المورثات الذين يعرف بهم باقي التركة بعد أن يأخذ أصحاب العروش نصيبهم للقدرة لهم وأصلهم الأخ والعمة ، والأب إذاً في من بعد قسم التركة يأخذ نصيبه بجانب العروش الذي يرثه الله له

(٣) أصحاب العروش هم الذين لهم عرش - أي - نصيب - وهم اثنا عشر أربعة من الذكور ، وهم الأب والجد الصحيح وإن علا ، والأخ لأب ، والزوج ونسب من الإناث ، وهي الروحة ، والبنت ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأب ، ونسب الإبن ، والأم والجد المصححة وإن علّت ، ولكل منهم نصيب مفتر ذكره القرآن الكريم .

(٤) أول الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصة . ذهب مالك والشافعي إلى عدم تورثهم ، ويكره المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى تورثهم ، في حالة عدم وجود أصحاب العروش والعصبات

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من ضرل القطر أو الصوف ، والقطر جاء من الرعاة ، والصوف جاء من حز^(١) شعر الأغنام .

وهكذا نجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلى يقتضى أن تكون مستور العورة فى صلاتك ، هذا السر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها : ماذا أفطرت اليوم ؟

وأقل حاجة هى : أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من ابقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنج الدقيق بعد طحن الغلال التى جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن فى مصانع أخرى قد تكون أجنبية .

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة لطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الجيولوجيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ، ليستخلص منه الحديد النقى لصالح للتصنيع .

وهكذا نجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقومك أمام خالقك لتصلى ، فلا تقل : « سأنقطع للعبادة » بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تستفيع بحركة عامل فى الحياة . وإذا لم تستفيع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلى ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلى .

(١) جر الشعر والصوف . دطمه

إذن : العبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في صوره «افعل»
و «لا تفعل»^(١)

وهي يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿أَلَا تَتَذَكَّرُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّكُمْ لَعِنْدَهُ دُخْرٌ وَبَشِيرٌ^(٢)﴾ [هود]

والذير^(٣) . هو من يُحسّر بشر^(٤) رُميه لم يَجىء ، لتكون هناك فرصة لتلافي لعمل الذي يُوقع في الشر ، والبشير هو من يبشّر بحير سيأتي إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير .

إذن . الإنذار والشارة هي أخبار تتعلق بأمر لم يَجىء .

وهي الإنذار تحوير ونوع من التعليم ، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجَدِّدًا في دراسته ؛ تقول له : إن لم تذاكر فسوف تكون كائن قاتل الذي أصبح صعلوكًا تافهاً في الحياة .

(١) حمل أمر من الأمر وهو الله ولا تعمل بهي من الله والأمر يعطى المرء من الله وليس من الله يعطى الحرام ، المكروه المكروه مباح ، هذا هو التكليف الشرعي ، وهو مبدأ الاحياء ، وهذا التكليف الشرعي يدرج تحته الأمر بفعل الخير ، سواء كان تصلياً أو معاشاً ومن هذا يعتدل موازين العدل لاجماعتى .

(٢) الذير الذي يذير الكافرين واشركين والمعصاة بعباد الله وقال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا^(١١٩)﴾ [البقرة] وقال تعالى ﴿فَبِعِثِّ اللَّهِ الْبَشِيرِ وَمُنْذِرِ﴾ [البقرة]

(٣) لبشر الذي يسر القوم بالخسر الباز ، وهو هنا يعنى الرسول الذي يسر المؤمنين بربوب الله وجهه ربهمته جزاء على إيمانهم وعبادتهم قال تعالى ﴿فَأَنبَأْنَاهُ بِلِقَائِكَ أَنبَشْرًا بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذَرْنَا قَوْمَكَ لَكَ^(١٢٠)﴾ [مريم] أى نوماً شديد الخسومه وقال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ^(١٢١)﴾ [الفرقان] [القاموس القويم - تعبر عن]

(٤) الذير الإنذار والذير ، وحسمه يذر قال تعالى ﴿مَّا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ^(١٢٢)﴾ [الأنعام] والذير هنا هو الرسول المنذر بالعباد ، وقوله ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي^(١٢٣)﴾ [الفرقان] يحتمل إنذارى ، ويحتمل نتائج إنذارى ، أى عيوبى التى أسروا بها ، وحديث ياء المتكلم جمعاً راجع القاموس القويم ص ٢٥٨ و ٢٥٩ ح ٤

إذن : فأنت تندر ابنك ؛ ليشغلي من الآن لعمل الذي يؤدي به إلى
الفشل الدراسي .

وكذلك ييثر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخر بالخير الذي يتطره حين
يسلك الطريق لقويم .

إذن : فالعبادة هى كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّعاً
ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «الفعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل»
و «لا تفعل» فهو مباح .

وعنى الإنسان لمسلم أن يُصَرَّ نفسه ، ومن حوله بأن تنفذ أى فعل فى
ضوء «افعل» هو العمل لمباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضوء «لا تفعل»
ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم
تحريى الدقة فى مدلول كل سلوك .

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن
اللازم أن يبين للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بهير كبير .

ومثال ذلك : حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العسوى من حظيرة
الهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليحفظه بالتربة ،
وهو يعمل هذا العمل بى فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد

ويبين الحق - سبحانه وتعالى - هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم
عبادة أى كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول ﷺ هو
مذير وبشير من الله .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الْأَتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. (٧)﴾

[هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى .

وهذا يتوافق وينسق مع الإنذار والشارة^(١)؛ لأن عمادة غير الله تقتضى نذيراً، وعمادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان، ومعنى هذا انضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل، فيُذهبه عن حير أجلي أطول منه، فيقع فى بعض من عفلات النفس.

لذلك بين الحق سبحانه أن من وقع فى بعض عفلات النفس عليه أن يستغفر الله، لأن الله سبحانه وتعالى لا يجعل برحمته على أحد من خلقه.

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله، فسحابه قد شرع التوبة، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى.

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأتى على منهج ربه، فإذا ما تاب واستغفر، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُمِضْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا
إِن كَانَ أَجَلَ مُسَمًّى وَتُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾^(٢)

(١) البشيرة والشارة: ما يُعطى للبشر بالخير العثار، وبشيرة أى يبشر القوم بالأخبار المحبوبة، والرسول يبشر، لأنه يبشر المؤمنين بالجنة وشرب الله، يقول الحق: ﴿يَا أُولَئِكَ تَأْخَذُونَ بَشِيرًا﴾ [النجم]، ويقول الحق: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَغْلَبًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب] القاموس القويم باختصار.

(٢) متاع: يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدرًا، ويُجمع على أمتعة بأحبار ما يُتَمَتَّع به وما يُتَمَتَّع به. قال تعالى: ﴿اتَّعَدَ حَلِيَّةَ أُوْمِتَاجٍ﴾ [الزمر] أى وصنع أشياء يُتَمَتَّع بها. ودوله تعالى: ﴿وَلَمَّا مَتَّعْتُمُوهَا وَأَبْغَمْتُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْمُنْجُ﴾ [الزمر] أى أطلبت مدة امتعاهم بالمتاع، وبعثها، ومَتَّعْتُمْ مَتَّعْتُمْ بمعنى واحد. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَفَلْنَا فَنَّا كُفْرًا وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ أَسْفَهَاءَ﴾ [الواقعة] أى متعاً للمفسدين التاركين ديارهم نجابة. أو متعاً للجاهلين (انظر: ابن كثير ٢/٤٩٧).

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التي وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى مهبج الله تعالى ، يتال العفيل من الحق سبحانه .

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه .

هذا هو مطلوب الله من العاصي ؛ لأن ذره ^(١) المفسدة مقدم على جلب ^(٢) المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن دنساً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمن قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيقى حياً أم لا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُُمِثِّعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ۝ (٢٠) ﴾

[هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه في توبه تعالى :

﴿ . . فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۖ (١٢٣) ﴾

[طه]

وقال في موضع آخر :

﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ ۝ (٦٧) ﴾

[النحل]

فالحياء الطيبة في الدنيا وعدم الضلال والشفاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

(١) الذره : النغم والإبعاد .

(٢) الجلب : مسوئ الشيء من موجه إلى كسر . وجلب الشيء : طليه وكسبه . [لسان العرب : مادة

(ج ل ب)]

وظن بعض العلماء أن هذا القول يباقر في ظاهره قول النبي ﷺ بأن
«الذنب سجن المومن وجنة الكافر»^(١). وإن أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم
الصالحوين ، ثم الأمتل^(٢) فالأمتل^(٣).

وقال بعض العلماء . كيف نقول: ﴿يُمَتِّعُكُمْ مُتَاعًا حَسًّا﴾ (٢).
[مرد]

ما نقول: ما معنى المتاع ؟

المتاع . هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانسباط .

وعلم المؤمن أن كل مصصة في الدنيا إنما يجريه الله عليها حسن الخراء ،
ويستقبل هذا المؤمن قصاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتب
الله عليه ، وصوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطبون زيادة الانتلاء

إذن: فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحباة بأية
مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِمَ من الثواب .

ونحن نجد في القرآن قصة العبد الصالح الذي قتل غلاماً كان أبواه

(١) أخرجه مسلم من صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه في سه (٤١١٣) من حديث أبي هريرة . قال النووي
في شرح مسلم (٣٠٥/١٨) «معناه أن كل مؤمن مسجون بموع في الدنيا من الشهوات المحرمة
وللكروية مكلف بعض الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا ، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له
من النعيم الدائم والراحة الخالصة من التقصير . وأما الكافر فلن لا من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته
وتكديره بلمعضات » وإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد»

(٢) الأمتل فالأمتل أي الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى في الرتبة والترتبه يقال هذا أمتل من
هذا ، أي أحصل وأدنى إلى الخير وأما الناس عبارهم [لسان العرب مادة حش]

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٧٦) والترمذي في مسنده (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد
ابن أبي وقاص قال الترمذي - حديث حسن صحيح - وقام الحديث «ويؤتى الرجل على حسب
دينه ، وما زال الهلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ؛ ليس عليه خطية»

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرمقهما صغياناً وكهراً ، فهذا الولد كان فتة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، يأتى لهما بالشقاء^(١)

إذن : فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومن من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فاصيبت رجله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى الاصطلاح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تقطع رجله ، وحاولوا أن يعطروه «مُرَقْدًا» أى مادة تُخَدَّرُه ، وتغيب به عن الوعي ، ليتحمل ألم بتر الساق ، فرمض العبد الصالح وقال .

إني لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاض عليه من قدرة الله وقوته سبحانه .

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكمنوها وأن يدفنوها ، مطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول . اللهم إن كنت قد ابتليت فى عصور ، فإني قد عوفيت فى أعضاء

إذن . فصاحب المصيبة حين يستحضر الجراء عيها ، إنما يحيا فى متعة ،

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صحبه موسى ليتعلم منه - ﴿ فَاذْكُرْ مَا كُنْتَ تَعْمَلُ ﴾ قال القلب نكارة بغير نفس لقد جئت ميتاً مكرراً (٢١) قلل ألم أقل لك إني لن نستطيع معي مشورة (٢٢) ﴿ الكهف ﴾ ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح ﴿ مَا كُنْتُ بِتَابِعٍ مَّا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٢٣) انه السُّفْهَةُ فَكَانَتْ مَسَاكِينَ يَهْتَلُونَ عَنِ الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُغْبِهَا وَكَانَ رَجُلٌ مَعَهُ مَلِكٌ بِأَحَدِ كُلِّ مِصْبَةٍ عَصَا (٢٤) وَأَمَّا الْعِلَامُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنًا فَأَعْلَمَهُمَا أَنَّ يَرْمِقُهُمَا طُغْيَانًا وَكَفَرًا (٢٥) فَارْتَدَّا أَنْ يَدْنِيَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ وَالْقُرْبَىٰ رَحْمَةً (٢٦) ﴿ الكهف ﴾

ولذلك يقول الحق سبحانه

[هود] ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ۖ.. (٣٠)﴾

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تصمم العاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن.

ومثال ذلك : هو التلميذ الذي لا يترك كتبه ، بل حين يأتي وقت الطعام ، فهو يأكل وعباء لا يفترقان الكتب .

هذا التلميذ يستحضر منعة النجاح وحسنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالعاية وقت أداء العمل .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

[هود] ﴿وَيَزِدْكُمْ مِّنْ ذِي فَضْلٍ فَصَلِّ ۖ.. (٣١)﴾

أي يَزِدْ كل ذي فضل مجرول " لمن لا فضل به ، فكان الحق سبحانه يعنى الفضل للعبد .

ومثال ذلك . لفلاح الذي يأخذ من محرو غلاله إردباً من القمح يسدده في الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فصل المال قد يكون عندك ، أي . زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفصلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا المعطاء عند الله سبحانه وتعالى

ولحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف

(١) يراد الكثير العظيم من كل شيء ، والجزل الكريم المعطاء [المعجم الوسيط مادة (ج ز ل)]

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ^(١) عليك فضلاً من الخدم ، فعطى مه لمن أصابه السفة وضيق الخلق.

إذن ، فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، ويمصها عليهم ، فهي تزيد عنده لأنها تربو^(٢) عند الله ، وإن لم يُفضّها على لغيره فهي تنقص .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِكَاءٍ لَّيُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ^(٣)﴾ [الروم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد خواطرها هنا :
﴿وَيُؤْتِ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ^(٤)﴾ [هود]

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذي يصب على غيره مما آناه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالريادة ما يعرضه عن الذي نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطى كل صاحب فضل فضل ربه ، وفصل الله تعالى فوق كل فضل .

(١) أسبغ أنعم راجع العطاء وسبغ الشيء تمامه وانساعه [المعجم الوسيط ملحة (سبغ) بتصرف] وقال تعالى ﴿وَسَبَّحْ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً^(٥)﴾ [نعمان]

(٢) رب الشيء يربو رادوناً وأزببه شينه

(٣) أضعب لرجل في ماله وراد وتصح ، مصدر أصعباً وبسم الفعل مضعب ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ^(٦)﴾ [الروم] أي الذين يأخذون ثواب أعمالهم أصعباً بمصاعبة قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٤٢٤/٣) أي من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدي لهم ، فهنا لا ثواب له عند الله بهذا فسر ابن عباس ومجاهد والضحاك وشاذة وعكرمة وسعيد بن جب العرني والشامي ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه ، ولا أنه قد شئ عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قال الضحاك واستند قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْتُمْ تَتَّبِعُوا^(٧)﴾ [المائدة] أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه

وقال ابن عباس الربا ربان ثوباً لا يصح ، بمعنى رب السبع ، ورباً لا بأس به ، وهو عطية الرجل يريد مصلها وأصعبها ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُو عِنْدَ اللَّهِ^(٨)﴾ [الروم] وإنما الثواب عند الله في الركاة

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿...وإن تولَّوْا فإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٢﴾ [هود]

فإن أعرصوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا ينتهى ويتنوع حسب ما يناسب العذاب ، فضلاً عن أن العذاب لدى يوجد فى دنيا الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل المطلة بأنه سينقضى ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا يتقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبِ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۚ يَوْمَ يُخْرِجُنَا مِنْهُمَا بِطَنَ الْحَمِيرِ ۚ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَشَاءُونَ ۚ قَدِيرٌ ۝٣﴾

أى : إلى الله مرجعكم ' فى الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية إلى لا انتهاء معها وهى الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المفسد على إساءته ، فيؤتى سبحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره ، وثوابه فى الآخرة

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار .

وفى الدنيا من رادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط .

والقبض والبسط هو إقبال على الله توبة واعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة .

(١) المرجع الرجوع ، أو اسم معدن ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿فَمِنْ هُنَا مَرْجِعُكُمْ ۝٥٥﴾ [آل عمران] أى . رجوعكم ، أو من رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿فَمِنْ هُنَا مَرْجِعُكُمْ ۝٥٥﴾ [يونس]

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان من صحت^(١) العيش وقلق النفس .
ويؤتي الحق سبحانه كل ذي فضل فضله ، فمن عمل لله عرو وجن ،
وفقه الله فيما يستقبل على طاعته ، والذين أعرضوا يُحاف عليهم من عذاب
يوم كبير .

﴿ .. وَهُرْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١ ﴾ [هود]
لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية
المحدودة ، ومداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ الْإِنْتُمْ يَلْتَوْنُ صُدُورُهُمْ لَيْسَتْ خَفُوءًا مِنْهُ الْأَحِينِ
يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤٢﴾

(١) الصك غيب العيش ومنه قوله تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له عيشاً مبكراً ۝٤١ ﴾ [طه]
قال ابن كثير في تفسيره (١٦٨/٢) : « ولا طمأنينة به » ولا انشراح لصدره ، بل صدره غيب حرج
لصلاله ، وإن تعيم صاعده ، وليس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يحسن
إلى القين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريب يردد ، فهذا من صك المعشة
(٢) يَلْتَوْنُ صُدُورُهُمْ : يَطْوُونَهَا عَلَى هَذَانِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَكُونُ لَهُمُ الْبَحْصُ وَالْكَرَاهِيَّةُ
(٣) لَا مَسْتَحْفَاءَ : طَلَبُ الْخَفَاءِ وَالْإِحْتِاءِ . رَأَى جَهَنَّمَ يَرِيدُونَ الْإِسْتِحْفَاءَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ
لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ ۝٦٥ ﴾ [ال عمران] ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ تَبَرُّوْا شَيْئًا أَوْ سَخِرْتُمْ مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٦٦ ﴾ [الاحزاب]

(٤) يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ : يَسْطَوْنَ بِهَا مَبْلَعَهُ فِي الْإِمْتِحَانِ . [كلمات القرآن]
(٥) ذكر الواحدى في (أسباب النبوة) (ص ١٥٢) أن هذه الآية نزلت في الأخس بن شريق ، وكان رجلاً
حلوا الكلام على المنظر ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، ويطوى عليه ما يكره
ونال الكلي . كان يجالس النبي ﷺ يظهر له أمراً سرّاً ، ويصمر في قلبه خلاف ما يظهر

وإذا وجدت «ألا» في أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر بوقف لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوت كلمة من الكلام الذي تقوله .

وحين تنبيهه بغير أداء الأسلوب الذي تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجرى الكلام الذي تقوله ، وقد تهيأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

فـ «ألا» إذن هي أداة تنبيه ؛ لأن الكلام يسير بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذي ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذي يملك زمام الموقف ، وهو يهيئ ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيق منه الفرصة لستمط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبهه بأداة تنبيه ليستمع^(١) .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ هُدُورَهُمْ لَيَسْتَحْفَرُوهَا مِنْهُ .. ﴾ [هود]

ويقال : ثبت الشيء أى : طريقته ، وجعلته جزئين متصلين موق ببعضهما البعض .

وحين يشئ الإنسان صدره ، فهو يشئ إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء اللامح ؛ لأن

(١) وردت الألفي القرآن على أوجه :

الأول : تنبيه ، فندل على تخلف ما بعده ، ولندخل على الجمعين الاسمية والفعلية ، نحو ﴿ .. أَلَا إِنَّهُمْ

هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة] ، ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. ﴾ [هود]

الثاني والثالث : التحفيز والعرض ، ومحتاج طلب الشيء ، لكن الأول طلب بحث ، والثاني

طلب بين ، ويحتصن فيهما بالدخول على الحملة الدعية بحر ﴿ أَلَا تَقَاطَرُونَ قَرْمًا تَكْفُرُ الْإِيمَانَهُمْ .

﴾ [التوبة] ، ﴿ .. أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ يَسْخَرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [الزور]

انفعال مواجيد^(١) النفس البشرية يصحح على الوجوه

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحافدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تصحح مواجيدهم الكارهة .
ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَانْتَكَبُوا ^(٢)﴾ [سج]

ومن البديهة أن يعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأذن^(٣) تسد فقط فتحة السمع ، وعدك القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يُدخِلَ إصبعه في أذنه حتى لا يسمع أي دعوة ، وهنا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تحمل قلوبهم لما يقال .

ولذلك يجد القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغُرَاءُ ^(٤) فِيهِ .. ﴾ [ص]

فكانهم نواصوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم في أن القرآن

(١) مواجيد مصدر موحى ، قد وجد فلان رجداً حرباً أو عصب والراد انفعالات النفس الشربة

[المعجم الوسيط: مادة (و ج ح)] تصريف

(٢) أصروا ثيابهم نظروا بها كي لا يروا بوحاً ولا يسمعوا كلامه قاله ابن عباس ذكره السجستاني في (الدر المنثور) (٢٨٩/٨) طبعة دار الفكر

(٣) الأذن عقدة الإصبع أو سلامها وهي أيضاً المفصل الأعلى من الإصبع الذي يه الظفر والجمع بامل [المعجم الوسيط مادة (ن م ل)]

(٤) الغرء ما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على عائدة ولا يبع [المعجم الوسيط] والمود به انشوا باللعن والبطل عند قراءته [كلمات القرآن] قال ابن عباس بالتصميم والتحليل على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ذكره السجستاني في الدر المنثور (٣٢١/٧) وعنده لابن أبي حاتم

لو تنهى^(١) إلى الأذن فقد يؤثر في نفسية السامع ؛ لأن لنفس البشرية
أغيار ، وقد تأتي للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها .

ولو كان هذا القرآن بطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟

ولكنه الغباء في اعتاد والكفر .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ عُدُوَّهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعِثُّونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. ﴾ (٥) [هود]

وهم قد استنشوا ثيابهم ليخطوا وجوههم ؛ مدبرة للانفعالات التي
تحمّلها هذه لوجوه^(٢) ، وهي انفعالات كراهية ، أو أنهم قد تكون
انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد يفعل لما يسمع ،
ولا يريد أن يظهر الانفعال .

إذن : فالانفعال قد يكون قسرياً^(٣) ، وكان كفار قريش رغم كيدهم
وحربهم لرسول الله ﷺ ، يتسللون ناحيته بيت انى ﷺ ليسمعوا القرآن ،
وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدعى كل منهم أنه إنما مر على
بيت النبي ﷺ مصادفة^(٤) .

وفي ذلك يقول الشاعر :

(١) تنهى بلغ ووصل الإنهاء - الإيلاج أنهيت إليه الخير - ليلينه له (اسد الغريب مادة نهى)
(٢) قال قتادة أعني ما يكون العبد إذا حتى ظهره ، واستغشى ثوبه ، وأخبر في نفسه همه ، ذكره القرطبي
في تفسيره (٢٣٢٤/١)

(٣) قسراً أي عارجاً عن إرادة الإنسان

(٤) وذلك أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخمس بن شريق خرجوا بيته ليسمعوا من
رسول الله ﷺ ، وهو يهلى من الليل في بيته ، فوجد كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم
بمكان صاحبه ، فباتوا يسمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلازموا ، وقال
بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو راكم بعض سبها لكم لأوقعتم في أنفسنا ، ثم انصرفوا حتى إذا
كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يسمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا
وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض : لا نبرخ حتى تتعهد ألا تعود ، فتماهتوا على ذلك ، ثم
تفرقوا (سيره بن هشام ٣١٥/١)

ادْكُرُوهُمْ وَقَدْ تَسَلَّلَ كُلُّ
بَعْدَ مَا انْتَضَىٰ مَجْلِسُ لِسْمَارٍ^(١)
احتلاساً بِسَمَىٰ لِحَجْرَةٍ طَهَ
لِسْمَاعِ التَّنْزِيلِ فِي الْأَسْحَارِ^(٢)
عُذْرَهُمْ حُثَّةً فَلَمَّا تَرَامَوْا
عَلَّلُوها بِكَارِزِ الْأَعْدَارِ

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا في نفس الآية بـ «ألا» في قوله :

﴿... أَلَا جِئِنِ يَسْتَغْفِرُونَ لِيَابَهُمْ يَعْلَمَ مَا يَمْسُرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الْصُّدُورِ (٥)﴾ [هود]

فهم إن داروا على محمد ﷺ ، فهل هم قادرون على اندراة على رب
محمد ؟ والذي لا يدركه بصر محمد فرب محمد سيُعلمه به

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه
وتعالى يعلم ما يعلنون .

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن طان أنه قد بهلت منه شيء ،
ولكن الحق سبحانه يُحصي ولا يُحصى عليه ، فإن ظن طان أن الحق
سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن حاطيء ؛ لأنه يعلم السر
ويعلم الظاهر ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة «عليم» صيغة مبالغة^(٣) ، وهي
ذات في كنهها العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿... عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)﴾ [هود]

(١) السمار : هم الناس يسوزون بالليل ، ويكون عادة في ضوء القمر
(٢) الأسحار : جمع سحر ، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر قال تعالى ﴿وبالأسحار هم
يَسْتَفْتُونَ (٦٨)﴾ [الذاريات]

(٣) عليم صيغة مبالغة من العلم ، أي بالغ العلم لا حد لعلمه سبحانه
(٤) الصدر : مقدم كل شيء وأوله ، وحسب الإنسان معروف ، يدخله أصلاعه وتقيه وركناه . وفي
الصدر تظهر آثار الانفعال فتباضاً في الحزن وانشراحاً في السرور ، قال الحق سبحانه ﴿لَقَدْ نَزَّلْنَا
صُورَكَ (٦١)﴾ [الشرح] وقال ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦٦)﴾ [آل عمران] أي بالأسرار
المصحة للصدور (القاص من القويم باختصار)

نجد فيه كلمة ﴿ذَاتُ﴾ وهي تعيد الصبغة ، و﴿ذَاتُ الصُّدُورِ﴾ أى : الأمور المصاحبة للصدور .

ونحن نعلم أن لصدور محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات اثنى انتهى إليها ، وصارت حقائق ثابتة ، وعليها تدور حركة الحياة ويُقصد بـ ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : المعانى التى لا تغارق الصدور ، فهي صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت بية حسنة أو نية سيئة .

وكل الأمور التى يسمونها ذات الصدور ، أى : صاحبات الصدور ، وهى القلوب ، وكأن الجرم^(١) نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فحواطره من باب أولى معلومة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

(١) جرم كل شيء جسمه والمنصود القلب البشرى نفسه

(٢) الدابة . اسم فعل ، وعلب على غير العاقل ، ويستوى فيه الذكر والأنثى ، وقد يشمل العاقل وخيره ، كقوله تعالى ﴿رَبُّهَا مِنْ كُلِّ ذَاتَةٍ﴾ [البقرة] تشمل الإنسان وخيره ، وكذلك قوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ..﴾ [الشورى] ، الدابة تشمل الكائنات الحية من الأرض والسماء ، ومنها دبل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة أما قوله تعالى ﴿وَكُلٌّ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ وِزْرَهَا﴾ [البقرة] ، الدابة هى كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل (ولياكم)

(٣) مستقرها : موضع استقرارها فى الأضلاع أرفى الأرحام وبحورها . ومستودعها : موضع استئدياعها فى الأرحام وبحورها ، أو هى الأضلاع [كلمات القرآن] للشيخ حسين محمد محبوب

وحين يذكر القرآن لكريم لفظة بوضح صفة ما ، فهو يأتي كما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليمًا بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم ليه الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يشون صدورهم . وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، ومن أنه عليم بكل شيء . وقال سبحانه :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا...﴾ (٦) [هود]

والدابة : كل ما يدب على الأرض ، وتستخدم في العرف لخاصة لدلالة على أي كائن يدب على الأرض غير الإنسان . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنِيمَ أَتَانُكُمْ...﴾ (٤٨) [الأنعام]

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه شغل حينا كُلف بخواطر من أهله ، وتساءل : كيف أذهب لأداء الرسالة وأترك أهلي ؟

فأوحى له الله سبحانه أن يضرب حجراً فانقلب الحجر عن صحرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصحرة ، فضربها فانقلبت ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك^(١) شيئاً كما تتعذى به ، فقال : إن الذي رزق هذه هي ظلمات تلك الأحجار كلها لن يسي أهلي على ظهر

(١) لآك الشيء - يلوكه لوكاً - مصغه . [اللسان - ص ١٠٠ (لوك)]

الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعي ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت ^(١) ، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة .

إذن : فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالتزاوج .

ولذلك نقول دائماً : يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من من به

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مستولون منه ؛ فاشمس تشرق على المؤمن وعنى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية وينتفع بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن وللکافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم خواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدد ويكبد في الأخذ بالأسباب .

إذن : فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون في العادة ، وهو يُخرجك عن مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين نطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا . ^(٢)

(١) لقوت . ما يمسك الرمن من الررق . رعى الصبحاح - هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام [لسان العرب مادة (قوت)]

(٢) وأصحاب المنهج الذين يأمروا به وعليه ، يقول الله في حقهم ﴿إِذَا قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا تَتْلُو عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٥﴾ نَحْنُ نُؤْتِيكُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تُلْتَمُونَ ﴿١٦﴾ لَوْلَا عَنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت]

وهي هذا تحكم منك في الشهوات ، وارتقاء في الاختيارات ، أما في الأمور الحياتية الدنيا ، فمطاء الربوبية لكل كائن ليستسمى حيته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ۚ ۝٦٠ ﴾ [هود]

وكلمة «على» تعيد أن الرزق حق للذئب ، لكنها لم تعرضه هي على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه

﴿ رِيْعْلُمُ مُسْتَقْرْمَا وَمُسْتَوْدَعْمَا ۚ ۝٦١ ﴾ [هود]

ولأنه سبحانه هو الذي يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة

والحق سبحانه يعلم بما بذلك ليطمئن كل إنسان أن ورقه يعرف عبراته ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتيك من حيث لا تحسب ، لكن السعي إلى الرزق شيء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس بك ، بل هو رزق لغيرك .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) : الرزق حقيقة ما يعمد به الحي ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ، لأن الهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها ملكة لعلها ، وهكذا الأملاك ترزق اللب ، ولا يقال إن اللب الذي في الثدي ملك للطفل وقال تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم ۚ ۝٦١ ﴾ . الداريات وليس له في السماء ملك ، ولأن الرزق لو كان ملك لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ، لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه .

فمثلاً: أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتي لك سفر للخارج ، وترك قمحك ، ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلُّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ٦٣ ﴾ [مريم]

أى : أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ مما يأتى على بالك تفعله ، وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته فى خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتى أفعالك وفقاً لما كتبه .

ومن عظمة الخالق سبحانه أنه كتب كل شيء ، ثم يأتى كل ما فى الحياة وفق ما كتب

والدليل على ذلك - على سبيل المثال - أن الله سبحانه كان يوحى إلى رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرى^(١) عن رسول الله ﷺ الوحي ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ .

ثم يأتى الرسول ﷺ إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كُتبت ، ويأتى كل نجم من القرن فى مكانه الذى قاله النبي ﷺ لأصحابه ، فكيف كان يحدث ذلك ؟ لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله ﷺ .

﴿ سَقَرْتُكَ فَلَا تَنسَى ٦٤ ﴾ [الأعلى]

ويعمل الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) التسمية : انكشاف الوحي عن الله ، بما فيه من شدة لادى إلى أن يتصحب رسول الله ﷺ عرفاً

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْقُودُونَ مِنْ نَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة.

وقلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض ولسموات في ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها في أقل من طرفة عين بكلمة «كن» وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشيء ، وطرح مكونات إيجاد الشيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان صنع «الريادي» ، فهو يضع جزءاً من مادة الريادي - وتسمى «حميرة» - في كمية مناسبة من اللبن الدائى ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك اللبن المخلوط بـ«حميرة الزمادى» ، وبعد مضي أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بـ«الحميرة» إلى زيادى بالفعل .

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهي أعمال تحتاج إلى علاج ، ولكن أعمال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها ؛ لأنها كلها نأتى بكلمة «كن» .

أو كما قال بعض العلماء: إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات في ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن

(١) العرش في اللغة - سريو الملك . وقد سمي سبحانه عز وجل ملكه سيد بالعرش ، فقال سبحانه : ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ [الزمل] . وعرش الرب سبحانه لا يحدّه ذكره وبالمرّة في كتابه (٢١ مرة) مضافاً إلى سبحانه .

(٢) ليلوكم ليحتركم ، وهو أنتم بأمركم .
أحسن عملاً : أطوع لله وأروع من مخلوقه . [كلمات القرآن]

آيات أخرى مجالاً لمحاولة البيل من القرآن الكريم ، وأن يدعوا أن فيه تعريضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هتا يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ۚ ۞ ﴾ [هود]

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا: إنها ثمانية أيام ، وهي قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ۞ ﴾ ذلك ربُّ العالمين ﴿٦﴾ وجعل فيها رَواصٍ ﴿٧﴾ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴿٨﴾ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنِ ﴿٩﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُحَانٌ ﴿١٠﴾ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَاهُنَّ ﴿١٢﴾ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ۚ ۞ ﴾ [صافات]

(١) الد المثل والتظير وجميعه أنداد وقال تعالى ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أَندَادًا ۚ ۞ ﴾ [البقرة] أى امتلا شركاء تعالى الله عما يقرئون [القاموس القويم] تصرفه

(٢) رسا الشيء يرمو رمواً ثمتا ورسخ ، وأرساه : جعله ثلثاً راسخاً ، وأرسى السيفه شيها على الشاميه فلا سير والمراد بالرواصي : الجبل لأنها تثبت الأرض حتى تستقر ولا تغيل قال تعالى ﴿ وَرَأَيْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ۚ ۞ ﴾ [الحج] وقال تعالى ﴿ وَالْجِبَالِ أَوْسَادًا ۚ ۞ ﴾ [الدورات] [القاموس القويم] - يتصرفه

(٣) لأقوات جميع قوت وهو ما يمسك الرمي من الزود وفي الصحاح للحوهرى هو ما يقوم به بدن لإنسان من الطعام [اللسان مادة قوت]

(٤) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُحَانٌ ۚ ۞ ﴾ [صافات] الدحان يحار الماء انتصاعاً منها حين خلعت الأرض ، ذكره ابن كثير في تفسيره [٤/ ٩٣] .

(٥) فضضاهن خلقهن فالقصاء هنا بمعنى الخلق ، رهي من الكلمات التي تأتي على وجوه كثيرة من المعاني ، ومن معانيها

العراع ﴿ إِذَا فَضِيتُمْ مَسَاكُكُمْ ۚ ۞ ﴾ [البقرة]

الامر ﴿ وَإِذَا فَضِيتُمْ مَرَا ۚ ۞ ﴾ [البقرة]

العهد ﴿ إِذَا فَضِيتُمْ إِلَى مَرَسِ الْأَمْرِ ۚ ۞ ﴾ [النقص]

الوصية ﴿ وَوَقُضِيَ لَكُمْ الْأَمْرُ ۚ ۞ ﴾ [الأنعام]

وهنا قال بعض المستشرقين : لو كانت هذه هي قصة الخلق للأرض
والسموات لطاقت آية الإجمال التفصيل .

وقال أحدهم . لنعرض أن عندي حشرة أراد من القمح ، وأعطيت
فلاًناً خمسة أرادب وفلاًناً ثلاثة أرادب ، وفلاًناً أعطيته إردبين ، وبذلك
يتفد^{٢٩٣} ما عندي ، لأن التفصيل مطابق للإجمال .

وادعى هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال
ولم يفتروا إلى أن لمتكم هو الله سبحانه وتعالى ، وهو يكلم أناساً لهم ملكه
أداء ويبين وبلاغة وفصاحة ، وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون .

هم فهموا ، كأهل فصاحة ، أن الحق سبحانه وتعالى - قد خلق
الأرض في يومين ، ثم جمع فيها رواسي وبارك فيها ، إماماً في الأرض
أو في الجبال ، وقدر فيها أقواتها ، وكل ذلك تنمة لمحدث عن الأرض .

ومثال ذلك : حين أسامر إلى الإسكندرية فأننا أصل إلى مدينة طنطا في
ساعة - مثلاً - وإلى الإسكندرية في ساعتين ، أي : أن ساعة السفر التي
وصلت فيها إلى طنطا هي من ضمن ساعتين السفر إلى الإسكندرية .

وكذلك خلق الأرض والرواسي وتقدير القوت ، كل ذلك في أربعة أيام^(١)

(١) بعد - بعد ثبوت رعداً من وذهب وانقطع وبم يق ، من النصاد ، وهو الانتهاء . وقال تعالى
﴿ ما عندكم يهدو ما عند الله بآي . ١٠٦ ﴾ [الحج]

(٢) اليوم في علم الملك الحديث مقدر دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة
تقريباً ، وجنعة أيام وأيام العرب . وقالهم الخربة . وأيام الله أيام خلقت بها يقيم الله وعنده على
الأم الدنية العاصية ، وأيامه التي أنعم بها على أم مطيعة صالحة .

ويوم الدين يوم القيامة يوم حين خلقت فيه موقعة حين واليوم عند الملك معذرة يختلف
في اليوم حسباً ما حيناً يكون ألف سنة ، ولكن بحسب يومه ، ولكل كوكبه يومه . فبأن تعالى ﴿ وإن
يوماً عند ربك كآلف سنة مما تعدون ﴾ [الحج] . وقد يكون المقدار خمس ألف سنة ، مصداقاً لقوله
تعالى ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج] ، وبهذا التقدير فهم معنى قوله تعالى
في خلق السموات والأرض ﴿ فلعناهم سبع سموات في يومين . ١٠٧ ﴾ [صافات] فإله أعلم بمقدار
عديني اليومين [القاهر من الغيوب - بصرف]

متصممة يَوْمَئِذٍ خَلَقَ الْأَرْضَ^(١) ، ثم جاء خلق السماء في يومين

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ . . (٧)﴾ [هود]

كل هذه المسائل العيسية لها حجة أساسية ، وهي أن الذي أحبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخوقة ، ولا أحد يشك في أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات .

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل : المصباح الكهربائي ، والهاتف ، وليكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيره .

ولكن حين نجيء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها .

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذي خلقها ، وهي لمن ادعاهما إلى أن يظهر معارض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً .

وكل هذا الخلق من أجل البلاء .

﴿يَبْلُوكُمْ^(٢) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (٧)﴾ [هود]

(١) ولذلك قال أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه اختصار الرحمن بكتيب ما يتيسر في القرآن ص ٢٧٣ : «يوم ما خلق الأرض من جملة الأربعة خلعه ، والناس من تنمته أربعة أيام ، وهي مع يوم خلق السموات ستة أيام . يوم الأحد والثنين خلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء لجعل المذكور في الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة خلق السموات»

(٢) بلوت الشيء - أبلوه بلاءً وبلاء . امتحنته واختبرته ، قال تعالى : ﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ هَذِهِ . (٣٥)﴾ [الأنبياء] أي : نختبركم بالشَّرِّ واليُسْرَى ، أو بالخَيْرِ واليُسْرَى ، لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى يمانتكم أو كفركم . وقوله تعالى : ﴿هَٰذَا كَيْفَ تُقَالُ﴾ [يوسف] أي : تعرف حقيقة عملها الذي مدحته كما يعرف المختبر الشيء الذي يختبره . وقوله تعالى : ﴿وَتَبْلُوكُم (٣٦)﴾ [محمد] أي : تعرف صدقها من كذبها . ومن أغراض البلاء والابتلاء إظهار حقيقة العمل والتمييز بين العمل الحسن وغيره ، فهبتا الثواب أو لعنتا [فقدس القوم] بصرف

أى : ليختركم أيكم أحسن عملاً^(١) ، ولكن من انذى يحدد العمل ؟
إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟
لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتى من خلق ، وبكنه سبحانه أراد
بالاختبار أن يطابق ما يأتى منهم على ما علمه أزلاً ؛ حجة عليهم .
وهكذا فاختبار الحق سبحانه لى اختبار الحجة علينا .
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ أَأَنْذَرُكُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

وهنا يصور الحق - سبحانه وتعالى - تكذيب المعاندين لرسول الله ﷺ ،
فهم يلتقون باللفاظ على عواهبها^(٢) من قبل أن تمر على تفكيرهم
قلوبهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ، لاسمحاح منطقياً أن
يقولوها

والرسول ﷺ يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من
بعد الموت .

(١) عن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ تلا ﴿ إِنَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٧) [هود] قال : «أيكم أحسن عملاً ،
وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » أورده القرطبي فى تفسيره (٤ / ٣٧٢٧) والسيوطى فى
الدر المنثور (٤ / ٤٠٤) وهما لأن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه بسجوه
(٢) ألفى الكلام على عهده لم يتغيره ، وقيل هو إذ لم يهتم أصاب أم أخطأ ، وقيل [داتهاود] به
وقال ابن الأثير : «قوامه أن يأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام ، جمع حاشية وهى الشئ - أى
أرجل الكلام على ما حضره وعجل ، من خطأ وصواب - أى عدم التفكير فى الكلام عن السطوة
والعز ، على علته ، [اللسان - مادة (ع هـ)] تنصرف

وهذا كلام إخباري بأنهم إن ماتوا - وهم سيموتون لا محالة - سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا .

﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

والخبير الذي يقوله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكان النص نفسه من السحر الذي حكموا به على القرآن .

وأوضحنا من قبل أن يطال قضية السحر في القرآن الكريم دليله منطقي مع القول : لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله ﷺ أو أن محمداً - في حرقهم قد سحر القوم الذين اتبعوه

فلسحر به تأثير على المسحور ، والمسحور لا دخل له في عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المكركبين لرسالته ؟ ينفس الطريقة التي سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحروهم جميعاً .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة «سحر مُّبِينٌ» تعني : سحراً محيطاً بكل من يريد سحره .

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْنَا أُمُتٌ مَعْدُودَةٌ لِّقَوْلِهِمْ مَا يَحْسِبُونَ الْآيُونَ بِأَنَّهُمْ لَيْسَ بِمَصْرُوفٍ عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨)

وساعة نجد ﴿لهم﴾ فافهم اللام الأولى التي بعد «و» إنما جاءت ، لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره : «والله لئن» .

والقسم يأتي لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتي لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تقسم لإنسان تلقاء وتقول له : والله لقد كنت عبد فلان بالأمس .

(١) الأمة : اسم مشترك ، يقال على ثمانية أوجه

١- فالأمة تكون الجماعة ، كقوله ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ قَعَمٌ مِنَ النَّاسِ﴾ (٢٢) ﴿[القمر]﴾

٢- والأمة : أتباع الأنبياء عليهم السلام

٣- والأمة : الرجل الجامع للحبر الذي يقضى به ، كقوله تعالى ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً مَالَهُ حَنِيفٌ﴾ (١٧) ﴿[النحل]﴾ .

٤- والأمة : الدبر واللد ، كقوله تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ (٢٢) ﴿[الزخرف]﴾

٥- والأمة : الخبي والرياء ، كقوله تعالى ﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِتَى أُمَّةً مَعْدُودَةً﴾ (٨) ﴿[هود]﴾ .

٦- والأمة : القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه

٧- والأمة : انحرل لشعر دينيه وحنه ولا يشركه فيه أحد . هذا النبي ﷺ «بعث ربه بن عمرو بن يعين أمه وحده»

٨- والأمة : الأم . يقال : هذه أمة زينة يحيى . أم ربه

[راجع تفسير المرحوم (٣٣٢٧/٤) ، وسان العرب]

(١) أمة معدودة : إلى أمة معدود أي أجل محدد . والأمة في هذا الموضع : الأجل والخير . وقال تعالى في

سورة يوسف ﴿وَقَالَ الَّذِي بِنَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَكِمُ بِتَابِلِكُمْ﴾ (١٥) ﴿[يوسف]﴾

(٢) يحده يمنة

(٣) خلق بهم من هم ، وأحاط بهم . وقال تعالى ﴿وَعَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمُ اسْمَ اللَّهِ الْعَذَابَ﴾ (٥٢) ﴿[عنقر]﴾

[مختصر تفسير الطبري] بصرف .

إذن: فالقسم يأتي لشك طراً^(١) عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداءً .

ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيداً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا :

﴿وَلَيْنِ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْنِ أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ...﴾ (٨) [هود]

فالوار هنا هي واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب .

وإذا اجتمع الشرط والقسم فبلاغة الأسلوب تكشف بجواب واحد ، مثلما نقول : «والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا» .

وهكذا يُغنى جواب القسم عن جواب الشرط . والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذي يغنى جوابه عن الآخر .

مثلما نقول : «والله إن جاء فلان لأكرمه» ، فالقسم هنا متقدم ، وأعني جوابه عن جواب الشرط . وإن قلت : إن جاءك فلان والله لنكرمه ، فهذا لشرط هو المتقدم .

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو حبر على الاثنين - على الشرط وعلى القسم - يأتي بجواب لشرط فوراً ، مثلما نقول : «زيد والله إن جاءك أكرمه» ، لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد ، ويرجع هـ الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَيْنِ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْنِ أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ لِّقُرْآنٍ مَا يَحْجِبُهُ...﴾ (٨) [هود]

(١) طرأ الشك . حدث ووقع في عقل السامع مما يستدعي من التكلم أن يقسم على ما يقول ليمنه

واخواب هما للنسم ، وهو يعنى عن جواب الشرط .

أى: أن العذاب يُؤخر .

وقد أوعد الحق - سبحانه - الكافرين بمحمد ﷺ بأن يعذبهم ، وكان العذاب للآم السابقة هو عذاب استنصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من تحسف^(١) به الأرض .

فكان مهمة الرسل السابقين أن يلمعوا الدعوة ، ثم تتولى السماء تأديب الكافرين بالرسالات .

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضل أمة محمد ﷺ على الآم كلها ، وأن تعذب الكافرين فى الممارك .

وحين يتوعدهم الرسول ﷺ بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يؤخر ليرى المحبطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، قلن يحزن عليهم أحد .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء^(٢) ليكون لهم معنى واضح فى الحياة ، والإملاء بطاسم^(٣) ، لتزداد مظالمه ريادة فحس الأمة التى يعيش فيها

(١) قال عرجل ﴿ لَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَامِيًا وَفِيهِمْ مَنْ أَخَذْنَا الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ يَغْلِبُهُمْ وَتَكُنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [المكبرات] أما الذى عذبوا بالخاص وهو الريح العانية الشديدة ليرد الحامله لخصماء الأرض - هم قوم عاد .

أما ثمود فقد أحسنهم الصيحة ، وأما من عوقب بالتحسف فهو قارون ، وأما من عوقب بالغرق فهو فرعون ووزيره هامان وجبردهما

(٢) الإملاء الإرخاء والإمهال . قال تعالى ﴿ وَتَمَتَّنَا لَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ ﴾ [الأعراف] [المعجم الوسيط] بتصرف

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ أَلَّاهُ عَرَجٌ لِيَلْبِىَ لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَ لَمْ يَمُتْهُ لَمْ يَمُتْهُ . ﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إِنْ أَخَذَهُ إِلَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ [هود] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٢) البير والصلة

تكره ظلمه ، فبدأ وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد .

ونحن نعلم أن النفس الشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قصيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالباس تنسى لدعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه .

ولذلك أقول دائماً :

إن من دواهي استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التي تجعل عواطف الناس مع الجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم .

ولكن لو استحضر الناس وقت العقوبة ظرف الجريمة ؛ لمرحوا بالحكم على القاتل بالقتل .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يعذب أحداً يقول .

﴿ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ ^(١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور]

وذلك لينم التعذيب أمام المجتمع الذي تنقش بإفسادهم وشقي عظامهم ، فمن يعتدي على عرضه ، ويرى عذاب المعتدي فهو يُشقى

وهنا يبين الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : لقد توعدتكم بالعذاب ونحن نبطن لعذاب بالإمهال لهم ، ولكنكم جعلوا من ذلك مناهج السخرية والاستهزاء والنهك ، وتساءلوا : أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم .

(١) طائفة: جماعة قليلة ، ثلاثة ، وقيل أربعة ، هذه شهرة الزنا والبراد بالعذاب من هذه الآية الكريمة

هو حد الزنا لغير المحصن ونظام الآية (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما

أداة بيدين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) ويشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ([النور]

[تفسير الجلالين] بتصرف

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا^(١) قَلِيلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص]

واقطع : هو حراء العمل ، وهو مأخوذ من القط أى : انقطع .

والعذاب إنما يتناسب مع الحرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغيرة فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة .

ومن العجيب أن منهم من قال :

﴿...اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مِنْكَ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ
أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢٢] [الأنعام]

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم فى قولهم :

﴿أَوْ نُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا^(٢) ...﴾ [٢٢] [الأنعام]

ولاشك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحدياً وسخرية واستهزاء

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب لكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القاتل

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ...﴾ [٢٣] [الأنعام]

فصلاً عن أن هناك أناساً منهم سسروا لإيمانهم ؛ لأنهم لا يملكون القوة

(١) قطأ أى : صب من العذاب الذى أوعدته [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] وقد الشئ وقططه ، قطط : [المعجم الوسيط] .

(٢) كسفاً : قططاً [مختصر تفسير الطبري] و [كلمات القرآن] والكسفة (بكسر الكاف وسكون السين وفتح اللام) : القطعة من الشئ ، وجمع كسفة وكسف ، وتفرقت كسفاً بفتح السين ، وقرب سكيها [المعجم الوسيط مادة (ك س ف)]

وهذا ما لا يريدُه الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَهَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُعْدُوْدَةٍ .. (٨) ﴾ [هود]

والأمة . هي الطائفة أو الجماعة من جنس واحد ، مثل أمة الإس ،
وأمة النخ ، وأمة النمل . . وغير ذلك من خلق الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ
مَا فَرَعْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ قُمْ إِلَى رَبِّهِمْ يُخْفِرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام]

والأمة طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد ، وأفرادها متساوون في
كل شيء ، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة . وهلك الأمة الطائفة من
الرمم . مثل قول الحق سبحانه .

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ "يَعْدُ أُمَّهُ" .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

أي : أن هذا الذي تذكر بعد فترة من الزمن ، وقد تكون المثرة المسجاة
«أمة» ، هي الرمم الذي يتحمل جيلاً عن الأجيال .

الأمة - إذن - هي جماعة وطائفة لها جنس يجمعها ، ولها تميزات
أفرادية ، وهي تلتقي في معنى هام

(١) ما شرطنا أي أن الجميع علمهم عند الله ، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وبديده . هو . أكد
برياً أو بصحياً . غايه من كثير في التفسير (٢) (١٣٩)

(٢) ذكر أصلها اذكر على وزن اعمل ، هيت تاء الافتعال دالاً ودال العمل دالاً ، وأدغمت الدالان
ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ لَعَلَّ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴾ [الأنعام] .

فأمة الإنسان هي حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات في المواهب .

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة .

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له لتخصص في كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد في مجال ؛ ليعمل غيره فيه ، وغيره يتخصص في مجال آخر ويعمل الباقين ، وهكذا .

وهي هذا تكافل اجتماعي ، يشعر به كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق .

ولو عسرف واحد كل الحرف التي في الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، وسباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فمن يسأل عن الباقين ؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضلاً من أحد على أحد .

والذي يكتسب الشارع أو يعمل في تنظيف الصرف الصحي لا يفعل ذلك تفضلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العيل والورق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملابس ، وأولاده يطيبون الطعام والمأوى والملبس ، ولو لا ذلك لما عمل في تلك المهنة .

وإذا أحلص في عمله فآله سبحانه يحبه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل في هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهنته .

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل في هذه المهنة ، ويحس الأقدار على كتفه ، وحين وسع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما يترحه من تلك المجاري

وحين وسَّعَ الله عليه أكثر ؛ اشترى سيارة فيها ماكينة شغط للمأخورات ،
وصار يجلس على الكرسي ، ويدير «موتور» نزح المجارى لداخل خزان
لسيارة المخصص لذلك .

إذن : فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفصل ؛
لأن التفصل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هي التي فيها إلزام
بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة

ومن يعشق عمله على أى وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛
لأنه احترام قدر الله تعالى فى نفسه ، ولم يسكب^(١) ، ويعطيه الله سبحانه
كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وإخلاصه به .

وإن نظرت إلى العظماء فى كل مهنة مهم صغرت ، فتسجد أن تارخهم
بدأ بقوبهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم .

ونحن نعلم أن قيمة كل امرئ قيم يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة
من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
سُخْرِيًّا ۖ﴾ .. (٣٢) ﴿[الرعر]

(١) الاستكاف الاستكبار والاستماع وإن تأخذه الأنفة من فعل الشيء . ومن قوله تعالى ﴿لَنْ يَسْكَبَ
النَّاسُ أَنْ يَكُونَ عِزًّا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْكَبْ مِنْ عِبَادِهِ وَيَسْكَبْ لِسَبْحَتِهِمْ إِلَهُ جَمِيعًا
(٥٧٥)﴾ [الساء]

(٢) سخرأ سخرأ فى العمل ، متخدماً فيه [كلمات القرآن] أى يستخدم بعضهم بعضاً فى الأعمال
المختلفة حسب إجماعة كل منهم لها . وقد جعل الله تعالى ذلك سبباً للمعاش فى الدنيا ؛ ليرابط الناس
ويتألفوا ، ولا يتفرق كل منهم بعيداً عن الآخرين قصد الحياة

لأن أحداً لا يسخر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخر في حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل : ألا تحتاج إلى مائق ؟ ألا تحتاج إلى حدم ؟

وصاحب الحاجة هو الذى يعرض نفسه ؛ لعله يجد العمل الذى ينقته .
ولذلك يجب ألا يتصور أهل أى إنسان أنه حين يخدم فى أى حرفة من الحرف أنه يخدم المخلوم ، لا . إنه يخدم حاجة نفسه .
وهكذا تترايط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ^(١) ... ﴾ (١٣٠)

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهى مواهب لا تجتمع إلا فى أمة من الناس .

وكلمة « أمة » تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل حصال الخير .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَكُنْ أَحْرَبًا عَنْهُمْ أَعْدَابٌ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ^(٢) ... ﴾ (٨)

وعادة ما تأتى كلمة « مَعْدُودَةٍ » لتفيد القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه .

(١) سئل عبد الله بن مسعود عن الأمة القامت فى عهده تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ (١٣٠) .

[التحل] قال الأمام معلم الخير ، رائعات الطبع به ، ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٩٠) .

(٢) أمة معدودة : طائفة من الأيام قليلة (كلمات القرآن)

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ فَرَأَاهُمْ مَعْدُودَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٧٥)
[يوسف]

وما دام الثمن نخساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة.

والمسب في ههنا نكلمة ﴿مَعْدُودَةً﴾ أيها شفيذ القلة ، هو أننا لا نُقْبِلُ على حُدِّ شيءٍ إلا عطية أنت قادرون على حُدِّه ؛ لأنه قليل ، لكن مالا نُقْبِلُ على حُدِّه فهو الكثير .

ومثال ذلك : أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ (١٣٤)
[إبراهيم]

و«إن» - كما نعلم - تأتي للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مظنة الحصر .

ورغم أن البشرية قد تقنعت في عيوم الإحصاء فهل تعرف أحد ليحصى نعم الله ؟

طبعاً لا . وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين في أي مجال أو تخصص .

وقديماً^١ كان انقائمون على منح صناديق لتدور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جتية معاً ، والورق من فئة العشرة حنيهات

(١) ثروه باعره قبر هم السيادة (انقائمة) نيايعوا يوسف - عليه السلام - شئ بحس قليل وقيل حرام ؛ لأنه كان حراماً عليهم لا يحل لهم أكل ثمنه وكثرة ما من الرمانين قيل هم اسيرة كانوا يدرامدين ، لا يعلمون كرامته على الله تعالى وميرته [محتشم نعيم الطبري]

وذكر الخليلاني في تفسيره ما أن «بخس» أي ناقص وأن الدراهم المعدودة مشرون أو اثنان وعشرون درهماً وأن يحوته هم الذين كانوا فيه من الزاهدين ، فجاءه به السادة الذين اشتروه إلى مصر ، فجاءه الذي اشتراه بعشرين ديناراً وروحي من وثوبيين . [تفسير الجلالين] بتصرف .

(٢) ذكر فضيلة الإمام هذا العمل ؛ لأنه عرض عليه يوم أن كان وكيلاً للدعوى بوزارة الأوقاف

معاً ، وكذلك بقية المئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقومو بوزن كيلو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً في الكيلو جرام ، ووزنوا بعد ذلك بقية القروش ، ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التي حصروها في الكيلو جرام الأول .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلَنُحِزِّنَهُنَّ إِلَىٰ أُمَّةٍ مُّعْدُوَّةٍ لِّقَوْلُنَّ مَا يَحْسَبُنَّ ۖ ۝٨٨ ﴾ [هود]

كانهم يتساءلون سخرية واستهزاء : لماذا تأخر العذاب الذي توعددهم به رسول الله ﷺ ؟ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقل مثل هذا الكلام إلا على سبيل تهكم .

ويأتى لرد عليهم بأداة التنبيه ، وهي «آلا» أي : تنبهوا إلى هذا الرد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا ۚ ۝٨٩ ﴾ [هود]

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتى ، ولكن العباد دائماً يعجلون

والله سبحانه لا يعجل بعجلة لعباده حتى تبلغ الأمور ما أريد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون : لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ۝٩٠ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٩١ ﴾ [هود]

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء : أولها : «آلا» وهي أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة ؛ لأن الذي يخسر به هو الله سبحانه وتعالى .

(١) ليس مصروفاً ، [تفصيل الحلالين] .

وايضاً فهذا العذاب . ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ (أ) . [هود]

أى : الله عذاب مستمر

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (أ) [هود]

يعنى أنه حل بهم وبرز عنهم ، ووقع لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل .

ونحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماض ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، ويأتى التعبير عنه بالفعل الماضى^(١) ؟

ولكن المائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُسبب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى .

وقال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن .

﴿أَتَنِي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (ب) [الحل]

وكلمة «أتى» مى عرفنا اللغوى فعل ماض ، أى : أت الكلام جاء من المتكلم بعد وقوع السة خارجاً ، مثلما نقول : «أبجح محمد» فهذا يعنى أن الجاح قد حدث بالفعل .

(١) هذا التعبير بالماضى عن المضارع يصدر من مالك الزمن والمكان والحركة ، ولحقق الوقوع ، وقد يُعبّر بالمضارع عن الماضى بضعف الحدث ، كما فى قوله تعالى من مقالة إبراهيم لاسه إسماعيل ﴿وَإِنِّي لَأَرَى لِي الْعَذَابَ أَنِّي أَخْبَعْتُ مَافَرَّ مَا لَا تَرَى﴾ (٥٥) [الصافات] ، ومثل الأول قوله تعالى ﴿أَتَنِي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٦) [الحل]

وحين يقول الله سبحانه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نفهم أن ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نسبة كلامية مسقتها نسبة واقعية .

وقوله سبحانه بعد ذلك ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع ، ولكن استكمل هنا هو الله سبحانه وتعالى .

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة ؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - أنك قد ترغب في أن تنقش حقيبتي ضخمة وثقيلة ، فيقول ابنك الشاب: دعني أحملها لك ، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها في زمن يناسب قوته .

وإن جاءك ابنك الصغير وقال: سأحملها أنا، فهو لن يحمل الحقيبة إلا في مقدار زمن يناسب قوته ، وهي قوة ضعيفة .

إذن . ففي المجاز البشري أنت تحكم على الماضي ، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً ، ولكك بالنسبة لأمر مستقبل ، لا نستطيع أن تحكم عليه ؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً .

أما إذا كان هائل الكلام قادراً على إتمام ما يقوله الآن في المستقبل ، ولا عائق يعوقه ، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة .

وهنا نجد الإخبار من الله سبحانه وتعالى ، ولا شيء في الكون يتأبى^(١) على الله سبحانه .

ومادام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى ، فهو آت لا محالة .

(١) أي الشرع . يلباه من باب مرج إياه وإيلاءه . وأتى الشيء . يلباه من باب ضرب استمع عنه وعمره ولم يرمه . قال الحق سبحانه : ﴿ فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى . ﴾ (٢١) [البقرة] وقوله ﴿ فَبَيِّنْ أَنْ يَحْمِلَهَا ﴾ .. (٢٢) [الأحزاب] وقوله ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرٍ أَنْ يَنْقُضَهُ ﴾ (٢٣) [التوبة] ويتأبى يمنع القماموس (قوم يعرفون)

ولذلك قال سبحانه :

﴿وَحَاقَ بِهِمْ ..﴾ (A) [هم ذ]

مع أن اسياق في العرف البشرى أن يقال ومسيحيق بهم ما كانوا يستهزئون + لأنهم كانوا يستمجلون العذاب .

وحاء قول الحق سبحانه وتعالى . ﴿وَحَاقَ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أي هائق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِتَارَ حِمَّةٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ

إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۝١﴾

وهي أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿ولئن﴾ وهذا يعني أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول لنن أذقا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع في اليأس

وهي أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم .

وكلمة ﴿أذقنا﴾ توحي أن الإذاقة محلها الأول المص ، ومعناها تناول الشيء لإدراك طعمه . حلوا أو مر ، لادع أو غير لادع ، قلوب أم حامص .

ومن العجيب في دقة التكوين الإنساني أن كل منطقة في اللسان لها طعم تفعل له ، فطرب اللسان يفعل لطعم معين ، ووسط اللسان يفعل لطعم آخر ، وجوئب اللسان تفعل لطعم ثالث ، وهكذا .

(١) ينوس مية سالمة من الناس أي : يظل يائساً مانعاً من رحمة الله ويحجزه ركفور هيفة مبالغة من الكفر أي قلب الشكر على النعم ، وكما أن النعم هو حدها وعدم شكر الله عليها . [مختصر تفسير الطبري] تصرف

كل ذلك في عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة في التركيب

وكل «حلمة» من مكونات اللسان لها شيء تحس به ؛ وبذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول : إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوق الحوى - مثل الكفاية - فيقول : إن السكر المحلاة به مضبوط .

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها مبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول : إنها حرارة طبيعية . وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقل - إنه مصاب بالهبروط - وإن ارتفعت يقال مصاب بالحُمى .

وهذا قياس للحرارة بالجملعة لجسم الإنسان ، ولها المنافع الخاصة بها . ويمكن كل عضو في الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدي عمله

والكبد إن قلت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدي مهمته وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة : وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لاحتجرت العين ، وحرارة الأذن ثمانى درجات .

وأنت لا تستطيع أن تأتى بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة لجسم الإنسانى .

وهنا يقول الحق سبحانه .

﴿وَلَبَّسْنَا آدَمَ الْإِنْسَانَ﴾ (١)

[هرد]

والنطق هو الإدراك^(١) ، لا للأكل ، فأنت حين تشتري فاكهة تقول لك البائع : «تمضّل دق» فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

(١) الإدراك يكون بالحواس ، وبالإدراك يحصل الانفعال بالوجدانى ، وعن طريق الوجدان يكون الاختيار ، فالذوق هو تناول الشيء لإدراك طعمه فيحصل الاختيار .

فالدُّوق - إذن - هو تناول الشيء لإدراك طعمه.

والنعمة^(١) حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُرَع منه ، هما يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس .

والنعمة مهما قُتت فالإنسان يستطيعها ، وإن نُزعت منه فهو يتوس كفور .

واليأس : هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك تفرل ، ولو كان يقدر عليه لا يئس .

والمؤمن لا يئس أبداً ؛ لأن الله سبحانه هو القائن .

﴿ .. إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحٍ^(٢) اللَّهُ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

اليأس - إذن - هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحقيقه

والذي يئأس هو الذي ليس له إله يركن إليه ؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول : «إن الله سيُعوضني خيراً منه» .

أما الذي لا ييمان به بإله فهو يقول : «إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى» .

(١) نعمة ينعّم فهو ناعم ، من باب نرح ، ومأتي من باب كرم ، نعمة ونعمة بفتح النون ، كسر الميم ونعماً كان في رعد من العشب ، وفي مع به . والنعيم ما يتلذذ به من مأكّل وملبس وصحة ، بقول الحق ﴿ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٦٦) ﴾ [يوسف] أي أنى فيها كل نعيم . والنعمة بالفتح النعيم ، وتطلق على ما يمنح به الإنسان من وسائل الرفاهية . يقول الحق - ﴿ وَنُؤَيِّدُ الْكَافِرِينَ أَزْوَاجًا نَعِيمًا (٦٥) ﴾ [المرمل] في الدنيا ، والنعمة بكسر النون مصدر ينعّم النعيم . وتطلق على الدع والخير الذي تمنح به الإنسان يقول الحق ﴿ إِنَّكَ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصِيهَا (٦٨) ﴾ [أنحل] القاموس القويم بتصرف

(٢) روح الله . رحمة رمرجه ، ولطفه بالعباد بإزالة كربهم [كلمات القرآن] بتصرف . واليأس هو انقطاع الأمل ، ولا يقطع أمل الإنسان في الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان تكفراً .

والإنسان لدى بُسْرَقٍ منه جيبه قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده في
المتز عشرة جنيهاً فهر يحزن قليلاً على الجنيه المفقود

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريد ، ولكن
حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريد فلا تحده يائساً قانطاً

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عيها ، وإن
سُئلت منه ، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلها لحكمة ^(١) .

والحق سبحانه وتعالى يقول هن :

﴿ وَلَقَدْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ۖ ۝٩﴾ [هود]

وتحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم عليه السلام - وهم
كثيرون ، مهم المؤمن ، ومنهم الكافر .

وهنا تأتي كلمة «الإنسان» على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى
يستثنى المؤمن في موضع آخر حين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَعَصِرَ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ۖ ۝٣﴾ [العصر]

و«الإنسان» مفرد يدل على الإنسان في كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع
الإنسان من آمن به .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم

(١) من مذهب الرومي قال قال رموز الله ﷻ ، «حجياً لأمر المؤمن ، إن امره كله خير ، وليس ذلك لأحد
إلا للمؤمن» ، إن أصابه سوء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابه ضراء صبر فكان خيراً له ، أخرجه مسلم

في صحيحه (٢٩٩٩)

(٢) العصر الهلاك والعصان

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو في حسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج بحميه من الرلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه العرائز لمهام أساسية ، فعززه الجوع فجعل الإنسان يطيب الطعام ، والعطش أراد الله سبحانه وتعالى لينته الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء .

وغريزة نقاء الروح تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هي التي تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات .

و هو سبحانه وتعالى هو القائل عن السادين عن استكشاف آيات الله تعالى :

﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

والباحث العلمي التجريبي المسمى ينظر في ظواهر الكون ليستطيع أسرار الكون .

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأجبار الناس .

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار انتماءات الكون ، ولكن الذين والخلق هو الذي يوجهه حب الاستطلاع

(١) وكأين بمعنى لوكم ، وآية هـ عبارة وحجة ، كالشمس والقمر وغيرهما من آيات الله سبحانه وتعالى ، يرونها ويعاينونها ولا يتفكرون فيها [مختصر تفسير الطبري] .
وفد أخرج أبو الشيخ الاصبهاني عن الصحاح في تفسير معنى الآية يعني شمسها ودمرها وبجودها وسحابها ، وفي الأرض ، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والمصور ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٩٣)

إذن: فالقرائن لها مهمة يجب ألا تنفصلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليملئ من القرائن ويوجهها إلى مهامها .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾^(١) .. (١٢) [الحجرات]

أى: لا تتبعوا العورات^(٢) ؛ لأننا لو أبحنا لواحد أن يتتبع عورت الناس ؛ لأبحنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته .

وحين منع الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من تتبع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَمَنَّى أَدْقًا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ تَرَفَعًا مِنْهُ ﴾^(٣) [مرد]

وكلمة «لرع» تعيد أن الإنسان حريص على ما ربه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسّر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

واللرع يعنى : استمسك للزوع منه بالشئ المتزوع

ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة آل عمران:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن

تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

(١) لا تجسسوا أى لا تتجسسوا، حذفت منه إحدى التامين - لمرض بلاغى - وأمراد: عدم تتبع عورات

الناس ومعانيهم بالبحث عنها [تفسير الخلالين] يتعرف

(٢) العورة ما يستتره الإنسان من جسمه حياءً والعورة . الخلل والميب . واليت عورة : أى فيه خلل

وقوله ﴿ يَقُولُونَ إِنَّا بِرَأْسِنَا غَارَةٌ ﴾^(٣) [الأحزاب] أى ليها حلل يخشى أن يدخل الأعداء منه .

وذلك ليرجعوا عن الجهاد . القاموس القويم باختصار

كأن الموجود في الملك يتشعث به جدد.

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَرَعْنَاهَا﴾ ^(١) **﴿مِنَهُ إِنَّهُ لَيَنُوسُ كُفُورًا﴾** [هود]

وفي نفس السورة يأتي الاستثناء * فيقول الحق سبحانه:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ^(٢)

[هود]

ومعنا في لها بالخراطير من بعد ذلك.

ويصول الحق - سبحانه وتعالى في المقابل لمن تُرعت منه الرحمة

والينوس الكفور:

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَنَا بَعْدَ ضَرَرَةٍ مَسِيئَةٍ لَيَقُولَنَّ﴾ ^(٣)
﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ^(٤) **﴿١٠﴾**

وهنا نجد الصراء هي لمجودة ، وانعماء هي التي تطرأ ، عكس الحالة

الأولى ، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر هي الموجودة.

(١) المقصود الرحمة التي أنعم الله بها عليه.

(٢) النعماء أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان، فتكون ملازمة له.

(٣) الصراء أثر الفقر والشدة وقال تعالى ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْءَاءِ وَحِينَ قَاتُوا﴾ ^(١٧٧) **﴿الْبَقَرَةُ﴾**

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرْ لَهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالْفُرْءَاءِ﴾ ^(١٧٧) **﴿الْأَنْعَامُ﴾**

ومعنى أصابته، [تفسير الجلالين] ومحتمل تفسير الطبري [بتصرف]

(٤) السيئات لمصائب والشدائد والعسر

(٥) فرح، صيغة مبالغة من الفرح، وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن].

(٦) مسرور حبيبه مبالغة من الفرح، أي كثير الفرح بما مال من الناس، ومسور حتى الناس بما أوتى، ومير

شاكر لله تعالى على نعمه [محتمل تفسير الطبري، وتفسير الجلالين] بتصرف

فالتزج في الأولى طراً على رحمة موجودة ، والتعماء طرات على ضراء موحودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذي تتنعم به النفس .

لكن التنعم والألم قد يكونان في انفس ، ولا يصح أى منهما على الإنسان ، فإن نصح على الإنسان أثر النعمة يقل فيها «نعماء» ، ون نصح عليه أثر من اضر يقال : «ضراء»

وهنا يقول الحق سبحانه .

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّهُ لَيَقُولُنَّ قَدْ هَبَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي . . .﴾ (١٠)

[هود]

ولا يعطن من يقول ذلك إلى السُّبُّبِ الذي أذهب السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها

ولو كان القائل مؤمناً يقال : ربح الله عنى السيئات

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يفرق في طرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ . . . إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ (١٠)

[هود]

وكان الفرح بالنعمة أهله ^(١) عن النعم ، وعمن تزج منه السيئة .

وأما العجر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب ^(٢) ، وقد تجدد

(١) الدهول عن الشيء ، أن يشغلك عنه أمر آخر . دحل عن الشيء ، تركه على عمد أو غفل عنه . أرسب لشغل [اللسان، مادة دحل]

(٢) مناقب : جمع منقبه ، وهي كرم الفعل وكريم المالك . حَسَنَ الخلق كريم المعال . [اللسان] بتصرف

إنساناً يصاحِر على إسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يمكنها لأحر.

ونحن نعلم أن التمييز لفرد ما يوجد في المجتمع ، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتمييز

ولذلك عهد النبي ﷺ يقول: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»^(١)

وفي إحدى المعارك مجده ﷺ يقول:

«أنا النسي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٢).

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظفوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكه ﷺ بشجاعته أعلن

«أنا النسي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٣) وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواضعهم.

وسنجد المتصارعين أو المتنافسين ، واحد منهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليبهز ثقة الطرف الآخر بنفسه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٧٦/٥) من حديث أبي هريرة . وصد الحاكم في مستدركه (٦٠٤/٢) وصحيحه من حديث جابر بن عبد الله بنظف «أن سيد ولد آدم ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة

(٢) سب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب ، لا إلى أبيه عبد الله ، عهد كل عبد لمطلب مشهوراً شهره فاعره شائعة ، وكان سيد أهل مكة . وكان مشهوراً عندهم أن عبد لمطلب شُرَّ بالنبي ﷺ ، وأنه سيظهر ، وسيكون شأنه عظيماً ، فأورد النبي ﷺ تذكيرهم بذلك وتبهيهم بأن ﷺ لا يد من ظهوره على الأعداء ، وأن العاقبة له تنصير نفوسهم بقية النور في شرحه صحيح مسلم (٣٦٠/١٢)

(٣) ودلت أن رجلاً سأل البراء بن عازب أمرتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء . ولكن رسول الله ﷺ لم يهر ، وكانت هوازن يومئذ رساء ، وإننا لما حمينا عليهم انكشفوا ، فأكب على العمام فاستقلنا بالسهم ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بقعة البيضاء ، وإن أب سميال بن الحارث أحد بلجلماء ، وهو يقول: «أنا النسي لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخاري في صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب.

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التي يتشاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة التكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولرد كل شيء إلى الواهب

ومثال ذلك في القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام:

﴿وَمَا فَعَلْتَهُ^(١) عَنْ أَمْرِى . . (٨٢)﴾ [الكهف]

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صوره القرآن في قول فارون

﴿إِنَّمَا أُرِيتُهُ^(٢) عَلَىٰ عَنِيٍّ عِندِى . (٧٨)﴾ [القصر]

وكان مصيره هو القول الحق

﴿فَخَسَفْنَا^(٣) بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ . (٨١)﴾ [القصر]

ولذلك قلنا : إنك تحس كل نعمة عنك بقولك عند رؤيتها : باسم الله ما شاء الله ، لتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتسقى عين الواهب حارسة للنعمة التي عنك

(١) المقصود ما فعله الخضر عليه السلام من ' شروق السمكة ، وتخل العلام ، وإقامة الجدار الذي كان سيهدم

(٢) أُرِيتُهُ . أى اكتسبته . يقصد المال الذي ورثه الله إياه ، ولكن فارون ادعى أن علمه هو الذي جذب له المال ، فكفر بنعمة الله عليه . فاستحق عقاب الله

(٣) الخسف : حفر الله الأرض . جعلها تهبط وتعمود يقول الحق : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ . . (٨١)﴾ [القصر]

[القصر] وخسف القمر . نقص نوره ، وخسوف الشمس يقع في أواخر الشهر العربي في أيام المحاق ، وسببه توسط القمر بين الأرض والشمس ، فيحجب القمر الشمس . فإن كان الخسوف كيباً كان خسوفاً ، وإن كان جزئياً كان كسوفاً . وجيء في اللسان الخسف : سارخ الأرض بما عليها أى ابتلاعها ما فوقها . وخسف الله به الأرض أى أغايه فيها . القاموس القمري باعتصار

أما حين تنسى الواهب قلن تحفظ ثقت النعمة بك .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع المرح المسحت عن اشراح الصلوة والسروو بنعمه الله بل طلبه منها في قوله سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ لَبِدْكَ فليفرحوا .. ﴾ (٥٨) ﴿

[يوس]

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون المرح المسحت لأنفسه الأسباب ، والملازم له ، وإلا كان من المرحمين الذين دمهم الله تعالى

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١١)

وكلمة ﴿صَبَرُوا﴾^(١) هه مواهقة للأمريين اللذين سبق في الآيتين السابقتين ، فهناك برع الرحمة ، وكذلك هناك الدعاء من بعد «صبراً» ، وكلا الموقعين يحتاجان للصبر ؛ لأن كلاهما مقلود للأحداث التي تمر به ، وعليه أن يصبر للمحظية بحكمة القادر سبحانه

وبداً الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء ، فقال جل وعلا

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا .. ﴾ (١١) ﴿

[هود]

(١) معال من موم موسى أنهم صبروا ، لا تفرح إذ الله لا يحب الفرحين (٢٠) ﴿ [القصص] أي
الأسريين البطريين الذين لا يعترفون بحجة الله عليهم . وقال تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا
بما آتاكم .. ﴾ (٢٢) ﴿ [الحديد]

(٢) والذين صبروا عاصياً ، وصابروا حالاً ومستعلاً هم أهل الفلاح مستضافاً لقوله تعالى ﴿ يساهب الدين
اصبروا صبراً وصابروا ورابطوا الله فاعلموا قتلهم ﴾ (٢٠) ﴿ [آل عمران]

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل كل البشر ينطق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والمحر دون تذكُّر واجب النعم سبحانه .

ولكن هذا الاستثناء جاء ليُطَمِّش الذين صرخوا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم في ذواتهم ، لا من الكافرين ، لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن فالصبر معناه خدُّ النفس بحيث تُرصى عن أمر مكروه برئ بها " ولا أمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

* أمر لا غريم " لك فيه كالمريض مثلاً .

* أو أب يكون لك غريم في الأمر ، كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفي هذه الحالة تشعل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة اليل من هذا العريم ، أكثر مما تتأجج في حاله عدم وجود العريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفي حاله الرعة في الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حاله عدم وجود الغريم

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لنا في الصبر حسب هذه المراحل ، فليبدأ بقمان يقول لا يشد .

(١) يكون الصبر سطوياً أيضاً عند امتناع الله سبحانه لا يبدل المؤمن من أي شيء الخيرة إلى أسوأ الأضرار سألوا رسول الله ﷺ عطفهم ثم سأله فأعطاهم ، حتى بقا ما عده ، فقال لهم حين أتوا كل شيء بيده ، أما نحن عدو من خبر من أخرج عنكم ، ومن يستعقب بقعة الله ، ومن يستعقب بقعة الله ، ومن يصبر بصره الله ، ومن أعطى خد عطاء خير أو أوسع من الصبر أعطى عليه ، خرحه البخاري في صحيحه (٦٤٧) ومسلم في صحيحه (١٠٥٣) كتاب الزكاة

(٢) العريم الدائن ، والدائن ، وجمع عريم ، والمرد عريم هو الخصم أو العدو [اللسان] ولعجم قوم من أسفوف

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ ١٣٥٧ ﴾

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٧) [لقمان]

وفي موضح آخر يقول الحق سبحانه .

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤٢) [الشورى]

وفي هذه الآية «الام» التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوى ، لأن لى فيها غريماً بشيراً غصصى .

فساعة أرى من صبرنى أو أهانى أو سرقنى أو أساء إلى إساءة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وغزيرة

أما فى الحالة الأولى - حالة عدم وجود غريم - فالحن سبحانه يكفى فقط بالقول الكريم

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ (١٧) [لقمان]

ولكنه سبحانه أضاف فى الآية الأخرى «اللام» لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه فى حالة وجود غريم طلب العفوان ، فيقول سبحانه

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤٢) [الشورى]

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على أنواعهم المختلفة .

وهنا يقول سبحانه .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾ (١١) [معد]

وما دام صبر ، فالصبر لا يكون إلا على يذاء ولكن إيلاك أن يكون الإيذاء من خصمك فى الإيمان ، أو من خصمك فى ما دون الإيمان ،

(١) والصبر ما صبر على المأمورات أو صبر على المحذورات ، أو صبر على المقدرات ، فمن نوافرت به هذه لفصاح كان من نبل العزم وعزم الأمور معروماتها التى نمرم عليها لوجوبها [تفسير الحلايين]

صدراً بك عن شاطئك في طاعة الله سبحانه ، لأن الصبر لا يعني أن تكبت غضبك وتُعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك في الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلّك وحقدك ، بمعاشة الإيمان الذي يُخفف من علواء الغضب .

ولتكسر حدة العِلّ أَسَاحَ لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدي على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل في حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطلاقاتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل يقول عز وجل .

﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ۖ﴾ (١٠٩)

[القرة]

ولكن هناك القادر على التحكم في نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ ۖ﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ ، أن الغيظ موحّد ، لكن صاحبه لا يتحرك بترويع انتقامي . مثلاً تقول : «كظمت الغيرة» لأن حامل الغيرة لو لم يكظم الماء فيها ، لتعلّت الماء منها ، أي أنه يحبس الماء فيها .

وكظم الغيظ درجة ومسرلة ، قد لا تكون إيجابية ، لأن الغيظ ما زال موحوداً ، ولذلك تأتي مرحلة أرقى ، وتتمثل في قول الحق سبحانه .

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۖ﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

(١) الكاظمين الغيظ : الخاضعين لغيظهم في قلوبهم [كلمات القرآن]

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفقه ، دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يجبره من الخور العين ما شاء» أخرجه أحمد بن مسدد (٤٤٠ / ٣) وأبو حنيفة في سنن (٤٧٧٧) والترمذي في مسند (٢١٠٢ ، ٢٤٩٣) وقال حسن

عريب

أى : أن تحرج العبط من قلبك وتتسامح

إذن : عانت هنا أمام مراحل ثلاث :

أن ترد الاعتداء عليك بمثله ، والمثلية هي رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق ، فمن صفعك صفقة ، كيف تستطيع أن تصط كمينة الألم في الصفقة التي تردها إليه ؟

إن المحكم هي رد الاعتداء هو الغضب ، والتغيب لا يقيس الاعتداء بمثله ، فلا يحقق العدل المطلوب ؛ لهذا يكون الصبر حياً مصداقاً لقوله تعالى

﴿ .. وَلَنْ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (٢٦)

[الحج]

فإن أزدت من قوة هفعتك تكون معتدياً

ولعلنا نذكر مسرحية «تاجر السدقية» لشكسبير ، وبطلها هذا لتاجر اليهودي الذي أقرض رجلاً مالا ، وكان صكُّ القرص يمرض أن يقطع اليهودي رطلاً " من لحم المقرض إن تأخر في السداد

وتأخر المقرض في السداد ، وأراد المراهبي اليهودي أن يفتطح رطلاً من لحم المقرض ، وعرض الأمر على القاضي ، وكان القاضي رجلاً حكماً ، وأراد أن يصدر حكماً يتلمس فيه لمعالة ، فقال القاضي : لا مبيع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل ؛ هات السكين ، واقطع رطلاً واحداً من زيادة أو نقصان ؛ لأسأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت وبعض السكين ، وكذلك إن قصعت من اللحم ما يقل عن الرطل ، فستقطع البقص لك من لحمك أنت عقاباً لك .

(١) الرطل معبر يوروبه أو يكال ، يختلف باختلاف البلاد ، وهو في مصرات عشرة باقة ، ولأرويه اثنا عشر درهماً . والجمع أرطال . [المعجم الوسيط]

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾^(١) أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ^(٢) . . ﴿٢٢﴾ [الرور]

هنا أسماء^(٣) أحوك إليك سيئة ، فما أن ترد بالمثل ، أو تكظم لعيض أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسبين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلقت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟ إذن : فما دُمت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنه ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقك ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٢٢) [الرور]

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ معمرة الله تعالى ، وعرف ذلك فأنب تترك عقاب المصيبة والانتقام من لربك ، وعبد التسليم له واجبة .

(١) صبح عن رجل أمر من عنه أو عفا عنه ولم يؤاخذ به عليه قال تعالى ﴿وَالْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ وتفسيره ﴿يَنْفِرُوا بِإِذْنِ اللَّهِ غُفُورًا رَحِيمًا﴾ [التعاين] وقال تعالى ﴿وَالسَّاعَةَ أَتَىٰ مَا صَفَحَ لِمَنْ صَفَحَ الْجَبَلِ﴾ [الحجر] [بلساناً مختصراً]

(٢) تمام الآية ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكُمْ أُولَئِي الضَّلَالَةِ﴾ ولغة أن يؤتوا أُولِي الضَّلَالَةِ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ [الرور]

وبدلت هذه الآية من شأن أي بكر لصديق الذي حلف أن لا يعصى ابن خاتمه مطمح من أثاث ما كان يعطيه من قبل من الصفة مسبب من تكلم به في حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بجهادته (إفك) فأنزل سبحانه الآية ، فقال أبو بكر والله إني أحب أن يعمر الله بي ، فرجع إلى مطمح العفة التي كانت عليه وكان لا أثر لها منه بدأ . رجع تعبر من كثير (٢٧٥-٢٧٦) وأسباب الرسول لنواحي (ص ١٨٥) ط : المكتبة الثقافية

(٣) أسماء : فعل السوء ضد أحسن ، وأسم العمل لم يحسنه ، واليسى : اسم داخل من أسماء ، السوء : الفحش والذنوب ، واليسى : عذبة السوء بمعنى القبيح ، واليسى : ما يقيح عنها ، ويسرى : ستره ، الفاء من القوم : باحتساب .

ولو اقتضت أنت من أساء إليك ، فقصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قسرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشق ؛ لأبك تركته إلى قوة القوى . وهكذا يالو البعالي عن المسميء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله سبحانه وتعالى - في حانه .

وهناك من يقول : كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعمل ذلك بأنه أمر ضد النفس

وتقول : إن الإحسان إلى المسميء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً^(١) أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أراح أن نرد الهدوان بمشبهه ، ثم حث المؤمن على أن يكظم عيظه ، أو يرتقى إلى لعوه وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاعات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك . ولله المثل الأعلى ومسرّه سبحانه عن كل مثل . إن أردت أن تطبق الأمر عسى ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدى على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدى عليه .

ومن يقول : كيف يكلفني الشرع بأن أحسن إلى من أساء إلي ؟

يقول له . تذكر قول الحسن البصري رحمه الله عنه^(٢) «أبلا أحسن لمن جعل الله في جاني» .

ولو طبق العالم هذه القاعدة بينين وإخلاص نصارت الحياة على الأرض حجة معجزة ، التسامح ، قوامها القرب ، ومتهجها الحب .

(١) لأن التكليف إلزام ، والعفو من التفضل . وهي التماثل بالتفضل ارتقاء

(٢) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، قاضي ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمانه . وهو أحد أعمدة الفقهاء السالك ، ولد بالمدينة ٢١ هـ . وشبه في كنف عيسى بن أبي طالب ، كان يدعى على الخلافة بأمرهم ويهاجم ، سكن البصرة وتوفي بها عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً .

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٣٦٣

وهنا في الآية التي نحن بصدد حواصرها عنها يقول الحق سبحانه وتعالى :
﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١)
[هود]

وإن تمناهل أحد : ولماذا بالون المغفرة ؟

يقول : لأنهم صبروا وغفروا ؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من
عنده ، لأنه صبر على الإساءة ، وغفر لمن أساء ، فلا بد أن يشبهه الله
تعالى ، لا بالمغفرة فقط ، ولكن بالأجر الكبير أيضاً .^(١١)
ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ
صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا أَلَوْلَا أَنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢)

وهنا نجد الحق سبحانه يأتي بصيغة الاستفهام في قوله تعالى :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ (١٢) . [هود]

وهو استفهام في معرض النهي .

ولله المثل الأعلى - أنت قد تقول لانتك لتحثه على الاجتهاد «لعلك

(١١) ومغفرة الله في مقابل صبر العبد وغفرانه لإساءة المسيء محدود ، بخمود طاعة البشر ، أما عفو الله عنه
شؤون الكريم وهو الحكيم ، لأن عفو مصحوب بالأجر ، والأجر كبير من أكثر وهو الله سبحانه

(٢) وكيل قائم به حافظ لكل الكلمات القرآنية والروايات الصحيحة والآيتين والنسبتين قال تعالى ﴿
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٧) [آل عمران] وقد تعالى ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٦٦) [الأنعام] أي ، حافظ

سُورَتٍ مِنْ فِشٍّ فَلَانَ، وَفَجَوَى^(١) هَذَا الْخُطَابَ ، اسْمُهُمْ فِي مَعْرِضِ
النَّهْيِ ، وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ يَحْمِلُ الرِّجَاءَ .

وَهَذَا تَعْبُدُ أَنْ الرَّاجِي هُوَ رَيْكَ - سَبِّحَانَهُ رَتَعَالِي - الَّذِي أَرْسَلَكَ
بِالدَّعْوَةِ

وَلِذَلِكَ يَأْتِي قَوْلُ الْحَقِّ سَبِّحَانَهُ مُبَيَّنًا : لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ
هَؤُلَاءِ الْمُتَعَنِّتِينَ ، الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَخْرِجُوكَ عَنْ مَقَامِكَ الَّذِي مَلَعُ دَائِمًا فِي
التَّأْكِيدِ عَلَيْهِ ، فَأَنْتَ تُوَكِّدُ لَهُمْ دَائِمًا أَنَّكَ بَشَرٌ^(٢) ، وَكَانَ الْمَفْرُوضُ فِيهِمْ أَنْ
تَكُونَ مَطْلُوبَاتُهُمْ مِنْكَ عَلَى مَعْدَارِ مَا أَقْرَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، فَأَنْتَ لَمْ تَقُلْ أَبَدًا
مِنْ نَفْسِكَ إِنَّكَ إِلَهٌ ، لِيَطْلُبُوا مِنْكَ آيَاتِ تُخَالِفُ التَّوَامِيْسَ^(٣) ، بَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِ
اللَّهِ نَعَالِي .

وَبَيَّاكَ أَنْ يَضِيقَ صَدْرُكَ فَلَا تُبَلِّغُهُمْ شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ؛ لِأَنَّ الْبَلَاغَ هُوَ
الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، فَلَوْ ضَاقَ صَدْرُكَ مِنْهُمْ ، وَانْقَصَتْ لِبَلَاغِ الْمَوْكَلِ
إِلَيْكَ ؛ لَأَبْهَمَ كَلِمًا أَلْبَعُوا نَايَةَ كَذِبِهِمْ ، فَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْفٍ
بِزَيْدِ عِقَابِهِمْ بِقَلْبٍ مَا كَثِيرًا .

(١) فَجَوَى الْقَوْلُ مَضْمُونُهُ وَمَرْمَاهُ الَّذِي يَشْجُو إِلَيْهِ الْقَائِلُ وَاجْتَمَعَ فَجَاوُءُ وَفَجَوَى الْعَجَمِ
الرَّاسِطُ

(٢) أَكَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى هَذَا الْمَنْهَى فِي أَحَادِيثَ شَرِيعَةٍ كَثِيرَةٍ جَاءَتْ
- مِنْهَا حَدِيثُ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ : قَدِمَ بَنِي اللَّهِ ﷺ بِبَلَدِيَّةٍ ، وَهُمْ يَأْبُرُونَ الْحِلَّ ، يَمُوتُونَ وَيَأْمُوتُونَ
النَّحْلَ ، فَقَالَ مَا تَصْعَقُونَ ؟ قَالُوا كَمَا نَصَحَهُ قَالَ لِمَنْكُمْ لَوْلَمْ تَفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ أَمْرَكُوهُ ،
فَتَضَعُ . قَالَ هَذَرُوا ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : إِنْ أَنَا بَشَرٌ ، إِنْ أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِنْ
أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِي ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٢٦٢) كِتَابُ الْفَضَائِلِ
- وَهَذَا نَسَبٌ مِنْ عَالَتِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ ، وَأَعْصِي كَمَا
يَعْصِي الْبَشَرُ ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ يَسُّ لَهَا بِأَهْلِهَا ، أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طُهُورٌ وَرِكَاتَةٌ
وَقُرْآنَةٌ يَتْلُوهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٦٠٣)

(٣) التَّوَامِيْسُ : الْعَوَانِي الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي يَحْضَعُ لَهَا الْكَوْنُ

وكلمه «ضائق» اسم فاعل ، ومعنى أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تحرّج عن مرحلة من المراحل ، مثلاً نقول : «فلان تاجر» أى . أنه قادر على القيام بأعمال التجارة مرة واحدة - أو قليلاً - ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة «ضائق» وهى معترّجى مرحلة لا أكثر من قرط ما قبلوا الرسول ﷺ من إنكار ، وما طألوا به من أشياء تحرج عن نطاق إنسانيته ، فقد طألوا هذا أن ينزل عليه كثر .

وقد جاء الحق سبحانه يذكر مسألة الكثر ؛ ليدلنا على مدى ما عندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركّزت على المال ؛ ولذلك تمنّوا لو أب هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه

﴿وقالوا لو نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ (٢١) ﴿

[لخرق]

إذن : فلم يكن اعراضهم على القرآن ، بل على من نزل عليه القرآن . وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد حواطرها هنا ، طألوا أن ينزل إليه كثر ، وقد ظنوا أن الثراء سيلهيه هو ومن معه عن الدعوة إلى الله تعالى

(١) الضيق (بالكسر) والمنح لصاد ومكون الياء ؛ فساد السعة ؛ فى المداينات والمعويات .

وسم الماعن ضائق ، مال معالى ﴿وضائق به صدره﴾ (٢٢) ﴿ [مرد] وموله ﴿وضاق بهم درجا﴾ (٢٣) ﴿ [مرد] أى وجد صيداً فى صدره ، وسه ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ (٢٤) ﴿ [اخبر] ، وموله ﴿ولا تك فى صيق مما يحكرون﴾ (٢٥) ﴿ [سجل] وعرى ، معج الصاد وكسرهما والنعى . ولا يضيق صدرك بسبب فكرهم (القاموس القويم بختصار)

(٢) لمراد بالقريتين مكة والطائف وقد حثفت انعماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود من مكة الوليد بن المغيرة نوعه من ريعه ومن الطائف عروة بن مسعود أو عمير بن عبد بن قيس قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٤٧) : «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البدن كان» .

وسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل^(١).

وهكذا وصح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكبر لا تشعبه ﷺ والكثرة^(٢) لغوياً - هو الشيء المحتتم ، بل كانت المائبة - مثلاً - مليك باللحم يقال لها « مكثرة لحماء » ولكن كلمة « الكبر » أطلقت على شيء الذي هو ثمن لأي شيء ، وهو الذهب .
ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالنَّعْصَةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣١)

[التوبة]

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)

(١) ذلك أن عبد بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده ، يا معشر قريش ، ألا أقوم بين محمد بأقله وأعرض عنه أموراً لعله يصيب مصيباً فعطف أيها السادة ، ونكف ع^٤ ظلال^٥ بلي يا أبا الوليد ، ثم ليه عكله . هام إليه عبد حتى جلس بين رسول الله ﷺ . يقال : بين آخى ، إنك ما حيث قد علمت من السطة (الشرف) في العشيرة والكنان في السب . وإنك قد انتهت قومك بأمر عظيم . فمعت به حسانهم ، ومعيت به حلامهم ، وعبت به ألهمهم وديهم وكفرت به من مفص من سافهم ، فاسمع مني أمر من عادت أسروا عثرها لعلك تعجل منها بعضها . فعاد له رسول الله ﷺ قريش يا الوليد اسمع . قال : يا بني حتى ، إن كنت إني مردي جئت به من هذا الأمر ما لا أحصه لك من أموال حتى تكون أكثر ما مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوداك عفت حتى لا يقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً يمكنك حبيب حتى إذا مرع عتد .
قوله ﷺ : « أهدم رغبت يا الوليد »^٦ ما نسم حال فاسمع بي حال أهدم ، فهد^٧ وحم (١٠) برين من الرحمن الرحيم (٢) كتاب فصيل إياه قرقنا عرب لغزوم بطون (٢٦) [فصيل] ثم مفص ﷺ فيه بقرؤي عليه ، ففص سمعها منه عنة أنصب لها ، وألقى يدت حصص ظهره مستنداً عليهما يسمع منه . فلما عاد إلى قومه قال لهم : تخلو بيني هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعمدوه ، هو الله ليكون بعوله الذي سمعتم منه . يا عظيم ، من نصبه العرب فقد كفيتهموه بميركم ، وإن يظهر على العرب فملككم ملككم ، وعردتكم . وكتم أسعد الناس به [من سيره إلى لابن عبد ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ - شعرب] .

(٢) كنز المال بكثرة كثيرًا ، جمعه وادخره . قال تعالى - ﴿ عَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَبُذِلُوا مَا كُنْتُمْ يَكْنُزُونَ ﴾ (٣١) [توبة] وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالنَّعْصَةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣١) [التوبة] وانضمم رجع إلى بعضه لقرينها من الذكر . ولأنها أقل فيه ، من يحرم بها يسجل بالذهب من باب أولى ، [القاموس لترويم]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ،
فالرزق الغير مباشر هو ما تستفح به ، طعاماً أو شرباً ، وهناك شيء يأتى
لك بالرزق الغير مباشر ؛ لكنه لا يُعفى عن الرزق المباشر المستمر^(١)

فلو أن إنساناً فى صحراء ومعه قنطير^(٢) مقطرة من الذهب ،
ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب ؟ ولو عرض عليه
إنسانٌ أحر رقيق خبز وشربه ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على
البيع ، وها لا يكون التقييم أن قطار لذهب مقابل لرقيق وشربة الماء ،
ولكن قطار الذهب ها مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة

إذن معنى كلمة " كثر " هو بعد من الذهب والمصنعة مجتمعاً ، ويقال
عنه بالعامية عندما فى مصر . " اتقود تحت البلاطة " ، ولكن إذا أدنى صاحب
هذا القدر حق الله تعالى فيما دَّخره ، لا يُعْتَر كَثُراً ؛ لأن الشرط فى
الكثرة أن يكون محبباً ، والزكاة التى تُحْرَج من المال المدَّخر توصح للمجتمع
أن صاحب المال لا يُخفى ما عنده .

ولذلك لا يُسَمَّى الكَثْرُ إلاً للنسبة للحنم وممنوع منه حق الله تعالى ،
وإن أدنى حق الله سبحانه فقد رُفِعَتْ عنه الكثرية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى
يقول

﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرِهِمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) ﴾

[التوبة]

(١) الرزق المباشر بمعنى ما يتفح به الخواص من ضرورة الاستمرار ، والغير مباشر تقتضى به الخواص بصعوبة الحياة
والضرورة

(٢) قنطير جمع قنطار ، وهو مقياس مختلف المقادير عند الناس ، وهو يصير فى زماننا مائة رطل ، وهو
٩٢٨.٤٤ من الكيلو جراماته ، وقد يقصد بالقنطار : المال الكثير . [المعجم الوسيط]

ومن هذا القبول الكريم يفهم أن من يملك مالا ويؤدي حق الله فيه ،
لا يُعتبر كُفْراً ، ، وحين تُنقص الركة المال في ظاهر الأمر ، فهي تدفع
لإنسان بي أن يُحسن استثمار هذا المال ، حتى لا يفقده على مدار أربعين
عاماً ، يحكم أن ركة المال هي اثنان ونصف في المائة ، ولذلك يحاول
صاحب المال أن يُثْمَره ، وهو بذلك يُهيء فرصة لغير واحد وفادراً لأن
يعمل ، وبذلك نقل البطالة

و قد تكون أنت صاحب المال ؛ لكذلك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ،
وتشارك من يفهم في التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل
لن لا عمل له وتقدر على إدارة العمل .

هذه هي إرادة الحق سبحانه وتعالى في أن يجعل من تكامل المواهب مائة
وريدة ، تكمن مواهب الوجد النقيود ومواهب الجهد ، وبين الواحد
والجهد بشأ الحركة ، ويفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب
الربح حسب العرض والطلب ، لأن كل تبادل إني يحصع لهذا الأمر
العرض والطلب - لأن مثل هذا التعاون بين الواحد والقادر يتبع سلعة ،
والسلعة لا هوى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشتري السلعة لهما
هوى ، فمالك السلعة يرغب في البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب في شراء
السلعة يرغبها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى بها

وفهم العرض والطلب هو الذي يتحكم في السعر ، فهذا موارد

(۱) ابن القریظی فی منہجہ (۴ ۳۰۵) • مختلف العلماء علی هذا لندی أدیت رکاتہ ہل نسعی کرۃ ثم لا ، فقال قوم نعم ورواہ أبو النضی عن جملۃ بن ہبیرۃ عن علی بن رضی اللہ عنہ قال علی أربعہ آلاف صلوٰۃ بها حقۃ ، وما کثر ہو کثر أول أدیت رکاتہ ، ولا یضح .
 وقال میں عنہ ما أدی رکاتہ عبس بکمر ، وان کان تحب سمع رصبی ، کل ما سم نود کانه فهو کسر
 رزی کان ہوی الارطی . وشلہ عن جابر ، وهو الصحیح .

في ميزان الاقتصاد .^(١)

وعلى سبيل المثال إن عُرِضَت للحوم سعر مرتفع ، فكثيره الدات في النفس البشرية تدفع عبر القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقني صحياً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التي يقدر على ثمنها ؛ لأن اسلعة هي التي تتحكم ، أم إذا تدخل أحد في سعر السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرج له لسوق لاستثماره ، حينئذ تفتقر قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعته .

وقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية :

﴿لَوْلَا^(٢) أَنزَلْ عَلَيْهِ كَثْرًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ..﴾ (١٢) [هود]

فكلمة «لولا» - كما نعلم - للنفي ، وهم ثنوا الكثر أولاً ، ثم طلبوا مجيء ملك ، وكيف ينزل الملك ؟ أينزل على خلقه أم على غير خلقه بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ..﴾ (١٤) [الأنعام]

(١) قصد في أمره يقصد كضرب مقصداً احتد به وسلك سلكاً ومقاصاً ، مثل قوله تعالى : وقاصد في مشيك (١٠١) [القصاص] أي عند وتوسط بين وفاد ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ (٣٠) [القصاص] .
معادل غير منحرف يقول الحق ﴿فَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ (٣٠) [المائدة] ولاقتصاد لأن أصبح عبداً له مناجاة ، وهو في ذمة المال ، ولا يخرج التعريف الحديث عن ما ذهب إليه اللغة ، وأشار به الشراء الكريم (القاموس العربي الحديث) في مادة الاقتصاد (نظام)

(٢) لولا حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب بوجود الشرط وقد تستعمل كأداة عرس وتخصيص مث (هلاً) فتختص بالدخول على فعل انصارع في مثل قوله تعالى ﴿لَوْلَا سَخَّرَ لَكُمُ اللَّهُ لَمَلَكُمْ تَرَعُونَ﴾ (١٦) [الحمل] وتدخل على الفعل انصاع الذي في تأويل انصارع مثل قوله تعالى ﴿لَوْلَا أَنزَلْ عَلَيْهِ كَثْرًا﴾ (١٢) [هود] أي لولا ينزل عليه كثر وقوله تعالى ﴿لَوْلَا نُفِثَ فِي أَعْيُنِ قُرَيْشٍ﴾ (١٣) [المناقون] أي لولا يؤخرون . [القاموس العربي] انصرف

وإن نزل الملك على هيئة رجل فكيف يتعرفون إلى أصله كملك ؟
وهذا غباء في الطلب .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۚ ﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْعَمِينَ لَنُتِلَّكَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۚ ﴾ (٩٥) [الإسراء]

ولو أنزله الحق سبحانه ملكاً لسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ،
وسوف يلتصق بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس
وسوف يكذبونه أيضاً

وهنا في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها يقول الحق سبحانه رداً لهم
عن هذا لعطب : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ ﴾ (٩٦) [هود]

وهذا الكلام موجه من الله سبحانه للرسول ﷺ ليُلْقِيَ الحجة التي يرد بها
عليهم ، وقد قال لهم الرسول ﷺ عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب
غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التي طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا
على تكذيبهم ! فكل الحق سبحانه بهم^{١٧}

إذن . فالعناد والكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق
سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ، إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ ﴾ (٩٩) [الإسراء]

(١٧) النذير : الرسول المُنذِر بالعذاب . قال تعالى . ﴿ أَوْ حَسِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ ﴾ [الأعراف]

(٢٠) وفي هذا يقول سبحانه ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مِّنْهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُضْمِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ﴾ (٩٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ وَأَنصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٠٠) [الأنعام]

أى أد الآيات التى صلسها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ، لأن
الأوليين قد كذبوا بها ، ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله ﷺ هذا بقوله

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ ۝١٦ ﴾ [هود]

وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالذِّكْرُ والنبأ^(١) .

وتنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ .. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٧ ﴾ [هود]

وانت حين توكل إنساناً فى السع والشرء والهبة والنقل ، وله حرية
انتصرف فى كل ما يحصنك ، وترقب سلوكه وتصرفه ، فإن أعجبتك طللت
على تمسكك بتوكيله عنك ، وإن لم يحصنك تصرفه فأنت تُلْمِ الوكالة ،
هذا فى المحال البشرى ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى عَنِ الخلق^(٢) فهي
باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ ۝١٨ ﴾

وَأَدْعُوا مَن أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٩ ﴿﴾

ومى قور الحق سبحانه وتعالى هنا بيان للوْنِ احر من مصادمة الكافرين
لمسح رسول الله ﷺ والإيمان به ، فقالوا : ^(٣) إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ افْتَرَىٰ اقْرَأْ

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ ﴿ إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۝١٥ ﴾ [البقرة] .

(٢) التوكيل الحافظ الأمين والناصر راسخ قال تعالى ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٢٠ ﴾

[آل عمران] ، هو وكالة الله عن خلقه أى : بعينهم بالردق واحتفظ بالنصرة

(٣) لاسراء الحملان الكذب ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۝١٨ ﴾ [هود] أى اخترع القرآن وخلقته من عدم

عنه ، وقال تعالى ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ ۝١٩ ﴾ [هود] أى مکتوبات كما تدعون

[العاموس المومين]

والافتراء : هو الكذب المتعمد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً في لكون

بعد كان الواقع نقياً وأنت قلت فصبة إثبات ، تكون قد حلفت الواقع ، كأن يوجد في الكون شيئاً ما ثم تقول أنت : لا يوجد شيئاً في هذا المكان ، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نقياً .

وكذلك أن يكون في الواقع نقياً وفي الكلام إيجاباً ، فهذا أيضاً كذب ، لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكوني ، فإن احتلفت مع الواقع لكوني صار الكلام كذباً .

والكذب بوعان . نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب حرق واقع واختلاق غير موجود . ويقال : خرفت شيء أي : أدت أدبت لواقع وبدلت فيه

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا^(١) لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ غَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾ (١٠٠)

[الأنعام]

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْلِفُونَ^(٢) بِالْكَافِ^(٣) .. ﴾ (١٧)

[العنكبوت]

أي : تأتون بشيء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

(١) حرق الأمر أو الكلام كله راحته قال تعالى ﴿ وَخَلَقْنَاهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ غَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام]

(٢) ﴿ [الأنعام] أي : سبوا له بينين وبنات كذباً وخرافاً بغير علم [المعجم الوسيط] .

(٣) الإفك : الكذب والافتراء الباطل . وقال تعالى ﴿ . وَفَكَذَّبُوا بِكَلِمَتِهِمْ وَمَا كَانُوا بِفَعُولِينَ ﴾ (٢٠)

[الأحقاف] وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ [البور] .

﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَعْزُبُونَ ﴾ (١٦) [الأنعام]

وحين اتهموا محمداً ﷺ بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم عتبه البسطة ، فأنتم معشر العرب - أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نُسوعكم ، وما دمت قد قلتم . إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله ، ولماذا لا تعزبون مثله ؟

وما دم الافتراء أمراً سهلاً بالسبب لكم ، فلماذا لا تأتون بمثال القرآن ولو بعشر سور منه ؟ وأنتم قد عشتُم مع محمد مد صغره ، ولم يكن له شعر ، ولا بشر ، ولا خطاؤه ، ولا علاقة به برياصاتكم اللغوية ، ولم يراول الشعر أو الخطاؤه ، وبم يشترك في أسواق البلاغة والشعر التي كانت تُعقد في الحاهلية مثل سوق حكاظ .

وإذا كان من لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ، فليكن بديكم - وأنتم أهل قُدرة ودُرنة ورياضة على البلاغة أن تأتوا بعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تعزبون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التي تُقام في أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر آخر في مباراة ليلقي قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لخان تحكيم تُبين مظاهر الحسن ومظاهر السوء في أي قصيدة .

ولو كان محمداً ﷺ قد افترى القرآن كما تقولون - فأين أنتم ؟ ألم تعرفوه مد طمولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول .

(١) يعزبون يكذبون ويضمن الخرف من القرآن بمعنى الكذب أو الظن خاطيء . قال تعالى ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَعْزُبُونَ ﴾ [الأنعام] أي يكذبون أو يُحْسِنُونَ ويعزبون ولا يمسرون سقفة الأمر على دليل اليقين [القاموس القويم - ١٩٩٧/٩]

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ لَكُمْ عُمُرًا
مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦) [يوسرا]

فهَلْ أُنِرَ عن محمد ﷺ أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تَسَارَى
في عكاظ^(١) أو امرئ أو ذي المجاز^(٢) أو المَجَنَّة^(٣) ، وذلك هي أسواق
السلاعة ومهرجاناتها هي تلك الأيام ؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً
إذن : أفليس الذين تنافسوا هناك أندر منه على لاقتراء ؟ ألم يكن امرؤ
القيس شاعراً فَمَلَأَ ؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .
وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة اليشكري ، كما جاء
في عصور تالية آخرون مثل : جرير والفرزدق
إذن : ما تم تعرفون من يقرئون الشعر ومن يعارضونهم من أمثالهم من
الشعراء

إذن : فهاتوا من يشتري مثل سور القرآن ، فإن لم تشتروا ، فمعنى
ذلك أن القرآن ليس اقتراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه هما :

(١) بيت أقدام واستعر . وقال تعالى عن يونس عليه السلام ﴿ قُلْ لَّوْلَا أَنَا كَادَ مِنَ الْمَشْكُوتِينَ ﴾ (١٠١) بيت في
بطنه إلى يوم يعنون (١٠٢) ﴿ انصافاً ﴾ قال سبحانه عن يوح عليه السلام ﴿ قُلْ لَّيْسَ بِيْهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
خَمْسٌ حَامٍ ﴾ (١٠٣) ﴿ المكرب ﴾ وقال تعالى ﴿ قُلْتُ مَسْجِدٌ فِي هَذِهِ مَدِينٌ لَّمْ يَجْعَلْ عَلَى قَلْبِ
يَا هُوسَى ۖ ﴾ (١٠٤) ﴿ طه ﴾

(٢) النباري الساسر والساب

(٣) سوق عكاظ . سوق بقرب مكة ، كان العرب يجتمعون بها كل سنة ، فيمضون شهرًا يستأخرون
ويصاحرون ويتشبهون ، وسُميت عكاظاً لهذا ، ويقال : تعاكظ القوم : تعادوا وبها حروا
[انظر لسان العرب - مادة عكظ]

(٤) كواذعاً : موضع على جبل عذرة فوات - كان يجامع به سوق في الجاهلية [لسان ماد - جوز]

(٥) المجنة : موضع على بعد أميال من مكة ، كان بها سوق من أسواق العرب

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْعَاءُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ۝١٣﴾ [هود]

فهل كانوا قادرين على قول التحدى ، بأن يأتوا بعشر سُورٍ من مثل القرآن الكريم فى البيان الأسر^(١) وقوة الفصاحة وأسرار المعانى ؟

لقد تحدّاهم بأن يأتوا - أولاً - بمثل القرآن^(٢) ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدّاهم بأن يأتوا بسورة^(٣) ، ثم تحدّى أن يأتوا ولو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا

وعند حاء الحق سبحانه بالمرحلة لثالثة من السجى ، وهو أن يأتوا بعشر سُور ، ولم يكتف الحق سبحانه بذلك ، بل طالهم أن تدّعوا مجّمعاً من البُلغاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۝١٤﴾ [هود]

أى : هاتوا كلّ شركائكم وكلّ البُلغاء ، من دون الله تعالى

الحق سبحانه وتعالى هذ يقطع عليهم فرصة الادّعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف يدعوا الله ؛ ولذلك طالهم الحق سبحانه أن يجبّوه ﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٤﴾ [هود]

أى : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِى أَنْ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ افْتَرَى الْقُرْآنَ^(٤) ، وما أنكم

(١) الأسر ؛ الذى يأخذ بالباب الناس وعقولهم .

(٢) وذلك فى قول الله سبحانه ﴿ قُلْ لَنْ جَمْعُ الْإِنْسِ وَالْمَعْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝١٥﴾ [الإسراء] أى : معاً

(٣) يقول رب لعمرة سبحانه ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ ۝١٦﴾ [البقرة] ويقول سبحانه ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْعَاءُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٧﴾ [يونس]

(٤) القرآن يطلق على كتاب الله المعجز ، المكتوب فى الصلح ، الذى نزل على رسول الله ﷺ ، ويطلق مجازاً مرسلًا علاقته بالمرسة على الصلاه ، فهو تعالى ﴿ وَفَرَّانُ الْفَجْرِ ۝١٨﴾ [الإسراء] أى : ضلالة الفجر (القاموس القريم باختصار)

أهل ريادة في الفصاحة فلفسثروا عشر سور من مثل انقرآن ، أنتم ومن
تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله في قول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ

وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٤)

و الخطاب هنا موجه إلى الدين ادعوا أن رسول الله ﷺ قد أتى
القرآن ، أو أن الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى
قال في الآية السابقة

﴿ قُلْ قَاتِلُوا عَشْرَ سُوَرٍ مِّثْلَهُ مُقَرَّبَاتٍ ۚ ۝۱۱ وَادْعُوا فِي اسْتِطَاعَتِكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣) فإن لم يستجيبوا لكم .. (١٤) [هود]

أى : إن لم يردوا على التحدى ، فليعلموا وليتيقنوا أن هذا القرآن هو
من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم .^(١)

ولماذا عدل لحق سبحانه هذا الخطاب ، وقال :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ۚ ۝۱۲ ﴾ [هود]

(١) مسويات مختلفات مكذوبات كما نذهب

(٢) ومن لئلا نال عنة بن ربيعة نعرته بعد حوار طويل مع رسول الله ﷺ لإثباته من المص في دعوه
« جنو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله بيكرن لعونه لدى سمعاً به بآ عظيم »
[سيرة بن هشام ٢٩٤/١]

(٣) قال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ۚ ۝۱۲ ﴾ [هود] وهم بقتل لك بين هو على تحريم خطابه
من الأفراد إلى الجمع بعمياً وتخبياً ، وقد يعطى الرئيس بما يُخاطب به الجماعة

وقيل الصير في « لكم » وفي « فاعلموا » للجميع ، أى فليعلم الجميع ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ

وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود] قاله مجاهد وفي « فاعلموا » معشركين ، وأصعب

فإن لم يستجب لكم من تدعوه إلى المعادة ولا مهات لكم المصادقة ﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ

اللَّهِ ۚ ۝۱۲ ﴾ [هود] [قاله القرطبي في تفسيره ٤ / ٣٣٣]

أى : من يدعونيهم ، ثم قال سبحانه :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . (١٠) ﴾ [هود]

وقد قال الحق سبحانه ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ مُطَالِبٌ بِالْبَلَاغِ وما بلغه الرسول ﷺ للمؤمنين مطلوب منه أن يُسَمِّعَهُمْ ، وإن لم يستجيبوا للرسول ﷺ أو للمؤمنين ، ولم يأت أحد مع مَنْ بِهِم القرآن بأنه مُعْتَرَى مِنْ مُحَمَّدٍ

وقد يكون هؤلاء الموهوبون حائضين من اسحدي ؛ لأنهم عرفوا أن القرن حق ، وإن جاءوا ليحتروا مثله فلن يستصيعوا ، ولذلك فاعلموا - يا مَنْ لَا تَوْسُونَ بِالْقُرْآنِ أن القرآن . ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ (١١) ﴾ [هود]

إِنَّ الْحُطْبَ يَكُونُ مَرَّةً - مَوْجَّهًا لِلَّهِ ﷻ وَلَا مَنَّهُ

وبذلك عَدَلَ الحق سبحانه عن صمير الإفراد إلى ضمير الجمع في قوله تعالى .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . (١٤) ﴾ [هود]

أى : ارددوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن إنما نزل من عند الله .

والعلم كما نعلم - مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين .

أو أن الخطاب مُوجَّهٌ لِلْكَافِرِينَ لَدِينِ طَلَبِ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا مَنْ يَسْتَطِيعُونَ دَعَاءَهُ لِيَعْبُوهُمْ فِي مَعَارِضِ الْقُرْآنِ . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . (١٦) ﴾ [هود]

وأعلى مراتب العلم عند الحق سبحانه الذي يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علما بحس ، الذي يتغير حسب ما يتيح له الله سبحانه أن يعلم ، هأت قد تكون عالماً بشيء وتجهل أشياء ، أو عمت شيئاً وعانت عنك أشياء

وبذلك تجد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواءً ، وقد لا يستجيب له المريض مره ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة «مجمع طبي» يُقرّر ما يصلح أو لا يصلح للمريض

ويستدرك كلٌ منهم على الآخر إلى أن يصدوا إلى قرار ، والذي يستدرك هو الأعلم ؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء لذي أرقق المريض أو لم يستجِبْ له ، وهو قد حكم بما عنده من علم ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فوق كل ذي علمٍ عليمٌ ، فانطبيب الثاني يستدرك على الطبيب الأول . وهكذا .

ولكن أي واحدٍ أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى ؟ لا يوجد .

وما دام القرآن الكريم قد جاء يعلم الله تعالى ، فلا عزم لشر يمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٤) ﴾ [هود]

وجاء الحق سبحانه بما بأنه لا إله إلا هو ؛ حتى لا يدعى أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله .

وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل في دائرة .

﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٤) ﴾ [هود]

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فليشك بهذا الحكم .

مثال ذلك : هو حكم الحق سبحانه على أمي لهب^(١) وعنى امرأته^(٢) بأنهما سيدخلان النار^(٣) فهل كان من الممكن أن يعلن أبو لهب إسلامه ، ولو بفاقاً ؟ طبعاً لا ، لأن الذي خلقه علم كيف يتصرف أبو لهب .

لذلك نجد سورة المسد^(٤) التي قررت دخول أبي لهب النار ، قوبل الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾ [الإخلاص]

أى . أن الحق سبحانه ما دام قد أصدر حكمه بأن أبا لهب سيدخل ووجه النار ، فليس يقدر أحد على أن يغير من حكمه سبحانه ، فلا إله إلا هو .
ويهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ۝ ﴾ [هود]

وهذا استمهام ، أى . طلب للفهم ، ولكن ليس كل استمهام طلباً للفهم ، فهذا الاستمهام ها صادر عن إرادة حقيقية قادرة على فرض الإسلام على من يستفهم منهم

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد المطلب بن عبد المطلب ، وكنته أبو عتبة سمي أبا لهب بشدة احمرار وجهه كأنه الذهب

(٢) كانت امرأته من بليدات مكة قريش ، وهى أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهى أحب إلى نبي الله ، وكانت تهوداً لزوجها على كبره وحجوه وعنده .

(٣) وذلك من قول الله عز وجل من أبي لهب وامرأته فى سورة المد ﴿ مِيصَلِّي نَاراً فإب لهب (٢) وامرأته حمالة الحطب (١) ﴾ [مد]

ومعنى قول هذه السورة كما أخرج البخارى من صحيحه (٤٩٧١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى الطلعة فصعد الجبل ، فنادى يا صبيحاه ما جمعت إليه قريش ، فقال أراهم إن حدثتكم أن أهلكم جميعاً أم أجمعكم أكتنم تصدقون ؟ قالوا نعم قال فليس بكم بين يدي عيسى بن مريم ، فقال أبو لهب ، ألهذا جمعت ؟ بئس لك فأمرن الله ﴿ بيت يدا أبي لهب وتب (١٠) ﴾ [المد] إلى آخره

(٤) مسد الخيل [كصبر] مسداً أجاد قتله والمد اللب قال تعالى ﴿ فى حيفنا خير من مسد (٢٠) ﴾ [المائدة] أى : من ليمة عشرين ، ٨ الفاعل من القوم .

ولكنه سبحانه شيء أن يأتي هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقبله جواب ، ولو لم يكن لسائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لها قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يسلم السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقابل هذا الكلام هو الخالي سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُزَّه عن كل مثل ، تجد إنساناً يحكى لك أمراً يتماصيله ، ثم يسألك : هل أن صادق فيما قلت لك؟ . . وهو يأتي بهذا الاستفهام ، لأنه واثق من أنك ستقول له . نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرت في آية تحريم الخمر والميسر - على سبيل المثال - تجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْعِلَّةِ فَبَلَّ أَنْتُمْ مُتَهَوِّنَ ﴾ (٩١) ﴿

[المائدة]

(١) الشيطان كل هذه مصورة من الإنس أو من الجن ، والشيطان من الجن مخدوق بحيث يخل من الناس ، وهو عدو للإنسان بعينه بالشر ، ولا من حفظه الله بالإيمان . يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِمْ ﴾ (١٢) ﴿ [الحجر] ، وكذلك كل من ذهب إلى الله ، فأنه حافظه من كيده لشيطان [القاموس القديم - بتصرف]

(٢) أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي بردة عن أبيه قال : يا يحيى فعود على شرابه ، رجح على ربة ، ويحيى على ثلاثة أو أربعة ، وحدايا طيه لنا ، ويحيى نشرب الخمر سلاً ، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، إذ مر به تحريم الخمر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَرْلامُ وَغَيْرُ ذَلِكَ هُنَّ لُفْظَةٌ تَقْلَعُونَ ﴾ (٩١) ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْعِلَّةِ فَبَلَّ أَنْتُمْ مُتَهَوِّنَ ﴾ (٩١) ﴿ [المائدة] وجئت إلى أصحابي فمرأت عيهم إلى قوله ، (بَلَّ أَنْتُمْ مُتَهَوِّنَ) قال : ومعنى لغو شربته في يده ، قد ضرب بعضهم ، وبني بعض في الإناء ، فقال بالإباء تحت شلته العليا كما يعمل الصبيان ثم مشى في باطنهم فقالوا انتهى تأرب . ذكره ابن كثير في تفسيره (٦ / ٩٥)

وكان هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن انتهوا من الخمر والميسر ،
راحلوا مما تعملون .

إذن . فقول الحق سبحانه في آحر الآية الكريمة :

﴿ .. فَبَلِّغْهُمْ مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأَلَّا يَتَّبِعُوا فِي مَتَلَدٍ ۚ ﴾ (١٤)
القرآن قد جاء من عند محمد ، أو أنه افتراه ، بل هو من عند الله سبحانه
الذي لا إله إلا هو .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ مَن كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۚ ﴾ (١٥)

وكان الكافرون " قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم
وقالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِّنْ رَبِّهِ ۚ ﴾ (١٦)

[هود]

- (١) اللجاجة : اختلاط الأصوات وإرتفاعها . والمقصود التشويش على القرآن ، دعوات باطلة .
- (٢) بحسبه حقه : مقبض حقه ولم يُرفقه إياه ، قال تعالى ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (٥٣) [الأعراف] . وليس للبحثن . ليس الناس عن مثله . وشره يمين يمين (٤٢) [يوسف] .
- (٣) حثلف العلماء في تأويل هذه الآية . فبين يربك في الكفاد ، قاله الصحاك ، واحتملوا الحاس
بدليل الآية التي بعدها ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَرْتَبِطُونَ فِي الْأَخْزَةِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١١) [هود] . أي من أمرهم
نصه رحم أو صدقه فكانت بها في الدنيا ، نصحه الخس ، وكثرة الرزق . لكن لا حصة له في الآخر .
- وقيل أراد بالآية الخسوس . أي من أراد بعمله ثواب الدنيا فجعل به الثواب ولم ينقص شيئاً في
الدنيا ، وله في الآخر العذاب لأنه جرد نصه في الدنيا . وقيل هو لأهل الرتبة . وهي الخبر أنه يمان
لأهل الدنيا . صميم وصليبهم ونصدقهم وجهدهم وهم أتم ليغال ذلك فقد قيل ذلك ثم قال : إن
هو لأهل الدنيا من تسخيرهم النار .

وعمل الآية حقه من كل من تنويعه غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن [تفسير
انعرطبي ٤ / ٣٣٣١]

فهم - إذن - مشعولون بنعيم الدنيا وزينتها .

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود ، من ستر عذرة ، وأكل لقمة
وبيب يفي الإنسان ويؤويه . أما الرينة فأمرها مختلف ، فبدلاً من أن
يرتدى الإنسان ما يستر العورة ، يطلب لنفسه الصوف لساعم ضاء ،
والحرير الأملس صيفاً ، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تفية من
البرد أو الحر ، يطلب لنفسه قصرأ .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ^(١) وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ^(٢) . ﴾ [آل عمران]

وكل هذه أشياء تدخل في متاع الحياة الدنيا ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ^(٣) ﴾ [آل عمران]

إذن ما معنى كلمة «زينة» ؟

معنى كلمة «زينة» أنها حُسْنٌ أو تحسين طارئ على الدات ، وهالك هوى
بين الحسَن الداتى والحسن الطارئ من العير .

(١) لقنطير - جمع قنطير وهو سبيح محتلب القنار عند الناس ، وهو مخصص في زماننا مائة رطل ، وهو

٩٢٨ ، ٤٤ من الكيلوجرامات ، وقد يصعد بها المال الكثير كما في الآية الكريمة ، وقال تعالى

﴿ وَمَنْ أَتْلَقَ الْكِتَابَ مِنْ إِذْ ثَمَنَهُ بِقَنْطَرَيْنِ ذَلِكَ . ﴾ [آل عمران]

والقنطير نقنطرة أى الفاضل ، أو المحككة المحصنة [كلمات القرآن للشيخ حسين

مخلوف ، والمعجم الوسيط]

(٢) الخيل المسومة أى المرسل للرعى ، أو مملعة بعلامات [القاسوس القويم]

(٣) الأنعام : الإبل والبقر والغنم والأرعى

والخث المروحات . [كلمات القرآن]

(٤) المآب المرجع وخس المآب أى المرجع الحسن . [كلمات القرآن] .

سورة هود

٥٦٢٨٣

والمرأة - على سبيل المثال - حين تتزين فهي تلبس الثياب الجميلة
للزينة ، وتحلّي بالذهب الرّاق ، فسر المعدل الذي يأخذ بميامته ^(١) من كثرة
تلاشه الذي يحطف الأبصار ، ولا تعمل ذلك عمالة إلا التي تشك في جمالها

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهي ترفض أن تتزين ؛ وبذلك يسمونها
في اللغة «العابية» ^(٢) ، أي التي استعنت بجمالها الطبيعي عن الرّسه ،
ولا تحتاج إلى مداراة كبر أديها بقُرط ^(٣) صحم ، ولا تحتاج إلى مداراة
رقيتها بعقد ضحم ، ولا تحاول أن تساري معصمها الريان سوار ^(٤) ،
وترفض أن تُحصى جمال أصحابها بالحوادث

وحين تُبالغ امرأة في ذلك التّزيّن فهي تعطى الانطباع المفاس .

وقد يكون المثل الذي أضمره الآن بعيداً عن هذا الجان ، لكنه يوضح
كيف يعطي الشيء المبالغ فيه المقابل له .
وفي ذلك يقول المتنبي

الطُّيبُ أُنْتُ إِذَا أَصَابَكَ طِيْبُهُ وَالْمَاءُ أُنْتُ إِذَا اعْتَسَمْتَ الْعَاسِلُ

(١) تلبس الشيء بلباس - كان عظيم القيمة فهو عس - وقبل هذه التناهي ، كل يريد أن يكون أنفاس من
خير ، أو يحرر ما هو أنف وأظم مجة ، من عالى : . . . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٥)
[مظهرين] أي فليسابقوا لإحرازه لأنفسهم

(٢) العابية من النساء التي غشت بالروح وهي أيضاً التي غشت بحُسن وجمالها عن الحق - وفي
هي التي تُطلب ولا تُطلب - وفي السبب الحاربه الحياء - ذات روح كدست أو غير ذات روح
صحت غانه لأنها عبت بحُسنها عن الرينة [لسان العربي «مادة» عبت]

(٣) القُرط ما يُعلق في شحم الأذن من ثوب أو ذهب أو فضة أو حبوب - والجمع أقراط ، وقروط
[المعجم الوسيط]

(٤) السوار حبة من الذهب مسديرة كالخلفة تلبس في المعصم والجمع أسورة ، وأساور [المعجم
الوسيط]

(٥) هو أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة في محلة تسمى «كنة» عام ٣٠٣ هـ ، نشأ
بالشم ، ادعى النبوة في مذهب السماوة (بين الكوفة والشام) - ولعلك سمع بالشيء ، ثم رجع عن دعوته
بعد أسره ، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً

وهو هنا يقول . إن الطيب إذ ما أصاب ذلك الإنسان الموصوف ،
 بالطيب هو الذي ينطيب ، كما أن الماء هو الذي يُغسل إذا ما لمس هذا
 الإنسان ، وكذلك تأتي المرأة الحبيبة أن تُرَبَّنَ تُحَرِّها "قلادة" لأن
 حُرِّها دون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه امرأة «غاية» ؛ لأنها استعنت بحمالها

ويقال عن جمال نساء الخضر : إنه جمال مصنوع مساحيق ، وكأن تلك
 المساحيق مثبتة على النوحه معجون كمعجون دهنت الحوائط ، وكأن كل
 واحدة تفعل ذلك قد جاءت بسكين من سكاكين المعجون لتملاً الشقوق
 المجددة في وجهها .

ولطمة أي يسبح هذا المعجون ترتكك ، ويختل مشهد وجهها بتخطيط
 الألوان ؛ وبذلك يقال :

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ سَطْرِيَّةٌ وفي البداوة حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ
 إذن فالريّة هي تحسين شيء بغيره ، والشئ الحسن يستعنى عن الزينة .
 وهما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبُّهَا يُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا
 لَا يُخْسِرُونَ ﴾ (١٥) ﴿

أي : إن كمرتم بالله فهو سبحانه لا يضمن عليكم في أن يعطيكم مضمونات

() انتم : أعلى الصدر ، وهو موضع القلادة

(٢) القلادة : كل ما يوضع حول الرجة من عصود وحلى وذهب وعبود ، وشيّب الأصابع فلانة مجزاً
 مرسله ملائم الملازم ، لأن الدبج كانت تعلم ملاذات في أعناقها قال تعالى ﴿ ولا الهدي ولا
 القلالة . (٢٠) ﴾ [المائدة] أي : الأصابع حوت القلادة

(٣) انحس : الإحساس ونحوه حقه بحتة بعصه حقه وبم يؤفه قال تعالى ﴿ ولا تقصروا بالناس
 أشياءهم ﴾ (٢٤) ﴿ [الأعراف] [القاموس القويم]

وكلها أعمال مطلوبة في الفئتين ، ولكن الكافر قد فعلها ، يريد الله سبحانه وتعالى له ما فعل في الدنيا ، وإن كان قد فعل ذلك يُقال إن فلانًا فعل كذا ، أو فلانًا كان شهماً في كذا ، فيُقال له : «عملتَ ليُقَال وقد قيل » (١) .
وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب ، فالحق سبحانه يعطيهم ثمره ما أخذوا به من الأسباب

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتحلف :

لقد كان المسلمون في أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبقوا دينهم ، ظاهراً وباطناً ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتحلف ليس لازماً ولا ملازماً للإسلام ، وإنما جاء التحلف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإن عقلتنا مقارنة بين حال أوربا حينما كانت الكنيسة هي المسيطرة ، كنا نجد كل صاحب نشاط عقلي مُدعٍ يبال القس عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام في أوربا «العصور المظلمة» .

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعربت أوربا قوة الإسلام

(١) عن أبي هريرة روى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُنفض يوم القيامة عليه رحن استشهد ، فأنى به يعرفه نعمه يعرفها ؟ قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلتَ بك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تقدم العلم وعلّمه وقرأ القرآن ، فأنى به ، يعرفه نعمه يعرفها . قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : تعلمتُ القرآن وعلّمته ، وقرأتُ بك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمتَ العلم ليُقال : عاظم ، وقرأتَ القرآن ليُقال : هو هارٍء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل رُشع الله عليه وأعطاه من أصناف الدنياه ، فأنى به يعرفه نعمه يعرفها ؟ قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : ما ركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقَ فيها . قال : كذبت ، ولكنك بعثتَ ليدل هو جواد معددين ، ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم ألقي في النار . [أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) كتاب الإمارة]

سُورَةُ الْاٰحْقَافِ

٦٢٨٧

والمسلمين ، ودحرهم المسلمون ، بدأوا في محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعلمت فعلوا ذلك بقلدهموا ،

هم - إذن عندما تركوا سلطان البابا تقدموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام نخلعنا .

إذن : قايُّ المَرَعَشَيْنِ خَيْر ؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، ونخلعوا حين تركوها .

وهكذا . . فمحصار التقدم هو الأجد بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حسن خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، ومن لم يؤمن واحد بالأسباب نال خير الدنيا ولم يزل ثواب الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ^(١) يَحْسِبُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ...﴾ (٣٩) [البور]

(١) دسرة يدسرة دسراً ودسوراً دفعه وطرده وأبعده مهناً ودحره في الحرب هزمه قال تعالى ﴿وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ حَنْتٍ (١١) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (٢٩) [الصفافات] [القاموس القويم]
(٢) السراب ما تراءى من هبوب البهار في الأرض لعشاء كأنه ماء وليس بماء ويلو الله تعالى ﴿وَمُنِيرَتِ الْجِبَالِ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٦٠) [السا] أي صارت لا حقيقة لها ، أي تشبه لسراب من أنها لا حقيقة لها ، أرى لأرض المسطوحه التي يظهر فيها السراب [القاموس القويم]

(٣) القاع والصيحة ما استوى من الأرض واحصن عما يحيط به من الحيد والأكبات قال تعالى ﴿رَبِّمَالُونَكَ عَلَى الْجِبَالِ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٠٠) لا ترى فيها عرجاً ولا أمتاً (١٠١) ﴿[البور] أي يمكن سمعهم منظر ما يظهر فيه السراب [طه]

فأما سمعهم سكاناً سمعهم سراً مستدلاً ، لا ارماع فيه ولا اعرجاج روبره تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ (٣٩) [البور] أي يمكن سمعهم منظر ما يظهر فيه السراب شاعة ، [القاموس القويم] .

وهكذا يُفاجأ بالآله الذي كَذَّب به

والحق سبحانه يقول .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ^(١) لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ . ﴾ (١٨) ﴿ [إبراهيم]

إذن . فمن أراد الدنيا ورينتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوقيه حسابه ولا يبيحسه من حقه شيئاً ، فحاتم الطائي - على سبيل المثال - أخذ صفة الكرم ، وعثرة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أحد أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله بوجه الله تعالى ، وأمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقاً وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من العنائم ، ولكن ليس لهم في الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعنى وجود عقد ، وما دام هناك عقد بين العامل والعمل ، وأنقر العامل العمل فلا بد أن يأخذ أجره دون يحس : لأن لتحسن هو إنقاص الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ ^(٢)
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٩) ﴿

(١) عصفت الريح ، تعصف عصفاً وعصفواً اشتد هبوبها ، والريح عاصف وعاصفة فهي تُذكر وتؤنث ، والريح العاصفة أحياناً تنمر كل شيء تمر عليه قال تعالى ﴿ رسلنا الريح عاصفة ﴾ (الأنبياء) وقال تعالى ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ (٢١) ﴿ [يونس] وقال تعالى ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ (٢٠) ﴿ والمرسلات، هي الرياح الشهباء [القاموس القويم]

(٢) حبط العمل بطل ولم يحضر بمرته وقال تعالى ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾ (٢٠) ﴿ [البقرة] ، وأحبط الله عمله أبطله وضيعه حبطاً قال تعالى ﴿ ما حبط أعمالهم ﴾ (٢١) ﴿ [محمد]

[القاموس القويم]

إذن : فالسار مشوى هؤلاء الدين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان
بالبه ، فقد أحذروا حسابهم في الدنيا ، أما عملهم فقد حبط في الآخرة ،
والحِط هو انتعاش الماشية حين تأكل شيئاً أخضر لم ينضج بعد ، ويقال في
الريف عن ذلك : « انتعشت البهمة » أى : أن هناك غارات في بطنها ،
وقد يصحها الجاهل سمناً ، لكن هذا الانتعاش يرول نزوال سبه
وعمل لكافرين إنما يحبط في الآخرة ؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ
كِتَابٌ مُّؤْتَىٰ ، إِمَّا مَّا وَرَحْمَةً أَوْ لِنَبِّكَ بُؤْمِنُونَ يَوْمًا مِّنْ يَّكَفِّرُونَ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ١٧ ﴾

والْيَّة " هي بصيرة الفطرة السليمة التي نُلَب الإنسان إلى وجود واجب
الوجود ، وتوضُّع للإنسان أن هذا الكون الجميل اليدع لا بُدَّ له من واحد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

(١) للربة الجدل والشك وكذلك التمازي والامتراء وامرء والمارة قال تعالى : ﴿ لَا تَدْعُو لَهُمْ إِلَّا مَرَدُّ

ظاهر (١١) ﴿ الكهف ﴾ ، وغيره تعالى ﴿ فَمَا تَكُونُ مِنَ الْمَعْرُوفِينَ ٥٧ ﴾ ﴿ البقرة ﴾ وقال تعالى

﴿ مَا لِيَ لَا أَرَاهُ فَلَنَلْقَاهُ فِي الْقَوْمِ ٥٨ ﴾ ﴿ النجم ﴾ لا تقاموس القوم بصرف

(٢) ما الشيء بين ساء ظهر وانصح ، وهو بين وهي بئة أى ظاهر ، وهو مد ويستعمل للـ واليئة

بمعنى المظهر والمظهرة ، والموضح والموضحة . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْتَدَاهُمْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ٥٩ ﴾ ﴿

البقرة ﴾ أى واضحة لا شك فيها ، أو هي شبه الحق مزيده له ، مظهره لأمره ، وكذلك قوله تعالى

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ عَلَيْهِمْ شُعْطَانٌ يَّسِرٌ ٦٠ ﴾ ﴿ الكهف ﴾ أى ظاهر وسبح أو مرفوح مظهره بلحن

القوم من القوم

والعربي القديم حين سار في الصحراء ووجد عُراً مُلقًى في الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : «البُعرة»^(١) تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسما ذات أراج^(٢) وأرض ذات فجاج^(٣) وبحر ذات أمواج ، أفلا يدل كل ذلك على الطيف الخير ؟^(٤)

وهكذا اهتدى الرجل بالفطرة ، وهي بينة من الله .

وقد أودع الله سبحانه في كل لسان فطرة ، وبهذه الفطرة^(٥) شهدنا هي عالم النور

وفي ذلك يقول الحق سبحانه

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا .. (١٢١)﴾ [الأعراف]

إذن : فالبينة هي إيمان الفطرة المركوز في ذرات الأشياء .

وقد تُصَيَّبُ^(٦) الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكّرنا بالسيئات الأولى ، وتدلّنا على العطل

(١) البعرة واحدة البعر ، وهو رقيق (روث) ذرات الحُفّ والظلف من الحيوانات

(٢) الأراج جمع رُج ، وهي منازل الأفلاك في السماء أو هي الكواكب وقيل هي النجوم [ليباد العرب مادة برج]

(٣) الفجاج جمع فج وهو العريق الواسع بين جبلين ومن قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِساطاً﴾ (٤) لَتَسْتَكَوْا مِنْهَا سَبَلاً فِجَاجاً (٥) [برج] وقال ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِجْساً أَنْ تَنبَهُ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سَبَلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٦)﴾ [الأنبياء]

(٤) هذه العبارات من خطبة خطبها قُس بن ساعدة الإباضي في الجاهلية كان أولها أيها الناس ، اسمعوا رصوا ، من عاش مات ، ومن مات مات ، وكل ما مات أب . انظر البيان والتهذيب للجاحظ (٣٠٨/١)

(٥) هي أبن هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة ، فلعنه اليهودية أو نصرانية أو مجسية» أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٢) والطحاوي (٢٤٣٣) ، والترمذي (٢١٣٨) .

(٦) التَّصَيَّبُ والتَّصَيَّبُ مفعول به شيء ودخول بعضه في بعض . والتصاية : معالجة تُفَسِّس الأرض كالدهان وقبل التصييب والتصاية يدن كالغبار يُفَسِّس الأرض بالغدوات [لسان العرب - مادة غيب]

والأحكام حتى تنضم اليه من الرسل على اليه من الفطرية في الكائن .

وهكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مناط "الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للحلق ، فيريد سبحانه أن يبين له أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعي ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدي قبل أن يجيء رسولٌ يُلْهِمنا إلى القوة العلية التي تدبر حركة هذا الكون .

وقد صرحت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطت به طائفة في الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم علمه النوم فم ، وحين استيقظ وجد مائده منصوبة عليها أطيب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً " منصوباً ليأوى إليه ، فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤال من صنع هذا ؟ وهو يسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشيء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت في ضياعتي .

إذن : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذي طرأ على لوجود ، وما ادعى واحد من خلق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما دعى أحداً أنه خلق السموات والأرض ، وما ادعى أحداً أنه سخر كل ما في الكون لخدمته الإنسان (١) .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن نعم بهذا ، أن يفكر : من الذي صنع له كل ذلك ؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللعن المطلوب لك

(١) مادة الشيء كل ما تعلق به من أمور ويطلق به الشيء . وأصل به [اللسان مادة (ن و ط) بتصرف]

(٢) الصوان : الرعاء الذي يُصان فيه النباب ، أو توضع فيه الأطعمة . انظر [اللسان - مادة صون]

(٣) يكون معالي في سورة النحل : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إنه في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٦) وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يتذكرون (١٧) وهو الذي

سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواجر فيه ولتنظروا من فضله

وتعلمكم تشكرون (١٨) [النحل]

من كان على الإنسان أن يرهف سمعه لئلا يفتقد الرسول ، لأنه قد جاء ليحل للإنسان أمراً يشغل باله

ومن لعنف الله سبحانه بنا أنه لم يطلب منا مقدماً أن نفكر في ذلك ، بل تركنا فترة صويولة بلا تكليف في هذه الدنيا ، لنعلم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً ، فالحق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان .

ولا بد للإنسان أن يتساءل : فكل شيء - مهمل كان تافهاً - لا بد له من صانع ، والمصباح الذي يصيء دائرة قطرها ٢٠ متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعمل التي أنجزته ، والإمكانات التي تم استخدامها ، والمواد التي صنع منها ، أفلا نعرف ماريح هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتسير نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لسرى آفاق تلك البيئة ، بيئة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ، ليهتدي إلى أن وراء هذا الكون خالقاً مديراً

فلماذا جاء إنسان مثله يقول له : إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونصالح ما يقول على إحسان الفطرة ورؤية اليبائن

إذن : فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبديهة التي لا تشوبها^(١) أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبديهة أن هناك ناراً ، وحين تسير في الصحراء وترى خصرة ، ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترونها ؟

(١) أي لا تشوبه شبهة ، أي الفكر البعيد عن الأهواء

والشوب ما احتفظ بعينه من الأنس ، وبخاصة السائل ، قال تعالى : ﴿وَلَمْ يَنْهَاهُمْ عَنْهَا﴾ تشوبها من حميم^(٢) [نصائث] ويقال : نقاه الدوب بالسوب العسل بماء يشوب به من ماء أولس [المعجم الوسيط]

هذه - إذن - أمور نعرفها بالسياسة ، ولا نحتاج إلى بحث أو جهد

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلي الذي استدل به لعربي على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود العير^(١) ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكوكب داب لأبراج ، والأرض ذات لصجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير

كل هذه لأمر لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها حملة ، وإن لم يعرف التخصيص

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً ، صانعاً ، حكيماً ، لكنه لم يعرف اسمائه ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ، وماد يحرى المطيع به ، ولا بماذا يعاقب العاصي له

إذن لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التي اقتضت بها جملة والمفكرون بالعقل في الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه .

إذن . فأنت لا تعرف اسم الله إلا أنه ، عن طريق الوحي إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذي أنزل عليه أنبلا

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هي القرآن ، لأن العقل حتى حين يهتدي إلى قوة القادر الأعنى سبحانه ، فإنها تستطل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله بوضوح بوضوح وبوضوح لهم .

(١) البعرة : جمع بعير ، وهو دابة الخلف ، وهذه انطفا من الحيوانات . والعير : جماعة من ركوب ولحم من الإبل ، وذلك ما استكمل أربع سنوات . ويقال لصبي : والساق : بعير . والجمع : أبعرة ، وأبعير ، وبعير .

﴿ أَقْمَسَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ۖ ۝١٧ ﴾ [هود]

والقرآن حجة وبر ، وهو يهدي البصيرة الفطرية الموجودة في الإنسان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ۖ ۝١٧ ﴾ وهو من أنزل عليه الوحي ، ويحبرنا عن الحق سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أد الخالق الأعلى والفرة المطلقة هو الله سبحانه ، ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله تعالى .

وبن هنا أمم ثلاثة شهود :

الشاهد الأول : هو الحجة والبينة

والشاهد الثاني : هو البرهان والبصيرة التي يهدي إليها العقل ، والرسول هو من يبين لنا المهج بعد الإجمال .

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ ۝١٨ ﴾ [هود]

وهذا هو الشاهد الثالث

ومن لا يلتفت إلى المندلول بالأدلة الثلاثة مقصّر ، فمن عنده تلك البينة ، ومن سمع الشاهد من الرسول ، والشاهد الذي قبله ، وهو كتاب موسى

(١) في تأويل هذا الشاهد أقوال كثيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (٤ / ٣٣٤)

١- أنه محمد ﷺ

٢- أنه جبريل عليه السلام

٣- أنه علي بن أبي طالب

٤- القرآن في نظمه وبلاغته ، وإيمانيه الكثيرة منه في اللفظ الواحد

٥- الإنجيل فهو يتلو القرآن في التصديق وإن كان قديم

٦- العقل الذي يتلو معرفة الله التي أشرقت لها القلوب

قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٤٠) بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة الأولى «الأول والثاني هو الحق ، وكلاهما قريب من النفس لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهم بلغ رسالة الله تعالى ، وجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ، وقيل هو علي ، وهو ضعيف لا يثبت له قائل يؤمن عنه من العطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة ، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة ، والعطرة تصلحها وتؤمن بها»

عليه السلام وشهد " بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان .

وقول الحق سبحانه :

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ ۞ (١٦)﴾ [هود]

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة بينة ، وشاهداً ، وشاهداً من قبله ثم يقول الحق سبحانه .

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ ۖ ۱﴾ قَالَتِ الْأَرْبَابُ ۖ ۞ (١٧)﴾ [هود]

والكفر - كما علمنا - هو الستر ، والكفر في ذاته دليل على الإيمان ، فلا يكفر أحد بغير موجود .

فوجود المكفور به سابق على الكفر ، والكفر طارئ عليه

إذن فالكفر طارئ على الإيمان ؛ لأن الإيمان هو أصل العطرة

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتِ الْأَرْبَابُ ۖ ۳﴾ مَوْعِدُهُ ۖ ۞ (١٧)﴾ [هود]

وكلمة «أحزاب» جمع حزب . والحزب هو الجماعة المتفتية على مبدأ تتحسّن لتبنيّه ، مثل الأحزاب التي تراها في الحياة السياسية ، وهي

(١) المقصود به هنا الإنجيل الذي أرسل به عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ،

(٢) الأحزاب جمع حزب وهو الجماعة من الناس اجتماعهم على أمر واحد سواء أكان خيراً أو شراً

يقول تعالى عن حزب الخير ﴿فَإِنَّكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٢)﴾ [المجادلة]

والله تعالى عن حزب الشر ﴿وَأَسْتَعِذُّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاسْأَلُهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٦)﴾ [المجادلة]

والمقصود بالأحزاب هنا أهل الملل كلها من غير ملّة الإسلام قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٣٣٥)

(٣) عن ابن مريّة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع من أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »

أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - حديث (٢٤٠)

أحزاب بشرية تتصارع في المناهج ولغايات ، وهم أحرار في ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر .

أما في العقيدة الأولى ، فمن المخطط الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالتنهج يأتي منه ؛ لأن هذا النهج يرسل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عمن يتبعون منهجه :

﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ . . ﴾ (٢٢) [المجادلة]

أي . أنهم يدخلون في حرب يختلف عن أحزاب البشر التي تختلف أو تتفق في فكر البشر .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ . . ﴾ (٢٧) [مرد]

والمقصود بهم كفار قريش عدة الأوثان ، وانصافه (١) واليهود والنصارى الذين لم يؤمروا برسالة رسول الله ﷺ ، وكل منهم جماعة تمثل حرباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٢) [المؤمنون]

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله ويرسل الله فالحرء هو التمر ، وبذلك بين لنا الحق سبحانه أن هناك حريين حرب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كل منهما يواجه بالآخر .

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد ﷺ :

(١) الصائون يرسمون أنهم على دين نوح عليه السلام وقبلهم عبادة الملائكة ، أو عبادة الكواكب والنجوم ، أو عبادة النار قال تعالى . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَالنَّاصِرِينَ ﴾ (٢٦) [البقرة]

[البقرة] منهم غير اليهود والنصارى [انظر العنبروس القويم ١/ ٣٦٥]

[هود]

﴿ فَلَا تَكُ فِي هُودٍ ۖ عَنْهُ ۚ ۝ (١٧) ﴾

أى لا تكن يا رسول الله فى شك من ذلك ؛ لأن رسالتك وبعثك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من قه تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالأنهج الحق

[هود]

﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۚ ۝ (١٧) ﴾

والحق - كما علما من قبل - هو الشيء الثابت لذى لا يعتريه تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتى إلا من إله لا تتغير أفعاله .
وينهى الحق سبحانه الآية بقوله :

[هود]

﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ (١٧) ﴾

وهؤلاء لا يؤمنون عماداً ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومن يتمتع عينيها هو محروم بمعانده .

والحق سبحانه يقول فى مثل هؤلاء المعاندين :

﴿ وَاجْعَدُوا^(١) بِهَا رَاسِيَةً^(٢) أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُتُوًّا ۚ ۝ (١٤) ﴾ [الزل]

أى أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله ﷺ ، وعلى صدق بعثه ، فيكون كفرهم حينئذ كفر عماد ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً

[١] منياً - جدد والشدة . وهناك مرة بضم الميم [القاموس القويم]

[٢] جحد الحق يجعله محوذاً أنكره وهو يسمه وجحد الحمة أنكرها ولم يشكره . وجحد بالآية كرهها .

وقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ جُمُودٌ مُّجَلَّدُونَ ۖ يَقِمْ وَبِهِمْ رَعُودًا رُنُفًا ۚ ۝ (٥٩) ﴾ [هود] [القاموس القويم]

[٣] استقر الأمر واستقر به . مثل أجه وأيسر به . من اليقين وهو الشيء الثابت الوصح الذى لا شك فيه راسيعة أنفسهم . أى علمتها بمرسوم علماً واضحاً [القاموس القويم]

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد في صيغة استفهام ، حتى يأتي الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة .

والواحد من هؤلاء المفتريين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه في الظالمين ، فلن يجد ظلماً أمدح ولا أسوأ من الذي يفتري على الله كذباً ، ويقر بذلك وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي هذا الخبر في صيغة استفهام ، ليأتي لإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع .

وهؤلاء المكذبون يُعْرَضُونَ على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ . . . (١٨)﴾ [هود]

والعرض إظهار شيء الخفى لتقف على حاله .

ومثال ذلك في حياتنا هو الاستعراض العسكري حتى يبين لجيش قوته أمام الخصوم ، وحتى تُسلح لدولة غيره من الدول بحجم قوتها .

(١) افترى القول اختلقه واخترعه وافترى عليه انكسب اخترعه ويقول تعالى ، ﴿وَأَمْ يَقُولُونَ افترأ﴾ .

(٢) [يوس] أى اخترع القرآن واختلعه من عند نفسه

(٣) الأَشْهَادُ أى : الشهود بالحق ، وأَشْهَادُ جمع شهيد ، مثل أيتام جمع يتيم ، والشهيد صفة مشبهة

[القاموس المبرم] . ومن يمين لأشهاد في هذه الآية أنزل الملائكة الحفظة - الأنبياء والرسل وقال

قناب : فخلاق جميع قاله الفرطاس في تفسيره (٣٣٦/٤)

سُورَةُ الْفُجُورِ

٥٦٣٩٩

وكذلك نجد الضابط يستعرض مرقته ليقف على حال أهراده ، ويفيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هدايته ، وقدرة الجود على طاعه الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا : فتحن بجد مدير المدرسة يستعرض بلامبذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ حري المقصر منهم أو لذى لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالبالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزي ؟
ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله لدى أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ۚ يَحْسَبُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ۖ ۝ (٣٩) ﴾ [النور]

فأي خزي - إذن - يشعرون به ؟

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخمياً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَعًا ۖ ۝ (٤٨) ﴾ [النكه]

وكذلك يُعرضون على البار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل .

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ۝ (٤٦) ﴾ [غافر]

(١) السراب ما يرى في صيف النهار على الأرض العضاء كأنه ماء ، وليس ماء وهو ظهيرة سعلفه بجناح البصر والعيه الأرض المستربة المحففة عما يحيط بها من مرتفعات وتكدت «الفاخ» يقرب عالي ﴿ وَيَأْتُونَكَ مِنَ الْجِبَالِ فَهُمْ يَسْفَهُونَ ﴾ (١١) فبدرها قلعا صفعفا (١٢) لا ترى فيها عوجا ولا انك (١٣) ﴿ [الله] [الفاسوس الغويم] والأرض الصمصم هي الأرض بسوية السماء ، أي ان لجبال تروى فلا يكون لها أثر ، ولا ترى في مكانها ارتفاعاً ولا خوطاً ولا عوجاً

(٢) العصور الدخول في أول النهار والعشي آخر النهار وهذه الآية قيلت في حين فرعون وآل وتمدها ﴿ رِيحٌ تَقُومُ السَّاعَةُ يَدْخُلُوا آلُ فِرْعَوْنَ مِنْهُ مُدَّ الْعَذَابِ ﴾ (١٤) [غافر] وهذه الآية أصل في إثبات هداية القبر بعد أهل السنة ، انظر ، [تفسير ابن كثير ١/ ٨١] .

وهكذا يظهر الخرى والحجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى وهو سبحانه يعلم كل شيء أولاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان في الجنة إنساناً في النار ، فلا ينتشر هذا الشهد شفقة المؤمن ؛ لأنه يعلم أن جراء المفترى هو النار .

وباليت الأمر يقتصر على هذا الخرى ، بل هناك شهادة الأشهاد ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول في نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ۚ ﴾ (١٨)

[مورد]

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة «شاهد» ، مثل «صاحب» و«أصحاب» ، ومرة يكون المفرد «شهيد» مثل «شريف» و«أشراف» ،

والأشهاد منهم الملائكة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَا يَنْقُطُ ^(١) مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ^(٢) ﴾ (١٨)

[ق]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ^(٣) كِرَامًا كَاتِبِينَ ^(٤) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ^(٥) ﴾ (١٤)

[الأنفادر]

(١) اللفظ يخرج الشيء من القم ، والمراد به التكلم ، واللفظ «رمى والإلقاء عامة» ومنه حديث ابن عمر أنه مثل عما لفظ الحجر فهي عنه أراد ما يلقيه البحر من «سماك» من جانبه من غير اصطاد [اللسان مادة نطق]

(٢) الرقيب لمعني الحارس المستعد للإثبات ما يتكلم به الإنسان من كتاب الحسنات والسيئات [القاموس المبرم]

(٣) الحافظون أي الملائكة الرقباء والحافظون عنكم يقول تعالى ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝١﴾ [الطاري] أي ملك حافظ له رقيب عليها ويقول تعالى ﴿وَهُوَ الظَّاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُوسِّسُ عَلَيْكُمْ جَفَّةَ

(٤) [الأنعام] أي ملائكة يحفظونكم ويراقبون أعمالكم [القاموس المبرم]

شُرُكُ الْهُدَى

٥٦٤٠١

أو شهود من أنبياء الذين بلغوهم منهج الله ، لأن حق سبحانه يقول :
﴿ وَكَيْفَ إِذْ جَاءَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجَّهْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ
شَهِيدًا ۚ ﴾ (٤١) [أنبياء]

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة
والسلام ، فيبلغها إلى غيره ، « صدقاً لقول الحق سبحانه ،
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ ﴾ (١٤٣) [البقرة]

« كلمة « الشهادة » تعنى تسجيل ما فعلوا ، وتسجل أبصاً أنهم نُلتعوا
المهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب ،
لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بصر ، ولا بصر
لا بإعلام .

ولذلك نجد القوانين التى تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة « يُعمل
بالقانون من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية » .

إذن . فعمل الأَشهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد
نُلتعوا منهج ، وُلتعوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة
لكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هى الخلود فى النار

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ، لذلك فلا عيب إلا بالتأكد
من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتى الشاهد

(١) عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ « مراعى القرآن حال مقتى رسول الله امر
عبيك وعليك أمرى قال زنى اشتبهى أن أصحه من عيرى ، فعزأت النساء حتى إذا دعيت « فكيف إذا
جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً (١٠١) [النساء] » دعيت وأسى أو غمرى رجل إلى
جسمى ، غمرت وأسى مرايت دموعه تسيل . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٦) والبخارى فى صحيحه
(٥٠٥٥)

من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروفين ، ويأتى الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم

وكذلك يأتى الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بلغوا منهج الإيمان ، ثم تأتى شهادة هى سيدة الشهادات كلها ، وهى شهادة لأعاض على الكل يقول الحق سبحانه .

﴿ يَوْمَ يُخْرِجُ أَتْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُرْجَعُونَ ﴾ (٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠) وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ ثُمَّ شَهِدَتْ عَلَيْهِمُ أَنْقَاطُ اللَّهِ الَّتِي أَنْتَظِرُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَافِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَآلِهِ تَرْجِعُونَ (١١) ﴿

{تصلت}

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا «لم ؟» لأن الجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشت إلى المعصية .

والإنسان - كما نعلم - مركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكون الكل الإنسائى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتريت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فلما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

(١) يورعون يُعْمَدون من التعرق ويجمعون فى مكان واحد والورع الكف والمع يقال: ورعت الخيش إذا حبس أولهم على آخرهم، يمنع بينهم التعرق والانتشار [انظر لسان العرب - مادة ورع]

إذن: الخوارج حادمة مطيعة مُسَحَّرَةٌ لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يحتتم في الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه العاقل :

﴿ .. لَمَّا أَمْلَكَ الْيَوْمَ اللَّهُ لَوَاحِدَ الْقَهَّارِ (١٦٦) ﴾ [غافر]

فالخوارج نفول يوم القيامة لأصحابها . كنت تعمل ما تأمر وبما نه من المعاصي رِعْمًا عِثًا ، لأننا كنا مُسَحَّرِينَ بكم في الدنيا ، والآن نُحَلَّتْ إرادتكم هنا فقلنا ما أحيرتمونا عني فعليه .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ (١٦٨) ﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد^{١١} وبكوار الرسول ﷺ والرسالة

وينفول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ (١٦٩) ﴾

(١) ملحد : لعاذل المائل عن الحق الدخول فيه ما ليس منه يقال قد ألحدني الدين أي حادني والإلحاد

الظلم في الحرم ، وهو أيضاً الشك في الله ، والميل عن الإيمان به [انظر لسائر العرب - مادة لحد]

(٢) عوج : مال وحنى ولم يكن مستديلاً . وعوج عوجاً (بفتح العين و لواز) ، وعوجاً (بكسر العين وفتح

الواو) مال تعالى ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا عِوَجًا ﴾ (١٦٩) [امر] أي قرآنًا مستقيماً في مبادئه

وأحكامه وقال تعالى ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (١٦٩) [هود] أي أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله

يريدون سبيل الله موهجة ، [القاموس التوحيدي]

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كبروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان وبذلك تعدوا في الجريمة ، فعد أن أجرموا في ذواتهم ؛ أرادوا لغيرهم أن يُحرم .

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق عنى رسول الله ﷺ ، ولكن أعمامهم الطمع في السلطة ابرمية فطمسوا الآيات المنشرة برسول الله في كبهم ، وهم بذلك إنما صدوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجة يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَسْأَلِ الْكِتَابَ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبْعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٩)

[آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المخرج من أمور المنهج . والعرج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفى في المعنويات ، فنقول أحلاق فلان لها عرج ، وأمانة فلان فيها عوج .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ اِنْحَدِدْ لِلَّهِ لَدَىٰ أَمْرِ عَنِّي عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴾ (١)

[الكهف]

وهنا في الآية التي نحن بصدد حواظرنا عنها يقول الله سبحانه :

﴿ وَيَتَّبِعُنَهَا عِوَجًا ۖ ۞ (١٩) ﴾

[مرد]

(١) ﴿وَيَتَّبِعُنَهَا عِوَجًا﴾ أى أنه قرآن مستقيم سليم في أحكامه ورسوله ولا اهو حاج به [القاموس المبرم] أنصرف

سُورَةُ عُرُوجِ

٦٤٠

أما في الأمور المحسنة فلا يقال: «عروج»، بل يقال: «عروج»، فأنت إذا
رأيت شيئاً معوجاً في الأمور للمحسنة تقول: عوج.
لكننا نقرأ في القرآن قول الحق سبحانه:

﴿وَيَأْتُونَكَ مِنَ الْجِبَالِ فَفُتْلٌ يَنْفُخُهَا رِنٌّ سَفَا (١٦٦) فَيَدْرُهَا قَاعًا
مُفَصَّصًا (١٦٧) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٦٨)﴾ [طه]

وقد أوردتها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآني، لأن هناك
عوجاً حساً بحسه الإنسان، مثله يسير الإنسان في الصحراء؛ فيجد
الطريق مستطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم يسط مرة أخرى، ثم يقف في الطريق
جبل، ثم يزل إلى واد، وأي إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً
أما إذا كنت ترى الأرض مسطوطة مسطوطة كالأرض لرداعة، فقد
تظن أنها أرض مستوية، ولكنها ليست كذلك؛ بدليل أن الصلاح حين
يعمر الأرض بالمياه، يحد بقعة من الأرض قد عرقت بالماء، وقطعة أخرى
من نفس الأرض لم تمسها المياه، وبذلك يعرف أن الأرض فيها عوج لحظة
أن جاء الماء، والماء كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسطوطة.

(١) قال ابن منظور في اللسان (مادة عروج) فهو بمنح العين محض بكل شخص مربي كالأحلام،
وبالتكسر بما ليس بمربي كالرأي والمروة، وفيه التكسر يقال بينهما ماء، والأول أكثر.

(٢) «فَيَدْرُهَا قَاعًا مُفَصَّصًا» القاع: الأرض المستوية المحض، عما حولها والصمصم: الأرض المساء
المستوية أي أن الجبال تؤول إلى مسطوطة لا يكون بها أثر. [القاموس القويم]

وذكر ابن كثير في تفسيره أن الله تعالى يذهب الخيال عن أماكنها ويمحوها ويُسِيرُهَا سِيرًا،
فيجعلها أي الأرض - قاعاً صمصماً، أي مسطوطة واحدة، ولقدح هو المسوى من الأرض،
والصمصم تأكيد على استواء الأرض يومئذ، ومنه لا باب فيه والأول أولى وإن كان الآخر
مردداً أيضاً ما لا يلزم ولهذا قال: «لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» أي لا يرى في الأرض يومئذ واحداً
ولا رابية ولا مكلفاً منجصاً ولا مرتفعاً قاله ابن عباس وعكرمة راجعون. [ابن كثير ١٦٥/٣]

(٣) «لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٦٨)» [طه] أي أنها مساء مستوية، لا انحراف فيها منه ولا بكرة،
ولا جبل فيها مطلقاً ولا انحناء فيها ولا لارتفاع. [القاموس القويم]

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتي بحران الماء ، لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التى قد لا نرها العين المجردة

ومى يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه فى قوله

﴿يَوْمَئِذٍ يَقُولُ الْمُدَّاغَىٰ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿٨﴾﴾

هم - إذن - يصفقون بلا اعوجاج ، كما يصفط المجرمون تبعاً لأوامر من يفودهم إلى السجن ، فى ذلة وصفار^(١) ولا ينفقون إلا همساً .
وهو يقول الحق سبحانه

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَنْتَوْنَهَا صِوْجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

والسبب فى صدّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الخيال مُعوجاً ومائلاً ، وأن يُنفروا الناس من الإيمان ليضمّنوا لأنفسهم السلطة الرمنية ويفسدون فى الأرض ؛ لأن مجيء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما يتمتعون به بالفساد

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك -

(١) ﴿يَوْمَئِذٍ يَقُولُ الْمُدَّاغَىٰ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أى يوم القيامة الذى يرون فيه هذا لأحوال والأهوال هيستحيون سارعين إلى الداعي حينما أمروا بدور إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنصح لهم وقال فتادة لا عوج له أى لا يميزون عنه وخشعت سكنت [تفسير ابن كثير ١٦٥/٣]
(٢) خشعت الأصوات - حفت وهلات ، كتابة عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة [القاموس القويم - ١٩٤/١]

(٣) الصغار (بمعنى الصغار المشددة) الخصب فى هذا المعنى [لسان العرب مادة صغر]

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ^(١) فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصِرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أى . برهنت على أنه ممتنع
عن الأمر وغير قادر عليه

وقد تجلّى الإعجاز - على سبيل المثال - فى عجر هؤلاء الذين أنكروا
أن القرآن معجزة أن باتى نأية من مثله

والمعجز فى الأرض هو من لا تقدر عليه.

ويبين لنا الحق سبحانه فى هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يعجزون الله
فى الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من ألم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من
أحدثه الريح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من عرق ، وإذا
انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولى أو نصير من دون الله : لأن الولي هو
القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قُرب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نصح عليك من
مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، فعى قوته سياح
لك ، وإن كان عباً ، فعناه ينضج عليك ، وإن كان غافلاً فأفادك بعلمه ،
وإن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلو
موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

(١) أعجزه جعله عاجزاً عن بده رأيه منه ، فلم يقدر عليه قال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ لَا يَعْجِزُونَ ﴾ (٥٠)

[لأنفسهم] أى لا يعجزون الله إذركهم وتعذيبهم وأخذهم بسنوبهم ، فلن يفلحوا ، وما لى تعالى

ولا تعصم الذين كفروا معجزين فى الأرض ومازاهم النار (٥٧) [البر] [الفاعوس العزم - ٧ / ٢]

والولى هو انصبر أيضاً ، لأنك أول ما تستصرخ سيأتى لك الفرب منك
وهؤلاء الدين يصدون عن سبيل الله لن يجدوا ولياً ولا نصيراً فى الآخرة -
وإن وحدوه فى الدنيا - لأن كل إنسان فى الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنها تَذَهَلٌ ^(١) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ
حَمْلَهَا وَتَرى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ^(٢) ﴾
[الحج]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُهَا النَّاسُ أَتَقُوى رَبَّكُمْ وَخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزى وَاللهُ عَنْ وَلَدِهِ
وَلَا مَوْتَةٍ هُوَ جَانِبٌ ^(٣) عَنِ وَادِيهِ شَيْئًا ^(٤) . ﴾
[النمل]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَمُزُّ أُنثَرَةٌ مِنْ أَخِيهِ ^(٥) وَأُمُّهُ وَأُخِيهِ ^(٦) وَصَاحِبَتُهُ رَبِّهَ ^(٧) لَكُلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْهَى ^(٨) ﴾
[عبس]

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعْجِزُون الله فى
الأرض ، ولا يجدون الولى أو النصير فى الآخرة ، بل :

﴿ يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. ^(٩) ﴾
[هود]

(١) تذهل : نفس عما ترضعه ، كناية عن شدة الهول والفرع والذهول عن الشيء - تركه عن عمد أو سهلة
عنه وسبيله لتسهل [سور العرب : مائة : ذهل]

(٢) حار : اسم فاعل من تعس حرى وجرى عنه : قصى الحق بزيادة عنه أو كفى بدلائب هو أمر وقار
تعالى ﴿ راقبوا يوماً لا تعزى نفس عن نفس شيئا . ﴾ [الفرقة]

ن لا تعس ولا نفس : وأمراد بقوله تعالى ﴿ وخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود فم جار عن
والده شيئاً ^(٣٠) ﴾ [النمل] أى أن كلاً منها غير دافع عن الآخر شيئاً من العذاب [تفسير من
المؤيد] بتصرف

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٠

ومن مهم الضَّعْفُ على أنه الشيء يصير مرتين ، ونظن أن في ذلك قوة ، ونقول لا ؛ لأن الـدى يأتي ليسد الشيء الأول ويشمع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيفاً .

إذن : فالْبَصَافَةُ هي التي تظهر ضعف الشيء الذي يحتاج إلى ما يدعمه .
وَمُضَاعَفَةُ الْعَذَابِ أمر مطلق لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلالاً لغيرهم
وقول الحق سبحانه :

﴿ يُصَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۖ ﴾ (٢٠)

[هود]

لا يتناقض مع قوله الحق :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ (١٦٦)

[الأنعام]

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله لس لهم ووزر واحد ، بل لهم ووزران وزر الضلال في ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم
وهناك آية تقول :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ۝ (٦٨) يُصَاعَفُ بِهِ الْعَذَابُ ۖ ۝ (٦٩) ﴾

[الفرقان]

أي . أن مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ مُضَاعَفَةً لِلْعَذَابِ . . لماذا ؟

(١) وزر الشيء يوزره وزراً حملاً وبأنى في لأحمال الضيفه ويستعار بالدنوب والمراد بعمره تعالى
﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (١٦٦) [الأنعام] أي لا تحمل نفس دين نفس أخرى [العاموس العويم]

(٢) ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً أي أن من يفعل تلك الذنوب والآثام يلقى جرماً عليه ويعاقب عليه
ر [أنهم من ما بهي الله تعالى عنه [العاموس العويم]

لأنه كان أسوة لغيره في أن يرتكب نفس الجرم .

واحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك يجد الحق سبحانه وتعالى يحص علي أن يرى المؤمنون من ارتكب الجرم لحظة العتاب ، مثلما يقول سبحانه في الرنا

﴿ .. وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠) [النور]

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففي ذلك تحذير من ارتكاب الجرم ، وحد من وقوع الجرائم

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صدوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريعتين .

أولاهما ضلالهم

والثانية إضلالهم لغيرهم

وبذلك تجد بعضاً من الذين أضلوا يقولون يوم القيامة :

﴿ .. رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ اضْلَلْنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْسَانِنَا لِيَكُونَا مِنِ الْآسَفِينَ ﴾ (٢١) [فصل]

ويقولون أيضاً :

﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ فاضلونا السبيلاً ﴿ ٢٢ ﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَظِيمِ لَعَنَّا كَثِيرًا ﴿ ٢٣ ﴾ [الأحراب]

(١) طائفة جماعة او فرقة من الناس ذهب الإمام مالك إلى أن الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفي شهادة في الرب إلا أربعة شهداء فصاعداً وبه قال الشافعي ومالك ربيعة عيسى ومالك الحليس البصري عشرة انظر [ابن كثير (٢/٢٦٢)]

(٢) لسادات والكبراء ، فان طوائف السادات هم أشراف القوم وعظماؤهم والكبراء هم العلماء قاله ابن كثير في تفسيره (٢/٢٦٩) وعراه لابن أبي حاتم

مها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاحتير ، ولكنها سوف تُستعمل كوسيلة إيضاح لميزان العدالة ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ وما كانوا يصرون ﴿٢﴾

[مرد]

أى : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول ﷺ ، ولا استطاعوا الاستمادة من أبصارهم لبروا آيات الله سبحانه وتعالى في الكون ، فكأنهم صُمُّ عُمى ، أو يضاعف لهم انعداد مدة استطاعتهم السمع والابصار .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ . ﴿٣٨﴾

[مريم]

أى . أن سمعهم وأبصارهم سيكون سليمة وجيدة في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَخَسِرَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿٤١﴾

(١) السمع حسن الأذن ، ويطلق على الأذن ، وعلى الأذان ، بلفظه لأنه مصدر . وقال تعالى ﴿ حَسْبُ اللَّهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ وعنى أبصارهم إشارة ﴿٥٧﴾ [البقرة] أى . حَسْبُ عَلَى أَدْلِهِمْ فَلَا تَسْمَعُ ، ويراد أنهم يسمعون ولا يفهمون [الانعام من القويم] .

(٢) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ . فعن تعجب من "سمع" ومن "أبصر" أى ما أدق سمعهم وبصرهم ، وما أعجب شأنهم يوم القيامة ، إذ يرى كل أعماله في الدنيا ، ويسمع كل ما قاله في لحظات يشهد على نفسه [الانعام من القويم]

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٤﴾ ١٣

إِنَّهُمْ حَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ نَظَّمُوا نَفْسَهُمْ وَإِعْطَاهَا شَهْوَةً عَاجِلَةً رَجَعَهَا فَلِلَّ ، أَحْذَرُوا عَذَاباً آخِلاً وَمِنْهُ جَالِدٌ .

وفى هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على احتلال الموارين .
وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك .

وظلم النفس يعنى أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً آخِلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَصَلَ "عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" ﴾ (٦٤)

[هود]

أى . لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الدين عدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستفيدوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٧٤)

[التوبة]

وكذلك هؤلاء الآلهة المصودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى يعرض مدرستهم على الصبره ، فسلت الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً

وقول الحق سبحانه . ﴿ وَصَلَ عَنْهُمْ . ﴾ (٦٤)

[هود]

أى غاب عنهم وقاه عنهم .

(١) وصل لكافر : غاب عن الحاجة المقتضى ، وعذله عن الطريق المستقيم ولم يعرفه الحق والضلال السيان والضياع ؛ وصل الشيء : حتى وعاد ، فهو فعل لازم وصبر : استقر ، طريق : م يعرفه فهو متعدي [القاموس للزوم : بتصرف]

[عود]

وقوله سبحانه: ﴿ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٦١)

أى: ما كانوا يدعونه كذباً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ (٦٢)

واختلف العلماء فى معنى كلمة ﴿ لا جرم ﴾ ، والمعنى العام حين تسمع كلمة ﴿ لا جرم ﴾ أى: حق وثابت ، أو لا بد من حصول شيء محدد.

وحسب يقول الحق سبحانه

[الحل]

﴿ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ ﴾ (٦٢)

أى: حَقٌّ وثبت أن لهم النار ؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال ، وتلك لأعمال مقدمة بين يدي عذابهم ، فحين نسمع ﴿ لا جرم ﴾ ومعها العمل لذى ارتكبه ، تثق فى أنه يحق على الله سبحانه - أن يعذبهم.

وقال بعض العلماء^(١) : إن معنى : ﴿ لا جرم ﴾ حق وثبت

وقال آخرون^(٢) : إن معنى ﴿ لا جرم ﴾ هو لا بد ولا مفر.

(١) لا جرم لا معاملة ولا بد ، ونحو ذلك إلى معنى القسم فصارت عبارة قولها حَقًّا وهي ما يعنى «حقاً» وقد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع:

الأول: سورة هود - آية ٦٢ وهي التى يعهد لتفسيرها هنا

الثاني: ﴿ لا جرم أن الله يقيم ما يشرؤون وما يفلتون إِنْهُ لَا يَهْدِي الْمَشْكُورِينَ ﴾ (٢٢) [النحل]

الثالث: ﴿ لا جرم أن لهم النار وأنهم مَنقُطُونَ ﴾ (٦٢) [النحل]

الرابع: ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٦٠) [النحل]

الخامس: ﴿ لا جرم أنما تدعوني إليه تيسر له ذخرة فى الدنيا والآخرة ﴾ (١١٥) [عنبر]

(٢) قال الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وسيبويه : « لا » و« جرم » عندهما كلمة واحدة ، وذاته عندهما من

موجب رفع وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد . انظر تفسير القرطبي (٢/٣٣٨).

(٣) قال المهدوى وعن الخليل أيضاً أن معناه لا بد ولا محالة . وهو قول الفراء أيضاً ذكره التعليل انظر

تفسير القرطبي (٤/٣٣٨)

والمعيّن متقيان لأن انتفاء الدُّبّة ^(١) يدل على أنها نائمة

وكأن يحب على العلماء أن يبحثوا في مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هي «الحرم» ، والحرم : هو القطع ^(٢) ، ويقال جرم يده ، أى : قطع يده

وقول الحق سبحانه هنا

﴿ لا حرم أنهم في الآخرة هم الأحرار ﴾ (٢١) [هود]

أى لا قطع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شىء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن يألوا هذا الوعيد ، وهكذا التقى المعنى بـ «لا بد» .

دون ساعة نسمع كلمة «لا جرم» ، أى . ثبوت ، أو لا بد من حدوث الوعيد

وأيضاً تجد كلمة «الحرمة» مأخوذة من «الحرم» ، وهى قطع تاموس مستقيم ، فعين تقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا تاموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأى جريمة هى قطع للمألوف الذى يحبا عليه الناس .

وأيضاً يمان حرم ^(٣) الشىء أى : اكتسب شره ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال من الناس من هو «جارم» وهى اسم فاعل من افعل «حرم» ، مثل كلمة «كاتب» من الفعل «كتب» و«محروم عليه» وهى اسم مفعول ، مثلها مثل «مكروب» .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد فى لنظام ، فهو لاء الذين افتروا على الله وطلّموا وصدروا عن سبيل الله ، فلا حريمة فى أن يعذبهم الله بالنار

(١) اليد . التصحيح من كل شىء . ولا يدبته . لا ستر [التصحيح الوسيط]

(٢) الجرمه . ما قطع من البسر (النمر) . [التصحيح الوسيط]

(٣) جرم شىء . جرمأ . قطعه وعذب على فعل الشر . يقال سجد أدب وحى جناحه . ويجرم اللان كسبه من أى وجه . ويجرمون جمده على فعل شر أو دس أو جرم . قال تعالى . ﴿ ولا يعزمتكم شتان قوم على ألا تعدوا . ﴾ (٥) [المائدة] أى لا يحسبكم بعض قوم على عدم العدول .

ومثل هذه العقوبة ليست حريمه ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ؛ بل هي منع للجريمة^(١)

وهكذا تلتقى المعنى كلها ، فحين نقول ﴿لَا جَرَمَ﴾ بذلك يعنى أنه لا جريمة في الجزاء ؛ لأن الجريمة هي لأثم العظيمة التي ارتكبوها

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا...﴾ (٤)

[الشورى]

وقد سماه الحق سيئة ؛ لأنها تسيء إلى المجتمع ، أو تسيء إلى الفرد نفسه .

ولهذا يقول الحق سبحانه

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ لِعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ (١٢٦)

[النحل]

وهكذا نجد أن هناك معنى متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : ﴿لَا جَرَمَ﴾ ، فهي تعنى : لا قطع لقول الله في أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حتى وثقت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من حق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم

ويقول الحق سبحانه

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾ (٢٦)

[هود]

وكلمة (الآخسرون) جمع «أخسر»^(٢) وهي أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة.

(١) ولست نال سبحانه ﴿ولكم في القصص حياة يا أيها الذين آمنوا لعلكم تحذرون﴾ (٢٦) [البقرة] قال ابن كثير

في تفسيره (٢١١/٦) : «واللهم القائل أنه يقتل تكف عن صيحه ، فكان في ذلك حياة للنفس نال

أبو العالبيه جعل الله القصص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه معاناة أن يقتل»

(٢) أخسر - صيغة أفعل التفضيل - ونجد المألوفة هي لمشي ، أي أكثر وأشد خساراً [راجع - لسان

العرب - مادة خسر]

والخسارة في أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً^(١) لو اُخذ ، كأن يشتري شيئاً بخمسة دروس وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة دروس ، لكنه باعها بثلاثة دروس فقط ، فبعد أن كان يرغب في الزيادة ، باع الشيء عما يتقص عن قيمته الأصلية .

ومن يفعل ذلك يسمى «حاسراً» ، والخسارة في الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر في صفقة قد يربح في صفقة أخرى .

ولنفترض أنه قد خسر في كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهي فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۖ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٤) [الكهف]

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً احكم عليهم :

﴿...أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١٥) [المرم]

(١) الخطف وللجاجة أحد الشيء واجترافه وجحف شدء الحرف والإجحاف الظلم الشديد [انظر سائر العرب مادة جنح]

(٢) أنباء بالشيء ، وبيانه أخيره به وذكر له قصته والآخر ، أو الخبر ذو الشأن والقصة ذات الابل والإباء أيضاً الحديث ، ومنه قوله تعالى ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحجر] أي حدثهم [انعام مكيه ٢٠٠/٢٠٠]

(٣) الآية صمد في كل من عبد الله على غير طريقه مرمية بحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو محطى ، وعمله مردود ، فحدثهم يعتقدون أنهم على شيء وأنهم يقولون محبون ، وهذا مثل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا حَلَّاهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَجَدَ اللَّهُ عَذَابَهُمْ فَرَقًا هَاسِبًا﴾ [التوبة] [٣٨] [الزور] [تفسير ابن كثير ١٠٧/٣] [تصرف]

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة .

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقاييس لهؤلاء ، وفي ذلك فيص
من الإناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأمس أن
تأخذ الحكم المقاييس على الشيء المقابل .

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ ﴾ [الأنعام]

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفجار ، فيقول الحق سبحانه

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾ [الأنعام]

وهذا التقابل يعطى بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين
البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار .

ويأتي الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ،
فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح .

فيقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٣ ﴾

(١) الأبرار : جمع برّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان والبار هو الذي يبر
والديه فيحسن إليهما [لسان العرب - مادة بر] يتصرف

(٢) الفجار : جمع فاجر ، وهو المنبت في المعاصي ، غير مكثوث ولا مبالٍ ، وهو أيضاً من بالغ في
العصيان وجهريه [القاموس القريم ٢ / ٧٣] تصرف .

(٣) أخبتوا إلى ربهم : تواضعوا وخضعوا ، صاروا إلى الطريق المستقيم المظنن الواسع وقال تعالى
﴿ وَخَرُّوا سُجَّدًا ۝٢٤ ﴾ [الحج] أي الخاضعين واخبت المكان الواسع المظنن من الأرض
[القاموس القريم] .

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدي^(١)، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود، وياتزم بالمسيح الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلق العقاب؛ لأن عبادة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح

لذلك بحمد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤)﴾

[الحجرات]

أي: اتبعتم ظاهر الإسلام

وهكذا نعرف أنه يوحد مُتَيَقِّنٌ بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود، وأن الرسول ﷺ مُبَلِّغٌ عن الله عز وجل؛ لكن العمل الذي يقوم به الإنسان هو الفاصل بين مؤمنه المؤمن، ومُؤْمِنِهِ المعلم.

فالذي يُحسن العمل هو مؤمن، أب من يؤدي العمل بتكاسل وتساع لظواهر الدين، فهو المسلم، وكلاهما يختلف عن المنافق الذي يدعى لحماس إلى أداء العبادات، لكنه يُمَكِّرُ وَيُتِّتُ^(٢) العداء للإسلام الذي لا يؤمن به

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صرف الصلاة، وكانوا مع هذا يكتُمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبي ﷺ

(١) فإن ابن منظور في التيسار (مادة عقد) «اعتقد كما يلقبه، وبس له معمود، أي عمد رأى دس حديث أن رجلاً كان يبيع وفي عنقه خضعة، أي في رأيه ونظره في مصالح نفسه» فالإيمان أمر يعتمد القلب.

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذي لا يداحضه شك بالأمور العينية من إيمان بالله واليوم الآخر الكتب والرسل بما لا يراء الناس، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهري بأحكام الدين من صلاة وصوم وغيرهما وإن لم يكن في القلب إيمان. فالإيمان وحسبه أمر يعتمد الله من قلب كل عبد

(٣) بُتُّ أمرًا دُبْرُهُ من حياء، كأنه دُبْرُهُ من الليل ليحصد يقول تعالى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَأُوا مِنْكَ بُتُّ طَاعَتِهِمْ غَيْرَ قُضِيَ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْهِنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)﴾

[النساء]: {القد موصى العويم} ٨٩/١

وهما يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ ۝٢٣ ﴾ [هود]

هذا القول يبيِّن لنا أن معيار الإيمان يتمُّ يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال . رَبُّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَانْكَسَارًا ، حَبِرَ مِنْ عِبَادِهِ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْرَارًا .

أى أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار "

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أى : خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدُّون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم فى الأجر بماقُبهم الله ، لا بل يؤدُّون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله

وأصل الكلمة من «الخبت» وهى الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة ، وكذلك الخبت فى الإيمان .

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم .

﴿ ۝٢٤ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [هود]

أى : الملازمون لها ، وحنودهم فى الجنة يعنى أنهم يقيمون فى النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذى قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب ^(١) ، لأن الإنسان فى الدنيا عرصة للأغيار ، أما فى الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً .

(١) الاستكبار : التعاطف والتعجيز على الناس وحملهم بغير الحق ، وصيغة استعمل تشير بتكلف وإدعاء التمسك ، فلسكبر يدعى أو يظن فى نفسه أنه كبير .

(٢) السلب : هو سلب نعمة من الإنسان

وهكذا عرّض الحق سبحانه حال الفريقين الفريق الذي ظلم نفسه بافتراء الكذب على الله ، وصدوا عن سبيل الله ، واسعوا الأمر عوجاً ، هزلأ لن يُعجزوا الله ، وليس لهم أولياء يحموهم من العذاب المصاعف

وهم الذين حسروا أنفسهم ، ولن يجدوا عرواً من الآلهة اتى عبدوها من دون الله ، ولا شيء يقادر على أن يعصل بينهم وبين العذاب ، وهم الأحسرون .

أما الفريق الثانى فهم الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة بحشوع وحيثية ومحبة لله سبحانه وتعالى ، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها

إذن : لكل فريق مسكنه وعاقبه .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

والفريقان كما من نحدثا صهما من قل .

وكلمة «الفريق» تعنى : جماعة يلتفون عند عاية وهدف واحد ، مثلاً يقول : فريق كرة لقدم أو غيره من الفرق ، فهى جماعات ، وكل جماعة منها لها هدف يجمعها .

ونحن نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٧) [التورى]

(١) أعجزه جعله عاجراً عن ربه ، وأقلب له فلم يندر عليه . قال تعالى ﴿ ولا يحسن الذين كفروا سبقاً ،

إنهم لا يعجزون ﴾ [الأعداء] أى لا يعجزون الله إذ كهم ويعدوهم وأعدوهم يسويهم فليس يفلتوا .

(٢) السميع : المراد شمول المنفعة لشرعية يقول تعالى ﴿ وإنا لأرحمهم سمعرت ﴾ [التكوير] أى

أوقدت بشده ويراد بالسميع : ما رجعهم ويقول تعالى ﴿ ما أولاهم جهنم كلما خبت ربهم سمعوا

﴿ [الإسراء] أى : ردتهم فداراً حاجة موقلة مشتتة

وكلمه ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ جاءت في الآية التي نحن بصدد حواطرن عنها ؛ لأن كل فرقة تصمم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المثل بسَيِّدَيِ الحواس الإدراكية في الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسبوقة ، أو مرئية ، ثم تكون لدى الإنسان قدرة الاستبطان^(١) والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين .

وبذلك قال لت الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النمل]

إذن : فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها نعمة ، هي المعلومات وتمحيصها^(٢) ، فالحق سبحانه يستحق الشكر^(٣) عليها .

وحيث نعلم أن الطفرات^(٤) الحاصرية وارتقاعات العلم ، إنما تأتي من سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية

(١) الاستنباط استخراج الماء من باطن الأرض ومن المنجاذ استنبط الرأي الصحيح استخرجه يبحث وفكره كمن يستخرج ماء من البئر يقول تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَسَى أَنْ يَسْتَظْهِرُوا مِنْهُمْ (٥٢)﴾ [النساء]

(٢) تمحيص الشيء : اختياره وفحصه بدلة [المعجم الوسيط] بغيرف . وقال تعالى ﴿وَلْيُمْلِكِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُهَاجِرِ الْكَافِرِينَ (٢٨)﴾ [آل عمران] أي يظهرهم ويخلصهم من العيوب ومن المنافقين ويقتضي على الكافرين وقال تعالى ﴿وَلْيُمْلِكِ مَا فِي قُلُوبِكُمْ (٥٩)﴾ [آل عمران] أي يظهر الإيمان الذي في قلوبهم من النور والشكوك [انقاروس القويم]

(٣) الشكر مقدمة النعمة بالمعروف والفعل والنية ، هيئ على المنعم بالمنة ، ويديب نفسه على طاعه ويعتقد أنه موليا

(٤) طرب : جمع طرفة ، وهي وثبة في ارتفاع . ولد طمر يظهر : وثب في ارتفاع . [انظر لسان العرب]

ومثال ذلك . هو من رأى إنباء طعام وله عطاء ، وكان لإنباء ماء يعلى ،
فارتفع الغطاء عن الإناء .

هذا الإنسان اكتشف طاقة البحار ، واستنبط أن البحار يحتاج حيّزاً أكبر
من حيز السائل الموجود في الإناء ، بذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى
هذا لاكتشافه ليطور كثيراً من أوجه الحياة .

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستطع منه شيئاً
لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية .

وهنا يقول الحق سبحانه .

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا ۚ ﴾ (٢٤)

ومن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير
منه ، ولا يمكن أن يستوى الأعمى والبصير ، أو الأصم من يسمع

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان
السامع أو البصير لهذه الآية ، وليفصل بحكم يُذكره بالفارق بين الذي
يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطمعى
ألا يستويان

لذلك ينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : ألا تعبرون بوجود هذه الأشياء

ويعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قابله لك .

﴿ .. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦)

[الحج]

أى : أن الإنسان قد يكون مبصراً ، أو له أدن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله من النقاط محاهيل الأشياء .

وبعد أن بين الحق سبحانه وصفاً كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل مهما فى الغية ، والصراع الذى بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم لسلام .

ويقول الحق سبحانه فى بعض من موضع القرآن الكريم ، وفى كل موضع لقطات من قصة أى رسول ، والنقطة التى توحيد فى سورة قد تختلف عن النقطة التى فى سورة أخرى

ومثال ذلك : أن الحق سبحانه قد تكلم فى سورة يونس عن موح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وما - فى سورة هود - تأتى مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥)

والآية توضح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرسول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهى لبلاغ ، فيقول :

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٥)

ويجب ملحظ أن همزة (إن) فى إحدى قرأتى الآية تكون مكسورة ، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة ^(١) ، أما فى القراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه

(١) نذير الرسول المدبر بالعذاب وأنذره خبره ، وأنذره شيئاً أحله إياه وعرفه به وما يوتق عليه من ضرر من عبدة تكفى لتخلفته أى خوفه منه ليستعد منه قال تعالى ﴿ إِنَّمَا أَنْذَرْتُكُمْ عَذَاباً قَرِيباً

(٢) [الناس] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَظَنَّا ﴾ [الأنعام] وقال تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَلَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحج] [القاموس القوم ٢/ ٢٥٨] بتصرف

(٢) رواية الشيخ محمد بن كثير وأبو عمرو والنكاشى قاله القرطبى بن يمينه (٤١/ ٣٣٤٠) أى أرسلناه بأنى نكم بنذر مبين

السلام قد جاء بالرسالة مبلع قومه وقال:

﴿.. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥)﴾ [هود]

وأما في القراءة الأخرى بالفتح فتعني أد الرسالة هي .

﴿.. أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥)﴾ [هود]

فكان انقراءة الأولى بمعنى الرواية عن قصة السلاع ، والقراءة الثانية تمحيد
مضمون الرسالة : ﴿.. أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥)﴾ [هود]

والقراءة لأوى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير في القرآن ، مثل
قوله تعالى :

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ.. (٢٤)﴾ [الرحمن]

وهذا يعني أن الملائكة يدخلون على المؤمنين في الجنة من كل باب (٢٣) ،
وساعة الدخول يقول للملائكة

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ.. (٢٤)﴾ [الرعد]

(١) الصمير (عليهم) حاد على نولى الأبواب الذين وصعهم ويهم بصعاب استحقاقها دخول جنات
عبد حال تعالى ﴿الله يعلم اسمك أنزل إليك من ذلك الحق كمن هو أغشى إنما يتذكر أولوا الأبواب (١٩)
الذين يرفون بعد الله ولا يتقصرون الحيات (٢٠) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون
سوء الحساب (٢١) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ولم يردون
بالجنة المسجلة أولئك لهم غنى الدار (٢٢)﴾ [الرعد]

(٢) للجنة أبواب ، عدها بعض العلماء ثمانية أبواب ، استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ « من أتاكم منكم من
أحد يسوعاً فسلطع أو فسخ الوضوء ثم يقول أشهد إلا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، إلا فحبه أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٤) من
محدثات عليه بن عاصم .

وقول نوح عليه السلام . ﴿... إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٥) [هود]

نعلم منه أن النذير - كما قلنا من قبل - هو من يخبر بشراً لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبي الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال في الآية التي قبلها :

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ (٢٤) [هود]

أى أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله نذير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئة والفريق الكافر الذى يستحق الإنذار ، يأتى لهم الحق سبحانه بنص الإنذار فى قوله تعالى : (٢٥)

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٦)

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك محده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذى يربطه بهم رباط جامع قوى وكذلك بمجد الحق سبحانه يُحسُّ قلوب المرسل إليهم لعلهم يحسنوا استقبال الرسول

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه .

﴿وَلَأَنِّي عَادُ أَهْلَهُمْ هُودًا﴾ (٦٥) [الأعراف]

ولأن الرسول أخ لهم فمن ينشئهم أو يخذلهم

(١) وذلك أنهم كانوا يعبدون مع الله سبحانه أصناماً ، هى التى ورد ذكرها فى سورة نوح آية ٢٣ ﴿وَقَالُوا لَا تَدْرِكُهُمُ الْهَيْكَمُ وَلَا تُغْنِيهِمْ الْفُلُ وَلَا تَسْلُبُ أَهْلَهُمُ الْأَمْوَالَ وَلَا تَسْلُبُ أَهْلَهُمُ الْأَنْفُسَ وَلَا تَهْتِكُهُمُ الْكَلِمَةُ﴾ [نوح] وهم أسماء رجال صالحين لما ماتوا عمل الناس على هيسهم أصناماً تذكرهم بأعمالهم ، ثم تقدم الرمن فأصبحوا يعبدونها من دون الله [انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٢٦]

واستفعل الملا من قوم نوح الأمر عما يقوله لحق سبحانه عنهم

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا فَرَّكَ إِلَّا بَشْرًا
مِثْلُنَا وَمَا فَرَّكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِآبَادِي
الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ



والملا - كما نعلم - هم وحوه القوم ، وهم السادة الذين يملأون العيود
مهانة ، ويتصدرون أى مجلس

وهناك مثل شعبي فى بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول : «فلان يملأ
لعين» .

أى أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارعة ، فلا جرم فى العين يرى غيره .
ويقال أيضاً : «فلان قيّد السواظر» أى : أنه إذا ظهر تقيّد به كل
السواظر ، فلا تلتفت إلى سواء ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت
فيه هرايا تمهدب العيون إليه بحيث لا تنحول عنه ،

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة ، أو الدائرة الأولى التى حول المركز ،
فحسب كل مركز هناك دوائر ، والملا هم الدائرة الأولى ، ثم تليهم دائرة
ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، والأرتك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من
مركز ، فتتشعب الدوائر .

ورد الدين يكرّون الملا على سيدنا نوح قائلين :

(١) الملا أشرف القوم أو جميعهم

(٢) الذين هم أرائكة أى أفقرنا وأحق الناس فى نظرنا

بادئ الرأى : ظاهرة الذى لا رويه فيه ، أى : رأى سطحي غير متعمق

وقرى : ببدى : الرأى : أى : به الرأى وله من غير رويه أيضاً [القاموس المبرور]

[هود]

﴿عَا بَرَآكَ إِلَّا بِشْرًا مِّثْلَنَا . . (٢٧)﴾

أى : أنه لا توجد لك ميرة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذى سودك ؟
علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دلس عباء : لأن الرسول ما دام قد جاء من بشر ، فسلوكه
يكون أسوة ، وقوله يصحح للاتباع ، ولزكك الرسول من غير ليشر لكان
من حق لقوم أن يعترضوا ؛ لأنهم لن يستطيعوا اتحاد الملاك (٢٧) أسوة
لهم

ولذلك بين الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا
رُّسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء]

وبجاء الرد منه سبحانه بأن قل لهم :

﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرَيْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
مَلَكًَا رُّسُولًا (٩٥)﴾ [الإسراء]

إذن فالرسول إنما يجيء مُبَلِّغٌ مهج وأسوة (٢٧) ملوك ، فإذا لم يكن من
جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط

(١) سودك علينا جعل لك السيادة والرياسة على قدامنا ونهنا

(٢) إذ كيف يتحدرون الملاك أسوة لهم ، وهو من جنس غير جنسهم وله أسكاهم وقدرات تعطف من
مدراتهم ، فلا يصح الاحتجاج بأفعال الملائكة على هيرهم من الأجاس . ولذلك عدهم قال مشركو
مكة ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ فَقُلْتُ لِيُؤْمِنُوا بِهِ لَسَاءَ لِمُتَكِبِينَ (١٠٨)﴾ [الأنعام] [تصرف من تفسير ابن كثير ١٢٤ / ٢ .
لجنداه رجلاً وللبنا عنهم فابنهم (٩٤)﴾ [الأنعام] [تصرف من تفسير ابن كثير ١٢٤ / ٢ .

(٣) الأسوة الفلوة وراذيلها القذوة الحسة التى يبعى على الجميع الاقتداء بها قال تعالى ﴿لَقَدْ
كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٣٢)﴾ [الأحزاب] .

ومثال ذلك أنت حين ترى الأسد في أي حديقة من حدائق الحيوان ،
يصول ويحول ، ويأكل اللحم النيء المقدم له من الخارس ، أتحدثك نفسك أن
تفعل مثله؟ . صعباً لا ، لكك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه ،
فنهضك قد تحدثك أن تكون مثله

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الحسن ، ولذلك قلنا : إن الأسوة هي
الدليل على إبطال من يدعى الألوهية لغير "أولعيسى عليهما السلام

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملائكة من قوم نوح

﴿ وما براك أثبتك إلا الدين هم أرادنا .. ﴾ (٢٧) [هود]

والأرادل "جمع أرذل" ، مثل قولنا : "أفضل قوم" ، وهي جمع
"أفصل" .

والأردب هو الخسيس الذي في أعين الناس ورذال المال أي : رديئه .
ورذال كل شيء هو نهاته

ونرى في الريف أثناء مواسم جمع "الفطر" عملية "هرر" القطن ، يقوم بها
صغار البس والبنات ، فيفصلون لقطن النظيف ، عن اللور الذي لم يتم فتح

(١) عير هو رجل صالح من بني إسرائيل جعله اليهود أباً لله وعبدوه لعنه بالنوراة وحفظه بها كما في
الكتب جراً بحرف (القاموس القويم ١٨ / ٢) ، و (تفسير ابن كثير ٣٤٨ / ٢) وهو الذي ورد ذكره
في سورة القدر في قوله تعالى ﴿ أو كان في قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد
موتها فأتته الله مائة عام ثم بعث الله نوحاً قال كم لبثت قال لبث يوم أو بعض يوم قال بل لبث مائة عام فانظر إلى طعامك
وشربك لم يتسنه وتأنظر إلى حمارك ولتجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف نشرها ثم مكسوها لحماً فلب
بئس له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ (٢٧) [القرة]

(٢) رذل الشيء ، ودالورذلة جاز خبيثاً وديلاً ، هورذلة

والأردب تراسم تفصيل جيد لثقله في العبارة ، وما تعالى في سورة الحن ﴿ ومنكم من يؤذني أرذل
العمر ﴾ (٢) [الحن] أي : في الهرم والعمر وقان تعالى ﴿ قالوا أنؤمن لك واشك الأذلول ﴾ (٣) [الشعراء] ، أي : أحسن الناس ، في طرماً وما تعالى ﴿ الذين هم بوائفنا ﴾ [هود] أي
افترها وأحق الناس في نظرية ، [القاموس القويم]

بالشكل المناسب ، لأن اللوزة المصانة عادة ما تعاني من ضمور ، ولم تضج
الصبح الصحيح .

وكذلك يفعل الملاحون في موسم جمع «البح» ، فيحصلون الببح الحيد
عن الببح المعيب

إد: فردال كل شيء هو نهايته .

وقد قال الملا من الكفار من قوم نوح

﴿ وَمَا فَرَأَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا ﴾ (١٧) [هود]

أى . أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم بقاءة المجتمع .

وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم في موضع آخر:

﴿ .. وَأَتْبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ (١٨) [الشعراء]

ولم يتف نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من
لصعاف ، وهم صحايا الإفساد ؛ لأن العوى في المجتمع لا يقره أحد ؛
ولذلك فإنه لا يعاني من ضغوط المفسدين ، أما لصعاف فهم الذين يعانون من
مفسدين ؛ مما يظهر المخلص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا .

ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن
البعض من سادة وأعتياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مشى أبى بكر
الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن
عوف ، رضى الله عنهم .

ولكن الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ،
هؤلاء الذين يشعرون بالعليان في مراحل^(١) لألم بسبب الفساد ، وما إن

(١) المراحل جمع مرجل ، وهو كل ما يطبخ فيه من قدر وغيرها وقيل هو القدر المصنوع من الححاس
خاصة [انظر اللسان مادة رجرج]

يظهر داعية إلى الإصلاح ويريد أن يزعج الفساد ، فيتفرون حوله ويتعاطفون معه ، وإن كانوا غير عبيد ، لكن محكومين بالخير ، فهم يؤمنون علناً برجل الإصلاح ، وإن كانوا عبيداً مملوكين للسلطة ؛ فهم يؤمنون خفية ، ويتحمل القوى منهم الاضطهاد والتعذيب .

إذن : فكل رسول يأتي إنما يأتي في زمن فساد ، وهذا الفساد يتفجع به بعض الناس ؛ وطغيان يعاني منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان . ويأتي الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد ؛ لذلك يتسك به الضعفاء ويفرحون به ، وتلف قلوبهم حوله .

أما المتفجعون بالفساد فيقولون : إن أتباعك هم أراذلنا . وكأن هذا القول طعن في الرسول ، لكنهم أغبياء ؛ لأن هذا القول دليل على ضرورة مجيء الرسول ؛ ليخلص هؤلاء الضعفاء ، ويجيء الرسول ليقود غلبة على فساد الأرض ، ولينهى هذا الفساد .

وهي غلبة تختلف عن غلبة الثائر العادي من الناس ، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد .

لكن آفة "الثائر من البشر شيء واحد ، هي أنه يريد أن يستمر ثائراً ، ولكن الثائر الحق هو الذي ينور ليهدم الفساد ، ثم يهدأ ليبنى الأمجاد ، فلا يسلط السيف على الكل ، ولا يفضل قوماً على قوم ، ولا يدل من طغى عليهم ، ويظلم من طغوا .

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة ؛ لتستقيم الأمور ، وتذهب الأحقاد ، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها ، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها ، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم ؛ فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه .

(١) آفة الشيء : الخطأ الذي فيه ، أو نقصه ، أو عيبه . [راجع : لسان العرب - مادة أرف]

ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملأ قوم نوح :

﴿ وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفِّرُوا ﴾ (٧٧) [هود]

هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحورين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ (٧٧) [هود]

والبادي هو الظاهر ؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى " هي ﴿ بَادِي الرَّأْيِ ﴾ .

أي : بعد بدء الرأي .

والآية هنا تقول :

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ (٧٧) [هود]

أي : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُلقى إلى الإنسان أي شيء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بأمعان في هذا الشيء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتركها وهدوء .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا ، لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقبوا دعوتك وتأملوها ونظروا في عواقبها بتدبر لما آمنوا بها .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٣٤٢/٤) : "يجوز أن يكون «بادي الرأي» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقق أبو عمرو الهمزة فقراً «بادي الرأي» أي أول الرأي ، أي : تتبعوك حين ابتداءوا ينظرون ، ولو آمنوا النظر والفكر لم يتبعوك ، ولا يختلف المعنى هنا بالهمز وترك الهمزة .

ويكشف الحق سبحانه هذا الغيب فيهم ، فقول الملائكة بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر وينمعنوا في دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذي تعقل وتبصر ، وباللسان الذي أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه^(١) .

إذن : فهذا الملائكة الكافر من قوم نوح - عليه السلام - قد حكم بأن الضعفاء أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذين يُقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرين ، فهم الذين يقدمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهي عن طهي الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعفاء تصب عند الغني أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا ترى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثروة - ولو عن طريق الميراث - ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعفاء الذين يعطون الخير من كدهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تنمة السيادة .

(١) هذا من أمثال العرب : للرجل بأصغريه ، وأصغراه قلبه ولسانه . قال ابن منظور في لسان العرب : «معناه : أن الرجل يملأ الأمور ، ويضبطها بجهته ولسانه» .

وحين نمن النظر لوجدنا أن سيادة الثرى أو صاحب الجاه إنما تأتي نتيجة لجهودات من يقال عنهم : إنهم أراذل .

ولم أنهم تخلوا عن الثرى أو صاحب الجاه ، لما استطاع أن يكون سيداً .

ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملائة الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٤٧) [عرد]

وهم - بهذا القول - قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل ، وأنكروا فضل هؤلاء الناس .

ولفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التي تتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ^(١) . ﴾ [الزخرف]

إذن : فالحق سبحانه هو الذي قسم المعيشة ، وآلة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الفنى ، لا ، فليس المرفوع هو الفنى ، بل هو كل ذي موهبة ليست فى سواء .

وما دام مرفوعاً فى مجال فهو سيخدم غيره فيه ، وغيره سيخدمونه فيما رُفِعوا فيه ؛ لأن المسألة أساسها التكامل .

(١) القصة بالقرنين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى القصد بالرجلين ، ذكر ابن كثير هذا الاختلاف ، ثم قال : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان تفسير ابن كثير (١١٧/٤) .

(٢) سخرى : أى : يستخرون بعضهم بعضاً فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا . قال السدى وغيره : (تفسير ابن كثير (١٢٧/٤) ونقل ابن منظور فى اللسان : « سخرى : هيداً وإماء وأجراء » .

راجعته على الأصل وخرج أحاديثه صاحب الفقهيلة الشيخ / محمد المنزوى المشتهر بالأزهر والأساتذ / عادل أبو المعاطي .